فِي ظِلَالِ

الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ

وَمَعَالِم البَيَانِ النَّبَوِيِّ

أَوَّلُ دِرَاسَةٍ

فِكْرِيَّة اجْتِمَاعِيَّة وَأَدَبِيَّة جَمَالِيَّة

مُعَاصِرَة

تَأْلِيفُ

أ. د. نُور الدِّين عِتْر

دَارُ السَّلَامِ

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى
١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

عتر ، نور الدين .
في ظلال الحديث النبوي ومعالم البيان النبوي / تأليف نور الدين عتر . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٣م .
٤٤٨ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٧ ٠٧٢ ٧١٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الحديث - آداب .
٢ - الحديث - بلاغة .
أ - العنوان . ٢٣٣,٢

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيها الناس إني أعطِيت جوامع الكلم، وخواتيمه واختصر لي اختصارًا. وقد أتيتكم بها بيضاء نقية »[1].

حديث شريف

* * *
* *
*

(١) رواه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة: ١/ ٧٤، رقم ١١٥، وعبد الرزاق في المصنف: ٦/ ١١٢، والبيهقي في شعب الإيمان: ٢/ ١٦٠.

للعقول وللضمير

استشعرت الجمال والحكمة والإبداع في هذا الكتاب فانفعلت به مشاعري، فقلت منشدًا:

ظـــلالٌ وارفـــاتٌ كـــلٌّ لـــون لهـــا أحـلـى من الزهـــر النضيـــرِ
تـفـيَّــأْتُ المعـانيَ فـي رُبـــاهـــا فحـصَّــلْــتُ الـدِّرايةَ فـي سطـــورِ
وَجَـدتُ لهـــا معـــالـمَ خـالـداتٍ خِطَـــابـًا للعـقـــول وللضـمـيـــرِ
تجـلَّـى فـيـــه ناتـجُ خـيـر فـكـــرٍ عن الأهـداف من أثـــر البـشـيـــرِ
ومِـنْ بيـن المعالـم وجـهُ حُـسْـنٍ لـه طَـبْـعٌ عـلـــى مَـــرِّ الـدهـورِ
دراسـةُ قـولِ خـيـر الخلـقِ طُـــرًّا لــدى الأدبِ المُـنَـظَّـرِ من خبـيـــرِ
وَمِـــنْ أشكـالِـــه نَـفَـسٌ جـديـدٌ دروسُ الاجـتـمـاع مـــع الحبـــورِ
(فنورُ الدين) فـرعٌ عن (سِرَاجٍ) لــه قَـبَـسٌ مـن القـــمـر المُـنـيـــرِ
بـه كَمُلَـتْ ظـلالُ الشَّـرْعِ بَـحْـرًا تجـلَّـــى فـيــــه إلـهـــامُ القـديـــرِ
(ظـلالُ) كتابِ رَبِّ الناس وجـهٌ وهــذا الظِّـلُّ مــن قـــول النـذيـــرِ
فـتـلـكـم خـيــــرُ أفـيـــاءٍ وظــــلٍّ ونـفـــعٍ للـكـبـيـــرِ وللـصـغـيـــرِ

د. كتبه د. شمس الدين أحمد فوزي

دمشق المحمية ١٥ محرم ١٤٢١هـ
٢٠/ ٤/ ٢٠٠٠م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد للَّه الذي فَضَّل الإنسان بالفصاحة والبيان، وصلَّى اللَّه على النبي الأُمّي الذي وهبه اللَّه من الفصاحة ما ليس لِإنسان، وجعل حديثه تفسيرًا للقرآن، يهتدي به جميع الأنام وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

أما بعد:

فإن هذا الكتاب يقدِّم لك أخي القارئ دراسةً متميزة وفريدة: **إنها مُتَمَيِّزَةٌ وفريدة في الأدب العربي وفي لغتنا العربية،** فإنك طالما استمعتَ أو قرأتَ دراسةً لما أثمرته قرائح العظماء ومواهب الأدباء، في المدح أو الهجاء، أو في الفخر والرثاء، أو في الغزل والغرام، ولم تعتد أن تستمع أو تقرأ دراسة لفصاحة بدائع الحِكَم وجَوامِع الكلم، التي تبني الإنسان، وترفعُ شأنه، والتي جاء بها النبي الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين، سيِّدُنا محمد ﷺ وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، ففتح بها قلوبًا غلفًا، وآذانًا صمًّا، وأصلح دنيانا بأسرها، وهدانا سُبَل السلام والسعادة في أُخْرانا.

وإن هذه الدراسة متميزة كذلك بين دراسات الحديث النبوي نفسه، فقد عُني دارسو الحديث في شروحهم بشرح معاني الحديث، وبيان ما يُستنبط منه من الفوائد العلمية، والأحكام العملية، والتوجيهات التهذيبية، والمواعظ الإيمانية والأخلاقية، والرقائق الوجدانية، وشذرات من الفنون البلاغية، لكنا لا نجد دراسة مفردة تُعْنَى بحديثِ أفْصَحِ ناطقٍ بالضَّادِ من الزاوية البلاغية إلا القليل، مثل (المجازات النبوية) للشَّرِيف الرَّضِي من القدماء، وكتاب (الحديث النبوي من الوِجْهَة البلاغية) للدكتور عز الدين علي السيد، من المعاصرين، الذي جاء كأنه تطبيق لقواعد البلاغة.

لكن لم تتوافر حتى الآن **دراسات تنهج منهج الدراسات الأدبية المعاصرة الحديثة** التي غزت حياتنا اللغوية والأدبية... الأمر الذي جعل مكتبة الدراسات الأدبية مفتقرة - في مجال الدراسة للحديث النبوي - إلى دراسة أدبية معاصرة حديثة.

والحقيقة أننا في حقل الدراسات الأدبية المعاصرة في خصوص أدب البيان النبوي الشريف، **فإننا بحاجة ماسة إلى دراسة أدبية فنية** تجمع بين الموضوعية والأسلوب

العلمي، وتستبعد وجدان الكاتب وعاطفته الدينية، وربما قيل: إن المراجع لذلك غير متوافرة بصورة كافية ولا قريبة من الكفاية، فإننا نرى أن **نتجاوز الزمان فننهل من البلاغة العربية القديمة** والشروح الأدبية للحديث النبوي، **ثم نتجاوز المكان فنأخذ من الثقافة المعاصرة والغربية** ما يوائم الفن السويّ؛ لنكشف بجهد وثقة وإخلاص الجمالَ الفَنِّيَّ في الحديث النَّبويِّ.

إن النظر الموضوعي يقول: إن دراسة أيِّ ناقد أدبي لقصيدة ما تفوق الكثير من دراساتِ المعاصرين لأدب الحديث النبوي، هذه ثُغْرةٌ ينبغي أن تُسدَّ باستفادتنا من مفاتيحَ جماليةٍ معاصرةٍ؛ لذلك فإننا سنبذل الجهد في حدود ما يسمحُ به المقام سالكين طريقة الموضوعية والأسلوب العلمي، لعل هذه الدراسة أن تكون شُعاعًا منيرًا لمن جنَّد نفسه لنصرة السُّنة، وخدمة بلاغتها، وكشفها للعالم في ضوء موضوعية المقاييس الفنية قديمها وحديثها على حدٍّ سواء.

وقد توجهتُ نحو هذه الدراسة منذ كُلِّفتُ بالتدريس في كلية الآداب في جامعة حلب، ثم جامعة دمشق، إلى جانب عملي في كلية الشريعة، ووجدت الحاجة ماسَّة إلى دراسة أدبية للحديث النبوي، نظرًا لإعواز مكتبتنا بل لافتقارها في هذا المضمار، وقد لَقِيَتْ تلك المحاضرات قبولًا واستحسانًا كثيرًا ولله الحمد.

ثم رأيت تعديل هذه المحاضرات فعكفت على إعادة النظر فيها لتكون أدق وأصح وأوفى مما سبق. وقد كان الحديث في كثير مِنْ فِقْراتِ المحاضرات، عَفْوَ البديهة والسَّجِيِّةِ، بقضية اجتماعية أو فكرية تتوارد عَليَّ، فأعالجها أو غير ذلك، وقد أبقيت أكثر ذلك على وضعه، ذكرى لتلك الأيام، ولعله يكون للكتاب طابع متميز بذلك، والأمل بالقارئ الكريم أن يُقدِّر هذا، ولا يعتب لما يراه من آثار ذلك.

وتمتاز هذه الدراسات بأنها أول دراسة للحديث النبوي تُحقِّق تغطية الجانب الأدبي المعاصر الحديث، إلى جانب شرح معاني الحديث، ودراسة الجانب الفكري والاجتماعي؛ لتسهم هذه الدراسة في سدِّ حاجة المثقف عامة، والعربي خاصَّة إلى تذوق هذا اللون الجمالي من الأدب المتميز والمتفوق على كلِّ أدب بشري، كيف وهو يهدي لأعظم هدفٍ، ألا وهو بَعْثُ الأمم من رُقادِها، وهدايتُهَا سبيلَ سعادَتِها في دنياها، والفوزُ بالدرجات العُلا في أخراها.

وقد حَرَصْتُ في اختيار الأحاديث للدراسة على صحتها وثبوتها، ثم راعيت تنوع أغراضها الموضوعية، ومقاصدها الفكرية، وفنونها الأدبية، ففيها قضايا من الإيمان، والمجتمع، والنفس، وفيها فنون من المدح والذم والدين والقصص والخطابة... وهكذا.

وبهذا يجد القارئُ نفسَه في رياض من الإبداع الفني الأدبي للحديث النبوي، مما يَهُزُّ مشاعره، ويغذي فكره، ويصقل ذوقه، ويهدي قلبه، بجمال الفن الأدبي للحديث النبوي، الذي عَزّ اقتفاءُ أسلوبه على فصحاء العرب في القديم والحديث، واجتاز بصفائه حواجز القرون والبيئات، وغدا يُنْشَرُ في عصرنا على اتساع الآفاق، ويُتَرْجَمُ لمختلِفِ اللغات؛ **لتكون هذه الدراسة لَبِنةً في صرح الأدب البَنَّاء**، مَنارةً لسالكي درب هذا الأدب البناء، في عصر كَثُرَ فيه الغُثَاء..!

فهيًّا إخوة الأدب وجماله، وإخوة البيان وكماله إلى بيان أفصح ناطق بالضاد، ننهل من رحيقه، وسلسبيل معينه، ومعانيه؛ لنتزود منه بأصحِّ فكرٍ في أعلى أسلوب وأسمى بيان.

دمشق: رمضان ١٤١٩/ كانون الثاني ١٩٩٩م.

أ. د. نور الدين عتر
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
والحديث وعلومه

لماذا ندرس الأدب النبوي؟

إنا نهدف في ضوء هذه الدراسة أن نحقق أهدافًا جليلة، لا تحققها أية دراسة لأي أدب بشري، وذلك من جوانب متعددة، نذكر منها ما يأتي:

١ - إن هذه الدراسة الأدبية للحديث النبوي تجعلنا نقف على أسرار البُنية اللغوية والبيانية لهذا البيان الفذّ في بيان بني البشر، الذي أجراه اللّه على لسان نبيِّه، وفَجَّره حكمةً من ينبوع قلبه؛ ليشرح مَبَانيَ كتاب اللّه ومعانيه، ويفصِّل مقاصده ومَرَامِيَه. مما جعل للحديث النبوي الموقع الخطير الرفيع في اللغة العربية خاصة، واللغات والآداب العالمية عامة، ولما له من الأثر العظيم التاريخي والحضاري في العروبة والإسلام، وفي جميع الأنام، مما يجعل دراسة الجانب الأدبي والبياني في الحديث تحقِّق أهدافًا جليلة على غاية من الأهمية.

٢ - الوقوف على خصوصية الفصاحة والبيان التي أوتيها النبي ﷺ، وما كان في لغته وبيانه من الفصاحة والقوة، والسلاسة والدقة، مع الغاية في إيجاز اللفظ ووضوح المعنى، كما حدَّث بذلك وتَمَدَّح بقوله في الحديث الصحيح: « **وأُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ** »[١].

٣ - القدرة اللغوية والبيانية التي امتاز بها الحديث: إن نصوص الأحاديث جاءت - بلا مراء عند أهل العلم باللغة - بأفصح الألفاظ، وأجمل التراكيب والعبارات، وذلك مما لا يشك أحد في أهميته للدارس والمتأدب؛ لتصحيح لغته وتهذيب أدائه، والارتقاء ببيانه عربيًّا كان أو غير عربي، مما يحتم على دارس العربية المريد لإتقانها، أو القاصد لتذوق جمالها، المستمتع بمحاسنها أن يُعْنَى غاية العناية بدراسة الحديث النبوي لغةً وأدبًا وبلاغةً وأسلوبًا، فإنه لا يجد في البيان البشري ما يفوقه، وإن كان يجد شذرات وومضات قد ترقى إليه وتضاهيه.

٤ - الكشف عن وسائل وطرقٍ في التجديد البياني: إن الحديث النبوي أتى بأساليب وعبارات مبتكرة في البيان، لم يسبق إليها أحد، ولم يدَّعِها أحد، ولا شك أن دراستها

(١) رواه مسلم، رقم (١١٠٧) في أوائل أحاديث كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

تساعد على اكتشاف طرق التجديد، ومتابعة سبيل النهوض اللغوي والبياني في لغتنا العربية وأدبنا العربي.

٥ - **نوعية الأفكار والموضوعات التي طرقها الحديث النبوي:** كانت للبيان غايات محدودة في المدح والهجاء، والفخر والحماسة، والغزل والرثاء.. في أُطُر تقليدية فجاء الحديث النبوي بفنون كثيرة من أبواب الكلام، يظل نطاق الدارس للغة العربية وآداب العربية قاصرًا جدًّا، بل مختلًّا إذا لم يدرس أصولًا عن هذه المواضيع والأفكار، وجوانب عامة منها.

٦ - **معرفة أثر الحديث النبوي في الحياة العربية والإنسانية من جوانبها كلها:** ذلك بالنظر في طبيعة المرحلة التي ظهر فيها الحديث النبوي، وهي مرحلة كانت على غاية القوة في البيان العربي في العصر الجاهلي، وإن كانت من ناحية أخرى مرحلة ظلام وبُدائية في العقيدة والفكر والحياة، مما يجعل دراسة الحديث على غاية من الأهمية لكشف فوائد جليلة في تاريخ الأدب العربي، حيث نعرف أثر الحديث في جوانب الحياة كلها، اللغوية، والأدبية، والثقافية، والحضارية، والاجتماعية، وغير ذلك، ونعرف الأسلوب الذي امتاز به الحديث النبوي، حتى كانت له تلك النتائج، التي هي في الأصل نابعة من القرآن، لكن لِلحديث النبوي أثره وحضوره الواضح، مادام مَوقِعُهُ من القرآن - كما هو معلوم - موقعَ التفسير والتفصيل.

٧ - **قد يبدو مستغربًا لدى بعض المثقفين ثقافة عصرية بحتة، بل بعض الكبار منهم أن يطالعهم عنوان دراسة أدبية معاصرة للحديث النبوي**، والحقيقة أن ذلك ليس إلا نتيجة **عقولهم** التي تحجَّمت في نطاق من المعرفة، بل نطاق ضيق جدًّا من الفكرة المادية، أبعدهم عن تصوُّر الحقيقة الأدبية للحديث النبوي، ومقوماته اللغوية والفنية، وأنساهم ما كان لفن البيان النبوي من أثر عظيم في بناء الإنسان، وتقدم الإنسان، وحضارة الإنسان، وما اضطلع به هذا البيان الكريم من استمرار أهدافه في البناء والتقدم، على اتساع المكان، ودوام الزمان، وإن هذه الدراسة فيما نرجو شعلة تضيء لمن يود معرفة الحقيقة من هؤلاء، ومن غيرهم، وتقيم البرهان جليًّا ساطعًا لكل إنسان.

وإذا كان الحديث النبوي قد عمل في تكوين شخصية الصحابة الفريدة، التي حملت شعلة الدعوة، وغَيَّرت العالم بأدب القرآن وأدب الحديث فإن أثر الحديث ليس محصورًا

فيهم، بل إن هذا الأثر يستمر بعد الصحابة إلى كل عصر وكل جيل، فلا شك أنه **يعترينا الشعور العميق بصدق هذا النبي ويغمرنا حُبًّا له، لدى سماع حديثه أو قراءته**، لما أُلبِس من حِلًى وحلاوة، مما يجعلنا نمعن أشد الإمعان في الجزئيات الفنية فيه، راغبين إلى المولى تعالى كشف جماليات هذا الأدب الفني الديني الفريد.

وإن تقدم الفنون، **والمستجدات الأدبية الفنية، وتقدم العلوم يساعد على حسن التذوق لجمال أسلوب الحديث**، ويحقق لنا الدربة على الإحساس الفني به، إذ نعاود قراءة الحديث في ضوء هذه المعطيات كلها؛ لنكتشف الجمال الفني الأدبي والفكري في الحديث، مما يُمِدُّ الذوق الأدبي السليم في هذا العصر الحديث.

* * *
* *
*

الشهادات بسُمُوِّ البيان النبوي وإبداعه

شهادة اللَّه تعالى:

لقد تحدَّث القرآن ودلَّ على سمو بلاغة النبي ﷺ، وعلو بيانه وأسلوبه في مواضع عديدة سَمَّى فيها الحديث النبوي « حكمة »، وتحدَّث عن ذلك أيضًا في مناسبة معقدة جدًّا، تتطلب غاية القوة في التأثير، ونفاذ البيان؛ لتحويل أناس منحرفين منافقين عن انحرافهم ونفاقهم، إلى جادة الاستقامة والإخلاص، فقال تبارك وتعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣].

هذه الآية شهادة من اللَّه لرسوله ﷺ بغاية القدرة على الكلام البليغ، والبيان الناجع الأثر في أعماق النفوس، فقد أمره اللَّه تعالى أن يعظ هؤلاء المنافقين؛ ليرتدعوا عن نفاقهم، وأن يقول لهم ﴿ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ والكلام يختلف تأثيره باختلاف أفهام المخاطبين، وهذه فئة مريضة القلوب معقدة الأساس، يحتاج إفهامُها والتأثير فيها إلى قوة أسلوب وبلاغة بيان فوق غيرهم من الناس، فكان أمره ﷺ بهذا الأمر شهادة له بغاية القدرة على الكلام البليغ، والأسلوب العميق الأثر في النفوس، مع الحكمة البالغة أقصاها لكي يضع الكلام في موضعه.

وإنما آتاه اللَّه تعالى هاتين **المزيتين على وجه الكمال بالنبوة والقرآن**، لم يكن قبل النبوة مشهورًا بين قومه بالفصاحة والبلاغة... إنما كان مشهورًا بالأمانة، والفضيلة، والصدق. وأما دليلنا على أن الحكمة العليا كالبلاغة العليا قد كمله اللَّه بها بالنبوة فنصوص القرآن، والتي منها ما سيأتي في هذه السورة قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء: ١١٣].

تحدث النبي عن هذه الخصوصية:

تحدَّث النبي الكريم نفسُه عن هذه البلاغة التي أوتيَها في مناسبات كثيرة:

- عن عبد اللَّه بن عمر - رضي اللَّه عنهما - قال:

خرج علينا رسول اللَّه ﷺ يومًا كالمُوَدِّعِ، فقال: « **أَنَا مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ الأُمِّيُّ - قالها**

ثلاثًا - ولا نَبِيَّ بعدي، أُوتيتُ فَواتِحَ الكَلِمِ وخَوَاتِمَه، وجَوَامِعَه... »[١].

- وفي حديث عمر ﷺ:

أَنَّ النبيَّ ﷺ قال وهو على المنبر: « **يا أيُّها النَّاسُ! إني قَدْ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ وخَوَاتِيمه، واختصِر لِي اختصارًا، وقد أَتَيْتُكُم بها - أي الشريعةَ - بيضاءَ نقيَّة »**[٢].

- وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

قال عمر: يا نبي الله مَالكَ أفصَحُنا ولَم تَخرُج من بين أَظْهُرِنا؟! فقال ﷺ: « **كانت لغةُ إسماعيل قد درست فجاءني بها جبريل، فحفظتها »**[٣].

شهادة الصحابة الكرام - رضي الله عنهم -:

جيل الصحابة جيل الفصاحة والبيان الأكمل في تدرج الأدب العربي القديم، وهم الذين تذوقوا إعجاز القرآن وخضعوا لبيانه المُعجِز، وما منهم أحد إلا وهو في البيان والفصاحة بحر زاخر، ونجم زاهر، وقد شهدوا للحديث النبوي الشريف بسُمُوِّ البيان ورفعة البلاغة، وعمق التأثير في القلوب، وهذه أمثلة نذكرها وإن كان بِغِنًى عن الأمثلة والشواهد، فمن ذلك:

- حديث حنظلة بن الربيع المشهور قال:

« لقيني أبو بكر ﷺ فقال: كيف أنت يا حَنْظَلَةُ؟ قال: قلت: نافَقَ حَنْظَلة!. قال: سبحان اللَّه! انظر ما تقول. قال: قلت: نكونُ عند رسول اللَّه ﷺ يُذَكِّرنا بالنارِ والجنةِ، حتى كأنَّا رَأْيُ عين، فإذا خَرَجْنا من عند رسول اللَّه ﷺ عَافَسْنا الأَزْواجَ والأولادَ والضَّيْعاتِ، فَنَسِينا كثيرًا.. » الحديث إلى أن قال رسول اللَّه ﷺ: « **والذي نفسي بيَدِه، إنْ لو تَدُومون على ما تكونونَ عندي، وفي الذكر لَصَافَحَتْكُمُ الملائكةُ على فُرُشِكُم، وفي طُرُقِكُم، ولكِنْ يا حَنْظَلَةُ، ساعةً وساعةً »** [أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه][٤].

وقال العِرْبَاضُ بن سارِيَةَ:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٢/ ١٧٢، ٢١٢.

(٢) أخرجه أبو يعلى وابن أبي حاتم وله شواهد كما قال الحافظ ابن كثير.

(٣) أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان.

(٤) مسلم في التوبة (فضل دوام الذكر...): ٨/ ٩٤، والترمذي في صفة القيامة (باب رقم ٦٠)، (٤/ ٦٦٦)، وابن ماجه في الزهد، رقم ٤٢٣٩، والمسند: ٢/ ٣٠٥، ٣/ ١٧٥، ٤/ ١٧٨. عافَسْنا: عالجنا. أي: اشتغلوا بهذه الأمور.

« وَعَظَنا رسولُ اللّهِ ﷺ موعظةً بليغةً ذَرَفَتْ منها العيون وَوَجِلَتْ منها القلوب ».
وفي رواية: « موعظةً مَضَّتْ - أي أَلِمَتْ واحترقت - منها الجلود، وذرفت منها العيون، ووجِلَت منها القلوب ». فقلنا: « كأنّ هذه موعظة مُوَدِّع يا رسول اللّه، فماذا تَعْهَدُ إلينا؟ ». فقال: « **أنِ اتقوا اللَّهَ، وأن تتبعوا سُنَّتي وسنة الخلفاءِ الهادِيَةِ المَهْدِيَّة مِن بعدي، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، فإنَّ كلَّ بِدْعةٍ ضلالة** ». [أخرجه أبو داود والترمذي، وقال: « حديث حسن صحيح » وابن ماجه وغيرهم][1].

وقال أُسَيْدُ بن حُضَير ﷺ:

« لو أني أكونُ على أحوالٍ ثلاثةٍ من أحوالي لكنتُ من أهل الجنة[2]: حين أقرأ القرآنَ وحينَ أسمَعُهُ، وإذا سمعتُ خطبةَ رسول اللّه ﷺ، وإذا شَهِدْتُ جنازةً »[3].

شهادة أئمة الأدب واللغة والنقد:

وهي كثيرة جدًّا في كل عصر، نسوق جملة منها فيما يأتي:

يقول عَلَّامة الأدب وناقد الشعر إمام نحاة البصرة: يونس بن حبيب[4].

« ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول اللّه ﷺ »[5].

وقال إمام التفسير البلاغي للقرآن جارُ اللّه الزمخشري في مطلع كتابه القيم: « الفائق في غريب الحديث »:

« هذا اللسان العربي كأن اللّه - عزَّت قدرته - مَخَضَهُ وألقى زُبْدَتَه على لسان محمد عليه وآله أفضل صلاة وأوفر سلام. فما من خطيب يقاومه إلا نَكَصَ مُتفكِّكَ الرِّجل، وما من

---

(١) أبو داود في السُّنَّة (لزوم السنة): ٤/ ٢٠٠، ٢٠١، والترمذي في العلم، (باب الأخذ بالسنة): ٥/ ٤٤، ٤٥، وابن ماجه في مقدمة سننه: ص١٦، ١٧، والمسند: ٤/ ١٢٧، ومسند الحارث بن أبي أسامة في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر: ٣/ ١٢٦، وفيه رواية « ... مضت... ».

ذرفت: فاضت دموعًا. وجلت: خافت وخشعت. ماذا تعهد إلينا: ماذا تأمرنا. وفي رواية: « فأوصنا ».

(٢) أي: في الحال، لما يكون عليه من خشوع وصفاء.

(٣) انظر هذا الأثر وغيره في كتاب سيدنا محمد رسول اللّه ﷺ لفضيلة أستاذنا الشيخ عبد اللّه سراج الدين ص٥٧ - ٦٣.

(٤) هو يونس بن حبيب الضبي، ولاء. كانت حلقته بالبصرة ينتابها طلاب العلم، وأهل الأدب، وكانت مجمع فصحاء الأعراب ووفود البادية. انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت: ٢٠/ ٦٤. والأعلام للزركلي: ٩/ ٣٤٤.

(٥) أورد هذه الكلمة عنه الجاحظ في البيان والتبيين: ٢/ ١٩، قال: وقال محمد بن سلام قال يونس بن حبيب... فذكر سنده بها وهو سند صحيح.

مِصْقَع يُناهِزُه إلا رجع فارغ السَّجْل، وما قُرِنَ بمنطقِه مَنِطقٌ إلا كان كالبِرْذَوْنِ مع الحصان المُطَهَّمِ، ولا وقع من كلامه شيء في كلام الناس إلا أشبه الوضح في نَقَبَةِ الأدْهَم »[١].

قال - عليه الصلاة والسلام -: « **أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ** »[٢]. وقال: « **أنا أفصح العرب بَيْدَ أني من قريش، واسْتُرْضِعْتُ في بني سعد بن بكر** ».

وقال الإمام القاضي عِيَاضُ بن موسى اليَحْصُبِيّ السَّبتِي[٣].

« وأما فصاحة اللسان، وبلاغة القول، فقد كان النبي ﷺ من ذلك بالمَحَلِّ الأفضل، والموضع الذي لا يُجْهل، سلاسةَ طبعٍ، وبراعةَ مَنْزعٍ، وإيجازَ مَقْطَعٍ، ونَصَاعةَ لفظٍ، وجَزَالةَ قولٍ، وصِحَّةَ معانٍ، وقِلَّةَ تكَلُّف ».

« أُوتِي جوامعَ الكَلِمِ، وخُصَّ ببدائع الحِكَم، وعُلِّمَ ألسنةَ العرب، يُخَاطِبُ كلَّ أمةٍ منها بلسانها، ويحاوِرُها بلغتها، ويباريها في مَنْزِعِ بلاغَتِها، حتى كان كثيرٌ من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قولِه، من تأمَّل حديثَه وسَبَرَه، عَلِمَ ذلك وتحقَّقَه »[٤].

أو كما قال أديب العصر مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله -[٥]:

« هذه هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها، وحَسِرَتِ العقول دون غايتها، لم تُصْنَعْ، وهي من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يُتَكَلَّفْ لها، وهي على السهولة بعيدة ممنوعة. ألفاظ النبوة يعمُرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي الجلي ولكنها جاءت من سبيله... محكمة الفصول، حتى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفضول، حتى ليس فيها كلمة مفضولة، وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم، وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر من بلاغته وفصاحته ﷺ.

---

(١) نكص: تأخر وغُلِبَ. متفكك الرجل: كناية عن الإخفاق. المِصْقَع، بوزن المِنْبَر: البليغ والذي لا يرتج في كلامه. يناهزه: يدانيه. السَّجل: بفتح السين وسكون الجيم: الدلو، والعبارة كناية عن الإخفاق أيضًا. البِرْذَون: يطلق على نوع غير عربي من الخيل والبغال، ضخم غليظ الأعضاء. المطهم: التام المتناهي الحسن. الوضح: الضوء وبياض الصبح، نَقَبَةُ الأدهم: آفَتُهُ من داءٍ أو جرب. والأدهم: الأسود من الإبل أو الخيل.

(٢) سبق تخريجه ص٩.

(٣) في كتاب الشفاء ص١٧٥ - ١٧٧، بشرحه للعلامة المحدث علي القاري.

(٤) المنزع: منتهى الأمر، مأخوذ من نزع في القوس إذا مدها إلى غايتها. المقطع: موضع الوقوف. نصاعة لفظ: الناصع الخالص من كل شيء. جزالة القول: قوة القول، وهو يقابل الرقيق من الكلام. سبره: تعمق في فهمه.

(٥) باختصار وتصرف يسير عن كتابه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص٣١٢.

إن خَرَجتْ في الموعظة قُلْتَ: أنين من فؤاد مقروح، وإن راعت بالحكمة قلت: صورة بشرية من الروح... وهي البلاغة النبوية، تعرف الحقيقة فيها كأنها فكر صريح من أفكار الخليقة، وتجيء بالمجاز الغريب فترى من غرائبه أنه مجاز في حقيقة، وهي من البيان في إيجاز تتردد فيه « عين » البليغ فتعرفه مع إيجاز القرآن فرعين...، على أنه سواء في سهولة إطماعه، وفي صعوبة امتناعه، إن أخذ أبلغ الناس في ناحيته، لم يأخذ بناصيته، وإن أقدم على غير نظر فيه رجع مبصرًا، وإن جرى في معارضته انتهى مُقْصِرًا ».

وفي ضوء فنون اللغة والبلاغة والأدب، قديمها وحديثها يقدم لنا الأخ الكريم علّامة اللغة والأدب الأستاذ الدكتور عصام قصبجي - حفظه اللَّه - هذه الكلمة القيِّمة:

« إذا كان البليغ مَن يؤلفُ بين نور القلبِ ونورِ اللسان؛ فلا يكون ما يقوله كلامًا من الكلام، وإنما يكون روحًا من الروح، ولا يكون حروفًا تُنْظَمُ، وإنما يكون قلوبًا تلهم، فذلكم هو الرسول الأفصح الأبلغ رسول اللَّه ﷺ؛ تكلَّم فأوجز وأشار فأوحى، وكَنَّى فأوضحَ، وأَوْمأَ فأعلم، ورمز فألهم، وشَبَّه فأحكم.

فليتَ شِعري أين الشعرُ أم أين السِّحرُ من حديثٍ كأنه تسبيحُ الفَلَك، أو ترانيم الوجود، ينساب في الأفهام قبل الأسماع، وفي القلوب قبل الأفهام! طوبَى لقلب أُشْرِبَ بَرْدَ حديثه كوثرًا عذبًا، حتى عَرَجَ على إيقاع الغِبْطَةِ إلى سدرة المُنْتَهَى ».

* * *
* *
*

في أصول الإسلام

افتقار العالم إلى الإسلام

١ عن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ به مِنَ الهُدَى والعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أرضًا، فكانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فَأَنْبَتَتْ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ. وكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بها النَّاسَ، فشرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا. وأَصَابَ مِنْهَا طائفةً أُخرى إِنَّمَا هي قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً، ولا تُنْبِتُ كَلَأً. فذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، ونَفَعَه ما بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ ».

[متفق عليه][1]

* * *

المفردات:

مَـثَـلُ : المَثَل في أصل اللغة: المَثِيل والشبيه، ثم أُطلِق على الكلمة الجامعة التي يشبه مصدرها بموردها، مثل: « الصيفَ ضيَّعْتِ اللّبن »، ثم أُطْلِقَ على الوصف العجيب الذي يستحق أن يُضْرَبَ به المَثَل، وهذا هو المراد هنا.

نـقـيَّـة: طيبة، كما في الروايات الأخرى.

الـكَـلأ: النبات سواء كان يابسًا أو رطْبًا.

العُشْب: النبات الرّطب. والمقصود من ذكر هذين أنها أنبتت من الزروع التي ينتفع بها كلها.

أجادب: جمع جَدَب. أرض تشرب الماء، ولا تنبت. وفي رواية « إخاذات » جمع إخاذة. المعنى واحد.

قِيْـعَـان: جمع قاعٍ وهو أرضٌ مَلساء مستوية لا تُنبت.

المحتوى الفكري:

يبين لنا هذا الحديث حاجة الناس إلى الإسلام، ثم موقفهم منه، ومخالفة المنكرين

---

(١) البخاري بلفظه في العلم (باب فضل من عَلِمَ وعلَّم): ١/ ٢٣، ومسلم في الفضائل: ٧/ ٦٣.

المعاندين لدعوته. وحَاجَةُ الناس إلى الإسلام، هي حاجة افتقار مُلِحَّةٌ، إنها ضرورة، لن تستقيم الحياة بفقدها، وركن لا تقوم للإنسانية وقيمها قائمة بدونه، وهذه قرون التاريخ الطويلة تقرر هذه الحقيقة، وتؤكدها مع تقدم الحضارة والمدنية، ومع ازدهار النهضة العلمية والاختراعات التي ملأت هذا الإنسان فخرًا وعُجْبًا، لكنها كشفت عن حاجته الضرورية إلى هذا الدين الحنيف.

أجل لا يخدعنا بَهْرَجُ المدنيّة المادية الزائف، ولا يَغُرُّنا تَقَلُّبُ الإنسان في ميادين العلم والمال والعِمْران، فإنه اليوم ليس بأقل حاجةً للإسلام من ذلك الذي كان قبل خمسةَ عشرَ قرنًا، إنْ لم يكن أكثر منه حاجة للإسلام، بل إن العلماء من قلب هذه المدنية المادية صاروا يتوقعون عاجلًا أم آجلًا انهيارها وزوال مجتمعاتها؛ لأنها مدنية عوراء لها عين واحدة هي المادة، التي أَعْلَتْ من شأنها في الكائن البشري، حتى غدا كمًّا مِنَ الغرائز الخالصة؛ كل هذا لاعتقادهم الواهم بأن الآلة هي المحرك الأساسي للحياة، ناسين الجانب الروحي وسُمُوَّ القِيَمِ الأخلاقية، التي لا تأتي صحيحة إلا من خلال هذا الدين، كما أصبح يقرّ بهذا المنظرون الاجتماعيون وعلماء النفس من تلك البلاد.

بُعِثَ النبيُّ ﷺ والإنسان في ظلمات داجية، وظلم وقهر مستبدين، أَخَذَا على البشر كل سبيل. فالروم الذين كانوا إحدى دولتي العالم تسيطر عليهم الروح الاستعمارية، وكانت النظم الطبقية الظالمة، وقوانين الضرائب الماحقة، تُكَبِّلُ حركة الإنسان وتقيد حريته حتى يكاد يكون مستعبدًا، ومن فوق هذا كله يَتَربَّعُ قيصرهم مُتَأَلِّهًا على شعوبه التي استعمرها وأذلّها، وكانت هناك المفاسد الخُلُقِيَّة حليفةَ كل حكم فاسد، وكل وضع متدهور، ثم توج ذلك الفساد بالخلاف الديني الدامي، بين الروم وبين نصارى المشرق في الشام ومصر وغيرها، حتى لكأنهم - وهم نصارى - أشدُّ عداءً للنصرانية من الكافرين بها.

وفي دولة الفرس شاعت فلسفة عجيبة في انحرافها وفجورها، تلك هي فلسفة الزِّرَادِشْتِيَّة (المجوسية)، التي أباحت نكاح المحارم، وعَبَّدَتِ الناسَ للنار، والمَزْدَكِيَّة التي أشاعت الفوضَى بإشاعة النساء والأموال، فكانت تلك الفلسفات فوق تلك المفاسد التي عرفها الرومان ضِغْثًا على إِبَّالَة.

أما اليونان فقد سيطرتْ عليهم وساوس فلسفية مزّقت وحدتهم، وعبدوا الأصنام، وتعددت الآلهة عندهم، ونُسِجَتْ حولها الأساطيرُ، من حرب وسلام، وهجر وغرام، مما يصلح أن يُرْوَى عن الأطفال، أو يُنْسَبَ لأناسٍ ماكرين شريرين، حتى إن كبار الفلاسفة

كانوا يقرون بتعدد الآلهة، مما أدَّى إلى تناقضات عجيبة في فلسفاتهم، وتخرصات تمثل طفولةً بشرية، لا نهوضًا حضاريًا، فضلًا عن المشاعة الجنسية، والخرافات التي دبّتْ في أوصال المجتمع، صادرة من أفواهٍ ممن يُدْعَوْنَ فلاسفةً، فكانوا في هذا على حالٍ هي أسوأُ من حال العرب في جزيرتهم.

أما العرب فقد عبدوا الأوثان لكنهم لم يجعلوا أصنامهم بمنزلة آلهة اليونان، ولا ريب أن الشرك أفظعُ دَرْكٍ ينحط إليه الإنسان، في حق نفسه وفي حق ربه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وبإزاء ذلك نجد الجزيرة العربية قد مزَّقتها الخلافات القَبَلِيَّةُ، والحروب الدامية التي تنشبُ لأتفه الأسباب، حتى يقتل الرجلُ ابنَ عمه وابن أخيه.

شَـوَاجِـرُ أَرْمَـاحٍ تُقَطِّـعُ بينـهـا   شَـوَاجِـرَ أَرْحَـامٍ ظَلُـومٌ قَطُوعُهـا

وتَحَكَّمَتْ في العرب تقاليدُ الجاهلية، كالثأر، ووأد البنات والطِّيَرَةِ وغيرها، حتى كانوا أبعد الناس عن المدنية، وأصبحوا في عُرْفِ جيرانهم أسوأ الناس حالًا، وكانت القبيلة في نظر العربي حينذاك هي الوطن الأكبر، فكاد يختفي الحس العروبي، كما أن أخلاقهم المتعصبة منعتهم من التفتح الذهني لإنشاء حضارات. فكانوا مقيدين بسلاسل اللذائذ الدَّنِيّة مهملين شؤون المَدَنِيَّة في شتَّى مجالات الحياة لغيرهم من الأقوام.

لقد كان العالم كله مفتقرًا إلى دعوة منقذة، يتلهَّف إليها لنَجْدَتِه وإنقاذِه، إنها هي مصداق ما ضرب له النبي ﷺ من المَثَل، لقد كان الناس جميعًا وفي كل قُطْرٍ كأرضٍ قاحلة، أَتَتْ عليها سُنونَ عِجَافٌ؛ سنونَ قَحْطٍ وجَفافٍ، فهي ميتة هامدة، لا حياة فيها ولا نبات، فكانت بَعْثَته ﷺ غيثًا غديقًا، أحيا الناس بعد موات، وسراجًا أنقذَهم من الظلمات إلى النور.

أخرج الناسَ من عبادة الأصنام وعبادة الإنسان إلى معرفة اللَّه وتوحيده وعبادته وحده لا شريك له، فألغى الطبقية، وحرَّم عُبودِيَّةَ الإنسان للإنسان، بل حَرَّمَ خضوعَ الإنسان لغيرِ اللَّه.

وشمل مرافق الحياة إصلاحًا وتنظيمًا فأعطى الفرد حقوقه، وأعطى المجتمع حقوقه، لا يحيفُ الفرد على المجتمع، ولا يطغى المجتمع على الفرد[1]. وحدد لأول مرة وعلى

(١) انظر شرح ذلك اقتصاديًا في كتابنا (المعاملات المصرفية والربوية وعلاجها في الإسلام): ص٢٥ وما بعد.

أحكم وجه صلاحيات الحاكم، وألقى عليه مسؤولياته، حتى عرف التاريخ أعدل الحكام وأنزه الرؤساء وأرحمهم بالعالم، في شخص خلفاء المسلمين المشهورين.

لقد جَعَلَتْ دعوةُ محمد ﷺ وصَيَّرت العربيَّ الأُمِّيَّ رائدًا يحمل مِشْعَلَ النورِ للبشرية، يقف بِقُوَّة الإيمان وعزته أمام أعظم قيادات الأرض، يُلَقِّنُهم مبادئ الحق والعدل.

هذا رِبْعِيٌّ بن عَامِر ﷺ يقف أمام القائد الفارسي الضخم رُسْتُم يبلغه الدعوة ويحاوره، « قال له رستم: ما جاء بكم؟

قال رِبْعِي ﷺ: اللَّه ابتعثنا، واللَّه جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.... »[1].

واليوم يعيد التاريخ نفسه:

فالظلم ساد العالم، على أيدي الدول الكبرى الاستعمارية. والماديةُ القاتمةُ ألهبتْ حِقْدَ الناس، حتى أصبح الإنسان كالنَّهِمِ المسعور في السعي إليها، والصهيونية بأساليبها الخبيثة تُعْمِلُ أسبابَ الهدم والتمزيق في القيم الإنسانية؛ لتصل إلى ما خططته أهدافُها.

إن الحاجة اليوم إلى الإسلام عظيمة جدًّا، لكن هذه المخاطر في الحضارة المادية الزائفة تستتر وراء مظاهر الفخامة والعظمة الخادعة، تخدع بها السُّذج والبسطاء عن الحقائق المخيفة التي تنطوي عليها.

أليس حسبنا دليلًا على **شقاوة الإنسان** في هذه الحضارة أن نجد **الانتحار** على أعلى نسبة وأكبر عدد في أكثر البلاد غِنًى، وأعظمها ترفًا وبَطَرًا؟ أليس حسبنا دليلًا على فشل هذا الاتجاه المادي في إقرار الحياة السعيدة أن نجد الحياة الزوجية لا تكاد تستقر في أعظم الدول وأقواها إذ بلغت نسبة الطلاق في أمريكا ٦٥٪؟!

أليس حسبنا بعد ذلك ما تخلفه هذه المادية من مستقبل كالح مظلم للجيل الجديد، الجيل المسكين الذي لا يعرف كثير من أفراده آباءهم الحقيقيّين؟

شعوبٌ من البشر تُربَّى في بيوت الحضانة الاصطناعية كما يُربَّى الدجاج وتُربَّى الأبقار...!!

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٢٠.

ثم أليس حسبنا أن تؤدي الحرية المزعومة في الحياة الجنسية إلى خطر عظيم يهدد البشرية، بعواقبه الوخيمة الصحية؟!

ألا ما أحوجَ الإنسانيةَ إلى هداية تنقذها من دياجير الظلام الحالك، وما أشقاها لبُعْدِها عن تلك الهداية... في هذا العصر وفي كل عصر.

لقد عبَّر الحديث النبوي عن هذا المعنى الدقيق، وهو افتقار الإنسانية إلى هداية الإسلام فأبانه إبانَةً واضحة، نقلته من المعنى العقلي المجرد إلى صورة مادية نراها دائمًا ونُحِسُّ بها كثيرًا، لكن لا نلتفت إلى ما فيها من العبرة.

إن صورة البشرية في حاجتها إلى دعوة محمد بن عبد اللَّه ﷺ كالأرض العطشى، التي أصابها الملح واشتد بها الظمأ، فهي بأَمَسِّ الحاجة إلى مطر كثير ينقذها من القحط واليَبَسِ. وهذا الغيث هو ما بعث به النبي ﷺ، من الهدايات المُعرِّفة باللَّه واليوم الآخر وأمور الإيمان، وما جاءنا به من علم نُنَظِّم به دنيانا وحياتنا لتحيا هذه البشرية.

ولقد أوضح الحديث النبوي تصوير هذا الإنقاذ العظيم، إذْ صوَّره بالمطر الذي ينزل إلى الأرض القاحلة، وأكَّد هذا الوصف فعبر عن المطر الكثير بالغيث، فهو إذًا عظيم الفائدة كثير الخير؛ لأنه غيث، فلا يأتي إلا بخير، كذلك هذه الرسالة قد شملت خيراتِ الدنيا ونعيمَ الآخرة، وأنقذت الناس من السوء والشرور، فهي غيث عظيم لا تشوبه شائبة النقص أبدًا.

إذًا قد جاء الغيث، وأسعفت الرحمة الإلهية هذا الإنسان، وإنه لغيث عامٌّ شمل الناس كافّةً، كما يشمل غيثُ المطر الواسع الأرض كلها. لكن هذه الأرض ليست نوعًا واحدًا، وليست كلها على صفة واحدة، بل إنا نجدُ الأرض في تَقَبُّلِ الغيث تختلف من بقعةٍ إلى أخرى، وهكذا قسم الحديث الأصناف «تقسيمًا حسنًا»، وأتبع كل قسم ما يخصه، جريًا على **أسلوب اللّف والنشر المرتب**:

١ - فهناك **الأرض الطيبة الخصبة الجيـدة**، تتقبل الماء، فتنبِتُ ألوان الخيرات النافعة.

٢ - وهناك أرض جديبة هي «**إخاذات**» تحتوي على الماء لكنها لا تشربه، بل تحفظه، فينتفع به الناس، سقيًا وزرعًا ومصالحَ مهمةً لهم.

والناس بحاجة إلى كل ذلك، إلى الأرض الطيبة وإلى هذه الأرض المُوعية للماء.

٣ - وهناك أرض هي: « **قيعان** » **لا تقبل شيئًا من الماء** تنتفع به أو تنفع به أحدًا، بل تفسده وتضيعه لصلابتها ومَلاستِها، فلا يستقر عليها الماء، بل تفسده على غيرها، إذ تكون سببًا في الفيضان والسيل.

أو تكون هذه القاع سبخة تُضِيعُ الماء وتمنع من فائدته، ثم تضر ما جاورها من الأراضي.

لقد كشف لنا هذا الحديث أمرَ الناس بعد إذ جاءهم الهُدى الذي يحتاجون إليه، ويفتقرون له، بهذا الأسلوب من **تشبيه التمثيل**، الذي صَوَّر لنا هيئةَ العالم بما فيها من افتقار إلى الهداية، ثم ما كان من مواقفهم إزاء تلك الهداية الإلهية، بما نراه من الصورة المحسوسة الواضحة في الأرض العطشى؛ إذ ينزل عليها الغيث وما يستتبعه من نبات في أرض « **نقية** » : « **طيبة** »، أو جمع ماء في أخرى « أجادِب » أو « إخاذاتٍ » تأخذ وتجمع. أو تضييع وإفساد في ثالثة: « **إنما هي قيعان** ».

فالغيثُ خيرٌ كلُّهُ، لا تشوبه شائبة إضرار، **كذلك الإسلام**، كلُّه خير وبر.

فلو كانت الهداية تحصل لكل إنسان بالدليل الصحيح، ويدخل اليقين قلبه بصحة البرهان إذًا لَألْفيْتَ الناس جميعَهم متفقين على الحق، لا يجاوزونه ولا يغادرونه، لكنها الأهواء تميل بالنفوس، والمنافعُ الشخصية والأطماع، ثم الأخلاق السيئة والعادات الموروثة، تميل بالمرء، وتأخذ به هنا وهناك، كما تفعل الأرض بالغيث إذا نزل بها. وهكذا تعددت مواقف الناس[1]:

١ - **هناك الذين قبلوا الدعوة** التي دعاهم إليها محمد ﷺ آمنوا بها، **وتعلموها**، فطابوا بها نفسًا وقرُّوا بها عَيْنًا، ووجدوا حَلَاوَتها في قلوبهم، فكانوا عنصر خير وهداية للناس، **يُبَلِّغون الدين ويعلمونه غيرهم**، كالأرض الطيبة، تقبلُ الماء، ثم تُخرِجُ الثمرات النافعة « **فذلك مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دين اللّه ونفعه ما بَعَثَني اللّه به فَعَلِمَ وعَلَّمَ** » وإنه لمَثَلٌ عظيم، بعيد في علو منزلته وشرفه، كما قال: « **فذلك مثل...** ». عبر بلام البعد « **فذلك** »؛ إشارة لسبقهم البعيد في الفضل..

٢ - وهناك **الذين آمنوا بدعوة الإسلام** ولَبَّوْها، ثم عمموها في الناس، ونشروها.

---

(١) اخترنا هذا التقسيم لدلالة سياق الحديث عليه، وقيل فيه غير ذلك، ولم نرتضه. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: ١/ ١٢٩، ١٣٠.

لكنهم **لم يستتموا الكمال في أنفسهم**، وقصروا في بعض ما تعلموا، فمثل هؤلاء مثل الأرض التي تقبل الماء وتحفظه لغيرها، لكنها لا تنتفع في إنباتِ عُشبٍ ولا كَلَأ.

هذا القسم من الناس لم **يصرح الحديث بذكره** اكتفاءً بفهمه من سياق الكلام، فحذفه اختصارًا وإيجازًا، وكأنه لم يرد التصريح به، لهدف جليل، لرفع منزلة المسلم أن يرضى بهذه المنزلة، وإشارة له بأن تكون هِمَّتُه عالية، لا يقبل بأدنى درجات الإيمان، بل يطلب أعلاها، ويسعى لأشرفها وأسماها.

٣ - أما القسم الثالث فقد انتقل فيه الحديث لأسلوب جديد في ذكر مثلهم، فلم يقل: « **وكان منها طائفة** »، بل قال: « **وأصاب منها طائفةً أخرى** ». فخالف في الأسلوب؛ لأنه يتكلم عن **وصف مختلفٍ** تمام الاختلاف عن الوصف السابق، فإنه هنا يذكر مَثَلًا لأقوام **لا ينهاهم عن غيِّهم واعظ**، ولا تجدي فيهم الزواجر والمواعظ، رأوا الغِواية فسلكوها سبيلًا، وعرفوا الشيطان فاتخذوه خليلًا، لا حجة لهم ولا برهان، إلا التقليد الأعمى للغِربان، فمهما أَلْقَيْتَ إليهم من الآيات، ومهما أَقْنَعْتَهُم بالبينات، غاض الكلام عندهم في الآذان، كما يضيع الماء في القيعان، فهم - لشدة عنادهم - ليسوا مستعدين للسماع، ولا تتحرك منهم جارحة، أو تبدر للخير منهم بادرة.

« **فلم يرفعوا بذلك رأسًا** »، لم يعيروه التفاتًا وانتباهًا، إصرارًا واستكبارًا، ثم لا يُقَصِّرُون في التشويش على الناس بإلقاء الإشكالات الضعيفة، أو التعلل بالتُّرَّهات السخيفة، فلا هُمْ بالخير منتفعون، ولا هُم لخير الناس يقبلون، إنهم القاع الذي يرفض الغيث وينبذه، ثم يفسده على غيره ويعكره، فبئس مَثَلُهُم، وبئس صنيعهم وفعلهم.

جمال البِنَاء[1]:

جاء الحديث في ثلاثة أقسام:

القسم الأول: « مثل ما بعثني اللَّه.. أصاب أرضًا »:

سلك فيه النص طريق **التكثيف الذي يتبعه تفصيل**، كما يعبر العصريون، وسماه أسلافنا الإجمال الذي يتبعه تفصيل: إذ جاء التكثيف لاستجلاب الانتباه لإدراك التفاصيل،

(١) يُقصد به العمليات اللغوية التي ربطت أواصر النص، وقدمته قطعة واحدة فيها يُدْعَى بالوحدة العضوية، ويرمي إلى الآفاق الفنية التي سعى إليها النص من خلال المفردات والتراكيب والمقاطع، مما يُعَدُّ مَلْمَحًا جماليًّا واضحًا، لأنه ينطلق من النص نفسه، ثم يحدد إيحاءات الكلمات والجمل المؤلفة للنص.

وإثارته لهفة القلوب إليها، مما يدل على تماسك النص وترابطه، لا سيما في الربط الفني بين الهداية والماء؛ لأنهما ضروريان للإنسان.

وفي هذا القِسْمِ **تقديمُ الأهم**: فقد قدَّم **الهدى على العلم**، وهذا يدل على أن الإسلام يصل بالمرء إلى أعلى مراقي الصلاح والفلاح، ثم ينطلق به إلى الحقيقة الكبرى التي تساند فكره إزاء تخرصات الاتجاهات الفكرية الأخرى، ويجعل المؤمن الدارس له في أعلى مصافِّ الإدراك للحقائق.

وفي هذا القِسْمِ: **الإشباعُ**: إذ عبر بالغيث الكثير للدلالة على الخيرية العالية التي يحملها الإسلام المشبه بالغيث. وجاء اختيار « الغيث » لأن الغيث يأتي ملائمًا نافعًا غير مؤذٍ، ولو كثر.

كذلك أشبع بأنه أصاب أرضًا مما يفيد التبليغ وعبر بقوله: « **بعثني... أصاب** » دلالةً على بداية الحركة ونهايتها من اللَّه إلى باطن القلوب المجسمة في عملية الغيث.

القسم الثاني: « **فكان منها نقية... ولا تنبت كلأً** »:

نجد فيه امتداد القسم الأول في تكرار الماء، لكنه جاء هنا من حيث تَقَبُّل الأرض له وجمعُهُ لنفع الإنسان والحيوان، متدرجًا على سبيل التصعيد من الأعلى إلى الأسفل في التقبل وعدمه، ثم تدرج في سلم المخلوقات: الإنسان، الحيوان، النبات، ونجد في هذا القِسْمِ التوازنَ بين الصِّيَغ: مثل قوله: « **لا تمسك** » و « **لا تنبت** »، مما يشكل إصرارًا على المعنى وجمالًا موسيقيًّا. ثم قوله: « **قبلت الماء** » و « **أمسكت الماء** ».

وفي هذا القسم **افتتاحيات تضفي الطابع الموسيقي**: وتفيد تقسيم الفكرة: « **منها نقية** » « **منها أجادب** » « **منها طائفة أخرى** » فهنا افتتاحية يأتي بعدها تنويع. وكذلك: « **الماء... فأنبتت** »، « **الماء... فنفع** » « **الماء... ولا تنبت** ». وهذان المقطعان: « **فكان منها نقية قبلت** الماء فأنبتت... »، « **وكانت منها أجادبُ** أمْسَكتِ الماء » يشكِّلان تقابُلًا مع المقطع الثالث من هذا القسم الثاني، وهو « **أصاب منها** طائفةً أخرى إنما هي قيعانٌ لا تُمسِكُ ماءً ولا تنبتُ كَلَأً »، من خلال النفي لأي من الحالين الخيرين السابقين: حال قبول الماء، وحال إمساكه لنفع الإنسان والحيوان والنبات. وجاء التنكير « **لا تمسك ماءً... كلأً** » يفيد الشمول؛ ليناسب حال الرفض الكلي الهجومي، الذي يرفض مُسَلَّمات الإسلام دون البحث فيها.

وزاد الموقِفَ شِدَّةً ذلك التعبيرُ « **إنما هي قيعان** » الذي يفيد الحصر، تأكيدًا على

العناد واختناق العقل؛ ليكون عبرة في كل عصر، وفي هذا العصر، لما في هذا التقابل والتوزيع والتنويع من توسيع المدارك وتهيئة الأذهان إلى فهم تباين المواقف وأسبابه، استنباطًا من تباين أحوال الأرض مع الغيث وأسبابه.

القِسْمُ الثالثُ: « فذلك مَثَلُ مَن فَقُه... فعَلِمَ وعَلَّم »:

نجد فيه التعبير بـ « فقه » للدلالة على ما يجب أن يكون عليه المسلم من الفهم الدقيق للإسلام، كما أنه من الاسترجاع إلى القسم الأول بعد تقديم الصورة الحسية لتفسير المعنى، ويتجلى ذلك في: تكرار « مَثَلُ مَن » بالعطف، وبابتداء هذا القِسْم باسم الإشارة « **فذلك** »، لاستحضار المشاهد السابقة ولتفسير الأمر العقلي المجرد بالمُحَسّ. يقوِّي ذلك أسلوبُ المقابلة بين الفقه والعلم وعبارةُ « **لم يرفع بذلك رأسًا** » مما يؤكد أن التدين عُلُو وتَرَفُّع، والكفر تَدنٍّ وهبوط.

السمات البيانية العامة في الحديث:

١ – اتبع البيان النبوي طريقة **اللف والنشر المرتب إذ قسم** الأصناف **تقسيمًا حسنًا**، ثم أتبع كل قسم ما يخصه، فذكر اختلاف الأراضي في تقبل الماء، ثم أتبعها باختلاف الناس في قبول الهداية.

٢ – **تراوح الجمل بين الطول والقِصَر**، والأغلب القِصَرُ، بل كانت في بعض المقاطع كلمة واحدة، مثل « **فشربوا، فسقوا..** » لإفادة توزيع الفكرة وتقسيمها.

٣ – **غلبة الجمل الفعلية** الموائمة للتفاعل البشري مع الإسلام، كما يغلب على الفعلية الزمن الماضي المشير إلى حتمية التحقيق.

٤ – البناء من النوع **المغلق الدائري**؛ لأنه ينتهي بالمعنى الذي بدأ به، فقوله: « **مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ به** » فاتحة النص، ثم ختمه بـ « **هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ به** »، أي: جاء النص مُحقِّقًا وحدته العضوية من البداية إلى النهاية، ومحققًا ترابط الجزئيات خلالها في غاية الإحكام.

جمال التصوير:

إن الوسيلة الجمالية التي اتكأ عليها النص في بيان الفكرة **هي التجسيم**، أي: نقل المعنى العقلي المجرد إلى عالم الحس، ولم يقم التجسيم في الحديث هنا على علم البيان فقط، بل إن الكلام الحَرْفِي صار مصوِّرًا في هذا السياق، فقد اعتمد التشبيه،

وكانت البداية بعبارة « **مَثَلُ ما بعثني اللَّه به من الهدى والعلم كمثل الغيث** ». وصيغة « **مَثَل... كَمَثَل** » بَوَّابة رائعة ندخل منها إلى لوحة فنية حافلة بالألوان والحركات، تقدم لنا المشهد العام الذي يجسِّم افتقارَ الإنسانية إلى الإسلام بافتقار الأرض القاحلة إلى الغيث، وقد جاء الغيث.

فإذًا نحن أمام ثلاثةِ مشاهِدَ ضمنَ اللوحةِ الكُبرى:

المشهد الأول: منظر تَقَبُّل الماء وانتشار العشب وعموم الخيرات.

المشهد الثاني: فيه حركة تَجَمُّعِ المياه وتخزنها ثم تحولها إلى مكان آخر، ثم تنشيط الصورة بحركة الحياة في الشرب وسقي الحيوان والزراعة، وهو مشهد جماعي عريض.

المشهد الثالث: الدال على **الحركة** الجامدة، وذلك بسبب التعنت والعناد.

وفي القسم الأخير صورة جزئية صورة الرفض في قوله: « **ولم يرفع بذلك رأسًا** » ووسيلتها البلاغية الكناية بهذه العبارة، التي أفادت عدم الاهتمام بأَوْلى وأحقِّ ما يجب الاهتمام به، وهو هداية اللَّه تعالى؛ لأن من اهتم بشيء توجه بحواسه إليه، ورفع رأسه ناظرًا ومصغيًا له، والرأس أشرف أعضاء الجسد، وفيه ما يميز الإنسان على الحيوان، فتأمل أبعاد هذه الكناية.

فالنص حَازَ جمالياتٍ رائعةً في بنائه التركيبي، إذ جاء التصوير في لوحة اكتنفت مشاهد متعددة، حافلة بزمن وحركة وألوان، كما جاءت المادة الفنية موضحة للمعنى موافقة إيَّاه، مما أدَّى إلى التأثير والإقناع.

إرشادات الحديث:

١ - **شدة افتقار الإنسانية إلى الإسلام**، وأنه حيويٌّ لها، بمنزلة الماء للأرض - كما عبر الحديث - أو بمنزلة الروح للجسد. ووجه ذلك أن المقومات الأساسية لا تنهض في الإنسان إلا بالإسلام، ومن ذلك:

أ - تصحيح الإيمان باللَّه ﷻ، فمهما استدل العقل فإنه يتوصل إلى الإيمان باللَّه، لكنه يضل إذا لم تدركه هداية اللَّه في معرفة صفات اللَّه، وما يجب أن يعتقده الإنسان في اللَّه، وينفيه عن ذات اللَّه العلية. وكم تاهت عقولٌ وفلاسفة في هذا الباب.

ب - **الهداية إلى التصرف السليم وواجبات الإنسان نحو خالقه**، وما هو ضروري لسعادته في الآخرة، فذلك أمر لا يمكن أن يدركه الإنسان إلا بإعلام وهداية من اللَّه.

جـ - **الهداية إلى المعاملات الصحيحة** في أمور الدنيا؛ لنفسه ولمجتمعه وأمته؛ وقد يدرك الإنسان أشياء، لكن ما يخفى عليه أكثر، كما أنه يخضع لعوامل تَصْرِفُه عن إدراك الخير، فكانت الرسالة الإسلامية ضرورية لصلاح دنيا الناس ودينهم، فإن الإنسان بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضره، والشرع كالنور يبين له ما ينفعه وما يضره، وينقذه من متاهات هوى نفسه، وعادات محيطه الفاسدة.

د - **الهداية للأخلاق المستقيمة**، فإنه لا غنى للإنسان مهما علت ثقافته عن خُلُقٍ يُسَيِّرُ سلوكَه، ولو تُرِكت الأخلاق للناس اختلفت مقاييسها اختلافًا عظيمًا، كما يعرف من طالع آراء الفلاسفة فيها. فذلك يجعل المصدرَ الأساسِيَّ للأخلاق هو الوحي من اللَّه - تعالى -.

هـ - **بيان ما يُعاقَبُ عليه في الآخرة**، وهو أمر واضح، لا يمكن لأحد أن يحكم فيه أبدًا.

و - **تحديد العقوبات الزاجرة في الدنيا**: وذلك لأن الناس كلهم سواء، فلا يمكن لأحد معاقبة أحد إلا بسلطة أعلى، وهي سلطة اللَّه بواسطة الدين، كما أن تقدير العقوبة نفسه أمر مهم جدًّا، يقصر عنه تقدير العقلاء والأَلِبَّاء. وما أكثر ما يخضع للأهواء، والنزعات والمصالح[1].

٢ - **فضل من عَلِمَ الإسلام وعلَّمَه ودعا إليه**؛ لأن الحديث شبَّه ذلك بالأرض الطيبة التي انتفعت ونفعت.

٣ - **فضل العلم**، وأن احتواءه فضل كبير كاحتواء الماء.

٤ - **لا يصلح أن يقنع المسلم بالحظ الأدنَى من الخير**، بل لِيَكُنْ طامحًا للرتبة العليا، كما أفادنا منهج الحديث الذي لم يعرض لهذه المرتبة في تفصيل المَثَل؛ لرفع همة المؤمن عن التفكير إلا في الأفضل والأكمل[2].

---

(١) انظر هذه الأوجه مفصلة في كتابنا « فكر المسلم » تحت الطبع، يسَّر اللَّه إخراجه.

(٢) انظر أصل هذه الإرشادات في فتح الباري، الموضع السابق.

اللَّبِنَةُ الأخيرة

٢ عن أبي هريرةَ ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِياءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ من زَاوِيَةٍ!!، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟، قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ».

[متفق عليه][١]

* * *

المفردات:

مَثَلِي: المراد بمثل هنا الوصف العجيب الذي يستحقُّ أن يُضْرَبَ به المثل لفرط كماله وعلو شأنه.

أَحْسَنَهُ: أتقن البناء غاية الإتقان.

أَجْمَلَهُ: زَيَّنَهُ بما يصير به مستوفيًا لمزايا الرونق والجمال.

المحتوى الفكري:

يبين النبي ﷺ في هذا الحديث موقع نبوته من النبوات السابقة، وصلة رسالته بما جاء به الرسل السابقون - عليهم الصلاة والسلام -، هذه الصلة هي صلة الموافقة للدعوات السماوية السابقة ثم تكميلها واختتامها بالإسلام؛ لتكون الشريعة الإلهية الخاتمةُ على أَكْمَلِ وَضْعٍ. فقال: إن الصفة النبوية العجيبة التي حلَّاه اللَّه بها - صفته تلك التي بلغت في الكمال أن تكون مضربًا للمثل - منزلتُها من صفة النبوة العظيمة التي اتصف بها أنبياء اللَّه السابقون هي منزلةُ إنسان بنى بنيانًا، فأَحْسَنَ العمل فيه وفي إحكامه، ثم زَيَّنه بأجمل الزينة والحُلِيّ من جميع الجهات والجوانب، إلا موضعًا واحدًا مهمًّا، هو موضع لَبِنَةٍ في زَاوِيةٍ. لا شك أن مثل هذا الوضع عجيب، فكل من رأى البنيان سرَّه وأعجبه، ثم ازداد عجبًا حتى يبلغ العجب أقصاه، إذ ينتهي به المطاف إلى موضع اللبنة فيجده خاليًا من لبنته، التي يَكْمُلُ بها البنيان.

---

(١) البخاري بلفظه في الأنبياء (باب خاتم النبيين): ٤/ ١٨٦، ومسلم في الفضائل (باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين): ٧/ ٦٤، ٦٥.

كذلك مَنْ عَلِمَ ما اشتملت عليه النبوات السابقة، ثم تأمل المرحلة التي وصل إليها البشر في عصر بعثته ﷺ، علم حاجة الناس، وضرورة العالم إلى رسالة تُتَمِّمُ ما وضعته الرسالات السابقة، من الأصول الدينية والدنيوية؛ في العقائد والعبادات وتنظيم الحياة، وتستكمل وضع الشريعة الدينية؛ لتناسب مصالح العالم وتنطلق به في سلم الرقي والنهضة، ولهذا كله كانت بعثة محمد بن عبد اللَّه ﷺ.

وقد عبر الحديث الشريف عن هذه الأمور المعنوية، وأبان تلك القضايا الفكرية المجردة بمثال حسي واضح غاية الوضوح هو البنيان الكامل، الذي أُكْمِلَ وزُيِّن، لكن نقص شيئًا واحدًا مُهِمًّا لم يكمله، هو موضع لَبِنَةٍ في زاوية، وذلك ليلائم طبيعة الفكر الجاهلي الذي لم يكن ليطيق التحليق في المعاني المجردة، وليخاطب طبقات الناس كلها في كل زمان، فإن طبيعة الإنسان أن يأنس للماديات المشاهدة، وتنطبع في ذهنه رسومُها لصلتها الوثيقة به. وقد جاء **الحديث بالتشبيه على** أعلى أنواعه وأقواه؛ إذ صاغه **على أسلوب التمثيل**، الذي يصور لك هيئة كاملة مليئة بالكمال والحسن، مشتملة على ما يثير التساؤل والعجب في البيت الذي بلغ غاية الإتقان وزُيِّنَ أجمل الزينة، ثم بقي منه ذلك الفراغ الخطير.

فالنبوات إذًا ذات أصلٍ واحدٍ؛ لأنها كلها تشرق من مشكاة واحدة، وتفيض من ينبوع واحد، كُلُّها تدعو للإيمان باللَّه وتوحيده سبحانه، وتؤمن باليوم الآخر، وكلها تقوم على أساس الخضوع للَّه وطاعته، والعمل بشريعته، وإن اختلفت في بعض تفاصيل المعارف الإلهية، وتطبيق الواجبات الدينية، لكنها كلها قد عالجت المشاكل الإنسانية لفترة محددة، تأتي بعد كل نبوةٍ نبوةٌ تستمر في الشوط الذي سارت فيه السابقة من قبل وتبني عليه، حتى بقي لبنيان دعوة اللَّه أن يُخْتَمَ بما يُحْكِمُ تلك الدعوات ويكملها، ويستوفي كلَّ ما تحتاج إليه الإنسانية، في مرحلتها الجديدة؛ لتنتقل إلى مرحلة النهضة والرقي الشامل إلى الأبد.

هذا النقص الذي كان في البنيان بحاجة إلى إتمام، فكان ذلك الإتمام - وهو تلك اللبنة الأخيرة - هو بعثة محمد ﷺ الذي جاء مُصدِّقًا للأنبياء كلهم، وليس بعده نبوة أبدًا.

وليسَ بِخافٍ ما في ذلك التشبيه من إبداع ودقة فنية، فقد اختار المشبه به بيتًا يُبْنَى

ويُزَخْرَف، وذلك أقرب وألصق بحياة الناس، وأعظم تصويرًا للاكتمال المتدرج بوضعه لَبِنةً لَبِنةً، ثم إن مباهاة الناس بحسن البنيان وزينته أمر مشاهد ملموس، كذلك فإننا فهمنا أهمية الفراغ الذي ملأته هذه الشريعة؛ لأنه موضع في زاوية، والزاوية لها أهميتها العظيمة؛ لأنها الركن للبنيان، فالنقص فيها يكون نقصًا مُهِمًّا وخطيرًا. ثم إنه موضع لبنة لا يتسع لغيرها، فلا مجال للبنة أخرى، كذلك كانت بعثته ﷺ الختام النهائي للدعوات السماوية. كما أن اللبنة في البنيان تكون متناسقة ومتآلفة مع باقي أجزاء البنيان كذلك الدعوة الخاتمة مكملة لما سبقها ومتناسقة معها.

وهكذا خاطب الحديث بني الإنسان بهذا التصوير القوي الأخَّاذ، خاطبهم في كل عصر ومكان بهذه اللغة الجامعة للمعاني، وبذلك الأسلوب السَّلس، الذي يجتذب إليه الأذواق البدوية والحضرية كلها، قديمها وحديثها، يهيب بهم ويدعوهم إلى الرسالة الخاتمة رسالة الإسلام.

جمال البناء:

نَصُّ الحديثِ مبنيٌّ على أسلوب التمثيل الذي يقدم لوحة مصبوغة بالطابع القصصي، فأولُ ما يلقانا في فاتحة الحديث صيغة: « مَثَل.. كَمَثَل »، وهي صيغة تشير إلى توالد الصور المتصلة بالفاتحة الفنية. **وينقسم النص إلى ثلاثة مقاطع:**

المقطع الأول: « مَثَلِي ومَثَل الأَنْبِياءِ مِن قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بيتًا فأَحْسَنَه وأَجْمَله... ».

وفيه الابتداء بالجملة الاسمية: « **مَثَلي ومثل الأنبياء** »، تلك الجملة التي تدور جمل النص حولها. ونلحظ في هذا المقطع التوازن في قوله: « **أحسنه وأجمله** » فكلاهما على وزن واحد، ولكنه قدم التحسين وهو الإتقان؛ لأنه يفيد أول العمارة التي تجسم العبادات والفروض، ثم يأتي التجميل الذي يجسم النوافل وسائر القربات من اللَّه ﷻ. ويسهم التناغم الموسيقي في تصوير إيقاع العمل وانتظامه واستمراره. ويأخذ المثل طابع القصة بهذه العبارة « **بنى بيتًا فأحسنه..** »، ثم توالى الحدث بسرعة بفضل الفاء في « **فأحسنه** »، وهنا جاءت المفاجأة « **إلا موضع لبنة** »؛ لتثير التعجب بعد إثارة التشوق.

المقطع الثاني: وفيه تصعيد الحدث القصصي: « **فجعل النَّاسُ يطوفون به ويعجبون له..** ».

ويأتي الابتداء بـ « جعل » ليدل على الحركة الناشطة للطائفين وهي حركة دائرية يرسمها الحديث، يزينها هذا التوازي والتوازن بين « **يطوفون... ويعجبون** » وهما متلازمان تلازم الحركة الجسدية والحركة النفسية.

ويكمل العنصر القصصي في قوله: « **ويقولون: هلَّا وضعت هذه اللَّبِنَةُ** »، وهي جملة منشطة؛ لأنها صدرت بـ « **هلا** » التي للتحضيض. والجملة تشكِّل حوارًا جماعِيًّا أحادِيًّا، إذ لا مجيب لهم هنا، ويتنوع الأسلوب في الحديث، فهو يبدأ بضمير المتكلم، ثم الغائب المفرد ثم الغائب الجماعي، ثم المتكلم المفرد، مع حصر النبوة بضمير « أنا ».

ويأتي **المقطع الثالث**: « **فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين** » جوابًا للغز القصة ومُحققًا لالتقاء آخر النص بأوله.

فآخر كلمة: « **النبيين** » تلتقي بكلمة الافتتاحية « **الأنبياء** »، مما يدل على تشابك النص واشتداد الأواصر فيما بين مقاطعه، وأنه من النوع **الدائري المغلق** الذي يسم النص بالتماسك، **والوحدة العضوية**.

جمال التصوير:

جمع هذا الحديث من فنون التصوير **اللون الحقيقي واللون البلاغي واللون القصصي**، فصيغةُ: « **مثل** » - كما عرفنا - تشير إلى وجود لوحة فنية، وتنبئ بتشبيه يحمل عناصر اللوحة التي لا غنى عن واحد منها، وهذا التصوير يُسهم في حجم الفكرة، وليس فضلةً في الكلام، بل إن المعنى متوقف عليه، وهذه خصوصية لهذا الفن في الحديث النبوي.

وأول ما يمكن أن نتصور في فاتحة هذا النص الكريم من خلال « **مَثَلِي ومَثَلُ الأنبياء** » نتصور النبيَّ ﷺ مُتقدِّمًا جموع الأنبياء، وتلك مكرمة مَنَّ اللَّه بها على سيد البشرية، ثم ننتقل من شخص النبي إلى تصور رجل واحد ينفرد بأرجاء اللوحة، إنه يبني بيتًا، والبيت رمز الأمان ووجود الأسرة وهو نافذتنا على الكون، فهذه الكلمة « **بيتًا** » لم تَرِد في النص مصادفة ما دامت بإيحاءاتها تصور الإسلام الذي هو عمارة وأمان وهو ضرورة للحياة كالبيت.

وينتقل شكل البيت من مظهر الضرورات إلى مظهر الكمالات من خلال « **فأحسنه وأجمله** »، ثم نوضع داخل حركة دائرية بفضل « **جعل الناس يطوفون به..** »، ووصف

الطواف لتمتزج الحركات الجسدية بالحركات النفسية ثم القولية حتى نصل إلى الحوار الذي ينجلي عن التساؤل: « **هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ** ». واللبنة عنصر ضروري وكمالي، وهذا هو الكمال المتفق مع الضرورة المتجلي في الإسلام.

ونجد في النص **التشبيه البليغ** بقوله: « **أنا اللبنة** »، إذ مزج بين المشبه والمشبه به إلى ما يقرب من تبادل الماهيات ليقدم لنا النص صورة صغرى جزئية: « أنا اللبنة » في ضمن اللوحة التي رسمها لنا الحديث في أسلوب قصصي سريع شائق.

ثم تأتي الجملة الأخيرة أحسن ختام: « **وأنا خَاتَم النَّبِيين** »، إذ تقع من النص وقصته وحواره موقع النتيجة الحتمية الطبيعية، فقد اكتمل بنيان الدين كله ببعثة نبي الإسلام، فهو لا محالة « **خاتم النبيين** » أي: آخرهم، وهو أفضلهم، - عليه وعليهم الصلاة والتسليم -.

إرشادات الحديث:

١ - اهتمامه ﷺ بضرب الأمثال، وتشبيه الأمور العقلية بالمحسوسات، وهو منهج تعليمي وتربوي يجمع التوضيح للأحكام، وإثارة العاطفة للقبول.

٢ - إنه ﷺ خاتم النبيين، لا نبي بعده ولا رسول، ولا دين بعد دين الإسلام، والأدلة على ذلك قطعية يقينية ضرورية من نصوص القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ومن الأحاديث المتواترة، بل التي زادت على التواتر، ومنها هذا الحديث، فمن ادعى نبوة بعده فهو دجال كافر، يجب الحذر منه كل الحذر، ومتبعه ضال كافر كذلك.

٣ - إن دعوته ﷺ مصدقة للدعوات السماوية السابقة؛ لأن شأن اللبنة أن تكون منتظمة موافقة لِلَّبِنَات الأخرى. فالأنبياء السابقون أتوا بالدعوة الإلهية مشتملة على العقيدة وعلى الشريعة.

أما العقيدة: فقد اتفقت الأديان السماوية كافة كما نص القرآن على الإيمان بالله، ووحدانيته، وأنه سبحانه مُنَزَّه عما لا يليق به من صفات النقص، وعلى الإيمان باليوم الآخر والملائكة والحساب والجنة والنار، إنما جاء النبي ﷺ في هذه العقائد بتفاصيل ما أجمله السابقون، تحقيقًا للبشارة به أنه يتكلم بالحقيقة كلها، كما هو مسطور في الإنجيل. وقال تعالى في القرآن: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ

ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ ...﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وأما الشريعة: فقد اتفقت الشرائع كافةً على أصول المحرمات والواجبات، كتحريم قتل النفس، وأكل المال بالباطل، والشرك باللَّه، وتحريم الزنى، وهكذا... كما اتفقت على فرضية عبادته تعالى والتقرب إليه بالطاعات والعبادات. ومن هنا قالوا: إن ما جاءت له دعوة الإسلام ينقسم إلى ضروريات وغير ضروريات؛ أما الضروريات فهي حفظ الأصول الستة: الدين، العقل، النفس، المال، النسب، العِرْض. وإن هذه ضروريات اتفقت عليها جميع الأديان.

٤ - إن بعثته ﷺ تمت بها النبوات بشكل تام، وأُكْمِلَتْ بها شريعة اللَّه التي ارتضاها لعباده.

وذلك أن الشرائع السابقة كانت خاصة بقوم مُعَيَّنين، ولِحالات خاصة. فالشريعة الموسوية خاصة باليهود، وقد جاءت مناسبة لحالهم من الفساد، مما كان يقضي أن تكون شريعتهم شديدة، لا توسع فيها ولا رخص، ثم انقضت تلك الفترة، فبعث فيهم سيدنا عيسى بشريعة أيسر أحكامًا وأسهل تكاليفًا، فكانت هذه الدعوة السابقة تمهيدًا للدعوة العظمى الخاتمة، التي كَمَّلَتْ كل تشريع، ولذلك أخذ العهد على كل نبي أنه لو أدرك النبيَّ ﷺ أن يؤمن به ويتبعه.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ ... ﴾ [آل عمران: ٨١].

٥ - دَلَّ كونه ﷺ خاتم النبيين على أن شريعته وأحكامها باقية إلى يوم القيامة، وأنها تصلح لكل زمان ومكان وأن واجب المسلم أن لا يحتكم لغير أحكام الإسلام. وقد جاءت هذه الشريعة شاملة لمصالح الحياة كلها في جميع الاتجاهات، وها هي ذي الفهارس الإجمالية لموضوعات الأحاديث وآيات القرآن تكشف لك بجلاء وفاء الإسلام بتحقيق كل مصالح البشر؛ لأنه تشريع الخالق العظيم سبحانه، ومَن ذا يُحِيطُ بحاضر الناس ومستقبلهم وما يناسبهم إلا الخالق المبدع ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

٦ - إنه ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين؛ لأنه به تمَّ البنيان وكمَّل شرائعهم، وصدَّقهم

فيما جاؤوا به، وأزاح عنه غبار التغيير، وظهر به جَمَالُ البيت وكَمَالُ صرح النُّبُـوة وحُسْنه، كما قال ﷺ: « **أنا سيدُ وَلَدِ آدمَ ولا فَخر** »[1].

٧ - من فقه الحديث العميق الدلالة على أن **الإسلام يوائم بين الظاهر والباطن**، وأنه يرسم الطريق للاستقرار والأمان، ويأخذ بيد البشرية إلى التوازن النفسي، فلا كبت ولا انزلاق، بل تمام الإنسانية مع الإسلام، وذلك أن **الحديث بنى هدفه على التعجب من ظاهر البيت بالكمال والجمال مع حقيقة نقص** « **لبنةٍ من زاوية** »، ثم اكتمال موضع هذا النقص، فدَلَّ على أن تشريع الإسلام تشريع كامل؛ لأن البنيان قد كَمُلَ بِلَبِنَةِ الإسلام، وليس ثمة مجال ولا متسع لِلَبِنَةٍ أخرى، وهذه هي الدراسات والبحوث الثقافية تملأ مكتبة تثبت كمال شرائع الإسلام المالية، والمدنية، والاجتماعية، والاقتصادية، والجنائية... كما قال ﷻ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

* * *

* *

*

(١) رواه ابن ماجه، رقم ٤٣٠٨، وصححه ابن حبان، رقم ٦٢٤٢، ٦٤٧٥، والحاكم: ٢/ ٦٦٠.

أركان الإسلام

٣ عن عبد اللَّه بن عمر - رضي اللَّه عنهما - قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ، وحَجِّ البَيْتِ، وصَوْمِ رَمَضَان** ».

[متفق عليه][1]

* * *

المفردات:

شهادة أَنْ لا إله إلا اللَّه...: أن يقولها صادقًا من قلبه. وقوله: « **شهادة** » مجرور بدل من خمس، وقوله: « **وأن محمدًا** » عطف على « **أن لا إله إلا اللَّه** ».

إقام الصلاة: الصلاة في اللغة: الدعاء. والمقصود هنا أداء الصلوات الخمس حق أدائها والمحافظة عليها. وقوله: « **وإقام** » عطف على شهادة وكذا ما يأتي.

إيتاء الزكاة: تطلق الزكاة في اللغة بمعنى: النماء، وتطلق بمعنى: التطهير من الأدران، أي: الأوساخ، والمراد هنا فريضة الزكاة، سُمِّيَتْ زكاة لأنها تؤدِّي إلى نماء الخير في المجتمع، وإلى نماء مالِ المُزَكِّي وتطهير نفسه من الشح وخصال السوء.

الحجّ: الحجّ في اللغة: القصد إلى مُعَظَّمٍ، ومعناه هنا قصد الكعبة المشرفة لأداء مناسك الحج.

المحتوى الفكري:

هذا الحديث يبين أهم ما دعا إليه النبيُّ ﷺ من الواجبات العملية التعبدية، وهي الركائز التي بها تتحقق شخصية المسلم، وتثبت بها هُوِيَّتُه كمسلم، فهي بمنزلة البطاقة التي تُثْبِتُ شخصية صاحبها.

وقد عَبَّرَ الحديث عن أهمية هذه الفرائض بأسلوب بليغ جدًّا صَوَّرَ لنا هذا المعنى الفكري، وَبَيَّنَ خطورة هذه الأركان الإسلامية بصورة مادية محسوسة لنا، يفهمها كل

---

(١) البخاري أول الإيمان: ١/ ٧، ومسلم: ١/ ٣٤.

أحد، ويَشْعُرُ عن طريقها بالأهمية والخطورة كلُّ ذي إحساس، فقد جعل للدين مثلًا يُشَبَّهُ به من الضرورات الحيوية العظمَى التي لا بد منها للإنسان، هذا المثل هو البيت، البيت فيه سكينة النفس وطمأنينتها، وفيه حمايتها من برد الشتاء القارس وحر الصيف الملتهب، ويدفع عنا عوارض الجو المختلفة... والبيت كما هو معلوم يتكون من الجدران الأربعة والسقف، بها قِوامه ووجوده، والبناء في البوادي في عصره ﷺ كان عبارة عن خِباء مرتفع على عمود متوسط وأربعة أوتاد: (**خيمة**).

كذلك **قوام الإسلام وثبات كيانه يقوم على هذه الأمور الخمسة**، التي ذكرها الحديث، وقد جاء أسلوب الحديث مُؤَكِّدًا لهذه الصورة، فقد حذف ذكر البناء الذي شبه به؛ ليشعرنا بالصورةِ المادية المحسوسة شعورًا قويًّا لا مجال فيه للفصل بين المشبه والمشبه به، وأثار بذلك الخيال حيث قال: « **بُنِي الإسلامُ** »، فأضاف – أي نسب – البناء إلى الإسلام؛ لتؤدي هذه الكلمة « **بُنِيَ** » مَهَمَّةَ القرينة، التي تعرفنا أن الكلام قد سلك سبيل المجاز بالاستعارة، ولتدني الصورة المطلوبة إلى مُخَيِّلَتنا.

فكل واحد من هذه الأمور ركنٌ من أركان الإسلام، إذا اختل هذا الركن اختل دين المرء، وتعرض للعقوبات، واستحق سخط اللّٰه تعالى، كما لو فُقد أحدُ أركان البيت كجدار مثلًا أو أحد أطناب الخيمة. تُرى كم يكون الإنسان عندئذٍ متعرضًا لألوان البرد أو الحر أو العواصف أو هجوم العدو، أو غير ذلك..

هكذا أفهم النبيُّ ﷺ أهمية هذه الفرائض، وعظيم خطرها تفهيمًا واضحًا، ينطبق في ذهن البدوي الخالي الذهن عن المعارف السامية، وهو طابع العرب إذ ذاك، ويَمَسُّ مشاعر الحضري ويلائم ذوقه. وقد جاءت هذه المعاني اللطيفة الدقيقة في هذا الحديث مع غاية الاختصار والوضوح وقوة الإقناع والتأثير، وسِرُّ ذلك أنه ﷺ « أوتي جوامع الكلم ». وأفادنا أن الامتثال للعمل مرتبط بالتصديق القلبي. والصلة بينهما وثيقة جدًّا، والنقص في الفروض ينقص الإيمان ثم قد يؤدي إلى الإلحاد...، والنفس تلوم صاحبها على التقصير في الخير، فإذا أُخْرِسَ صوت الضمير ولم يستجب لهذا اللوم ينقلب إلى الضد حتى يكره الإسلام وشعائره، ويعكس الهوى قلبه، فلا ينتفع بنصح، ولا ينجع فيه وعظ، مهما ظهرت له الحجج والبينات.

وإذا كنت يا هذا لا تصبر أن تعيش في بيت تهدم أحد أركانه، فلا تتساهل في فريضة إطلاقًا.

ملامح فنية:

يقوم البناء في نص الحديث على مقطعين يشتبكان برابطة التكثيف ثم التفصيل:

المقطع الأول: « **بُنِيَ الإِسْلَامُ على خَمْسٍ** ».

وفيه إجمال الإسلام كله في خمس خصال، هي للإسلام أركان، لا يقوم بدونها، وهذا يُشَوِّقُ القارئ لمعرفتها، بعد أن تمهد شعوره بغاية خطورتها وأهميتها، ويأتي الفعل « بُني » مبنيًّا للمجهول؛ ليلقي المهابة الملائمة لأهمية المذكورات.

المقطع الثاني: وهو تفصيل وشرح للأول.

وقد جاءت المفاصل فيه متوازية في أطوالها، متوازية في نغمها، مما أعطى نص الحديث نغمًا يجذب إليه القلب ويشعره بالارتياح.

ويتضح **جمال الصورة في الحديث، وهي صورة استعارية**، اعتمدت على تقريب المعنى وتجسيمه بِحِسِّيّ، لصيق جدًّا بكل إنسان يتلقى هذا الحديث، وهو البيت الذي هو مأمن الإنسان، وموضع اطمئنانه وسعادته؛ لتضفي الصورة الرغبة في تحقيق هذه الأركان، رغبة النفس في تحقيق أمنها واطمئنانها وسعادتها.

إرشادات الحديث:

١ - قال العلماء: « هذا الحديث **أصل عظيم في الدين**، وعليه اعتماده، وقد جمع أركانه ». وهي شاملة للعقيدة، ولأعمال البدن، وأعمال المال، وأعمال البدن والمال، فمن أقام هذه الأركان على وجهها أدت إلى استقامة سائر تصرفاته. فإن لم تستقم فلإخلاله في بعض الجوانب في الأداء.

٢ - **غاية أهمية هذه الأركان وفضلها**؛ لأن قوام الإسلام متوقف عليها.

أ - فشهادة أنَّ لا إله إلا اللَّه وأنَّ محمدًا رسول اللَّه بمنزلة العمود من بيت البدوي: « الخباء »، إذا ذهب العمود سقط الخباء على الأرض. أو بمنزلة السقف من بيت الحضري.

ب - والصلاة ركن كأحد أوتاد الخباء الأربعة، وقد جاءت النصوص تؤكد فرضيتها وتعبر عما أشار إليه الحديث فمنها:

حديث جابر ﷺ عن النبي ﷺ قال: « **بَيْنَ الرَّجُلِ وَالشِّركِ تَرْكُ الصَّلَاة** » [أخرجه مسلم].

وحديث عبد اللَّه بن شقيق قال: « **كان أصحابُ رسول اللَّه ﷺ لا يَرَوْنَ شيئًا من الأعمال**

تركه كُفْرٌ إلا الصلاة » [أخرجه الترمذي والحاكم وصححه]، يعني أنَّ من ترك الصلاة فقد ارتكب إثمًا عظيمًا، أشْبَهَ بِه الكُفَّارَ، وقارب الكفر، حتى يُخْشَى عليه أن يقع فيه، عياذًا باللَّه.

جـ - وأما الزكاة فهي ركن فرضه اللَّه أداءً لحق نعمة المال، وهي أساس يعتمد عليه نظام التكافل المعاشي في الإسلام، تجبيها الدولة وتضعها في مصارفها؛ لتحارب الفقر، وقد جاء في الحديث: « **كاد الفقر أن يكون كفرًا** »[1].

لذلك أجمع الصحابة والعلماء على أن قومًا لو منعوها استحقوا القتال؛ لأنهم يريدون إبقاء فقر العَجَزَة والمنقطعين والمُعْوِزين والمحتاجين، فكأنهم يحثون على الكفر، وقد حارب أبو بكر الصديق مانعي الزكاة وقال: « لو منعوني عقالًا كانوا يعطونه رسول اللَّه ﷺ لقاتَلْتُهُمْ عليه ».

د - الحج: تلبية نداء الرب لزيارة الأماكن المقدسة لتمتلئ النفس بعظاتها وعِبَرِهَا، وما فيها من آيات الأنبياء - عليهم السلام - وهو مشهد تأتلف فيها القلوب على البر والتقوى، ينعقد فيه أعظم مؤتمر بشري، مؤتمر كله خير وبر، اجتمعَ للتناصح والتعاون على الخير، لا لغدر بأُمة أو تآمر على شعب، الحج يجدد الإيمان في القلب، ويوثق عروة المؤمن بدينه؛ لذلك كان فرضًا من أركان الإسلام: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ [آل عمران: ٩٧].

هـ - الصيام: وهو رياضة النفس على تحمل مشاقِّ الضرورات البدنية، وسموٌّ بالروح لتكون على استشعار دائم لمراقبة اللَّه تعالى، فإن الإنسان طيلة صيامه تحثه نفسه على المشتهيات وهو يمتنع عنها؛ لأنه يعلم أن اللَّه يراه وأنه مطلع عليه. وهكذا يوصلنا الصيام إلى رتبة من مراتب الإحسان. الذي عَرَّفَهُ النبي ﷺ فقال: « **أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** ». [متفق عليه].

٣ - **خطورة التقصير في شؤون الصلاة والزكاة والصوم والحج**، لأن نقص أي شيء منها يعني زوال ركن، وهو بمنزلة انهدام جدار من البيت. لذلك عظم الوعيد على التقصير في كل من الصلاة والزكاة والصوم والحج. والحديث عبرة بالمثل الواضح الذي ضربه لمن يعتبر ويتدبر.

---

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب، رقم ٥٨٦، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ٥٨٦، وأبو نعيم في حلية الأولياء: ٣/ ٥٣، ١٠٩.

حلاوة الإيمان

٤ عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ إِذ أَنْقَذَهُ اللَّهُ كَمَا يَكْرَهُ أَن يُلْقَى فِي النَّارِ ».

[متفق عليه][1]

* * *

المفردات:

ثلاث: أي: ثلاث خصال. والتنوين عوض عن المضاف إليه، فساغ الابتداء بالنكرة لذلك.

وجد: حَصَّلَ. تعدى إلى مفعول واحد، والوجود: الحصول.

من كان: هذا بدل. والأصل أن يعدد الخِصَال، لكنه عدد الأشخاص فقال: « من كان... »، وهو بدل على تقدير مضاف هو: خَصْلَةُ (فعلة). والمعنى خصلة من كان اللَّه ورسوله.. وخَصلة.. وخَصلة..

حلاوة الإيمان: الحلاوة طعم الشيء الحلو. وحلاوة الإيمان: انشراح الصدر له وارتياح القلب به، واستلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات بارتياحٍ في رضا اللَّه ﷻ، ورضا رسوله ﷺ.

المحتوى الفكري:

قصد الحديث أن يبين لنا ثمرة الإيمان الكامل الراسخ في قلب الإنسان، ويبين ما تحصل به تلك المرتبة. وفيه حَضٌّ على التحلي بهذه الصفات السامية العالية، وإثارة العاطفة لمحبتها، والرغبة في تحصيلها، فللإيمان مراتب وله حالة كامنة في النفس، إذا نشطت فإنه يجعل من الإنسان إنسانًا كاملًا يشعر بالانشراح لإيمانه وطاعاته، حتى كأنه ذاق شيئًا مطعومًا حُلْوًا. وقد عَبَّرَ النَّبيُّ ﷺ عن هذا الأثر العظيم للإيمان، وهو أمر روحي صرْفٌ تَعْجِزُ العبارات عن وصفه، فعبر الحديث عن هذا الأثر بهذا الأسلوب الواضح،

(١) البخاري: ١/ ٨، ومسلم: ١/ ٤٨.

فقد شَبَّهَ الإيمان بالشيءِ الحلو الذي يُطْعَمُ، ثم قرَّبَ إلينا هذا المعنى وقواه جدًّا، فحذف المشبَّه بِهِ، وأثبت المُشَبَّه، وأبقى شيئًا من لوازم المشبه به: « طعم » أو « ذاق » في الرواية الأخرى، حتى جعلنا بذلك نفهم هذا الأمر المعنوي، الذي يشعر فيه بالانشراح والسمو الإيماني، وهو أمرٌ لا يمكن التعبير عنه، وذلك أنه جعل للإيمان طعمًا وحلاوة حسية لتعاطي الطاعات، وامتثال أوامر اللَّه، حتى قال ﷺ « **أَرِحْنَا بالصَّلَاةِ يا بلال** »[1]. فهي راحة من المشقات والمتاعب، يجدها من ذاق حلاوة الإيمان.

هذه الخِصَال الثلاثة هي:

١ - « **مَنْ كان اللَّهُ ورَسُولُه أحبَّ إليه مما سواهُمَا** »: قوله: « **مما سواهما** » يشمل كل شيء حتى نفسك أنت. أي: إنَّ الإيمان باللَّه وبالنَّبِيِّ ﷺ بلغ غاية الكمال، حتى استشعر اليقين بعظمة اللَّه تعالى وكمالاته التي لا تنتهي، كذلك استشعر فضلَ اللَّه ونعماءه عليه، وما لرسول اللَّه ﷺ من نعمة وفضل عليه، وعلى العالم، وفضل خصاله وكمالاته التي لا يدانيها مخلوق[2]، فكان حبهما مُقَدَّمًا على كل شيءٍ سواهما من نفسٍ ومالٍ وولدٍ وأهل. والميزانُ في ذلك ميزانٌ عَمَلي، هو أن يفضِّلَ طاعةَ اللَّه ورسوله، ويقدمها على كل هوًى وكل محبوب أثير لديه.

٢ - « **وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إلا للَّهِ** »: فالعروةُ الوديةُ فيها سامية تسمو على الروابط المادية؛ لذلك جُعِلَ الحُبُّ للَّهِ من الإيمان. وهذا رُقِيٌّ بالإنسان وسُموٌّ يدل على قوة إيمانه، وعمق تأثر هذا الإنسان به.

فهذه خصلة من خصال الإيمان، وهذه الخصلة من طبيعتها ألَّا تقبل الضعف ولا الانفصال، وبذلك يكون المجتمع قويًّا متماسكًا، وعَبَّرَتْ هذه الخصلة عن كل الفضائل الخلقية الاجتماعية، فإن حب الناس حبًّا إلهيًّا مجرَّدًا يدفع الإنسان للإخلاص لهم، ولحب الخير للمجتمع الذي يعيش فيه، وَأَنْ يُصْلِحَ في الأرض، كما يمنعه من كل مفسدة فيما بينه وبين الناس. فتسود في الأمة روحُ الإخَاءِ الذي يبلغ التضحية والفداء، بفضل ترفع الأفراد عن الخضوع للأهواء الشهوانية أو المادية: « **مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ الواحد، إذا اشتكى منه عُضْوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** ». [متفق عليه].

---

(١) رواه أبو داود، رقم ٤٩٨٥، وأحمد في المسند: ٥/ ٣٦٤.

(٢) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي بتصرف: ٢/ ١٣، ١٤.

٣ - « **وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُوْدَ فِي الكُفْرِ - بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ - كَمَا يكره أن يُلْقَى في النار** »:

والمعنى أن يتحدد موقف المسلم من العقائد الأخرى، وهو حد فاصل بين الهلاك والفناء، والنجاة والفوز، فكما أنه لو رأى الفناء أمام نفسه ابتعد عنه كل البعد، كذلك يبتعد عما سوى الحق وهو ما سوى الإسلام.

جمال البناء:

يعتمد هذا الحديث على التكثيف أو الإجمال في مقطعه الأول: « **ثلاث من كن فيه** »، ثم يأتي **التفصيل في المقاطع** « **من أحبَّ عبدًا** » « **مَن كان اللَّه ورسوله أحبَّ** » « **من يكره أن يعود** ». وهذا المنهج يثير التشوق في قلب السامع والرغبة في معرفة هذا الإجمال، فيأتي التفصيل والتفسير بعده، فيقع في القلب موقعًا عظيمًا، كما تأتي « **من كان..** » متكررة في مطلع كل جملة؛ لتشكل افتتاحية واحدة يتبعها تنويع يزيد الشوق.

ونجد في نص الحديث استخدام أسلوب الشرط « مَنْ.. » وهو أسلوب برهاني قوي، يعني: تحقق الجواب « **وجد** »، متى تحقق الشرط « **من كن فيه** ». وفي هذه الرواية استخدام الحذف، فحذف « من الكلام كلمة الخصال »، والتقدير: « ثلاث خصال »، وكذا في « من كان اللَّه.. » والتقدير: « خصلة من كان.. » « وخصلة... » وهذا الحذف يعطي التراكيب جزالة وقوة.

وتتوازن الجمل والمقاطع في نص الحديث، فالمقاطع الثلاثة محتوية على المضمون نفسه في النتيجة: حب اللَّه ورسوله، حب الناس لوجه اللَّه، الثبات على الإيمان. وتتوازى المقاطع كلها في الحجم، وتأتي كل جملة بسبك محكم مما يعطي النص نغمًا موسيقيًّا جميلًا يزيد النفس قبولًا له وارتياحًا إليه.

ثم تتردد في النص مادة المحبة: المحبة للَّه والمحبة في اللَّه، وضدها الكره في اللَّه وهو كره الكفر، مما يقوي ترابط النص، وينشر عاطفة هذه المحبة السامية وعاطفة البغض والمقت الشديدين للكفر، كما أن كل مقطع قد تضمن على قِصَرِهِ مِعانيَ كثيرةً جدًّا مع وضوح العبارة، مما يزيد نص الحديث قوة وقعٍ في القلب.

جمال التصوير:

يعتمد نص الحديث على التصوير اعتمادًا أساسيًّا، فمن مطلعه **نجد الصورة الذوقية في** « **وجد طعم الإيمان** »، تلك الصورة التي ترد ثلاث مرات: مع محبة الناس للَّه، ومحبة

اللَّه ورسوله، والثبات على الإيمان، والصورة الذوقية تفيد التَّمَاسَّ الشديد؛ لأن حاسة اللسان أقوى الحواس إدراكًا واستمرارًا، **ثم الصورة الحركية** في نهاية النص، وهي صورة الوقوع في النار القابلة للحصول « **أن يُلْقَى في النار** »، وشدة الرعب منها وكراهتها، تقويها الحركة (الشاقولية) من الأعلى إلى الأسفل « يقع ».

ويتكرر في الحديث لفظ الجلالة ثلاث مرات بقدر عدد الحالات المذكورة فيه. ويقع هذا اللفظ الجليل في جملة معترضة بين كلمتين متقاربتين في الحقل المعنوي « الكفر » « النار » في كلمة « أنقذه اللَّه »؛ ليعطي تصوِيرًا عمليًّا يقرب مفهوم الرحمة الربانية.

إرشادات الحديث:

١ - إن كمال الإيمان له جمال روحي ينعم به الإنسان، كما ينعم ويتلذذ بطعم الشيء الحلو.

٢ - فضل الخصال المذكورة وفضل أصحابها وأنها تؤدي إلى حلاوة الإيمان، وذلك لأن من اتصف بهذه الصفات لا بد أن يكون قد قوي إيمانه واطمأنت به نفسه، وهذا هو الذي وجد حلاوته.

٣ - لا بد من تمرين النفس ومجاهدتها على هذه الصفات، ومراقبتها بدقة، حتى يصل المؤمن إلى كمال اليقين الذي يورث صاحبه حلاوة الإيمان.

* * *
* *
*

الإخلاص والكمال

٥ عن أبي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **مَنْ أَحَبَّ للَّهِ، وَأَبْغَضَ للَّهِ، وأعْطَى للَّهِ، ومَنَعَ للَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإيمانَ** ».

[أخرجه أبو داود][1]

* * *

المحتوى الفكري:

يوضح هذا الحديث طبيعة الإيمان في قلب المؤمن. فالإيمان باللَّه وكتبه ورسله واليوم الآخر ليس مجرد أفكارٍ تُرَاوِدُ التصور والخيال، بل هو جذوة إلهيةٌ نَيِّرة، توجه الأعمال وتضيء السبيل. فالمؤمن الحق يسير في ضوء الإيمان، وينهج نهجه، لا يفعل شيئًا، ولا يترك، ولا يزن الأمور إلا بميزان الحق، الذي أتاه من اللَّه، الحق الكامل الذي لا يأتيه الباطل، ألا وهو ميزان الشريعة. وبذلك يستكمل الإيمان، أي: يكمله، لكن الحديث عَبَّر بـ « **استكمل** » مبالغةً في تكميل الإيمان؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وتفيد العبارة كأن هذا الإنسان جرد مِنْ نفسه مَنْ يطلب منه تكميل الإيمان دائمًا، فهو في كمال مستمر.

هذا العامل الإيماني لا بد أن يؤثِّر تأثيرًا قويًّا عظيمًا، في تكوين شخصية المسلم الأخلاقية والاجتماعية، ويوجهها اتجاهًا منهجيًّا خاصًّا. هذا المنهج الخاص يجعل من الإنسان حرًّا كل الحرية وبكامل قوتها؛ لأنه يُعْتِقُ إرادته من الخضوع للعوامل المادية والمعنوية الوضعية، التي تُؤَثِّر في سير الإنسان وسلوكه الصحيح.

فإذا كان كثير من الناس يفعلون الخير خضوعًا لطمع ونفع شخصي، أو تزلُّفًا لإنسان، أو مراعاة لقوة ما، أو اعتبارٍ ما، وإذا كان هؤلاء يتركون ما يتركون تبعًا لمثل هذه المؤثرات فأولئك أُناسٌ فقدوا حريتهم، إذ أصبحوا تَبَعًا للمطامع، ولمن يُغْرِيهم بهذه المطامع، وإن كان إغراءً فارغًا خادعًا، فلا حرية لمثل هذا النوع، ولا عزة له، لأنه باعها بالمادة.

---

(١) أبو داود في السنة (باب زيادة الإيمان ونقصانه): ٤/ ٢٢٠ من طريق القاسم بن عبد الرحمن الشامي، قال المنذري في تهذيب السنن ٧: « تكلم فيه غير واحد » وقال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب: ٢/ ١١٨ « صدوق يرسل كثيرًا ». لكن أخرجه الترمذي والإمام أحمد عن معاذ بن أنس. كما في فيض القدير: ٦/ ٢٩.

أما المسلم فإنه يعمل ويكافح لا لتسلية غرائزه وأطماعه، بل استجابةً لإيمانه، إذًا لا بد أن يكون فردًا كاملَ الحرية في أعماله وتصرفاته؛ لأنها تنبعث من يقينه وإيمانه، وبهذا فقد تحرَّر الإنسان المسلم من كافة المؤثرات، فلا سبيل لأحد للسيطرة عليه، فلا يريد إلا ما يريده اللَّه، ولا يكره إلا ما يبغضه اللَّه تعالى، فيرتفع بذلك في علياء العزة: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨].

يزعم الوجودي أنه يبحث عن تحقيق وجوده، وذلك بمخالفة ما ساد المجتمع؛ لذلك قال سارتر: « الغير هو الشر ». أي كل الاعتبارات: المادية والأخلاقية والقانونية شر على الإنسان؛ لأنها تطغى على وجوده وتمنعه أن يفعل ما يريد، ولذا وجب التمرد على كل الأعراف والتقاليد والأخلاق.

بذلك يتحقق بزعمهم وجود الإنسان وحريته.

لكن هذا الوجود المزعوم هو في الحقيقة وجود كالعدم، إن لم يكن هو العدم ذاته؛ لأنه يؤدي إلى العقد النفسية وإلى فقدان الفضائل الإنسانية، فهذا يعني فقدان الإنسان ذاته، وتحوله لمخلوق آخر، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [الأنفال: ٥٥]، فإذا أهملنا حقوق الآخرين أصبحنا في شريعةالغاب التي تضيع فيها القيم والأخلاق، إنما التحرر الحقيقي هو التحرر من القيود الطاغية على الإنسان، هو التخلق بقيم عالية تبعده عن التأثر بهذه المؤثرات، وذلك بأن يتحقق إيمان الإنسان وعبوديته للَّه – تعالى – وحده، فلا تَسْتَأْسِرُه عوامل ولا تبتعد به ضرورة. وقد لحظ هذا المعنى بعض المتذوقين العارفين فقال:

ومـــمـا زادنــي شَـرَفًا وتِـيــهًا ... وَكِـدْتُ بأخْمَـصي أَطَـأُ الثُّريـَّا
دُخُـولِي تحـتَ قولِـكَ يا عِـبَادِي ... وَأَنْ صَيَّـرْتَ أَحْـمَـدَ لِـيْ نَبِـيَّـا

ملامح فنية:

عبر الحديث عن كل هذه المعاني الكبيرة في مقطع واحد يتألف من فعل شرط وعَطْفٍ عليه وجواب شرط، فهو ثلاث جمل مترابطة تمام الترابط، تقدم أسلوبًا برهانيًّا هو أسلوب الشرط.

وأفاد تعبير الحديث في شطره **الأول جملة فعل الشرط « من أحب للَّه.... » تَمَحُّض الإخلاص للَّه** – تعالى – عند هذا المؤمن، فهو يحب ما يحب للَّه – تعالى –، ويبغض

ما يبغض للَّه، والحب والبغض أصل العواطف، فدل على أن عواطفه كلها توجهت بقوة إيمانه وإسلامه.

ثم يذكر الحديث انضباط عطائه ومنعه للَّه - تعالى - أيضًا، وهما عنوان تصرفات الأعمال، وبذلك شمل الحديث كل جوانب الإنسان بهذه الكلمات المعدودة، وذلك إيجاز (تكثيف) عظيم الوقع، مع غاية الوضوح والسهولة مما أعطى التركيب جزالة وقوة.

وزاد قوة الدلالة في الحديث **الطباق** بين أحب وأبغض، وأعطى ومنع، والتعبير بالفعل الماضي الدال على التحقق التام. وقَدَّمَ الحُبَّ للَّهِ والبُغْضَ للَّهِ؛ لأن مشاعر القلب منبع التوجيه للسلوك والإعطاء والمنع.

كما جاءت الجمل **متوازية الحجم** متوازنة النغم لتقع في الأذن موقعًا جميلًا يتجاذب مع عاطفة المحبة وكمال الإيمان.

إرشادات الحديث:

١ - الحديث أصل عظيم في **ضبط المسلم مشاعره وتصرفاته بالإخلاص للَّه - تعالى -**، لأنها لا تخلو من حب أو بغض أو إعطاء أو منع، ويتبعها الموافقة والمخالفة. والحديث بهذا يظهر ركنًا من الأركان التي شملها عموم حديث « **الأعمال بالنيات** ». لأنه يشمل أعمال القلب كالحب والبغض، وأعمال الجوارح.

٢ - عَلَّقَ الحديثُ كمالَ الإيمانِ على الأربعة المذكورة، وتفسير ذلك أن **مدار الدين على أربع قواعد: قاعدتان باطنتان، وقاعدتان ظاهرتان.**

أما القاعدتان الباطنتان فهما الحب والبغض، وأما القاعدتان الظاهرتان فهما الفعل والترك، ومنهما الإعطاء والمنع، وخصَّهُمَا الحديث بالذكر لتعلُّق المصلحة للشخص بهما أكثر من غيرهما. فمن استقامت نيته للَّه - تعالى - في حبه وبغضه وفعله وتركه فقد أحاط الإيمان به من كل جوانبه، « **فقد استكمل الإيمان** ».

٣ - هذا الحديث **من جوامع الكلم المتضمنة لمعنى الإيمان والإحسان**، فإنه من معنى حب اللَّه - تعالى - حب رسول اللَّه ﷺ، ومتابعة شرعه. كما قال الشاعر:

لـو كـان حُـبّـكَ صَادِقًا لأطعتـه ... إن المُحِـبَّ لِـمَـن يُحِـبُّ مُطِـيـعُ

ومن جملة البغض للّه بغض الإنسان لنفسه الأمارة بالسوء ومجاهدتها حتى تستقيم على طاعة اللّه، وإلا كانت المحبة ادعاء بالكلام المجرد عن الحقيقة.

٤ - **علامة صدق المحبة الخلوص من الشوائب**، فليس المحب الذي يرجو من محبوبه عوضًا، بل المُحِبُّ الذي يبذل لك، ليس المحب الذي تبذل له، وهكذا صبر أهل الإيمانِ ومحبة اللّه على الشدائد وجاهدوا ورَضُوا بالسَّرَّاء والضرَّاء، فرضِي اللّه عنهم ورضوا عنه.

* * *
* *
*

أيُّ الذنب أعظم؟

٦ عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟. قال: « أَنْ تَجْعَلَ للَّهِ نِدًّا وهُوَ خَلَقَك » قال: قلت: إِنَّ ذلِكَ لَعَظِيمٌ. قال: قلت: ثُمَّ أَيٌّ؟.

قال: « أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعك ».

قلت: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: « أَنْ تُزَانِيَ حَلِيْلَةَ جَارِكَ ».

[متفق عليه][1]

* * *

المفردات:

أن تجعل: أن ناصبة، وتجعل فعل مضارع منصوب بأن، والجملة مُؤَوَّلَة في محل خبر مبتدأ محذوف دَلَّ عليه الكلام السابق، تقديره: أعظم الذنب عند اللَّه جعلك نِدًّا للَّه، وهكذا الجملتان الآتيتان.

نِدًّا: نظيرًا، والمراد أن تشرك باللَّه.

تُزَانِي: تَزني، هكذا فُسِّر. وقال القرطبي[2]: تحاول الزنى. وهو قوي.

حليلة: زوجة، وكذلك بنت الجار أو أخته، حكمهما في تغليظ العقوبة سواء.

المحتوى الفكري:

ألغى الإسلام الحنيف ما كان في الجاهلية من تقاليد وعادات خبيثة، وطهَّرَ العقولَ من أدناس العقائد الباطلة، حتى صارَ صدقُ الإيمان مرتبطًا بالتبرؤ من مفاسد الجاهلية، وهذا الحديث يبين لنا عناية الصحابة بمعرفة ما يضرهم في دينهم ليجتنبوه، وذلك هو الواجب على المسلم، بل هو شأن كل عاقل، وقد نَبَّهَ النبيُّ ﷺ على أخطر هذه الأمور

(١) البخاري في تفسير سورة البقرة: ٦/ ١٨، ومسلم في الإيمان: ١/ ٦٣ (باب بيان كون الشرك أعظم الذنوب).

(٢) القرطبي هنا أبو العباس بن عمر صاحب المفهم، وهو شيخ أبي عبد اللّه القرطبي المفسر، انظر المفهم شرح ما أشكل من تلخيص صحيح مسلم له: ١/ ٢٥٢.

وهي جناياتٌ خطيرةٌ جدًّا انغمس فيها الجاهليون فجاء الإسلام وَأَعلَنَ عليها حربًا لا هوادة فيها، حتى طهر المجتمع الإسلامي، بل طهر المجتمع الإنساني كُلَّه منها:

١ - الذنب الأول وهو أعظم الجنايات قاطبة: « **أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وهُوَ خَلَقَكَ** » وقد أَكَّدَ هذه الفظاعةَ بقوله: « **وهو خلقك** »؛ فَإِنَّ هذه الجملة قد اشتملتْ على الدعوة الباطلة، وهي « **أن تجعل لله ندًّا** » وعلى الدليل الذي يبطلها: « **وهو خلقك** ». أي: إنه هو الذي خلقك، ففي الخلق دليل على وجود الخالق. وهذا أمر واضح، والدليل على وحدانيته تسوية الخلق. فلا ترى شيئًا في الدنيا فيه خلل ولا اختلال، ولو كان هناك آلهة لاختل النظام لاختلاف الآراء والإرادات.

والواقع العلمي يُحدِّثُنا أن العالم مرتبطٌ ببعضه أشد الارتباط، فلو أَنَّ نَجْمَةً صغيرةً اختلت عن موقعها لَأَدَّى إلى اختلال العوالم العليا والسفلى. فأجزاء الكون جميعُها مرتبطةٌ ببعضها، برباطٍ كوني واحدٍ تُسيره القدرة الإلهية، وإذا كان العالم كذلك (وحدة النظام ووحدة الكون) فهو دليل على أن المُوجِدَ والخالق واحدٌ لا يمكن أن يتعدد. وقد أَدَّتْ هذه الجملة « **وهو خلقك** » معنًى آخر عظيمًا جدًّا في هذا المقام، إِذْ أفادتْ تقبيحَ حالِ المُشْرِك، إذْ يتخذ آلهة أخرى لا تملك نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ويُسَوِّيها بِرَبِّهِ وخالقه، ويتقرَّب إليها كَمَا يتقرَّب إليه، ولا شك أن ذلك فظيع غاية الفظاعة في مدارك العقول.

٢ - « **أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ** »: زعم بعضهم أن الوأد غير موجود في الجاهلية، ومنهم من قال: إن القتل للأولاد كان للحفظ على كرامتهم، وهذا باطل أيضًا، إذ لو كان كذلك لقتل الناس جميعًا أولادهم، وقصة جَدّ الفرزدق في منع قتل الأولاد تنقض هذين الرأيين وتثبت ما كان عليه الجاهليون من غلظة وقسوة. إذ يعتدون على حق غيرهم في الحياة والوجود أفظع اعتداء؛ لأنهم يحرمونه أولادهم. والإسلام قد اعتبر حق الحياة حقًّا مُقدَّسًا، وأحاطه بصيانات قانونية صارمة.

لقد جاء الدين فحرَّم هذا العرف الجاهلي وألغى هذه العادة، وجعلها أعظم الذنوب بعد الشرك بالله، فكان الإسلام أول من حفظ للإنسان حق الحياة، ولن يزال أحفظَ تشريع لهذا الحق إلى الأبد.

٣ - « **أَنْ تُزَانِيَ حَلِيْلَةَ جَارِكَ** »: هذا العمل خطير جدًّا، لأنه فاحشة اشتملت على فواحش متعددة.

١ - فالزنى من حيث هو زنًى فاحشة مبغوضة... ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢] وقد وُصِفَ بأقبح الأوصاف، فهو سبيلٌ سَيِّئٌ وخِيمُ العواقب. ولذلك قال تعالى: ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾. فهو طريق سوء لإرواء الغريزة يؤدي إلى آفات صحية خطيرة على الإنسانية، كما أنه سبيلٌ سيئ في الأخلاق يمسخ أخلاق الإنسان ويطبعه بطابع البهيمة. وإن الزنى مُؤَدٍّ إلى أَسْوَأ النتائج في النسل؛ لوجود طائفة من الأولاد لا أولياء لهم، يعيشون أشقياء محرومين من عاطفة الحنان. وإنَّ إخراج عاطفة الأمومة من الطفل من أسوأ الجرائم؛ لأن الطفل المحروم العاطفة يصبح قاسي القلب مطبوعًا على الحقد ضد المجتمع، مفطورًا على الإجرام والشقاء.

٢ - إن هذا الزنى فيه إساءة لرعاية حق الجار، ورعاية الجار من نتائج الإيمان كما في الحديث الصحيح: « **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ واليومِ الآخرِ فَلَا يُؤْذي جَارَهُ** » [متفق عليه][1].

وهل أعظم أذى للجار من الاعتداء بالزنى على زوجه، أو أحدٍ من نساء بيته.

٣ - ثم تبرز خطورته في هذا الوضع وهو استحضار الطريق للسوء، وذلك بأن يُؤْذِيَ جاره، والجار مؤتمن على امرأة جاره، فمن آذى جاره بهذه الخيانة فلا أمانة له، وفعله ذلك دليل نفاقه؛ لأنه كما ثبت الحديث: « **لا إيمان لمن لا أمانة له** »[2]. وقد بالغ الحديث فقال: « **تزاني** » أي تحاول، فكيف إذا زنى؟!

ويتعلق هذا الحديث أيضًا بالقيم الخلقية الفاضلة، وأثرها في الإيمان، فإن قتل الولد وأذى الجار جريمتان أخلاقيتان مناقضتان للإيمان، وَدَلَّ الحديثُ بذلك دلالةً عظيمةً على أن الفضائل الإنسانية شعبٌ تتفرع من العقيدة الإيمانية.

ملامح فنية:

يقوم بناء الحديث على الحوار، وهو أسلوب مهم من أساليب التعليم، وهو هنا حوار ثنائي بين الصحابي والنبي ﷺ.

يبدأ الحوار بسؤال يطرحه الصحابي: « **أي الذنب أعظم؟** » فنجد فيه إيغالًا في التأثير بقوله: « **عند اللَّه** » لاستحضار عظمة اللَّه، ثم نجد في الجواب قوله: « **وهو خلقك** »

---

(١) البخاري في النكاح (باب الوصاة بالنساء): ٧/ ٢٦، ومسلم: ١٠/ ٥٧ بشرح النووي.

(٢) رواه أحمد في المسند: ٣/ ١٣٥، ٢١٠، وابن أبي شيبة: ١١/ ١١ وصححه ابن حبان، الإحسان: ١/ ٤٢٣ وحسنه البغوي في شرح السنة، رقم ٣٨.

والضمير « هو » خير **تعبير لنفي التشبيه** عن الذات الإلهية، خصوصًا في مقام ذكر النِّدِّ، فأثبت التعبير بطلان تأليه غير اللَّه.

ويأتي السؤال الثاني « **ثم أي؟** » مختصرًا للدلالة على سرعة الكلام المناسِبة لِلَّهْفَةِ والتشوقِ إلى معرفة الأمر، ويأتي الجواب بقوله: « **أن تقتل ولدك تخافُ أن يَطْعَمَ معك** » وفيه بلاغة بقوله: « **معك** » إذ يشير إشارة بليغة إلى تصوير البخل الشديد والقسوة الفظيعة لدى هذا القاتل، الذي يشعر بأن ولده يَشْرَكُهُ في اللقمة، وأيّ لقمة؟ اللقمة التي سيأكلها في المستقبل!!

ثم يأتي السؤال الثالث كذلك مختصرًا للهفة التي تضاعفت بعد معرفة ذنبين عظيمين جدًّا، ونجد الجواب « **أن تُزَانِيَ حليلَةَ جارك** » ليُبَيِّنَ فظاعة هذا الفعل، فهي تحل لجاره لا تحل له، وتأتي صيغة التفاعل « تزاني » الدالة على المشاركة لاستحضار صورة الزنى الشنيعة، وصورة محاولة الزنى، فَوَضَّحَ شَنَاعَةَ الجريمة بأنها محرمة عليه؛ لأنه زانٍ بها، وزادت حرمتها بكونها حليلة لغيره، ثم زادت ثالثة لكونها لجاره، فاستوجب بذلك أعظم الذنب وأشنعه.

ونجد في الحديث: إثارة عواطف المقت لمرتكب الفواحش بما ذكر لكل منها من برهان. وقد جاءت فيه **الجمل متوازية** في التركيب والمساحة. وأنه راعى استخدام كاف الخطاب؛ لتعطي الجمل نغمًا موسيقيًّا منسجمًا يتفق مع غرض الحديث وإثارة انتباه السامع، كما استعمل **أفعال المضارعة** « **تقتل** »، « **تخاف** »، « **تزاني** » لاستحضار مشهد هذه الجرائم الشنيعة، وإثارة المقت عليها في النفس.

إرشادات الحديث:

١ - إن الشرك باللَّه **والكفر به والإلحاد أعظم الذنوب** وأكبر الجنايات الكبائر.

٢ - **إقامة الدليل على إبطال الشرك** وإبطال عبادة غير اللَّه تعالى؛ لأنه سبحانه هو وحده الذي خلقنا، ولا خالق غير اللَّه ﷻ.

٣ - **تعظيم حق الحياة**، وتغليظ جُرْم الاعتداء عليها، وخصوصًا الولد ابنًا أو ابنةً؛ لأنه قتل نفسٍ محرمةٍ شرعًا، محبوبة طبعًا، مرحومة عادة. فإذا قتلها أبوها، كان ذلك دليلًا على غلبة الجهل، وشدة البخل، وغاية غلظ الطبع والقلب، وأنه انتهى في ذلك كله إلى الغاية القصوى عياذًا باللَّه - تعالى -.

٤ - **تغليظ حرمة امرأة الجار وكذا ابنته أو أخته**، ووجوب الاحتياط في التعامل معها، فإن الحديث يشمل كما نص العلماء[1]، إفسادها على زوجها، وملعون من فعل ذلك كما صرحت أحاديث أخرى، وكذلك استمالة قلبها لغير زوجها، وهذا يقع كثيرًا، وربما ليس بقصد السوء. **فَلْيُحْذَرْ منه أشد الحذر**.

* * *
* *
*

---

(١) شرح مسلم للنووي: ٢/ ٨١.

شجرة الإيمان

٧ عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « **الإِيْمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً: فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيْقِ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيْمَانِ** ».

[متفق عليه. وفي رواية لمسلم وأبي داود والترمذي والنسائي: « بِضْعٌ وسَبْعُوْنَ »[1]]

* * *

المفردات:

شُعبـة: الشعبة واحدة الشُعَب وهي أغصان الشجرة.

إلــــه: على وزن فِعال من أله بمعنى عَبَدَ، أي: معبود، مثل إمام أي: مقتدى به. والعبادة أقصى غاية الذل والانقياد مع الخوف والمحبة.

إماطـة: إزالة.

الحياء: صفة خُلُقِيَّة تُبْعِد الإنسان عن الأعمال المُشِيْنَة؛ خوفًا من تعيير الآخرين ونقدهم.

المحتوى الفكري:

يبين هذا الحديث الشريف ارتباط أعمال الإنسان بالإيمان في شتى اتجاهات وأنواع الأعمال، فالإيمان نقطة انطلاق - ومركز توجيه - يوجه الإنسان الوِجْهَةَ الصحيحةَ في كافة شؤونه الدينية والدنيوية، إنه يقتضي سلوكًا عمليًّا يتفرع عن الإيمان وينبثق منه، سواء في ذلك جانب الأخلاق أو النواحي الاجتماعية أو الفكرية أو جانب الاقتصاد أو غير ذلك، وقد جاءت الآيات والأحاديث تُفَصِّلُ هذه المظاهر السلوكية وَتُشَرِّعُ أحكامَها. إلا أن هذا الحديث بَيَّنَ أَنَّ هذا الإيمان يقتضي تحقق تلك المظاهر ويوجب على المرء المؤمن بالإسلام أن يحققها. وهي التي سماها الحديث شُعَبًا؛ لأنها تنبثق عن الإيمان كما تنبثق الأغصان عن الشجرة.

وقد بدأ الحديث بالأصل الأساسي لكل شيء: « **فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إلهَ إلا اللَّه** ». وذلك مع اليقين القلبي بتوحيد اللَّه - تعالى -، أي: اعتقاد أنه واحد لا شريك له في ذاته ولا في

---

(١) البخاري (باب أمور الإيمان): ١/ ٧، ومسلم: ١/ ٤٦، وأبو داود في السنة (رد الإرجاء): ٤/ ٢١٩، والترمذي في الإيمان: ٥/ ١٠، والنسائي فيه: ٨/ ١١٠، واللفظ لمسلم.

صفاته، فلا تشبه صفاته صفات أحد من الخلق مهما سما وكمل، وفي أفعاله، هو الفعالُ في الكون لا رَبَّ ولا مُدبِّرَ سِوَاهُ، وأنه لا يستحق ولا يجوز أن نتوجه بأقصى غاية الذل والانقياد إلا للّه وحده سبحانه.

والحقيقة أن التوحيد لا يوجد خالصًا إلا في الإسلام الذي أتى به سيدنا محمد ﷺ، فاليهود يزعمون التوحيد ولكنهم يعتقدون في اللّه أنه رجل كبير يقعد على كرسي ضخم... تعالى اللّه عن هذا علوًّا كبيرًا، ﷻ عنه، ينسبون إلى اللّه أعمال البشر السيئة، فهم يصفون اللّه ﷻ بما لا يليق بهم وهم البشر... وأما ما سوى ذلك من الديانات، فالشرك فيها واضحٌ حتى لقد بلغ في بعضها مبلغًا لا يصدق؛ لكثرة المعبودات، فقد بلغ عدد الآلهة في الهند الهندوسية / ٣/ ملايين إلهًا، والهندوس يعبدون كل شيء له مزية، حتى الأشياء التي يستحيي المرءُ من ذكرها.

إذًا: « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه » لا توجد حقيقة إلا بتصديق « محمد رسول اللّه » وبفهمها عنه هو ﷺ، فلا يمكن أن تصدق بـ « لا إله إلا اللّه » إلا مع « محمد رسول اللّه »، ولشدة التلازم بينهما اكتفى بواحدة عن الأخرى.

ثم انتقل الحديث إلى مقابل الأفضل وهو الفاضل، فإذا هو إحسان للآخرين فيه وقاية لهم، فقال: « **وأدناها إماطة الأذى عن الطريق** »:

وإماطة الأذى عن الطريق إزالته عنه، قد لا يلتفت لأهميتها الإنسان، لكنها في الحقيقة خصلة مهمة؛ لأنها تدل على سمو الخُلُق وحُبِّ الخير، حتى إِنَّ الإنسانَ يزيلُ الأذى عن الطريق. والعجيب أن نجد شبابنا يعجبون جدًّا بنظم المدن الغربية ونظافتها، ثم لا يَستفسرون الإسلام عن هذا الأمر، فالإسلام لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا اعتنى بها، بل إنه اعتنى بالطريق أكثر مما تجده عند الغرب، فقد جعل تنظيم الشوارع وإعدادها الكامل من شعب الإيمان، فكم تكون هذه العقيدة عظيمة، يصبح المرء بها تامًّا صافيًا، حتى إنه لا يتحمل وجود أذًى في الطريق، وهذا بالطبع لا يمكن أن يؤذي أحدًا، بل هو يمنع الأذى عن كل أحد.

وبعد أن ذكر الحديث أعلى شعب الإيمان وأفضلها وأدناها خَصَّ بالذكر شعبةً لها أثرٌ عظيمٌ وفضلٌ جليلٌ فقال: « **والحَياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيْمَان** ».

وهذه الخَلِيقة خَلِيقة الحياء هي في الواقع أساس مهم في توجيه سلوك الإنسان

واستقامته؛ لأن الحياء كما يقرر علم النفس: إحساسُ الإنسانِ بالقيمِ ومراعاته للمُثُل العليا التي أقرتها المبادئ الإنسانية في الجانب الأخلاقي والاجتماعي وغيرهما.

فهذه الحاسة النفسية تجعل الإنسان يبتعد عما يُعَابُ عليه؛ إذ يراعي الفَرْدُ هذه القِيمَ، فهي شعبة عظيمة من شعب الإيمان، أفردها الحديث بالذكر؛ لأنها شعبة عالية، ليس المقصود من ذكرها بعد « **إماطة الأذى عن الطريق** » أنها آخر الشعب بل هي في الحقيقة أساس المجتمع. فَمَنْ لم يستح من اللَّه لم يبال أن يشرك به ويعصيه، ومن لم يستح من الناس لم يستحِ أن يعمل عمل الأشرار، فالحياء منبع القيم للإنسان، وعلى العكس من ذلك جاءت القِيم الفرويدية والوجودية التي دعت إلى التمرد على تلك القيم؛ ليتحرر الإنسان كما يزعمون، والحقيقة أنها مأخوذة من الديانة الجينية التي أتى بها (مهاويرا توفي ٦٠٠ ق.م) وهي مذهب إلحادي، دعا صاحبه إلى النجاة بزعمه الباطل، وطريق هذه النجاة الرياضات القاسية العنيفة، بأن يتعرض مثلًا للحر الشديد المحرق والبرد القارس القاتل، ويتحمل الجوع والعطش، حتى يصل إلى الدرجة التي وصل إليها (مهاويرا)، درجة النجاة، وذلك بأن يفقد الإحساس للمؤثرات المادية كالجوع والعطش والحر، والبرد، والمؤثرات الخلقية. فلا يُبَالِي بأي عرف أو مَثَل خُلُقي، ولا يتأثر بدين، ولا بضمير ويصير عاريًا؛ لأنه يصل إلى الجنون فلم يعد يحس بشيء يحدث له.

هذه الفكرة أخذها الأوروبيون وصاغوها بما يناسب الحضارة المادية، فرأى بعض فلاسفتهم مثل: فرويد وسارتر أنه ما دام المرء يشعر بالعار أو الإثم فهو ما زال على صلةٍ بالاعتراف بالمجتمع، أي: إنه - بزعمهم - لم يصل إلى النجاة أي: إلى تحقيق الوجود، فسلك فرويد وسارتر طريقًا آخر هو طريق التمرد على التقاليد والقيم لا لمكافحة جموح الشهوات، بل لإيقاظها وإلهابها. وقد أخذا هذه الفكرة وهي فكرة التمرد على القيم الموجودة في المجتمع ليتحقق وجود المرء ثم أكسباها لباس الشهوات، وهذا مسلك خطير منحط، يهوي بالإنسان إلى حياة الغاب وأخلاق الغاب، لذلك نجد كافة الدول الغربية والشرقية حتى الدول العلْمانية تقاوم هذه المبادئ، لما لها من خطر على أمن الدولة وسلامتها، وما لها من خطر على حضارة الإنسان.

فالحقيقة إذًا أن الحياء بما يوقظ في الضمير من قيم خلقية، وبما يثمره من توجيه داخلي سليم أساس عظيم للإيمان وللخلق الفاضل، وللمبادئ الإنسانية.

لكن كثيرًا من الناس يعانون نقصًا في شخصيتهم وضعفًا معنويًا، ونرى أحدهم يخجل أن يقول الحق أو أن يفعل الواجب فرارًا من نقد أو عيب، فهذا الذي يقيم الصلاة في بيته ثم يجبن عن تأدية الصلاة في حضور جماعات من الناس حتى يتركها - والعياذ بالله - إنسان مريض في إيمانه ضعيف في شخصيته وليس ذلك من الحياء في شيء إنما هو الجبن والخَوَر...

فالحياء الإيماني يجعل شعورك بالواجب ويجعل شعورك بفريضتك الدينية أقوى وأعظم من كل مؤثر يخلُّ بذلك؛ فواجب المؤمن أن يراقبَ نفسه، ويُنَمِّيَ فيها منابع الخير، وعلى رأسها الحياء، الذي نستشعر به مراقبة اللَّه تعالى لأعمالنا وتصرفاتنا، ونستشعر به مراعاة الخُلُق الفاضل، لا أن نكون ضعفاء جبناء أمام التقاليد الأجنبية الفاسدة. أو نخشى لومة مَنْ لا دين له ولا أخلاق.

كما أوضح لنا الحديث قضية الإيمان وحقيقته، وأنه يقتضي اتجاهًا عقيديًّا وسلوكًا عمليًّا تتفرع عنه هذه الأعمال، كما تتفرع الشجرة، فالجذع « **لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه** »، ثم الفروع كالصدق والأمانة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والجهاد في سبيل اللَّه والإحسان إلى الناس ودفع الأذى عنهم حتى تصل إلى إماطة الأذى عن الطريق... وكلما نقصت الفروع بأن أخل الإنسان بشيء من فروضه وواجباته نقصت الشجرة حتى لا يبقى إلا الجذع، وهو الأمل والرجاء الأخير الذي يرجى بسلامته عودةُ النمو من جديد، فيما إذا ظل الجذع حيًّا لم يمت...

أما إذا نخرتْ في الجذع دودةُ فِكْرٍ أجنبيةٌ، أيًّا كان لونها، ومن أي جهة أتت، فقد مات الجذع، ولم يصلح لشيء، إلا أن يكون حطبًا يلقى في النار؛ ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: ٢٤].

بناء نص الحديث:

جاء الحديث في نصه على **سِمَةِ التكثيف والتفصيل** أو الإجمال والتفسير، الإجمال في المقطع الأول، والتفصيل في المقاطع الثلاثة الباقية. فالمقطع الأول مُكَثَّفٌ يشد الانتباه ويستجلب القلوب: « **الإيمان بضع وستون شعبة** ». والعدد هنا « **بضع وستون** » للتكثير والترغيب؛ ليفهم المرء أن الكثير من التصرفات من صلب الإيمان الذي هو المحرك.

ثم يأتي **المقطعان الثاني والثالث** متوازيين في حجمهما من حيث الطول وفي صيغة « أفعل » المتكررة في « أفضلها.. و.. أدناها » اللذين يمثلان تعارضًا يوحي بعلو الطرف الأول، فالأفضلية علو، وفي هذا إشارة إلى العلو المعنوي وقد جاء بلفظ: « **أعلاها** » في رواية أخرى. و « أدناها » يوحي بمقابلة الأفضلية ويوحي بمكان منخفض، وجاء بكلمة أدنى دون أن يقول: « إماطة شيء مؤذٍ »؛ للاكتفاء بالفاعلية عن الماهية، فالفاعلية وهي الضرر بالناس هي الأهم.

ثم يخصُّ المقطع الرابع الحياء بأسلوب جديد « **الحياء شعبة من الإيمان** » وتأتي « **شعبة** » نكرة لتدل على غاية الفخامة أي: شعبة عظيمة لا يُقادَر قدر فضلها؛ لذلك اختصَّ هذا المقطع بأسلوب مغاير لما سبق لِيُشْعِرَ بتميز المضمون، أي: شعبة الحياء؛ لأنه كالداعي إلى باقي الشعب؛ لأن الحَيِيَّ يخاف فضيحة الدنيا والآخرة، فيأتمر بالخير، وينزجر عن الشر.

ويتميز بنيان نص الحديث بغاية الإحكام، فإنه يقوم على الشكل المعماري الدائري المغلق حيث بُدِئَ بذكر الإيمان وختم به، وثمة تلاقٍ وتشابك بالتقابل بين « **شعبة من الإيمان** » و « **الإيمان بضع وستون شعبة** »، بتبادل الأمكنة للإيمان وشعبة. ولم ترد في النص جُمَلٌ فعلية، فقد تَطَلَّبَ الموقف الجمل الاسمية الدالة على الثبوت؛ لأنه يقرر قضايا ثابتة، لاعتبارها من قضايا الإيمان، فجاء بالجمل الاسمية الدالة على الثبات؛ مما يناسب ثبات الإيمان.

جمال التصوير:

جاء الحديث موضحًا معانيه ومقاصده الشريفة السامية، في قالب بلاغي موجز، صَوَّرَ لنا صِلَةَ الأعمال بالإيمان تصويرًا ماديًّا له إيحاءاته وتأثيراته الموجَّهة للنفس. حيثُ شَبَّهَ الإيمان بما يقتضيه من السلوك العملي وبما يوجبه على المسلم في أخلاقه ومعاملاته وتدينه بالشجرة، فإنها تتكون من جذور، ينبثق منها جِذْعٌ وفروع وأغصان تَتَشَعَّبُ وترتفع، حتى تؤتي ثمارها يانعة جنية. وكلنا يرى الشجرة ويألفها ويحبها، ويرى منافعها؛ فليس ثمة أيسر من إدراك المعنى الذي أراده النبي ﷺ وتصوره صورة واضحة، غيرَ أَنَّ الحديثَ قد أكَّد لنا وقَوَّى هذا التصوير حيث حذف اسم الشجرة من الكلام وذكر القرينة التي تدل عليها وهي قوله: « **شعبة** »، على سبيل الاستعارة المكنية فأدنى إلى

مخيلتنا الإيمان وقد رسمه رسمًا وَشَكَّلَهُ في شجرة، نراها بأعيننا، هي شجرة الإيمان، نراها وقد تفرعت أغصانها واخضرت أوراقها...

ثم جاء أسلوب الحديث يُقوِّي هذا التصوير والتخيل في قوله: « **أفضلها قولُ لا إلهَ إلا اللَّهُ وأدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأذى عن الطريق...** »، فضرب لنا بذلك أمثلة من هذه الفروع أوضحت لنا طبيعة هذه الشجرة وقوامها أغصانها تمتد في شؤون الحياة وتنظمها وتطهرها، ثم تغذيها، كما تمتد شرايين الدم في أنحاء الجسم، توصل إليها الغذاء، وتنقيها من الفضلات والأذى...

فالإيمان يتناول أعظم الأمور الدينية، وينظم الأمور الدنيوية، من أعلاها إلى أيسر شيء فيها: « **إماطة الأذى عن الطريق** ».

أعظم هذه الشعب: « لا إله إلا اللَّه »: المقصود أنها مع قول محمد رسول اللَّه - أي: قرينتها معها - وذُكِرَتْ الأولى للاختصار؛ لأنهما متلازمتان.

وهكذا نجد أن الإيمان هو الجذع، الذي هو أصل الشجرة، والمثبت لها، وهو المتجلي في الأغصان المتفرعة، أعلاها وأدناها، والحياء شعبة عظيمة منها، تكاد تقارب الأصل.

إرشادات الحديث:

١ - **إن الإيمان يستلزم جميع أنواع الكمالات**، ويوجب على صاحبه أصناف الخيرات التي سماها الحديث بالشعب، وليس هو مجرد دعوى، أو فكرة جامدة في القلب، بل إنه جوهر منير تشع آثاره في الإنسان.

٢ - **تعددت طُرق العلماء في تقصِّي شعب الإيمان**، وأحسنها طريقة الإمام ابن حبان، وهي النظر في الآيات والأحاديث التي تربط أمورًا بالإيمان، وقد بلغت تسعًا وسبعين شعبة تتناول أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن فعلًا لما هو مطلوب وتركًا لما هو مرهوب[1].

٣ - **تتفاوت شُعَب الإيمان** في الفضيلة، لكن تظل أدناها ذات أهمية عظيمة؛ لكونها شعبة من شعب الإيمان، والإخلال بها نقص من الإيمان، فليحرص المؤمن عليها ولا يفرط في أدناها.

---

(١) انظر بسط طريقة ابن حبان في شرح مسلم: ٢/ ٤، ٥ وسرد الشعب تفصيلًا بعد إجمالها في فتح الباري: ١/ ٤ - ٤١.

٤ - **أهمية خلق الحياء**، حتى صار شعبة عظيمة من الإيمان، وقوله: « **الحياء شعبة** » أي: عظيمة، فالتنكير للتعظيم، والتنوين للتفخيم.

وقد استُشْكِلَ عَدُّ الحياءِ من الإيمان؛ لأنه غريزة في الإنسان أن يتجنب ما يؤدي إلى ذمه؛ فكيف يكون شعبة من إيمانه؟! لكن هذا الإشكال يزول إذا علمنا بأنه يكون من الإيمان إذا استعمله المؤمن على قانون الشرع، وهذا شيء جليل؛ لأنه يحتاج إلى اكتسابه بترويض النفس على استعماله وفق الشرع، ويحتاج إلى نية، بأن ينوي عند ترك القبيح امتثال الشرع، ويحتاج إلى تحصيل علم الحلال والحرام، فيؤدي عندئذ دور الإيمان، فكيف لا يكون شعبة عظيمة من الإيمان.

٥ - الطريق إلى **تنمية شعبة الحياء الإيماني** أن يتفكر الإنسان في نعم اللّٰه تعالى عليه وينظر تقصيره إزاءها. قال الجنيد ﷺ: « الحياء رؤية الآلاء - أي: النعم - ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء »[1].

٦ - حَذَّرَ العلماءُ من **ترك فعل خير، لأجل الحياء** من الناس أو فعل منكر لأجلهم، قالوا: هذا ليس من الحياء، إنما هو من الجبن والخور.

٧ - **إن الإيمان يزيد وينقص**، وهو واضح، ويقصد الحديث الحَضَّ على الطاعات والخيرات؛ ليزيد الإيمان.

٨ - **أهمية النظافة في الشارع وفي البيت** من باب الأولى والأحاديث في ذلك كثيرة جدًّا، فليتعظ المسلمون، وليعنوا بشارعهم، وبمنزلهم.

* * *

* *

*

---

(١) شرح مسلم: ٢/ ٥.

النَّذِيرُ العُرْيان؟!

[٨] عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « مَثَلِيْ وَمَثَلُ ما بَعَثَنِيْ اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ وَإِنِّيْ أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ النَّجَاء. فَأَطَاعَتْهُ طَائِفَةٌ، فَأَدْلَجُوا على مَهَلِهِمْ، فَنَجَوا، وَكَذَّبَتْه طَائِفَةٌ فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَاجْتَاحَهُمْ ».

[أخرجه الشيخان(١). وقوله في أوله « إني » من مسلم]

* * *

المفردات:

قَوْمًا: أي: قومه، كما في رواية أخرى.

النَّذِيرُ الْعُرْيَان: هو رجل صادف أعداء قومه فسلبوه ما عليه، ونهبوا ثيابه، وتركوه عاريًا، فرجع إلى قومه يحذرهم وينذرهم، فرأوا ما به من أمارات الخوف، ومن التعري، مع ما هو معروف به من الصدق، فأيقن القوم صدقة ونَجَوا بأنفسهم فضرب به المثل. وقيل: كان من عادة الجاهليين إذا رأى الإنسان خطر العدو محدقًا بهم خلع ثيابه وصار ينادي ويشير بها.

النجاءَ: منصوب على التحذير بفعل محذوف، أي: انجوا النجاء، أو اطلبوا النجاء.

أدلجوا: أي: ساروا في الدلجة وهي الظلمة.

مَهَلِهِمْ: أي: سكينتهم غير مُفْزَعِين، لا أن المعنى أنهم متباطئون. وفي رواية « مُهْلَتِهِمْ ».

صَبَّحَهُمْ: أي: أغار عليهم صباحًا عند الفجر، وهو وقت غفلة، يتمكن فيه العدو من عدوه من غير مقاومة.

اجتاحهم: أهلكهم واستأصلهم، ولم يُبْقِ منهم أحدًا.

---

(١) البخاري في الرقاق (الانتهاء عن المعاصي): ٨/ ١٠١، ومسلم في الفضائل: ٧/ ٦٣، واللفظ للبخاري.

المحتوى الفكري:

هذا الحديث فيه نوع من المَثَل ضربه الرسول ﷺ لإيضاح صفةٍ من صفاته، وهي إنذاره العالم كلَّه، ومجيئُه بهذه الرسالة السامية؛ لتنقذهم من ضلالات الجهل إلى نور الإيمان والعلم، ولتقيم حياتهم سوية، ولتخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم. هذه الصفة تدخل في نطاق التصور العقلي المجرد، فجاء الحديث مجسدًا لها بحيث تكون مُوَضَّحة بالصورة البيانية والبلاغية الحسية.

إن الإنسان دائمًا يركن إلى المادة، لذا كانت الوثنية دلالة على أن الوثنيين كانوا يعبدون الأصنام؛ لأنها شيء مادي، كما أنّ الإلحاد ينشأ عن السبب نفسه حيث يحجر الملحد عقله وتصوره في حدود المادة الضيقة التي تحيط به، ومن هُنا عُنِيَ النبي ﷺ بضرب الأمثال وإبراز الأمور المعنوية في صورٍ حسية؛ كي يصل إلى حنايا القلب والوجدان، ويؤثر فيه ويترقّى به.. فيقول في هذا الحديث: « **مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِيْ اللَّهُ بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ..** ».

يضرب لنا في هذا الحديث الشريف مثلًا فيه تشبيه لأمرٍ معنويٍّ مُغيَّب، وهو خطر يوم القيامة، وهو أمر عظيم جليل، على غايةٍ من الخطورة والأهمية، لذلك عُنيَ بجلائه وإبانة أمره، فَصَوَّرَ الإنذار به بحالة من واقع الحياة الملموس؛ ليقربه لأذهانهم، وهذا أمر معروف في التشبيه، وتفسير هذا المثل أن رجلًا لقي العدو فسلبوه ثيابه فأسرع إلى قومه وهو بهذا الحال يحذرهم، أو أنه كان من عادة العرب في الجاهلية أن الرجل إذا داهم الخطر قومه خلع ثوبه ولَوَّحَ به لقومه، قائلًا: واصباحاه أي: صَبَّحَكُم الجيش. ليحذرهم وينذرهم الخطر المُحْدِقَ.

فهذا العمل دليل على شدة الخطر حيث إنه يجعل الرجل يخلع ثيابه، ويشير بها إلى قومه؛ محذِّرًا إيَّاهم من الخطر. **هذا هو المشبه به لا يمكن أن يُظَنَّ به الكذب**. كما أنه منذرٌ بخطرٍ محْدِقٍ مفاجئ، وقد جاء عند مسلم آخر الحديث: « **فَذَلِكَ مَثَل مَنْ أَطَاعَنِي واتبع ما جِئْتُ به، ومَثَلُ مَن عَصَانِي وكَذَّبَ مَا جِئتُ بِهِ من الحقِّ** ».

أما المشبه ففيه هاتان الناحيتان:

١ - إنذار النبي ﷺ للمشركين الإنذار الصادق اليقيني.

٢ - نجاة المؤمنين ووقوع الكافرين في الخطر، وهو عذاب عظيم لا يمكن رده.

وقد اشتمل الحديث بالإضافة إلى هذه الصورة على ألوان من التأكيد « **إني رأيت** » « **بعينَيّ** » « **إني أنا النذير** » « **النَّجَاءَ النَّجَاءَ** »، وهذا مما يشعر بشدة خوف الرجل على قومه، ومما يؤكد كلامه: « **رأيت الجيش بعيني** ». فكلمة « **بعيني** » تجعل الكلام غير محتمل للتكذيب. كما يدل الحديث على لزوم الحذر من المخالفات، وألَّا يغتر الإنسان بالإمهال، فإن اللَّه تعالى يمهل ولكنه لا يهمل، وهذا التعبير « **صَبَّحَهم** » يشير لذلك؛ لأنه في هذا الوقت يكون الإنسان إما نائمًا، أو قريب عهد بالنوم، ولا يمكنه المقاومة، وهذا هو وقت الإغارة الملائم، حيث يتقدم العدو ليلًا ويهجم في الصباح فيصيب ما يشاء.

ونجد في هذا المثل المضروب إشارات تُوَضِّحُ صِفَةً لرسول اللَّه ﷺ، فَلِمَ أنذر قومه؟ ولـم أتى منذرًا للعالمين؟..

لقد بُعث رسول اللَّه ﷺ نذيرًا للعالم من كل الأخطار التي تحيط به:

أخطار العبودية والذل لغير اللَّه تعالى.

أخطار الإباحية.

أخطار المادية.

ويُلخص ذلك قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

لقد أتى منذرًا للعالمين لشفقته ورحمته وهو في غاية الإشفاق على قومه بالذات، ولذا كان يحزن إذا كذَّبوه، حتى نزل القرآن الكريم يخفف عنه من ذلك. ويأمره بألا يُفرط في الإشفاق والأسف حتى لا يُهْلِكَ نفسه ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

جمال البناء:

يمتاز هذا الحديث ببنائه **الهرمي، القمة فيه هي المثل، ثم تأتي القاعدة**، وهي الجزء التفصيلي الذي يفسر التكثيف الوارد في فاتحة النص التي فيها التكثيف: « **مَثَلِيْ وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِيْ اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا** » ثم يأتي التفسير والتفصيل، **وهو توالدي كل جملة تنتج ما بعدها.**

وتلوح في صيغة الحديث ظاهرة التكرار، التي تشيع في أرجاء النص، انظر فيه: « **مثلي - كمثل** » مما يفيد توافق الحالتين: الإنذار بعذاب الآخرة، والإنذار بالغرَّة

المُبَاغِتة، وتكرار كلمة « الجيش »: « **إني رأيت الجيش** » و « **فصبَّحهم الجيش** » مما يُوْمِئُ إلى حتمية وصوله.

وانظر: « **أطاعته طائفة** » و « **كذبته طائفة** »، للتأكيد على ثنائية الخير والشر « **النجاء النجاء** » فهي صيغة الملهوف الذي دلَّ عليه الحديث. « **إني رأيت** » « **بعينيَّ** » ليفيد التأكيد لمن يخاف عدم تصديقهم إياه.

وتظهر سمة التوازن في نص الحديث في مثل قوله: « **أدلجوا.. فنجوا** » مما يسمى جناسًا ناقصًا؛ ليدل على تماثل الإدلاج والنجاة، وأن فعل الهجرة إلى اللَّه سيحقق الأمان والسعادة. ثم قريب منه قوله: « **صَبَّحَهُمْ.. فاجتاحهم** » فكأن الاجتياح الهالك بقدر امتداد الصباح في الجو.

ثم قد جاء النص متماسكًا نتيجة بنائه على الشكل القصصي والأسلوب الهرمي، الذي يشد القارئ إلى تمام التفصيلات المتوالدة، حيث يُفضي كل مقطع إلى الذي يليه، حتى يتم النص مع تمام الإفهام والتأثير، يزيد ذلك التأثير قوة ذلك التقابل: « **فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلهم فنجوا، وكذبته طائفة فصحبهم الجيش فاجتاحهم** ».

جمال التصوير:

اعتمد الحديث الشريف في بنائه **على القصة** ليبين المصير الإنساني العام بين الجنة والنار، وبيان خطره، وهو مصير كوني ودائرة هائلة يقرنها الحديث بإغارة معادية مفاجئة، ومن هنا جاء حسن الاختيار في الحديث؛ لأنها صورة ذهنية معروفة في الواقع مؤثرة في نفس المتلقي، تثير فيه الحذر العظيم.

في بداية القصة التي هي **لوحة كاملة نجد تفرد الرجل باللوحة**، وخوفه على قومه، وكلامه الحار الذي ينقلنا إلى صورة مشهد الجيش، وحواره الذي يتضمن رؤيته العينية للجيش الذي صار مُجَسَّمًا للعذاب الأخروي في القيامة، ويتضمن التفاتًا إلى ذاته فهو « **النذير العُريان** »، وخطابًا سريعًا متلهفًا طلبًا للنجاة: « **النجاء النجاء** » ثم نلتقي بمشهد **الاستخفاء مشهد ليلي**، يخرج فيه الطائعون للنذير طالبين النجاة ليلًا، وعلى مهلهم. وانتقاء الوقت المناسب دليل على أن **الإيمان يتطلب العقل**، وأن تشريعات الدين تتطلب رَوِيَّةً وتَدَبُّرًا، كما أن الحركة في هذا المشهد مطمئنة تجعله يوحي بالثقة.

والمشهد الأخير يُجَسِّم القوم الضَّالِّين الذين أعرضوا عن البشير النذير ﷺ.

هذا المشهد الذي يتضمَّن صورًا حركية عنيفة سريعة يجسم بمشاهده المحسوسة العذاب الأخروي؛ انظر « **كَذَّبَتْهُ** »، « **فَصَبَّحَهُم الجيش** »، « **فاجْتَاحَهُمْ** ». **الصورة هنا نهارية في ضوء الصباح**، لكنها مفاجئة، وفيها صور الدماء والدمار « **فاجتاحهم** ».

إن الصور القصصية في النص لقطات من حياة الحرب وغاراتها المفاجئة المدمِّرة، وحالة فورانها الحسية وتوترها في الأنفس، مما دعا إلى الاعتماد عليها؛ لتصوير الآخرة واختلاف مواقف الناس فيها، فاستطاع البيان النبوي أن يقدِّم شاهدًا واقعيًّا محسوسًا، بل دَلَّ به على الأسلوب الواعي في اتباع الدين، وعلى أنَّ الإيمان والاستقامة من متطلبات العقل « **أدلجوا** » وأن الكفر عناد ومخالفة للعقل والواقع المحسوس « **إني رأيت الجيش بعيني** ».

إرشادات الحديث:

١ - **التحذير الشديد من معصية النبي ﷺ**، فإن وراءها خطرًا شديدًا، وهلاكًا، كما بَيَّنَ ذلك التحذير من عدوٍّ يهجم على غفلة.

٢ - **إن دلائل حقية بعثته ﷺ قطعية**، وهي معجزاته التي أَيَّدَهُ اللَّهُ بها، ودلائلُ نبوته الكثيرة، حتى صارت كالشيء المحسوس.

٣ - **إن بعثته ﷺ تهدف إلى إنقاذ الإنسان وإنقاذ العالم** من كل الأخطار، منها أخطار الذل والتبعية لغير اللَّه - تعالى -، ومنها أخطار الإباحية، ومنها أخطار المادية.

٤ - **غاية شفقته ﷺ ورحمته بالعالم**، كما أن الباعث للنذير العريان هو حرصه على قومه وشفقته عليهم، فكل ما نهى عنه وحرمه، فيه ضرر وخطر على الإنسان كما أثبتت البحوث والدراسات العلمية، وليس ثمة قصد للمشقة والتضييق ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وكما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

* * *
* *
*

الإيمان والمحبة

٩ عن أنس ﷺ قال: قال النبي ﷺ: « **لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِين** »

[متفق عليه][1].

* * *

المحتوى الفكري:

ما الذي يؤثره الإيمان في قلب المؤمن؟...

الإيمان يوجب على المؤمن أن يحب الرسول ﷺ أكثر من أهله ومن نفسه. ذلك ما يقضي به الإيمان، بل ذلك ما يقضي به الإنصاف في كل ميزان، فالمنصفون من المستشرقين والأجانب كتبوا عن فضل الرسول ﷺ وتحدَّثوا عن فضله على العالم، وجاءت أبحاثهم تعطيه الأفضلية على كل ذي فضل في الدنيا.

فمحبته ﷺ أمرٌ بَدَهيٌّ عند كل مؤمن، بل عند كل مُنْصف، **والحب ميل**، بل هو غريزة في النفس تظهر في **مجالات عديدة**، ومظاهر متنوعة.

فهناك محبة التعظيم: محبة الابن لوالده.

ومحبة الإشفاق: محبة الوالد لابنه.

ومحبة النصح والإنسانية: محبة الناس أجمعين.

والمحبة الغريزية: محبة الإنسان لزوجه.

والمحبة الأنانية: محبة النفس.

والحديث اشتمل على كافة أنواع المحبة، كما أنه يبين أن حب الرسول ﷺ يجب أن يفوق هذه الأنواع كلها؛ لأن من أحب الرسول ﷺ يعمل بما أراده الحديث، بأن يتجه في سلوكه بمقتضى حبه وهو الاقتداء به ﷺ بدافع من عظمة محبته. وبذلك يصلح أمر الفرد والمجتمع، بل الإنسانية كلها. وهذا هو ما يبتغيه اللّه لعباده.

---

(١) البخاري في الإيمان: ١/ ٨، ومسلم: ١/ ٤٩.

والحقيقة أن عنصر المحبة عاطفة جامحة، تجعل أحيانًا ذا العقل اللبيب الراشد يؤثر هوى من يُحب على نفسه وعلى قِيَمِهِ. حتى إنه قد يحب أعداءَه من أجل حبيبه، كما يقول الشاعر:

أَشْبهتَ أعدائي فصرتُ أُحِبُّهُمْ ... إذ صَارَ حَظِّي مِنْكَ حَظِّي منهم

فإذا كانت المحبة تصل إلى هذه الدرجة فلا شك أن على الإنسان ألا يضيع عواطفه هباء، بل يوجه قلبه في حبه وبغضه طبقًا لما ينسجم مع قضية إيمانه..

لكن ما هو الحب الذي يتحدث عنه الرسول ﷺ؟ وما معياره؟ إن المعيار الحقيقي لصدق الحب هو الطاعة والاتباع. كما جاء في الحديث: « **لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ به** »(1).

وقد قال الشاعر (وينسب للإمام الشافعي):

تعصِي الإلـه وأنتَ تُظـهِر حُـبَّـه ... هـذا لَعَمْـرِي في القيـاس بـديـعُ

لَـو كَـانَ حُبُّـك صَـادقًا لأطَعتَـه ... إنَّ المُـحِبَّ لِمَـن يُحِـبُّ مُطِيـعُ

فما الذي يكون عليه وضع هذا الحب؟ لا شك أن فيه خيرًا للمسلم كفرد وللمجتمع والإنسانية كجماعات، فثمرة **هذا الحب هو إطاعة المسلمين للنبي ﷺ طاعة سامية تنبُعُ من محبتهم له ﷺ**. وثمرة هذا إصلاح أمورهم في دنياهم.. وفوزهم برضا اللَّه ﷻ يوم القيامة.. يوم يقفون أمام اللَّه ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨].

ملامح فنية:

تتجلى في النص السمات التالية:

١ - **صيغ العموم الدالة على الحتمية**، وهي صفة واضحة في النص، فالحصر في أول الحديث « **لا يؤمن أحدكم حتى** » حيث النفي ثم « حتى » الزمنية، وفي هذا تأكيد وحتمية؛ إذ يُغْلَقُ المعنى بشكلٍ دائريٍّ بطريق أسلوب الحصر، كما أوضحنا في نصوص سابقة.

٢ - **التعابير الملائمة للمعنى**: كمجيء « **أحدكم** » الدالة على روح الخطاب والعناية بتعليم الآخرين.

(1) رواه ابن أبي عاصم في كتابه السنة: ١/ ١٢، رقم ١٥، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: ٤/ ٣٦٨.

ومثل « **أحب إليه من والده وولده** » فصيغة التفضيل للمبالغة، وقد بلغت أقصاها، وشملت كل محبة « الوالد » الذي يعطيك الحياة، و « الولد » الذي تعطيه الحياة وتحس به استمرارًا لحياتك، ليدل على أن حب النبي ﷺ هو الحياة وولادة الخير.

٣ - **التنغيم الموسيقي**: ويبرز في تكرار أصوات « **والده** » و « **ولده** ». ويبدأ النص بما يوحي بالفردية « **لا يؤمن أحدكم** » ثم يختتم بكلمة أجمعين ليدل على انطلاقة كبيرة للمشاعر، مشاعر محبة النبي ﷺ.

إرشادات الحديث:

١ - **إن محبة النبي ﷺ أساس للإيمان**، ومن لم يعقد قلبه على محبة النبي ﷺ فليس بمؤمن، عياذًا بالله تعالى.

٢ - **لا يكمل إيمان المؤمن إلا أن تكون محبته للنبي ﷺ** - بآبائنا هو وأمهاتنا - أكثر من محبة الإنسان لنفسه أو أي عزيز لديه. وهذه قضية عقلية أيضًا، لهدايته إيانا، وإنقاذنا من شر أنفسنا، ولخصائله التي فُضِّلَ بها على كل ذي فضل، وعلى الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، ولما قدم للعالم من خير لم يقدمه غيره من الخلق.

٣ - **طرق تحصيل هذه المحبة**: الاستكثار من دراسة سيرته ومعرفة شمائله الشريفة بتفاصيلها، فإنها تزيد معرفة كماله ﷺ، والإكثار من الصلاة والسلام عليه ﷺ.

* * *
* *
*

النَّخْلَةُ.. مَثَلُ المُسلم؟

١٠ عن عبد اللَّه بن عُمَرَ - رضي اللَّه عنهما - قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟ » فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فاسْتَحْيَيْتُ؛ ثم قالوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّه. قال: فقال: « هِيَ النَّخْلَةُ ». قال: فَذَكَرْتُ ذلك لعُمَر؟ قال: لَأَنْ تَكون قُلْتَ: هِيَ النَّخْلَةُ أَحَبُّ إليَّ من كذا وكذا.

[متفق عليه][1]

* * *

المحتوى الفكري:

المقصود من هذا الحديث بيان وصف المسلم ووضعه بين العالم، فالمسلم بحكم إيمانه وأهدافه في الحياة يتحول إلى إشعاع نوراني، يضيء للناس سُبُلَ الخير، ويكون هو نفسه مصدر خير عام في كل أحواله وشؤونه، وقد أبرز الحديث هذا المعنى في تشبيه رائع استهله بهذا السؤال: « إن من الشجر... وإنها مَثَلُ المُسْلِمِ فحَدِّثُونِي ما هي..؟ » فأثار انتباه السامع وأخذ بمَجْمَع مداركه، ثم ألقى إليه الجواب.. وفي هذا الجواب أبرز أن المؤمن نخلة للعالم... نخلة تمده بمادة الحياة والسعادة بما فيها من غذاء وفوائد كثيرة جدًّا..

النخلة في حياة البدوي عمادٌ عظيمٌ لا قِوَامَ له من دونها؛ فالتمر غذاؤه، وهو غذاء كامل للرجل كما قرر علماء الأغذية، وسَعَفُ النخلة يَسْقُفُ بها البيت، وجذوعها أعمدة تُقَامُ عليها أركان بيوتهم، وليفها يصنعون منه الحبال، ونوى تمرها عَلَفُ الدواب، فكلها خير ونفع. كذلك المؤمن بالنسبة لهذا العالم كله، فإنه مصدر خير وبركة، لا يصدر منه إلا كلُّ ما فيه النفع والخير للعالم[2].

---

(١) البخاري في العلم (باب قول المحدث حدثنا..) و (طرح الإمام المسألة على أصحابه): ١/ ١٨، ومسلم في صفة الجنة: ٨/ ١٣٧.

(٢) ولعلاقة النخلة بالمؤمن إيحاءات متعددة، وترد منافع كثيرة للنخلة تبين جمالية مقارنة المؤمن بها واستحقاقه التام للتشبه بها، لا حاجة إلى سردها كلها، وقد أفاض الحافظ ابن رجب الحنبلي في هذا الشأن عندما خصص رسالة =

ملامح فنية:

يبدأ هذا النص بعرض المشبه به على الأنظار وتقديمه فنيًّا على المشبه. فالنخلة تسبق وجود المسلم في النص، والبناء في النص محوريٌّ يرتكز على معرفة النخلة بعد أن طرح السؤال بما يناسب الطابع التعليمي بأسلوب لطيف جذاب، فبعد أن تشغل الأذهان بالبحث والتفكر تتم المعرفة بالجواب الصريح، ومِنْ ثَمَّ ترسخ في الأذهان تلك **الصورة اللونية الرائعة وهي صورة خضراء** تملأ النص خصوصًا في الخاتمة؛ لأن النص يختم بذكر النخلة فلا يبقى غيرها من شجر، **واللون الأخضر محبوب** خصوصًا إذا اتصل بالنفع النباتي الكثير، الذي يواكب استمرار الحياة، فالمؤمن خيِّر جميل نافع، كما أوحت النخلة بهذه القيم الرفيعة الضرورية، فالمؤمن في الحياة ضرورة وكمال.

ويظهر **تَمَيُّزُ المسلم وتفرده بالخيرية والجمال** من خلال تعبير « **مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً** »، فهو كائنٌ منتقًى من بين الآدميين كَمَا تُنْتَقَى شجرة النخيل، وتميزها باستمرار الخيرية في تعبير « **لا يسقط ورقها** » الذي جاء امتدادًا وصفيًّا لذكرها.

والمقطع الأول: « **إنَّ من الشجر شجرةً لا يسقط ورقها** » ذو مفصلين: **الأول:** اسميٌّ مع التأكيد، **والثاني:** فعلي؛ لتنشيط الذهن بهذه المغايرة.

أما المقطع الثاني: « **وإنها مَثَلُ المُسْلِمِ فَحَدِّثُوْنِي ما هي** » فاسميٌّ مع التأكيد أيضًا لكن التنشيط هنا في المغايرة من الطابع الخبري إلى الطابع الطلبي « **فحدثوني ما هي** ».

إرشادات الحديث:

١ - يحدد الحديث **هدف المسلم في الحياة**، وهدف الأمة الإسلامية، وهو إسداء الخير وتوصيله للمجتمع المحيط به وللعالم؛ لأن الإيمان جعله كالنخلة، أي: نافعًا في كل جانب من جوانبه، كما عرفنا. وهذا ما سجله التاريخ للمسلمين: أنهم أسدوا الخير والهداية لكل العالم، ولم يعرف التاريخ هدوءًا وسلامًا كما شهده في ظلِّ سيادة مُثُلِ الإسلام.

٢ - أسلوب الحديث يخالف أحاديث سبقت، بالمبادرة إلى طرح سؤال، وهذا من منهج النبوة **بتنويع الأسلوب** من سرد إلى حوار إلى استفسار؛ لإثارة ذهن السامع

= لحديث « **مَثَلُ المؤمن مثل النخلة..** » فانظرها إذ جاءت فيما يقارب العشرين صفحة.

وانتباهه. وأحيانًا يستعمل ﷺ وسائل الإيضاح كما نعبر الآن. فكان بذلك المثل الأعلى للمعلم في وسائل التربية والتعليم.

٣ - في الحديث **تدريب النبي ﷺ أصحابه على عمق التفكير** بضرب المثل وطرحه سؤالًا، والمثل قد يُقَرَّبُ به البعيد، لذلك ذَهِلَ الصحابةُ عن المطلوب، ووقعوا في شجر البوادي، أي: ذهبت أفكارهم إلى أشجار البوادي الأخرى، وذهلوا عن النخلة. وفي ذلك عبرة للمربين والمعلمين أن يُرَوِّضُوا الأذهان.

* * *
* *
*

افتقار الخلق إلى ربهم

١١ عن أبي ذَرٍّ جُنْدُب بن جُنَادَة ﷺ عن النبي ﷺ فيما رَوَى عن اللَّه تبارك وتعالى أنه قال: « يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا.

يَا عِبَادِي كُلُّكُم ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ.

يَا عِبَادِي كُلُّكُم جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ.

يَا عِبَادِي كُلُّكُم عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُه، فَاسْتَكْسُوْنِي أَكْسُكُم.

يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ والنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُوْنِي أَغْفِرْ لَكُمْ.

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّيْ فَتَضُرُّوْنِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِيْ فَتَنْفَعُونِي.

يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوْا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم مَا زَادَ ذَلِكَ فِيْ مُلْكِيْ شَيْئًا.

يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ كانُوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِن مُلْكِيْ شَيْئًا.

يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا عَلَى صَعِيدٍ وَاحِدٍ وسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ.

يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُم، ثُمَّ أُوَفِّيْكُم إِيَّاها. فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّه، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُوْمَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ ».

[أخرجه مسلم والترمذي][١]

* * *

(١) مسلم في البرّ والصلة (باب تحريم الظلم): ٨/ ١٧، والترمذي في صفة القيامة باب رقم ٤٨ حديث ٢٤٩٥، ٤/ ٦٥٦، ٦٥٧.

الإسناد:

يسمى هـذا الحديث حديثًا قُدْسِيًّا، والحديث القُدْسِيُّ هو الـذي نُسِـبَ إلى رسول اللَّه ﷺ وأسنده إلى ربه ﷻ.

« ومناسبة تسميته قدسيًّا » هي التكريم لهذه الأحاديث؛ لإضافتها إلى اللَّه ولأنها واردة غالبًا في تقديس الذات الإلهية[1].

المحتوى الفكري:

يبين هذا الحديث رفق اللَّه تعالى بالناس، وافتقارهم له، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من الطاعة والجزاء لمن عصى.

وقد استهل الحديث جُمَلَه بهذا النداء المؤثر: « **يا عبادي** » **وأضاف الناس إليه إشعارًا لهم برحمته تعالى بعباده،** وإكرامه إياهم.

ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالى أنه حَرَّمَ الظلمَ على نفسه: « **إني حرمت الظلم على نفسي** » تقدس أن يكون ظالمًا أبدًا. وتنزه عن الظلم والظلم مستحيل في حقِّه سبحانه، وجعله بين الناس محرمًا « **فلا تظالموا** »: لا يظلم بعضكم بعضًا؛ ولا تخفى الإثارة العاطفية هنا، فقد أراد أن ينهانا عن الظلم فنفاه عن نفسه أولًا وهو القدير الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، فكيف بنا نحن العبيد. وإذا كان الظلم وضع الشيء في غير محله فإنه ينتفي في الحكمة الإلهية ويأباه اللَّه العادل على عباده.

ولكن طبيعة الظلم موجودة في النفس البشرية، كما قال الشاعر:

ظلـمُ القـويِّ للضعـيـف جـــارِ ... في الأرضِ والـهـواءِ والـبــحارِ

وقال آخر:

والظلمُ مِنْ شِيمِ النُّفُوسِ فإن تجـدْ ... ذا عِـفَّــةٍ فَلِعِـلَّــةٍ لا يـظـلــمُ

ومن هنا توجه الخطاب للعباد يحرم الظلم « **لا تظالموا** » أي: لا يظلم بعضكم بعضًا.

- « **يا عبادي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُوْنِي أَهْدِكُمْ** »:

لو اتَّبَعَ الإنسان هوى نفسه لفسدت وضلت وضَلَّ معها الإنسان[2]، فالنفس البشرية

---

(١) انظر للتوسع في الحديث القدسي كتابنا منهج النقد في علوم الحديث، رقم ٤٥، ص٣٢٣ - ٣٢٥.

(٢) الأصل في فطرة الإنسان السلامة، لكن ما يحصل في طباعهم من الشهوات والرغبات وتفضيل الراحة وإهمال =

بحاجة إلى الهداية. فعلى الإنسان أن يطرح الأهواء جانبًا، ويطلب الهداية ويُخْلِصُ في طلب الحق. فَمَنْ لم يُخْلِصْ له لم يهده اللَّه، حتى لو أتت له كل البراهين، فاللَّهُ تعالى يُحرِّضُ على ترك الهوى والتقليد الأعمى، باتباع العقل والفكر، على هَدْيٍ من الحقائق العلمية التي لا تأتيها الخرافات.

ثم انتقل الحديث إلى ذكر الجزئيات في الحياة:

- « **يَا عِبَادِيْ كُلُّكُمْ جَائِعٌ** »:

الطعام كفى ذكره عن الشراب، والحديث في هذا المجال قرر الضروريات في الحياة (المأكل والمشرب والملبس)، فلا يغرنك أن تعيش في هذه النعم؛ لأنها من عند اللَّه تعالى..

وقصة هارون الرشيد عندما أراد أن يشرب فقال له بعض العلماء: يا أمير المؤمنين: أسألك بنسبك من رسول اللَّه ﷺ أن تنصت لي، ثم قال له: أسألك باللَّه لو مُنِعَ منك هذا الماء بكم تشتريه؟ قال: بنصف ملكي، قال: فأسألك باللَّه إن مُنِعَ خروجه منك كم تدفع ثمن خروجه فقال: نصفَ ملكي، فقال له: ما أهون الملك الذي لا يساوي شربة ماء فبكى هارون.

هذه القصة تنبه إلى أهمية هذه الضروريات في الحياة. ولو أن الإنسان لا يشعر بها لتوفرها وتيسير وجودها، ولو أَحَسَّ بضرورتها لشكر نعم اللَّه تعالى عليها.. إذًا نحن مقصرون في حق اللَّه تبارك وتعالى.

- « **يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُوْنَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوْبَ جَمِيْعًا فَاسْتَغْفِرُوْنِي أَغْفِرْ لَكُم** ».

مغفرة الذنوب فضل من اللَّه تعالى يتفضل به هو. والذنوب لفظ يطلق على كل ذنب، وقد أُكِّدَ بكلمة جميعًا؛ ليدل على أن المغفرة ستشمل الذنوب دفعة واحدة، ولم يَقُلْ كلها؛ لئلا يُتَوَهَّم أن المغفرة تأتي على الذنوب تدريجيًّا؛ الواحد بعد الآخر، بل المغفرة تمحو الذنوب دفعة واحدة.

- « **يَا عِبَادي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّوْنِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِيْ فَتَنْفَعُوْنِي** »:

= التفكير الجدي في الحق والمعاد يدفعهم للضلال، فكان لا بد للإنسان من هداية اللّـه، حتى لا يضل. شرح مسلم بتصرف: ١٦/ ١٢٢.

هذه الجملة أتت لمن يريد أن يستغفر، فعدم الاستغفار لن يضر اللَّه ﷻ وكذلك لن ينفعه ما يقوم به الناس. ثم أتى بالتفريعات:

- « **يَا عِبَادِي: لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُم وَإِنسَكُم وَجِنَّكُم قَامُوا على صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عندي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ** ».

ذلك لأنهم هم عبيد اللَّه وبيده حياتهم وموتهم، وهو مالكهم. فالإنسان هو الذي تَزْداد حسناته إذا عمل شيئًا حسنًا. وكذلك العكس. لكن لا تزيد الطاعات في ملك اللَّه شيئًا.

كذلك لا تنقص المعاصي من ملك اللَّه شيئًا. والإنسان مقهور لهذه النواميس الإلهية، ولكن عليه أن يزيد من أعماله الحسنة عن رضًا واختيار، فالإنسان قد خوطب وطلب منه أن يكون إسلامه شاملًا للعمل الاختياري بطوع نفسه. وللعمل الإجباري الذي هو الاستسلام للَّه ﷻ، أي: الخضوع لسننه العامة في الحياة.

المِخْيَط: الإبرة الصغيرة الرفيعة، إذا غُمِست في أضخم شيء وهو البحر، لا تؤثر فيه بنقص، كذلك اللَّه ﷻ لو طلب كل إنسان منه ما يريد لاستطاع أن يعطيهم كلهم ما يريدون دون أن يؤثر ذلك في ملكه بأي نقص. وذكر الإبرة هنا وغمسها في البحر للتقريب من الأفهام، ومعناه لا ينقص شيء أبدًا(١).

ثم تأتي الخاتمة لهذه الجمل:

- « **يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُم أُحْصِيْهَا لَكُم، ثُمَّ أُوَفِّيكمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّه، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ** »:

فأنتم أيها الناس مفتقرون للهداية والطعام والشراب واللباس... وأنتم تخطئون وتستغفرون، وفي هذا كله حساب عند اللَّه تعالى. والحساب والجزاء يحصيه اللَّه لعباده. وقد قال: « **أحصيها لكم** » ولم يقل: عليكم؛ لأن المهم في إحصاء اللَّه ﷻ لأعمال الناس هو الخير، لا الشر. « **ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا** »: فكأن هذه الأعمال أصبحت دينًا للبشر عند اللَّه. ففي يوم الحساب يُوَفِّي البشرَ حِسابَهم، فمن وجد الخير فليحمد اللَّه.

---

(١) شرح مسلم للنووي: ١٦/ ١٣٣.

« **وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ** »: هكذا جاءت العبارة: « **وجد غير ذلك** ». ولم يقل: فمن وجد الشر؛ لأن المفروض ألا يكون هناك شر في الحياة وفي أعمال الإنسان.. وقد استعمل أساليب التأكيد.. « **فلا تظالموا..** » تأكيد معنوي. وفي ضرب المثل عن الإبرة صورة بيانية واضحة حل فيها الحديث هذه المشكلة الفكرية، وهي بيان عدم النهاية بشكل بسيط جدًّا يستطيع أيّ إنسان أن يفهمها..

وهناك جانب العاطفة الذي يبدو بوضوح وخاصة في هذا النداء « **يا عبادي** »، وإضافة الياء الساكنة التي تجعل النفس خاشعة أمام عظمة اللَّه ﷻ، وفي كثرة الخطاب بضمير الجمع المخاطب « كم » الذي لم تخل منه جملة.

ملامح فنية:

- جمال التركيب:

هذا النص من أروع النصوص النبوية في التعريف بذات اللَّه وبطبيعة الصلة بين اللَّه وعباده، **ومن ثم لتوجيه القلوب بالدعاء والافتقار إلى اللَّه**، وذلك لحيازته **على أسلوب التكرار، هذا التكرار الذي يشتمل على الافتتاحية التي يتبعها تنويع**، هذه الافتتاحية الرائعة هي: « **يا عبادي** »، نداء رباني يدخلنا في شرف ندائه سبحانه، **وتَكَرُّرُ هذه الافتتاحية نَظَمَ النص في عشرة محاور** متجاورة مستوفية لجوانب الحياتين الدنيوية والأخروية.

المحور الأول: أربعة مقاطع: « يا عبادي - إني حرمت - وجعلته - فلا تظالموا ».

وفيه استخدام الضمير المفرد لإضفاء الأنس على قلوب العباد وإضفاء الرحمات الربانية. ويأتي هنا التوافق الصوتي بين « حرمت » و « محرمًا » و « الظلم وتظالموا ». مع عدم اللجوء إلى المترادفات للإشارة إلى الحتمية والحسم.

المحور الثاني: ثلاثة مقاطع: « يا عبادي - كلكم ضال - فاستهدوني أهدكم ».

وفيه التأكيد على طلب الهداية « كلكم ضال » وحصر الهداية في اللَّه « إلا من هديته » ويبرز التضاد بين « ضال » وهي اسم فاعل و « هديته » للدلالة على أن الهداية توفيق رباني، وبذلك تتوجه القلوب إلى ربها، تطلب الهداية فتفوز بها.

المحور الثالث: ثلاثة مقاطع: « يا عبادي - كلكم جائع - فاستطعموني أطعمكم ».

وفيه التوازن مع المحور الثاني، ثم الرابع « كلكم ضال »، « كلكم جائع »، « كلكم

عارٍ ». وفيه بناء المعنى في دائرة عطاء اللّٰه وافتقار العباد إليه، ثم الحتمية والسرعة في أسلوب الطلب وجوابه « استطعموني أطعمكم ».

المحور الرابع: ثلاثة مقاطع: « يا عبادي - كلكم عارٍ - فاستكسوني أكسكم ».

وفيه: التوازن مع نظيريه « كلكم ضال » و « كلكم جائع » ليفيدَ التوازنُ والتنغيمُ الموسيقيُّ الدلالةَ على تلازم الهداية والطعام واللباس، أي: تلازم الدنيا والدين بشتى مستلزمات الدنيا الضرورية. وذكرها مرتبة حسب أولويتها، فالهداية سبب وجودنا وبها سعادتنا في الدنيا والآخرة ثم الطعام ثم اللباس.

المحور الخامس: أربعة مقاطع: « يا عبادي - إنكم تخطئون - وأنا أغفر - فاستغفروني ».

ونجد فيه التأكيد بقوله: « إنكم » لتأكيد خطيئة البشر، وبيان خطورتها وقد شملت الليل والنهار، ومِنْ ثَمَّ حتمية المغفرة لمن يطلبها، كما أفاد تكرار الأصوات « فاستغفروني أغفر لكم ». ومن اللطائف هنا تقديم الليل على النهار للدلالة على تستر الفاسقين بغطاء الليل خوفًا من أعين الناس.

المحور السادس: ثلاثة مقاطع: « يا عبادي، لن تبلغوا، ولن تبلغوا ».

وهو مبني على متقابلات ومتضادات: « لن تبلغوا ضري » « نفعي » « تضروني » « تنفعوني » وهو يفيد تأكيد العجز البشري، مما يثير رغبة العباد في اللجوء إلى اللّٰه والابتهال إليه.

المحور السابع: « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب... ».

هذا المحور يزداد طوله وفيه: توازنات موسيقية مع التضاد في « أولكم آخركم » والتماثل الموسيقي يوحي بتماثل النتيجة والقدرة، **وعطف هذه الكلمات الأربع « أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم » دليل على طلب الاستعداد الأكبر لتحقيق التقوى**، حتى كأنهم في صف واحد في تحقيقها، ومع هذا لا يزيد تُقَاهم في ملكه تعالى شيئًا.

المحور الثامن: « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب... ».

هذا المحور قرين المحور السابع في تشكيله المعماري ويشكل معه تضادًّا بين الجزئيات توضح الخير والشر « أتقى – أفجر » « ما زاد – ما نقص » لزيادة التأكيد. بالإضافة إلى الطابع الموسيقي في هذا التكرار.

المحور التاسع: خمسة مقاطع: « يا عبادي، لو أن أولكم، قاموا، فأعطيت، ما نقص ».

إن طول مقاطعه يتلاءم مع سعة الرحمة الربانية، وخاصة في إبراز ضمير المتكلم العائد على اللَّه تعالى « عبادي – سألوني – فأعطيت – عندي ». ثم فيه حصر المعنى بواسطة « إلا » و « واحد » صفة الصعيد، ثم « رجل واحد » ليفيد اجتماعًا بشريًّا ضخمًا جمع البشرية كلها، بل الخلق كلهم توجه كل واحد منهم بما يطمح من مطالب وآمال، فأعطاهم إياها كلها، ثم يقول: « ما نقص ذلك مما عندي... »؛ ليصور عظمةً لا حدود لها ولا نهاية.

المحور العاشر: ستة مقاطع: « يا عبادي، إنما هي أعمالكم، أحصيها...، ثم أوفيها...، فمن وجد خيرًا...، ومن وجد غير ذلك... ».

فيه التوازن أيضًا مثل « أحصيها » « إيَّاها » للدلالة على العدل، ثم قوله: « فمن وجد خيرًا » « ومن وجد غير ذلك » يشير إلى التضاد بين الخير و « غير » ولم يقل « شرًّا » للستر على ذنوبهم واستجلاب قلوبهم إلى الصلاح.

وأخيرًا خُتم النص بعبارة تهديد ليعود بنا إلى « حرمت الظلم » الذي يشتمل ظلم النفس وظلم الناس، فليس ثمة ذنب إلا وهو يدخل في خيمة الظلم.

وهكذا فإن هذا الحديث **يشتمل بناؤه من حيث التشكيل على أسلوب الافتتاحية الواحدة ثم التنويع، وكثرت فيه صيغ الأمر وجواب الأمر**، والجمل المشتبكة بالفاء؛ ليدل الحديث بذلك على حتمية ما ذكره ويزيد الرغبة فيه.

ومن حيث البناء الكلي جاء الحديث على **الشكل الدائري**، فقد بدأ بالتحريم والزجر عن الظلم وانتهى به. وقد أُحْكِمَتْ هذه الدائرة بوساطة التوكيد بالنون المثقلة « يلومن » وبالحصر « إلا نفسه ».

- جمال التصوير:

يحفل النص بصور متنوعة تتوزع بين الواقعِ حقيقةً والاحتمالِ، مثيرة للخيال الواسع:

١ - يثير النص صورًا متنوعة نشهد فيها أناسًا جائعين، مُطْعَمين، عُراة، مَكسِيِّين، وصورة الخطيئة مستمرة مع الفعل المضارع « تخطئون ». ثم كلهم تحت مظلة رعاية الرب وإكرامه.

٢ - صورة الإنس والجن والتقاؤهم على قلب واحد يمثل أسلوب التحدي والبرهان في هذه الصورة العرضية الضخمة الممتلئة بالإنس والجن، وقد التقوا على قلب رجل واحد تقي أو فاجر.

٣ - تشبيه عدم النقصان من الملك الإلهي بنقص البحر بوساطة غمس الإبرة؛ لتدل الإبرة على الضعف البشري، والبحر على الفيض الرباني العميم الذي لا ينتهي. وهذه صورة من ألوان البلاغة أي: التشبيه.

٤ - التصوير الحسي في إعطاء اللَّه ﷻ كل واحد مسألته وإحصائه أعماله، ثم التصوير للحالة النفسية. فيفيدنا شدة التضرع وطلب القرب من اللَّه تعالى. لما أن القضية « **هي أعمالكم أحصيها لكم** » تأمل قوله: « **لكم** » ولم يقل: عليكم. « **ثم أوفيكم إياها..** ».

- إثارة العاطفة:

وقد كثرت في نص الحديث التوازنات والتوازيات؛ لتعطيه نغمًا موسيقيًا منسجمًا مع بعضه، على الرغم من طوله.

ومن ثم قام بناء النص كله على نظام افتتاحية واحدة « يا عبادي » يليها تنوع؛ لتجذب المتلقي وتُؤثِّر فيه مزيد تأثير، كما أن أسلوب النداء للخلق « يا عبادي »، وأسلوب المتكلم فيه النداء وغيره من جمل الحديث « فاستهدوني.. » « فاستطعموني.. » « مما عندي.. » وأسلوب المخاطبة للعباد هذه الأساليب الشائعة في محاور الحديث تثير الهيبة في القلب والرغبة في التقرب إلى الرب ﷻ، وتحقق تناغمًا موسيقيًا خاشعًا.

يعزز هذا الخشوع ما كثر في الحديث من المتضادات والمتقابلات؛ ليكون أكثر إثارة للعاطفة، وتوجيهًا لها إلى اللَّه. وقد جاء هذا التوجيه مُفصِّلًا جوانب كثيرة تحيط بالإنسان، لا تنفك عنه، ابتداء من إمداد الهداية وهي ضرورية للقلب والعقل، إلى إمداد ضرورات العيش المعبر عنها بالكسوة والطعام، وغير ذلك، مما يغني عن شرحه التأمل الذاتي في هذا الحديث الجليل، لنتوجه بعقولنا وقلوبنا خاشعين للَّه ربِّ العالمين.

القلوب كالحصير

١٢ عن حُذَيْفَةَ بن اليمانِ - رضي اللَّه عنهما - قال: سَمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول: « تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كالحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فيه نُكْتَةٌ سَوْدَاء، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيَضَاء، حتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمواتُ والأرضُ، والآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِن هَوَاه ».

[أخرجه مسلم][1]

* * *

اللغويات:

الفتن: الفتنة: الاختبار والامتحان، والمراد هنا كل ما يعرض للإنسان من مغريات شهوانية أو غيرها أو فكرية اعتقادية أو ضغوط، مما يمتحن تقواه وثباته على دينه سلوكًا أو اعتقادًا.

عُوْدًا عُوْدًا: عودًا بعد عود، والمقصود: على التدريج شيئًا فشيئًا.

أُشْرِبَهَا: تمكنت فيه وحَلَّتْ كما يحل الشراب في الإناء.

النُّكْتَةُ: البُقْعَة، وهي كل لون يخالف ما وُجِدَ فيه من اللون العام.

المُرْبَادُّ: المتغير عن لونه، أو هو لون بين الغُبرة والسواد. وقيل: الكُدْرَة.

الكُوز: الإناء.

مُجَخِّيًا: منكوسًا.

المحتوى الفكري:

نبوة النبي ﷺ **علاج لكل جوانب الحياة المادية والمعنوية والروحية والنفسية**، وهذا الحديث يبين لنا موقف المؤمن من المجتمع العام ومن صروف الحياة: لا بد للمرء **أن يُمتحن بما يعرض له من المغريات** الكثيرة المتنوعة، والنفس قد تتساهل في أشياء

(١) مسلم في الإيمان في أثناء حديث طويل (باب إن الإسلام بدأ غريبًا..): ١/ ٨٩.

تظنها قليلة الخطر، لكن الحديث يبين لنا أن نأخذ بجانب الحَزم وسد طريق الشيطان من الوهلة الأولى، ومن كل سبيل وطريق، فالتساهل في الصغيرة يجر إلى التساهل في الكبيرة، حتى يتغير الإنسان ويصبح على نقيض ما كان عليه.

يبدأ الأمر أولًا بالتثاقل عن الصلاة مثلًا، ثم يؤخِّرها عن وقتها ليقضيها فتهون هذه المعصية، وإذا به يترك الصلاة بعد ذلك، ويستمرئ هذا الكسل والخمول، حتى يتوصل إلى أن تشمئز نفسه من الصلاة فيكرهها وينفر منها.

كذلك التحلل الإباحي يبدأ بإرسال الطرف هنا وهناك، حتى يزين هذا الذي لا يبالي أن تتلذذ عينه بالحرام، وينتقل للتلذذ بمخالطة الفتيات بالحرام، حيث تزين له نفسه المخادعة لإيقاع الغريرة في حباله، وإذا به يتلوث بالزنى ويَهْوَى هذا الطريق.

لقد رأينا متدينين حافظين لدينهم، ابتُلوا برفاق سوء وأصحاب رذيلة راحوا يزينون لهم صغير الأشياء، تحت ستار عدم التعصب وبشعار إبليس: « ساعة لقلبك.. »، وإذا بهذا المسكين يَزِلُّ وينزلق في هوة الفاحشة بل يَتَردَّى بما هو أفظع.

إن اللّٰه أودع قلب كل إنسان وازعًا يذكره بربه، فهذا العاصي يجيب ضميره أولًا بأنا سنتوب، ثم بالتأويل والأماني الكاذبة، ولكن الغرائز الدنيا تلعب دورها إذ تزيِّن له كراهة الإيمان والدين، إنهما يحظران عليه ذلك التسفل القذر وإذا به يلحد ويعادي ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٥].

وقد عرض الحديث هذا التحليل النفسي بطريقة التمثيل، فقد شبه عروض هذه الفتن والمحن بالحصير، وكيف يتجمع وينسخ بالعود بعد العود، حتى يصير حصيرًا، كذلك الفتن تتجمع حتى تغير قلب الإنسان وتغلبه، فيصبح مليئًا بالشر بدلًا من الخير.

هذا التشبيه الذي صَوَّر الحالة النفسية وحَدَّثنا عنها بعنوان « القلب »، وهو مجمع التأثرات (النفسية والمعنوية)، يشبه إتيان الفتن بالحصير ونَسْجِه عُودًا عُودًا، **وهكذا عرض لنا معاني متعددة:**

١ - عروض الفتن والاختبارات وشبه تدرجها في التأثير على النفس بنسج الحصير.

٢ - شبه القلب الثابت الذي سَمَدَ (ثبت) أمام كل هذه الحالات المغرية بالمرمر الصلب « الصفا » الذي يَسُرُّ الناظر إليه لجمال لونه وصفائه. أي: إنّ من حافظ على

استقامته ولم تتأثر نفسه بالفتن يصبح صلبًا في دينه، مطمئنًا ذائقًا حلاوة الإيمان، حتى يخالط مخه وعظمه ودمه.

٣ - أما النوع الثاني من القلوب وهو الذي أُشربها فهو أسود مُرْبَادٌّ قذر، وصفه بأنه لا يقبل الخير، وشبهه في ذلك بالإناء المقلوب الذي لا يحل فيه سائل إطلاقًا، وهذا شأن الذي غاص في الفتن وحقق مستهويات نفسه وفكره، حتى أصبح مقلوبًا رأسًا على عقب.

وكل معنًى من معاني **الحديث قد صيغ بلون من علم البيان، من هذا التشبيه** الواضح، واستغل التشبيه استغلالًا بليغًا في التعبير عن المقصود، حتى إنه عرض المشكلة عرضًا واضحًا مُصوَّرًا، تناول الحديث فيه الحالة النفسية، في قضية التساهل تجاه مسألة من مسائل الشريعة. فبين أن الفساد يأتي تدريجيًّا، حتى يصبح الحرام مُحَبَّبًا إلى نفس هذا الشخص، والحلال مكروهًا إليه والواجب مستبعدًا عنده، فَيَفْسُدُ طبعُهُ وفهْمُه بذلك.

حتى إذا استكملت هذه الأشياء في النفس واستحكمت على الإرادة « أشربها » كان الرقيب الإلهي في نفس كل إنسان يحاول تأنيبه ويبعده عن هذه المفاسد، فإذا لم يستجب له، حتى يدمن ويستمرئ الانحراف يُمسخُ قلبُه، فيصبح أسود خبيث اللون، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، تسيره الشياطين في طريق الغواية والضلال.

وقد أبرز الحديث صورة القلب الفاسد في هذا التمثيل الذي عضَّده بالألفاظ المناسبة، فالحديث وضع كلمة « مربادًّا » في موضع جيد، وعرض أنواع الفتن وتأثيرها بالنفس، ثم عبر عن نتيجة كل نوع فعرض إلى القلوب التي لا تتأثر فتبقى صافية قوية، فمن حافظ على استقامته ولم يلوث نفسه فإنه يكون كالجبال الراسية لا يؤثر فيها شيء.

وَذَكَرَ القلوب التي اسودت بسواد القذارة، ثم شبَّه هذا القلب بالكأس المقلوب. فلا يمكن أن يحل به سائل من السوائل، كذلك الذي خاض في الشهوات والمحرمات أصبح منقلبًا رأسًا على عقب. فكل معنًى من هذه المعاني الدقيقة أتت بصور من البيان حتى إن نفس التشبيه كاد يكون عرضًا حقيقيًّا للأمر، إذ تمثل لنا في الوضع النفسي بصورة مادية محسوسة مألوفة، واصطبغت هذه الصور بالألوان المتعددة: أبيض مثل الصفا، أسود مرباد، ثم جاءت الحركة في قوله: « مُجَخِّيًا » تعبر عن التحول العكسي الفظيع، فكان الحديث بذلك قطعة فنية أدبية بديعة في غرضها وفي وسائلها وأسلوبها.

جمال البناء:

يعتمد بناء هذا الحديث على التكثيف ثم التبسيط، ويتكوّن الحديث من أربعة مقاطع تقوم بينها علاقات تضاد، وهذه المقاطع هي: « تعرض الفتن...، فأي قلب أشربها...، وأي قلب أنكرها...، حتى تصير على قلبين، على أبيض...، والآخر أسود ».

المقطع الأول: « تُعْرَض الفِتَن على القلوب كالحصير عودًا عودًا »:

يبدأ بجملة فعلية فعلها مبني للمجهول « **تعرض الفتن** » بإغفال الفاعل؛ لينصرف الاهتمام كله لمواجهة الفتنة التي تمتحن ثبات المؤمن على دينه. وتأتي « **كالحصير عودًا عودًا** » تفسر الأولى، وتبين طريقة العرض الخطيرة في التدرج.

المقطع الثاني والثالث: « فأي قلب أشربها نُكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء »:

نجد فيهما التنويع الذي يمثل تضادات وتوازيات: فالتنويع في « أشربها » و« أنكرها » مثلًا، فاللفظان متشابهان في البناء ومتضادان في المعنى، فالقبول غير الإنكار، وكذا « بيضاء » و« سوداء »، وذلك مع التوازي الصوتي.

المقطع الرابع: « حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل... والآخر أسود مربادًا.. »:

هذا المقطع حصيلة التطورات بالنتيجتين السابقتين المتضادتين. صُدِّر بكلمة « حتى »، وهذا إجمال (تكثيف) يشد انتباه السامع لمعرفة الحقيقة، ثم يأتي التفسير بأسلوب البدل « على أبيض.. »، و« الآخر أسود »، فيقع في القلب موقعًا عميقًا.

وأحد طرفي التضاد الذي يمثل ثنائية الخير والشر: « على أبيض مثل الصفا » وقُدِّمَ الخيرُ على الشرِّ فحصل تنويعٌ وتشابكٌ في أعضاء النص، كما نجد اللف والنشر غير المرتب:

« أبيض » يتعارض مع « أسود » و« الصفا » صلب يتعارض مع « الكوز » الرخو، ومن ثم تتوالى العبارات بتفصيل النتائج، فالفائز الناجي « لا تضره فتنة » ويُخَلَّد هذا الزمن: « ما دامت السموات والأرض »، وأما الهالك فيوصف بأنه « **مرباد** » مشبهًا بالكوز و« مُجَخِّيًا » ليعبر عن انتكاس قلبه، وتتوافق الأصوات في قوله: « لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا »، وكله يعبر عن انسجامه بالانتكاس الذي انجرف فيه.

والنسق اللغوي الأخير « **إلا ما أشرب من هواه** » فيه عبارة استثناء يوهم ظاهره حالًا

مخالفة لما سبق، لكن تأتي « من هواه » وقد عُلم ما هواه الفاسد فزاد التوكيد من باب تأكيد الذم بما يشبه المدح.

فبناء الحديث اعتمد على التكثيف (الإجمال)، ثم تفصيل الجزئيات، مما يُشَوِّق المتلقي ويجذبه لمتابعة الكلام، ثم يأتي **أسلوب التضاد الذي يجعل كلًّا من الطرفين في حال أوضح**، وأقوى تأثيرًا.

كل هذا في تكاثف العلاقات اللغوية مع الحركة التصويرية تضامنًا مع الفكرة التي تسير بمنطق سويٍّ من فاتحة نص الحديث إلى خاتمته.

جمال التصوير:

اعتمد الحديث في بيان غرضه – وهو التحذير من التأثر بالفتن – على عرض المعاني في مشاهد محسوسة مُجسمة متنوعة تشد المتلقي وتؤثر فيه.

المشهد الأول: في هذا الحديث الشريف يعتمد على وسيلة **تشبيه التمثيل**، إذ شبه تكرار عرض الفتن، أي: المؤثرات للانحراف عن اللَّه تعالى بنسج الحصير عودًا عودًا. مُشخِّصًا الفتنة بالعود، ومحذرًا من حركتها الخفية.

المشهد الثاني: « **نُكِتت فيه نكتة سوداء** »: نشهد فيه صورة سوداء على أرضية مخالفة تجسم هذه الصورة علامة الضلال الذي وضع شارته على القلب، تجسيمًا مخيفًا مفزعًا بلون السواد أي: الظلام.

المشهد الثالث والرابع: يحمل المشهد الثالث « أشربها نكتت فيه نكتة سوداء »: تباينًا لونيًّا، فهو يتمتع باللون الأبيض، ولكن هناك نكتة سوداء تجسِّم تشرب الفتنة، وهنا في المشهد الرابع: « نكتة بيضاء.. » نقطة بيضاء مجسِّمة علامة الإيمان وقوته، ثم تتسع النقطة البيضاء مع التفاعل اليومي باجتناب الفتنة والثبات واليقين حتى يستنير القلب وتصلب فيه إرادة الخير ليكون المصير مطلقًا « ما دامت السموات والأرض ».

المشهد الخامس: « **أسود مربادًّا كالكوز..** » هو حال المفتون الذي توسَّعت في قلبه النكتة السوداء، فيتبين لنا تراكم الضلالات لديه والصدود عن الخيرات، وقد شبهه بالكوز وهو من المكونات الصناعية، على حين شَبَّه قلبَ المؤمن بالصفا وهو من المكونات الطبيعية، ووصفه بكونه « مجخِّيًا » ليعبر عن الحالة القلقة التي يعيشها أهل الفتن والضلالات.

ثم يختم النص بقوله: « **إلا ما أُشْرِبَ مِن هَواه** » ليجسم الأهواء الفاسدة شرابًا تخلل القلب، بفعلٍ مبني للمجهول « **أُشْرِبَ** » ليبين أن المفتون يسقى من هواه مشدودًا إلى الهاوية كما هو مشاهد؛ ليحذِّرَ الحديث الناس من المارقين الذين يسحبون الناس من شهواتهم؛ ليكونوا أتباعًا لهم.

وهذا النص بمشاهده المتنوعة **يثير الرعب ويبث الطمأنينة** بحسب انتشار الخير أو انتشار الشر، والأفكار فيه واضحة جلية، وقد ركَّز النص على القلب قاصدًا فيه كونه منبع الإرادة، فإذا أفسده الهوى وتمكَّنَ منه غلبت الشِّقْوة على صاحبه ولم يعد ينفعه نصح، وفيه تحذير للعاقل، أن يحذر هواه وأن يسلك طريق رشده. اللَّهم اجعلنا من الراشدين.

إرشادات الحديث:

١ - **التحذير من أعداء المؤمن**، من شياطين الإنس والجن وخططهم بالتدريج لزحزحتهم الناس عن دينهم، حتى يَخْرُجوا منه وهم لا يشعرون.

٢ - **أهمية المحافظة على الطاعة في حفظ الإيمان**، بل زيادته وترسيخه حتى يصير أقوى من كل شيء، فلا تضره فتن أهل السموات والأرض، وهذا واضح فيما عاصرنا من صراع مسلمين ضعفاء مع قوى طاغية ضخمة.

٣ - **التحذير من المعصية والافتتان ببهارج الدنيا** المادية أو الفكرية، أن تزحزح المسلم عن شيء من حَقِّه أو دينه، أن يؤدي ذلك إلى خسارة الكل، فالقلب تدخله بكل معصية ظلمة، فإذا توالت افْتُتِنَ، حتى يُخشى أن يزول عنه نور الإسلام، عياذًا باللَّه تعالى.

* * *
* *
*

النصر للمؤمنين

١٣ عن خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ ﷺ قال: شَكَوْنَا إِلَى رَسولِ اللَّهِ ﷺ - وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ - فَقُلْنا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو لَـنَا؟ فقال:

« قَدْ كَانَ مَنْ قَبلَكُم يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فيها، فَيُجَاءُ بالمِيشَارِ، فيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَين، ويُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ. واللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذا الأَمْرُ حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعَاءَ إِلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلا اللَّهَ والذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُون ».

[أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي][1]

* * *

اللغويات:

متوسد: مسند رأسه إلى جدار الكعبة بينه وبينها بردته يستند إليها.

بُـــردة: البردة الشملة المخططة.

تستنصر: تسأل اللَّه وتدعوه أن ينصرنا.

الميشار: بالياء آلة ينشر بها الأخشاب. وفي رواية بالنون: « المنشار ».

المحتوى الفكري:

هذا موقف مُشْكِلٌ هو معاناة المسلمين من المشركين عُرِضَ أمام النبي ﷺ، فكيف كان العلاج؟

إنَّ هذا السؤال يدل على السآمة من العذاب المستمر، وهذا يحتاج إلى علاج، فالمَلَل إذا دبَّ إلى نفس المجاهد أوشك أن يصدها عن جهادها. والرسول ﷺ لم يَدْعُ كما طلبوا منه، ولم يستَجِب لرغبتهم هذه؛ لأن التعذيب وتحمل البلاء سُنَّة اللَّه في أنبيائه، في كل من يدعو إلى الحق، فالداعون إلى الحق لا بد من أن يُخْتَبَروا حتى ينصرهم اللَّه...

(١) البخاري في أول الإكراه: ٩/ ٢٠، وأبو داود في الجهاد (الأسير يُكْرَه على الكفر): ٣/ ٤٧، والنسائي مختصرًا إلى قوله: « تدعو لنا » ٨/ ٢٠٤.

أما أهل الباطل والطغيان فقد يُقاسون الآلام، حتى يصلوا إلى آمالهم، ولكنهم عند ذلك لا تتسعُ صدورهم للناس، ولا يتجهون اتجاهًا سليمًا، والموقف النبوي كان بعدم دعاء النبي ﷺ؛ لأن الدعاء يجعلهم يخلدون إلى الراحة، وهذا خطر على موقفهم.

لقد أراد النبي ﷺ **أن يثير النخوة للثبات** في المؤمنين، بأن ضرب لهم مثلًا من أحوال السابقين الذين عُذِّبوا لاعتناقهم الحق، فضمَّن حديثه هذا المعنى: إنكم تشكون وتملون، ولم يأتكم شيء من البلاء الذي حلّ بمن قبلكم، فإذا أردتم الفوز بالنتيجة الحسنة فيجب أن تكونوا مثلهم، صابرين محتسبين، قائمين على الدعوة الحقة بتحمل المشاق والتَّبعات. وهذا يعني أنه لا بد لنصرة الحق من اتخاذ الأسباب الممكنة، حسب سنة اللَّه وحسب طاقة المؤمنين ومن ثم يأتي نصر اللَّه تعالى.

إن هذا الفكر **وهذا التصميم العظيم منبثق من أثر عقيدة التوحيد والإيمان** باللَّه، وهو الخضوع للَّه لا لأحد سواه، فإن مُقْتَضَاه أن يتعالى الإنسان عن المطالب الدنيوية من أعراف يخالِفُها ويسمو عليها، ومغريات الدنيا بما فيها من مال أو شهوات، فلا تؤثر فيه ولا تَلْفِتُهُ عن طريقه. فهو بعبادته للَّه لا يخضع إلا للحق، وهو يتعزز عما سواه، وخضوعه للحق يجعله يسمو فوق هذا كله، ويسمو عليه.

بهذه التربية التي أنشأ عليها النبي ﷺ أصحابه، جعل منهم قُدوةً وأئمةً دعاة للحق، لم يوجد مثلهم أبدًا.

ولم يقتصر النبي ﷺ **على ما ذكره من أحوال السابقين** الذي تهيأت به النفوس للصبر والثبات، وأثيرت فيها النخوة، بل **تمم العلاج بالبشارة بالمستقبل** بشارة تثير في النفوس الرغبة الصادقة في تحمُّل هذه المصاعب وتلك المصائب والآلام؛ فإنها ستؤدي إلى النصر الذي وعدهم اللَّه به، فجاء هذا الوعد من النبي ﷺ بالنصر المؤزَّر رغم أنهم كانوا في ضيق ليس له مثيل، ورغم قلة عددهم فجاءت البشارة تثبيتًا لقلوبهم.

ولما كان الموقف شديدًا فإنه قد **أكّد بشارته** بأنواع المؤكِّدات: « **واللَّه لَيتِمَّنَّ** »، بواو القسم ولامه ونون التوكيد الثقيلة، ليس لأن السامع منكرٌ لكلامه الشريف، بل لأنَّ الموقف النفسي يتأزم، حتى خشي منه لحوق الوهن بهم؛ لذا أكَّد الكلام لينزل في قلب السامع قويًّا بحيث يرسخ فيه، فيؤمنون بالنصر إيمانًا راسخًا؛ يثبتهم أمام المحن والشدائد.

فالنبي ﷺ في علاج هذه المشكلة فاز فوزًا عظيمًا فأخبرهم بوجوب توطين نفوسهم

على هذه السنة الإلهية، ثم نقلهم إلى الجانب الإيجابي ليُحَصِّنَ نفوسهم من الوهن، ويقويها، والبشارة تجعل الإنسان في غاية السرور، لتحمّل هذا الألم الذي هو جسر لما بعده من ظفر وانتصار.

تُرِيدين لُقْيَان المعالِي رخيصةً ولا بُدَّ دون الشَّهْد مِن إِبَرِ النَّحْلِ

جمال النص:

يبدأ النص بسرد إخباري يمهد للحوار، فيصف الهيئة التي كان عليها النبي ﷺ وهو يتلقّى الشكوى، إلى أن يبدأ الحوار من جانب الصحابة - رضي اللّه عنهم -« ألا تَسْتَنْصِرُ لنا » « أَلَا تَدْعُو لنا » فهم يريدون عونًا غيبيًّا ينتشلهم من العذاب المرير، عبروا عن ذلك باستفهام يراد به الطلب تأدبًا مع النبي ﷺ.

ويأتي الجواب النبوي باستعراض **مشاهد من تاريخ الكفاح** الديني بأسلوب بليغ نجد فيه استعراض الصور بالفعل المضارع، وقد بدأها بـ « **قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ** »؛ ليعود بهم إلى الزمن الماضي. كذلك نلحظ كثرة **استخدام البناء للمجهول**: « يُؤخَذ، يُحفَر، يُؤتَى، يُوضَع.. » **عناية بحركة الفعل** دون المحرك؛ لأن المراد تقرير سنة اللّه في الأنبياء. كذلك قال: « يُؤْخَذُ الرجل فيُحفر له.. »؛ ليدل على الضعف الشديد لهذا المؤمن حتى إنه يؤخذ كأي شيء ضئيل، وتأتي صورة المنشار على الرأس الذي عُهِدَ للخشب، ثم كونه حديدًا ليدل دلالة أخرى مخيفة ويعطي حجمًا مغايرًا هائلًا.

ثم ذكر بعد المشاهد الحسية المروعة العاملَ النفسي الذي يدل على ثبات المؤمن ويقينه: « **فما يَصُدُّه ذلك عن دِينه** »، واستخدم المضارع للدلالة على الثبات بالرغم من استمرار العذاب. بعد أن انتهى الحديث الشريف من معين التاريخ عاد إلى الزمن الحاضر مؤكدًا الوعد بالنصر بالقسم « واللّه » ذاكرًا مدينتين مما يعرفون باضطراب الأمن ليخاطب عقولهم بالإقناع وجدانهم بالتأثير العاطفي: « **حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حضرموتَ** »، وأكّد الأمن بالحصر: « **لا يخاف إلا اللّه** » ثم التفت فعاد إلى المخاطب: « **ولكنكم تستعجلون** ».

جمال التصوير:

ينقلنا هذا الحديث إلى صور حقيقية في أعماق التاريخ حيث صراع الجبابرة والمستضعفين أتباع الرسل، فنلمح زبانية الطاغية يحفرون للمؤمن مذكرين إيَّاه بالموت

والفناء، بعد أن صغّروا من شأنه وجروه إلى مكان العذاب، ثم تأتي **صورة المنشار في حركة هابطة من الأعلى إلى الأسفل** في غاية الفظاعة هي حركة المنشار الذي يشق جسد الضحية، وكأن المؤمن خشبة تقطع، ثم يأتي التعبير بـ « **يُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ** » فيقربنا من المشهد العنيف؛ ليزيد من طاقته التصويرية ومساحته النفسية في إثارة الذعر في النفوس، لكنها تهيء النفوس للشجاعة والثبات.

ويختتم بمشهد من الزمن الحاضر للنص، في هذا المشهد **صورة مسافة عرضية تكون الحركة فيها مضطربة قلقة بالسلب والنهب** حال إلقاء الكلام، **لكنها تتحول في المستقبل بالنسبة للصحابة إلى حركة أخرى متزنة آمنة** يشيع فيها الاطمئنان، إذ يتحول الحال من العناء والعذاب إلى غاية النصرة والعزة، حتى يسود الأمن في أسوأ بقاع الجزيرة اضطرابًا وقلقًا، فجاءت هذه الكناية: « **يسيرَ الراكبُ مِنْ صَنْعَاءَ... على غَنَمِهِ** »، بمنزلة البرهان على حقيقة البشارة وعظمة تحققها، ثم تأكدت بهذا الاستثناء « **لا يخافُ إلا اللَّهَ والذئبَ...** » الذي أفاد شمول الأمن من كل ناحية، حتى مواضع الاضطراب.

وهكذا وقفنا في هذا النص على عدة صور مؤثرة، هي صور من الواقع، لكنها أثارت الخيال وألهبت المشاعر؛ لأن القائل المبدع ﷺ قصد بها التأثير بكل قوة نحو الهدف المطلوب.

ملامح قصصية:

يعتمد الحديث على القصة، وهي هنا عرض سريع لبعض مشاهد مثيرة عنيفة.

أما المكان: فهو غير محدد، بل هو أمكنة مطلقة؛ لأن المقصود إنما هو اقتباس العبرة لحسن الاقتداء.

وأما الزمان: فهو متعدد فيه تفنن عظيم التأثير، فهنا الزمن الخارجي الذي جاء استرجاعًا لأحداث ماضية، ولفظة « كان » نقلت الزمن الحاضر إلى الزمن الماضي. وتأتي الأحداث متتابعة متعاقبة باستخدام حرف الفاء « فَيُحْفَرُ، فيُجْعَلُ، فَيُجَاءُ »، ثم ينتقل البيان النبوي من الماضي إلى المستقبل ليبشر بالمستقبل المنتصر الآمن بانتشار الإسلام، ثم يعود إلى الزمن الحاضر بعبارة « **ولكنكم تستعجلون** ».

وهكذا أثار الحديث تشوقنا بتعدد الزمن، وقرر في أعماق القلوب اتحاد سنة اللَّه وترابطها من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل؛ ليلقي الثبات في قلب المؤمن.

وأما الشخصية: فشخصية بطلي القصة هنا شخصية مثالية ولكنها واقعية تاريخية، ضربت مثلًا عاليًا في الصُّمود (الثبات) وتحدي عذاب الدنيا في سبيل الحفاظ على الدين، وهي شخصية خيرة ثابتة كما هي حال الأنبياء وأصحابهم وتابعيهم بإحسان. إن كل واحد من الشخصين ضعيف في شكله، لكنه قوي غاية القوة لا يتزعزع إيمانه أمام كل هذه القوى الطاغية، فهو أقوى منها ومن جبروتها.

إرشادات الحديث:

١ - **إن عادة اللَّه في الأنبياء وأتباعهم أن يتعرضوا للابتلاء** والشدائد؛ ليُؤجَروا على ذلك، وليتبين المؤمنون الصادقون والمنافقون.

٢ - **إنه لا بد لتحصيل المطالب من تحصيل الأسباب**، ومنها الصبر على الشدائد والمحن حتى يحينَ الوقت؛ لذلك لم يدعُ النبي ﷺ مع أن دعاءه ﷺ مستجاب. وقد أخطأ المسلمون في قضية هذا العصر - فلسطين - باعتمادهم على مواعيد وقرارات دون تحصيل الأسباب، بإعداد القوة والجهاد.

٣ - **عظمة حكمة النبي ﷺ في حل مشكلات الدعوة.** فقد جعل الصحابة يوطنون أنفسهم على تحمل الشدائد جريًا على السنة الإلهية، ثم نقلهم إلى الجانب الإيماني؛ ليُحصِّن نفوسهم من الوهن، وليقوِّيَ عزائمهم بالبشارة بالمستقبل. والبشارة تحفز على التحمل، إذ تجعل الألم جسرًا للفوز.

٤ - **إثارة رغبة النفوس بالترغيب** بحسن النتائج، والرغبة الصادقة تدفع الإنسان دفعًا قويًّا لتحمل المشاق والمتاعب، فليتذكر كل مؤمن ما أعد اللَّه للصابرين عن المُحَرَّمِ، والسَّامدين على اتباع الشرع، وليذكرهم الدعاة بذلك، حتى تتوفر الرغبة الصادقة، فتنشرح الصدور، لتحمل الصعاب لامتزاجها بأمل الفوز المنتظر.

٥ - أجمعوا على أن **من أكره على الكفر واختار القتل هو أعظم** أجرًا عند اللَّه تعالى ممن اختار الرخصة، أي: إظهار الكفر باللسان فقط وقلبه مطمئن بالإيمان. أما من أكره على أكل الخنزير أو شرب الخمر مثلًا فالفعل أولى[1].

٦ - **إن على العالم الإسلامي أن يأخذ بأسباب العزة** والنصر والتقدم، ولا يكتفي بأنه

---

(١) فتح الباري: ١٢/ ٢٥٩.

على الحق، كما هو حالهم في قضيتهم قضية فلسطين: اكتفوا بالوعود والقرارات الدولية فزادت مصائبهم وتضاعفت.

٧ - الحديث علم ودليل من **دلائل نبوته** ﷺ، فقد كان أصحابه في غاية الضعف والقلة، ثم تحقق ذلك الوعد في زمن يسير جدًّا، إذ شهد العالم أولئك الأعراب الذين لم يكن يَأبَه لهم أحد، يخرجون من صحرائهم يقودون العالم نحو الخير والهدى، ويُعلِّمون الناس معاني النظام، ويشيعون الأمن والسلام، حتى يسير الراكب في أعظم البقاع خطرًا وأكثر ما كانت نهبًا وتقتيلًا يسير فيها آمنًا مطمئنًّا، ولا شك أن أحدًا لا يعلم الغيب إلا اللَّه، ولم يكن هناك مقدمات لهذا الغيب، بل كان الواقع عكس ذلك، فليست القضية قضية نبوءة من فراسة الرسول الأمي، وإنما كان متكلمًا عن الغيب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

* * *
* *
*

إنباء النبي ﷺ عن الغيب

١٤ عن عدي بن حاتم ﷺ قال: « بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ، فَشَكَا إِلَيْهِ الفَاقَةَ ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا قَطْعَ السَّبِيلِ! فَقَالَ: يَا عَدِيُّ! هَل رَأَيْتَ الحِيْرَةَ؟ قُلتُ: لَمْ أَرَهَا، وقد أُنْبِئْتُ عَنْهَا، قَالَ: فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِيْنَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيْرَةِ حَتَّى تَطُوْفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إلا اللَّهَ. قُلْتُ: - فِيمَا بَينِي وبَيْنَ نَفْسِي -: فَأَينَ دُعَّارُ طَيِّئٍ الذين قَد سَعَّرُوا البلاد. وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى. قُلتُ: كِسْرَى بنِ هُرْمُزَ؟ قال: كِسْرَى بنِ هُرْمُزَ. وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ [مِنْ ذَهَبٍ أَو فِضَّةٍ] يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنهُ.

ولَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُم يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيس بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ ولا(١) تُرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ فَيَقُوْلَنَّ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُوْلًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فيقولُ: بَلَى. فَيَقُوْلُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وأُفْضِلْ عَلَيكَ؟ فيقولُ: بَلَى. فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّم، ويَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يَرَى إلا جَهَنَّم ».

قال عَدِيٌّ: سَمِعْتُ رسُول اللَّهِ ﷺ يقول:

« اتَّقُوْا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَة، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ».

قَالَ عَدِيٌّ ﷺ: فَرَأَيْتُ الظَّعِيْنَةَ تَرْحَلُ مِنَ الْحِيْرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إلا اللَّه. وكنتُ فيمن افتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بن هُرْمُزَ. وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُم حَياةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النبيُّ أبو القاسم ﷺ: يُخْرِجُ الرَّجُلُ مِلْءَ كَفِّهِ ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهُ منه ».

[أخرجه البخاري](٢)

* * *

(١) قوله: « حجاب ولا » زيادة من رواية النسائي وباقي النص من البخاري نسخة ابن حجر بهامش فتح الباري في باب علامات النبوة.

(٢) البخاري في الزكاة (الصدقة قبل الرد): ٢/ ١٠٩، وفي المناقب (باب علامات النبوة): ٤/ ١٩٧.

اللغة:

الظعينة: المرأة في هودجها. وهو شيء مثل البيت يوضع على الجمل أو الدابة.

دُعَّار: فُجَّار. من الفجور، وهم المفسدون في الأرض، القاطعون للطريق، وناهبو الأموال.

الذين سَعَّروا: أَخَلُّوا بالأمن فيها، وأفسدوا إفسادًا عظيمًا، جعلها كالمشتعلة بالنار وأصله قولهم: سعَّر النار إذا أوقدها.

المحتوى الفكري:

كان عدي بن حاتم أيمنَ مولودٍ على طيِّئ: كان سببَ إسلامهم، ثم سبب ثباتهم على الإسلام في أثناء الردة، وعندما وفد إلى النبي ﷺ أراد ﷺ أن يثبته على الإيمان، فطمأنه عن مستقبل الإسلام، وذلك لمناسبة ما عرض عليه من المشكلات، فقد جاء رجل يشكو الفقر إلى النبي ﷺ، وشكا آخر اختلال الأمن، وهذان الأمران يدلان على أن الوضع الاجتماعي لا يصلح للحياة؛ لأنه بلغ غاية الفساد فيما يتصل بمعيشة الناس وأمنهم...

وإذا كان الأمر كذلك فإننا نرى النبي ﷺ يبادر فيقول لعدي ليثير انتباهه: « **هل رأيت الحيرة** » فقال عدي: « **لم أرها، ولكن أنبئت عنها** ».

وهنا **فاجأ النبي ﷺ عديًا بما لم يتوقعه**... أخبره أنه في فترة وجيزة من الزمن ستكون هذه الطريق التي هي من أفظع البقاع اختلالًا في الأمن واضطرابًا، أعظم ما تكون من الأمن، وعبَّر عن ذلك بأسلوب الكناية: « لَتَرَيَنَّ الظعينة ترتحل... لا تخاف إلا اللَّه... ». ولم يُخْفِ عديّ عنّا وقع المفاجأة على نفسه إذ راح يسأل: « فأين دُعَّار طيِّئ؟... ».

ثم أردف له النبي ﷺ بخبر أعظم من سابقه، ذلك هو فتح كنوز كسرى، أعظم ملوك الأرض... ثم يخبره بأعظم من سابقه، ألا وهو انتشار الرَّفاهية بين الناس، حتى لا يوجد من يقبل الصدقة...

ولقد تحقَّقت تلك الأنباء، وشهد عَدِيٌّ نفسُه منها أمرين اثنين..

أما وجود الرفاهية المالية فقد تحقَّقت في عهد الإمام عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠هـ

وذلك في حياة كثير من الصحابة؛ لأن آخر الصحابة توفي سنة ١١٠هـ.

إن هذه الأنباء مُسْتَمَدَّةٌ من اللَّه تعالى عالم الغيب، وهي أنباءٌ مُنْبَثِقَةٌ من الشريعة؛ لأن مهمتها نشر الأمن، وإحلال الرفاهية والغنى للناس. ثم بعد ذلك نقل النبي ﷺ عديًّا ومن يستمع لهذا الكلام نقلة ضخمة جدًّا، فأوقفه على موقف رهيب هو موقف الحساب والجزاء في الآخرة..

ما هي المناسبة والعلاقة بين الخبر عن سيادة الإسلام، وانتشاره عبر الزمن.. والخبر الثاني الذي أخبر عنه النبي ﷺ: « **وليلقين اللَّه أحدكم يوم يلقاه ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له..** »؟.

١ - إن الإخبار الأول كان وشيك الوقوع، وكان عدي وغيره بحاجة إلى تثبيت الإيمان في نفوسهم وفي نفوس الناس. وكل تلك الأخبار قد تحقَّقت، إذًا فالنبي ﷺ صادقٌ في ما يقوله عن يوم القيامة يوم الحساب، حيث يُسْأَلُ المرء ويُسْتَنْطَقُ، ولا يرى إلا المصير المؤلم العظيم للمقصرين، لا يرى حوله إلا النار...

٢ - وأيضًا هناك مقصد آخر من المقارنة ذو أهمية كبيرة، فإن الحديث الشريف يريد منا أن نتفكر في ظلال الأمن الذي يدعو إلى الغرور والتغافل عن الحقيقة التي تنتظر العالم.. فلنتفكر حقيقة يوم البعث والنشور حيث الحساب والأهوال...

لذا جمع النبيُّ ﷺ بين الأمرين ليكون المسلم ذا عقل وبصيرة. فلا يستهويه الأمن والغِنَى فَيَغْفُلَ عن اليوم الآخر، والعمل للنجاة يوم القيامة، وليُعِدَّ الجواب لهذا السؤال: « **ألم أبعث إليك رسولًا فيُبَلِّغَكَ؟ فيقول: بلى** ». « **ألم أعطك مالًا؟ فيقول بلى..** » وينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم، « **فاتَّقوا النَّارَ ولو بِشِقِّ تَمْرَةٍ** » لكي تَحْتَمُوا من عذاب يومئذ، فإن لم يكن عند واحدكم إلا نصف تمرة فليتصدق بها، وإن لم يكن عنده فكلام حسن، وخلق حسن ينوبان عن هذه الصدقة.

كيف تم للحديث الشريف أن يورد **أمورًا بعيدة عن بعضها**: انتصار الإسلام وانتشار الأمن ومواقف الحساب والجزاء؟

نعم إن قصد الدعوة للإيمان، وتنبيه السامع إلى ما أراده النبي ﷺ جعل النبأ بين ما سيحصل من أمن وغنى، وبين يوم القيامة مناسبًا، وقد عرض لنا النبي ﷺ هذا النبأ عرضًا مؤثرًا غاية التأثير؛ إذ إنه صدَّر الكلام بالقَسَم، ثم وضع هذا الإنسان المخلوق

الضعيف بل وضع كل سامع في مقام مهيب جدًّا.. هو موقف لقاءٍ مباشر لرب العالمين، حيث لا واسطة ولا حجاب ولا ترجمان!!

وإن المرء لَيَتَهَيَّبُ ذلك الموقف لدى سماعه ذلك الوصف القوي المصوِّر لِلِّقَاءِ، اللِّقاء المخيف الرهيب حيث يواجه الإنسان السؤال عن موقفه إزاء الحق الكبير، الحقيقة العظمى: نُبُوَّة سيدنا محمد ﷺ، وبعثته وهدايته للناس.. والسؤال عن صنيعه فيما أنعم اللَّه عليه، وأعطاه إيَّاه، فينظر المسكين يَمْنةً ويسرةً شأن المُتَحَيِّر المبهوت، هل ثمّة من مخلص أو مناص؟ فلا يرى إلا النار، ولا يجد إلا العذاب، وأهواله، هناك.. لا ينفع الإنسان مالُه الذي جمعه، ولا عدده وعصابته الذين تَقَوَّى بهم وغلب، ولا أبناؤه الذين كاثر بهم وافتخر، لا ينفعه إلا عمله الصالح، عمله الخَيِّر، يجده محضرًا بين يديه يُحَرِّزُهُ من العقاب ويحميه، فليجتهد وُسْعَهُ، ولو أن يتصدق بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة ولا عذر للمقصرين.

جمال البناء:

يقوم هذا الحديث على الحوار الثنائي بين النبي ﷺ والصحابي عدي بن حاتم الطائي ﷺ، **ويمكن أن يقسم النص إلى قسمين يشتملان على عدة مقاطع:**

القسم الأول:

يبدأ بأربعة مقاطع خبرية سردية تمهد للحوار، ثم يأتي مقطع مكون من جملتين طلبيتين: « **يا عدي، هل رأيت الحيرة؟** »، هذا السؤال يمهد لأحداث جارية في المستقبل. ثم يتبع هذا بيانٌ يبدأ بمقطع طويل يفتتح بالشرط القابل لليقين: « **فإن طالت بك حياةٌ** » ثم جوابه « **لترين الظعينة..** ». ثم تأتي عبارة مؤكدة بفضل الحصر « لا، إلا » ويأتي لفظ الجلالة « اللَّه » ليثير الذهن إلى معرفة شدة القوة الإلهية وهيمنتها.

ثم يتجه الصحابي لنفسه بكلام يدل على تعجبه ودهشته: « **أين دُعَّارُ طَيِّءٍ** »، وهم من قبيلته وهو أعرف بخطرهم، وإذا به يتلاشى أمام عظمة الأمن التي سيبلغها الناس بفضل الإسلام وهيمنته.

ثم يأتي مقطع آخر برهاني يعتمد الشرط القابل للوقوع والتحقق، ويتوازى مع المقطع السابق بتكرار جملة « **لئن طالت بك حياة** » ثم جوابه « **لتفتحنّ كنوز كسرى** » الذي يمتاز بأنه مؤكد بالنون الثقيلة التي توحي بالثقة بتحقق الفتح الإسلامي لبلاد الطغاة.

وتسوق هذه المفاجأة عديًّا إلى سؤال سريع لمعرفة المقصود بكسرى، ويأتي الجواب مباشرة متوازيًا بحجمه ومضمونه مع السؤال: « قال: كسرى بن هرمز »؛ دلالة على هدوء المتكلم ويقينه بالنبوة.

ثم تأتي الافتتاحية نفسها مرة ثالثة « **ولئن طالت بك حياة...** » ويطول هذا المقطع بالإطناب في وصف العطاء الكثير واجتهاد المعطين في إيجاد من يقبله منهم فلا يجدون.

ثم ينتقل الحديث بالمخاطب إلى موقف رهيب « وليلقين اللَّه أحدكم... » فيبدأ بالتأكيد في الفعل « لَيَلْقَيَنَّ »؛ يتبعه تفصيل وتفسير بالإطناب في وصف لقاء رهيب مباشر مع اللَّه تعالى: « **ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان** »، ليزداد القلب رهبة من هذا الموقف.

وينتقل الحديث بوساطة الفاء التعقيبية: « **فيقول: ألم أبعث إليك رسولًا..** » فأفاد بالهمزة النفي ثم نفى بـ« لم »، ونفي النفي إثبات، فأفاد بهذا الأسلوب تقرير المعنى على أبلغ الوجوه، وأنه بَدَهيٌ مُسَلَّم، ثم قال « **فيبلغك** » ويكون الجواب « بلى » قصيرًا جدًّا، دالًّا على خجلةٍ وأسف وتحسُّر.

القسم الثاني:

هو قسمٌ سردي على لسان الصحابي: قال عدي: « سمعت.. » وهو بوابة على مقطعين خطابيين يوجهان لكل المسلمين، مما يؤكد أهمية الصدقة المالية والقولية، هذان المقطعان مفتاحهما: الأول: فاتقوا، والثاني: فمن لم يجد.

فالبيان النبوي هنا يرشد المسلمين للخروج من هذا الموقف العصيب، وذلك بطاعة اللَّه تعالى، وَخَصَّ الحديثُ النفقةَ بالذكر لعظمة شأنها؛ لأن نفعها يصل إلى أنه لا يُعْفَى أحد من الصدقة ما دام بابها مفتوحًا مقبولًا عند اللَّه بأقل من القليل الحسي « **بِشِقّ تَمْرة** »؛ وبأقل أيضًا وهو الكلمة الطيبة يتصدق بها المؤمن؛ بنية الاستعداد لذلك الموقف.

وهكذا وجدنا التنويع في أسلوب هذا الحديث وتعدد الأبنية، إذ وجدنا السرد والحوار الأحادي والثنائي، واتحاد الافتتاح والتنوع، والخطاب، والجمل الخبرية، والخبرية الطلبية، والإنشائية، وتنوعت الضمائر بما يوائم طبيعة الموقف.

جمال التصوير:

يتجلَّى جمال التصوير في هذا الحديث الشريف في عدة مظاهر، أولها في النص صورة الرجل المفتقر إلى المال، ثم صورة الرجل المفتقر إلى الأمن. ثم يطالعنا نص الحديث بمشهد الحوار بين النبي ﷺ والصحابي، يقدم فيه النبي ﷺ **بشارات بمستقبل الإسلام** الباهر فيما يسمى « **بالاستباق** » في الدراسات المعاصرة. وفي هذه البشارات مشاهد:

في البشارة الأولى: مشهد الأمن يظلل جزيرة العرب من خلال مشهد « **الظعينة** »، تجتاز أشد بقاعها خوفًا ورعبًا، حتى تطوف بالكعبة في حركة هادئة مستقرة: « **لا تخافُ أحدًا إلا اللَّه** »، هذا وهي امرأة ضعيفة. إن هذه طبيعة الإسلام استقرار وأمان، وإقرار بقوة واحدة عليا يخضع لها المخلوق مهما علا شأنه.

ثم تأتي البشارة الثانية تضعنا أمام مشهد: « **لَتُفْتَحَنَّ كنوز كسرى** »، لقد فتحتم مغاليق هذه المملكة الضخمة، التي كانت تطل على البلاد العربية وتبث الرعب في نفوس أهليها، وتثير هذه الصورة **بطريق الكناية** مشاهد فتح بلاد فارس وتحولها إلى سلطة الإسلام؛ لأن الكنوز تقع في أعظم الأماكن تحصينًا، فإذا فتحت لم يبقَ شيءٌ من مُلكِ الفرس لم يُفتح.

وفي البشارة الثالثة نجد صورة متحركة لأن المسلم يبحث هنا وهناك عن رجل يقبل الصدقة، وما دام لا يجد فالبحث مستمر.

ثم ينتقل بنا الحديث إلى **مشاهد مستقبلية في علم الغيب عند اللَّه** وهي لقاء العبد ربه يوم الحساب: « **وليلقين اللَّه أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه حجاب..** »، إنه مشهد يثير عواطفنا في الخضوع للَّه تعالى الذي أرسل رسولًا، وتجاه الرسول الذي حمل الرسالة؛ ليثير مشاعر الخجل والخزي تجاه نعم الإمداد والعطاء.

وهنا تبرز في المشهد **حركة النظر عن الجانبين**؛ حيث تمتد جهنم، فيعبر عن ذلك بالحصر: « **فَلا يَرى إلا جهنَّم** » فالمكان مغلق، وليس لنا أن نتصور إلا النار محيطة به، وليس لنا أن نتصور رجوعًا إلى الوراء أو تقدُّمًا إلى الأمام؛ لأن الموقف موقف العبد أمام رب العالمين.

ويختم الحديث **بصورة عجيبةٍ**: **صورةِ اتقاء النار ولو بشق تمرة**، حتى كان الشيء الصغير يقف سادًّا اندلاع النيران؛ لتدفعنا هذه الصورة إلى فعل الخير بأي كمية أو كيفية

تتيسر لنا دون أن نحقر القليل، فإن هذا القليل يدفع الخطر العظيم. بل أقل من القليل أيضًا: « كلمةٍ طيبة ».

إرشادات الحديث:

١ – حديث عدي بن حاتم **دليل من أدلة نبوة رسول الله ﷺ**، فقد أخبر بتبدلات عظيمة في مستقبل الإسلام والعالم، وقد تحققت في حدود المدة التي عينها لعدي بن حاتم « **إن طالت بك حياة** »، حتى كان آخرها مع نهاية القرن الأول، أي: انتشار الرفاهية حتى لا يوجد من يقبل الزكاة والصدقة في عهد عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة (١٠١هـ).

٢ – في الحديث دليل على **ثمار نشر الإسلام والعمل به**، فإن التحولات التي أخبر عنها النبي ﷺ هي من ثمار العمل بشريعة الإسلام والاعتصام به دينًا ينظم الحياة الدنيا، وفيه العبرة للبشرية في كل عصر، وقد تنبأ أصحاب دعواتٍ بمستقبل دعواتهم، فَكَذَّبَ واقع المستقبل تنبؤاتهم من كل وجه، بل جاء الواقع ينقض مزاعمهم، وصَدَقَتْ بشارات النبي ﷺ وهو الأمي في الأميين، فدلَّ على أنه مبعوث بدين حق للدنيا والآخرة.

٣ – **أهمية العمل الصالح وإن قل في نظر فاعله**، وضرب له الحديث المثل بشق تمرة، وجَعَلَها وقاية من النار، وهي قاعدة عظيمة في الحياة تُذهب أكثر الوهم من النفوس، وهذا الوهم تضييع الفرص، فهذا قليل لا أفعله، وهذا كثير صعب، لا أفعله، فماذا يبقى بعد ذلك؟.

وقد عُنِيَ الصحابةُ بذلك حتى كانوا يعملون في حمل الأمتعة؛ ليحصل أحدهم على زيادة يسيرة في دَخْلِه يتصدق بها.

أخرج البخاري عن أبي مسعود الأنصاري قال: « لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل... » وفي رواية: « انطلق أحدنا إلى السوق فيحامل، فيصيب المد.. أي نحمل بالأجرة ». قال الخطابي يفسر قوله « كنا نحامل »: « يريد كنا نتكلف الحمل بالأجرة لنتكسب ما نتصدق به ».

بل ثبت عن أبي هريرة في الصحيحين عنه ﷺ قال: « **والكلمة الطيبة صدقة** ».

وثبت في الترمذي في حديث أبي ذَرٍّ عنه ﷺ قال: « **لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئًا ولو أن تَلقَى أخاك بوجهٍ طَلْق** ».

موقف الحساب

١٥ عن أبي سعيد وأبي هريرة - رضي اللّه عنهما - قالا: قال رسول اللّه ﷺ: « **يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُوْلُ اللّهُ تَعَالَى لَهُ: أَلَم أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبصَرًا وَمَالًا ووَلَدًا، وَسَخَّرْتُ لَكَ الأَنعَامَ والحَرْثَ، وَتَرَكْتُكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ يَومَكَ هَذَا؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ لَهُ: اليَومَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي** ».

[أخرجه الترمذي وقال: حديث صحيح غريب][1]

* * *

اللغة:

ألـــم: الهمزة استفهام أريد به النفي. ودخلت على (لم) فأفاد التركيب الإثبات. أي: قد جعلت.

سخَّرت: ذلَّلتُ لخدمتك.

الحرث: الأرض والزرع.

تـربـع: تأخذ ربع الغنائم دون الجيش.

فكنـت: على تقدير استفهام محذوف. أي: فهل كنت.

أنســاك: أتركك في العذاب.

المحتوى الفكري:

يُصوِّرَ الحديث اللقاء المباشر بين العبد وربه في الآخرة، وما سيكون للإنسان فيه مع ربِّه في صورة المحاورة بين العبد والرب ﷻ بهذه الطريقة القصصية عن المستقبل التي تجعل الموقف واقعيًا، يتصوَّره السامع، ويتخيله بفكره، لما فيه من الأسلوب النبوي الحكيم الذي **أنذرنا غاية الإنذار**، إذْ أوقفنا على **صورة حية من صور يوم القيامة**، لا يبقى معها عذر لمُتخلِّف أو مُتَقَاعِس؛ لأن عرض هذه الحقيقة الغيبية يُحَتِّمُ على الإنسان ضرورة اتجاهه ليطبق ما أمره به ربه، ولذلك نبه في الأحاديث الأخرى إلى الصدقة؛

(١) في صفة القيامة (باب ما جاء في العرض) (باب منه رقم ٦): ٤/ ٦١٨، ٦١٩.

لأنها وسيلة عظيمة للنجاة من النار، وإن لم يجد المرء صدقة فالكلمة الطيبة صدقة كما في الحديث: « **والكلمة الطيبة صدقة** »[١].

وقد أخبرنا الحديث الصحيح أن العبد أي كل عبد سوف يقف موقفًا مهيبًا يوم القيامة، يسأله اللَّه تعالى عمَّا عمل في دنياه، وكيف تصرف بالنعم التي أنعم اللَّه بها عليه، وعبر الحديث بصيغة المبني للمجهول « **يُؤْتَى** » لإفادة هول الموقف، وزاده وصف الإنسان بـ « **العبد** »، ثم التصريح بأن السائل له هو اللَّه تعالى، ويأتي السؤال مُصَدَّرًا بهذه الصيغة: « ألم » التي تفيد أن الأمر بدهي مسلم به، يقرر اللَّه - تعالى - عبده بما أسبغ عليه، ويأتي هنا أسلوب الإطناب في تعداد النعم عليه في تكوينه، وفيما سخر له، ثم رفع له من المنزلة « **تَرْأَسُ وَتَرْبَع** »، وكل إنسان قد أوتي حظًا وافرًا من ذلك، ويأتي بعد هذا التقرير للعبد السؤال الخطير: « **فكنتَ تظنُّ أنك مُلاقِيَّ يومكَ هذا؟** » وعبّر بالظن مع أن المطلوب الاعتقاد اليقيني بالآخرة، يوم الحساب، لكن لو أن الإنسان أي إنسان أدرك أمر هذه الآخرة ولو دون اليقين لدفعه ذلك إلى الاستقامة، وطاعة ربه، ومراعاة حقوق الخالق والخلق عليه. ويسأل اللَّه العبد هذا السؤال وهو - سبحانه - أعلم، ليدين العبد نفسه بنفسه، **ويتقرر الحكم بالعدالة عليه: بإقراره على نفسه**، كما قال تعالى: ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤]. فجاء الجواب مقررًا الجزاء من جنس العمل: « **اليومَ أَنساكَ كَمَا نَسِيتَني** »، أترُكُكَ في العذاب كما تركت أوامري وهجرت طاعتي، وانغمست في معصيتي، ويأتي الجِناس هنا في غاية القوة، يزيد تجانس الجزاء مع العمل، كما تجانس في اللفظ.

جمال البناء:

هذا الحديث لوحة من المشاهد الأخروية، يقوم على الحوار الثنائي بين الخالق ﷻ والعبد النموذج عن عبيد كثيرين، وهو يتكون من عدة مقاطع تقوم على بناء فعلي:

المقطع الأول: « يُؤتى بالعبد يومَ القيامة »:

في هذا المقطع استخدم الفعل المضارع المبني للمجهول؛ لتفيد المضارعة استحضار المشهد وإثارة التخيل، ويتجلَّى أيضًا طابع الاستمرار والتكرار مع عبيد كُثر.

أما البناء فَيُبْرِزُ إيحاءً بالقوة التي تأتي بهذا العبد من ملائكة غلاظ شداد لا يعصون اللَّه

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري، رقم ٢٩٨٩، في الجهاد (من أخذ بالركاب ونحوه)، ومسلم، رقم ١٠٠٩ في الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

ما أمرهم، وهذا إيغال في التخويف حيث الاستسلام الكامل من عبد فاقد الإرادة.

وعبارة « **يوم القيامة** » تحدد الإطار الزمني لتضفي على فعل الإتيان ملامح جديدة في الطابع الحسي والنفسي.

المقطع الثاني: يتألف من عدة مفاصل: « **ألم أجعل لك سمعًا وبصرًا ومالًا وولدًا** »:

هذا المفصل الأول يبدأ باستفهام إنكاري مع النص « ألم » وهو يعني تأكيد الجعل؛ لأن نفي النفي إثبات. ثم نجد الترتيب المنطقي لهذه النظائر « السمع - البصر - المال » والسمع يغلب أن يسبق البصر في النسق القرآني لسبقه في التفاعل مع العالم الخارجي.

« **وسَخَّرتُ لَكَ الأنعامَ والحَرث** »:

يتوازى فيه « **سخرت** » و « **ألم أجعل** » الذي يُؤَوَّل بـ « جعلت ». وتبرز النعمة بالتسخير الذي هو التذليل للخدمة بالمجان، ثم بلام الاختصاص « لك » لتبيان زيادة الفضل في تسخير شتَّى الموجودات لأجل استمرار البشرية، وتمتعها بخيرات الدنيا.

« **وتَرَكْتُك ترأسُ وتَرْبَع** »:

فيه استحضار هاتين النعمتين بوساطة الفعلين **المضارعين**: « **ترأس** » و « **تربع** ».

المقطع الثالث: « **فكنتَ تظنُّ أنك مُلاقِيّ يومَك هذا؟** »:

فيه بروز ضمير المخاطب « كنتَ، أنك، يومك » وهذا يعني وضع المخاطب في مواجهة وتحت طائلة المسؤولية المؤكدة.

فيأتي الجواب هكذا: « لا »: لا يزيد على هذا الحرف، وهو بحاجة بل ضرورة إلى كلام طويل يدفع به عن نفسه. وذلك يوحي بالاختناق النفسي وهيمنة مشاهد القيامة على لسانه، وأنه لا يمتلك أي حجة في مواجهة ما يسمع، وجوابه « لا » هو الكلام الوحيد في هذا الموقف.

المقطع الرابع: « **فيقول له: اليومَ أنساكَ كما نَسيتَني** »:

فيه تأكيد الحوار وهيبته بهذا اللفظ « له »، ثم تعيين الزمان « **اليوم أنساك** »، وهو يوم الحساب ليثير التحسر العميق لدى هذا العبد.

ثم يأتي التناظر « **أنساك** » « **كما نسيتني** »، والأول في دار البقاء والثاني في دار الفناء. وقُدِّمت النتيجةُ على السبب لأهميتها؛ حيث تُسند إلى الخالق، ولتنشر **الحسرة على سائر المقاطع** وتعم المشهد.

وقد اتَّسم نص الحديث **بالبناء التوالدي** بحيث تدفع كل فقرة إلى التي تليها. ثم جاءت البراهين الجلية التي أبرزت الحجة، وهيأت النتيجة الوخيمة للعبد، فجاء النص مترابطًا بين أجزائه كأنه حلقات متسلسلة.

وقد تعانق في نص الحديث فنون من الكلام: تعانق السرد والخطاب، وتعانق الطابع الخبري والطابع الطلبي، كما توالت الأفعال المستفهمة الثلاثة: « أجعل، سخرت، تركتك »؛ لتحرك المشاعر، وتضع الحجة الدامغة، وختم بالجناس بين الجزاء والعمل؛ ليقوي الترابط بينهما، وليثير العبرة والعظة في مراعاة حقوق اللَّه والوفاء بشكر نعمه.

جمال التصوير:

يشتمل هذا النص على **لوحة مكونة من مشاهد، وذلك لتعدد الزمان والمكان.**

ففي البداية **نتصور هذا العبد وقد أتت به الملائكة الغلاظ**، ثم نتصوَّر حالته النفسية لدى طلبهم له، ولا نستطيع أن نحيط بالمكان الذي يعبر عنه المشهد وهما مكانان: مكان وقوفه ينتظر الحساب ومكان اللقاء المباشر الهائل مع رب العالمين.

ثم يحصل **استرجاع زمني إلى عالم الدنيا**، فَتُذْكَرُ معالم شتَّى تختص النعم في خلق السمع والبصر والمال والولد.

ثم يختم النص بانحرافٍ زمنيٍّ حيث **العودةُ إلى الحاضر**، وتأتي كلمة « هذا » إشارة ليوم الحساب، وتأتي كاف التشبيه « **كما نَسِيتَني** »؛ لتقدم البرهان والعقوبة الذي أوجبها هذا البرهان.

وهكذا نجد النص بعباراته ومشاهده يثير مشاعر مختلفة، وقدم العنصر الزماني إلى جانب العنصر النفسي، وأفسح المجال واسعًا لطاقة التخيل لتتابع المشاهد الغيبية المُغلَّفة بأسف العبد العاصي؛ وشعوره بالخسران أمام الخالق الديّان.

إرشادات الحديث:

١ - ضرورة تفكّر المؤمن بموقفه بين يدي اللَّه تعالى في الآخرة، والحذَر الحذَر من الغفلة عن ذلك.

٢ - وجوب استعمال الجوارح والقوى والخيرات التي يتمتع بها الإنسان في طاعة اللَّه تعالى، فإنه سوف يُسأل عنها.

٣ - إن الجزاء من جنس العمل: « اليوم أنساك كما نسيتني ».

وقاية الأعمال الصالحة

١٦ عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « بَادِرُوا بالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مَؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِيْنَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا ».

[أخرجه مسلم والترمذي][1]

* * *

اللغة:

بادر: سابق وعاجل.

الفتن: المحن التي تُحَيِّرُ الإنسان، وتشغله عن مهماته.

كقِطَع الليل المظلم: شبهها بالظلام، للحيرة التي تعتري الإنسان، لشدة هذه المحنة، حتى يكون مضطربًا متحيرًا، كالذي يسير على غير هدًى، في ظلام دامس.

العَرَض: ما يزول سريعًا.

المحتوى الفكري:

يصوِّر لنا هذا الحديث محنًا وبلاءً تجعل الإنسان حائرًا في كل أموره، حتى في أهمها، وهو أمر دينه، ويبين لنا الدواء والعلاج الذي يُسْتَضاء به في تلك الظلمات الداجية.

« **بادِرُوا بالأعمالِ فِتَنًا** »: أي اسْبِقْ في زمن أمنِك وقُوَّتِك ونجاتك وعَجِّل إلى الأعمال الصالحة، قبل أنْ تَقَع الفتن التي تجعلُك متقلقلًا مُتَحَيِّرًا.

فالاستعداد لها ينحيك عنها، ويأمن به المؤمن على دينه ودنياه، تلك الأُهْبَةُ: هي « **الأعمال الصالحة** »، وهذا يدل على أن العمل الصالح يشكل في الإنسان توازنًا عقليًّا واستقرارًا نفسيًّا، ومحاكمة عقلية ناجعة في حلِّ المشكلات، فالعمل الصالح وقاية وصيانة للذات، كما أنه وقاية للمجتمع.

---

(١) مسلم في الإيمان (باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن): ١/ ٧٦، والترمذي في الفتن (باب ما جاء ستكون فتن كقطع الليل المظلم): ٤/ ٤٨٧؛ ولفظ « ويمسي » رواية الترمذي. وعند مسلم: « أو يمسي ».

وهكذا أنبأنا الحديث بفتن وابتلاءات ستلحق المؤمنين وستكون شديدة.

وقد شبه ذلك بقطع الليل؛ لأن أجزاء الفِتَن كلٌّ منها كجُزءٍ من الليل، ووصف الليل بالظلمة مع أن الليل مظلم؛ للتوكيد على أنه مظلم دامس ليس فيه بصيص من نور يُهتدى به، إلا نور ذاتيٌّ ينتفع المرء به بأعماله الصالحة التي قدَّمها لتنجيه من الفتن.

وقد أكد لنا الحديث النبوي أثر **هذه الفتن** الخطيرة وضررها على إيمان الناس، حتى إنها **تحول فكر الإنسان** وتغلبه على القضايا اليقينية، حيث يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أي: إنه يتحول من حال إلى حال أسوء، ويتذبذب بين هذا التيار وغيره، ويتقلب مع الزمان، فلا يبقى له مُثُلٌ يستمسك بها أو يعتصم بحبلها.

بل إنّ الضعف في بعض التقوى يجعل الإنسان يتأثر بما يحيط به من مغريات أو مخاوف، فإذا هو يبيع دينه بالعَرَض من الدنيا، وهو الشيء الذي يزول سريعًا، أي: شيء تافهٌ قليلٌ، لا يأبه له المرء، يبيع دينه له، أي: يتخلى عن مثله، وينقلب في اليوم هذا الانقلاب. وسبب ذلك ما يعانيه من النقص في الإعداد الإيماني والديني. ولو أنه أعدّ نفسه بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة والإكثار من الطاعات والعبادات والتقرب إلى اللّٰه تعالى أيام الأمن والسلامة لَثَبَّتَهُ اللّٰه ودفع عنه شر المِحَن.

جمال البناء:

يمتاز هذا الحديث ببنائه التعارضي، **إذ بُنِيَ على التضاد**، ويتكون من **ثلاثة مقاطع**: « **بادروا - يصبح الرجل... - ويمسي - يبيع دينه** ».

استهل الحديث في **المقطع الأول** بهذا الأمر « **بادِرُوا بالأعمال** »؛ للحضِّ على المسارعة إلى العمل الصالح، وجاءت صيغة « الأعمال » لتدل على التنوع في العبادات البدنية والمالية والاجتماعية، و « الفتن » في حال تنكير للدلالة على غموض ماهيتها؛ ليدل ذلك على شدة هولها وإبهام أمرها. ويأتي قوله: « **كقطع الليل المظلم** » مرتبطًا بالأول بكاف التشبيه، والمقطع كله يعني الصراع الزمني لحدوث الفتنة الشاغلة ووقوع الفتنة وجثومها.

وفي **المقطع الثاني يبدو التعارض جليًا** في هاتين الجملتين: « **يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا** »؛ حيث تدل المقابلة بينهما على سرعة التغير في زمن الفتن بما لا يزيد على البعد بين الصباح والمساء، ويزداد ذلك قوة بالجملة الثانية « ويمسي.. » إذ لم يذكر تحولاً للإيمان.

أما المقطع الثالث: « يبيعُ دينَه بِعَرَضٍ من الدنيا »: فإن الإيقاعَ ينخفض عنده لانتفاء الخيرية من الذي يبيع دينه، أي: يتخلى عنه لأجل شيء تافه « عَرَضٍ »، والتنكير فيه للتقليل، فهو قليل، وهو « عَرَضٌ »: سريع الزوال، رضي به مقابل أنفس شيء: « دِيْنَهُ ».

جمال التصوير:

في النص تصوير مَبنِيّ على علاقة المشابهة « **كَقِطَعِ الليل** » في تشبيه الفتن بقطع الليل السوداء، ثم تصوير مبنيٌّ على استعارة البيع في خاتمة النص « **يبيع دينه** »؛ للدلالة على التعلق بالدنيا على حساب الدين.

ثم التعبير بـ « قطع الليل » يصوِّر الليل كأنه يصدر قطعة تلو القطعة في حركة مستمرة تحيط بالزمان كله، وفي ظلِّ هذا الليل بلوحته السوداء تأتي صورة بيعٍ خاسرةٍ خطيرةٍ هي بيع الإنسان المفتون دينه بشيء تافه، وهذه **الاستعارة « يَبِيْعُ »** تدلُّ على أن الدين شيء مُمْتَهن في نظر هذا المفتون، يُبَاعُ ويُشْرَى حسب أهوائه المريضة، وهنا يختم النص بالتهويل مُؤَكِّدًا أن مطامع النفس هي سبب الكفر، ويسكت الحديث عن مصير الذي يظل مؤمنًا؛ لأن مقصود الحديث هنا التخويف من الشر.

إرشادات الحديث:

١ - **التحذير من الفتن ومن تأثيرها** في شغل المؤمن عن دينه وواجباته، وهذا التحذير من جملة الإعداد النبوي لهذه الأمة ولكل مسلم كي يثبت ويصبر.

٢ - الحث على **التعجيل بالأعمال الصالحة** قبل تعذر العمل الصالح أو تعسره بالشغل بالشدائد أو المغريات وربما كانت مرحلة لا بد أن تمر على الإنسان، فلا يؤخر العمل لما بعدها، فإنه ربما ينطبع على ترك العمل الصالح تأثرًا بالفتنة، فَلْيتنبه المؤمن وليحذر.

٣ - **إن الأعمال الصالحة تثبت الإيمان** في القلب أمام أنواع الفتن، فتن الرغبة وفتن الرهبة، فإذا عَرِضَ للمؤمن عارض منها فإن أعماله الصالحة تنجيه من شدتها. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

٤ - **الحديث من جملة معجزات أخباره ﷺ الاستقبالية** التي ستكون، وقد وقعت كما أخبر ﷺ[١].

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم للنووي: ٢/ ١٣٣، وفيض القدير للمناوي: ٣/ ١٩٣.

سوف ننتصر...!!

[١٧] عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال: « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ المُسْلِمُونَ اليَهُودَ فَيَقْتُلَهُمُ المُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ اليَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الحَجَرِ والشَّجَرِ فَيَقُولُ الحَجَرُ أو الشَّجَرُ: يا مُسْلِمُ! يَا عَبْدَ اللَّهِ! هَذا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ اليَهُودِ ».

[متفق عليه][(١)]

* * *

المحتوى الفكري:

هذا الحديث تنبأ بأحداث جسام، سيشهدها تاريخ هذه الأمة لا محالة، وهي أحداث أخذت علاماتها تتحقق في أيامنا هذه، إذ تَجَمَّعَ اليهود في دولتهم المصطنعة العادية وطغَوا وبغَوا، وقد بشرنا الحديث بأننا سننتصر على هؤلاء الأعداء انتصارًا حاسمًا، وستلحق بهم هزائم مروعة جدًّا. ووصف الرسول ﷺ هزيمة اليهود بأنها منكرة وأنهم سَيُخْذَلون خِذْلانًا تتمالأ عليهم أسبابه من جميع الجهات، حتى إن الحجر والشجر سيخذُلُهم أيضًا.

وقد قال بعضهم: إن الشجر والحجر ينطق فعلًا بذلك، وقال بعضهم: إنها تنطق بلسان حالها أي أن لا شيء ينفع اليهودي.

« **إلا شجر الغرقد** » وهو نوع من الشجر يكثر في فلسطين، ومنه قليل في المدينة المنورة شَوْكُهُ لَيِّنٌ وارتفاعه حوالي ستين أو سبعين سنتيمترًا يمتد على سطح الأرض امتدادًا كثيفًا واسعًا، وقد سماه من شجر اليهود؛ لأنه يؤوي تحته الحشرات والحيوانات المؤذية، دون أن يظهر عليه علامة ذلك، فهو كاليهودي ينطوي على الأذى والمكر ويظهر البراءة، وهذا الشجر أفضل وسائل التمويه والتخفي في الحروب الحديثة لكثافته وسهولة التخفي تحته.

---

(١) البخاري في الجهاد (قتال اليهود): ٤/ ٤٢، ٤٣، ومسلم بلفظه في الفتن: ٨/ ١٨٨، ونحوه عن ابن عمر عندهما أيضًا.

جمال البناء:

يشتمل هذا النص على طابعي السرد والخطاب، إذ فيه أسلوب الخطابة والمخاطبة، ويتكون من ثلاثة مقاطع: « **لَا تَقُومُ السَّاعَةُ** »، « **فَيَقْتُلَهُمُ المُسْلِمُون حتى يختبئَ، فيقول الحجرُ أو الشجر..** »، « **إلا الغَرْقَد..** ».

المقطع الأول: « **لا تقومُ السَّاعةُ حَتَّى يُقَاتِلَ المُسْلِمونَ اليهودَ** »:

جاء بصيغة تأكيد دائرية « .. حتى »، ومحيط الدائرة قتال اليهود ومركزها قيام الساعة المتوقف على القتال ونص المقطع: « **لا تقوم...** » منفي زيادة في التوكيد واليقين.

المقطع الثاني: « **فَيَقْتُلَهُمُ المُسْلِمُون حَتَّى يَخْتَبِئَ اليهوديُّ من وراءِ الحجر والشجر** »:

يتكون من مفصلين: « **فيقتلهم. حتى يختبئ** » يعبر بالأول عن الأمل البشري، إذ لم يقل: يقاتلهم بل قال: يقتلهم، وتُصَوِّر « **حتى** » طول الزمن في القتال وشدته، وتزيد المعنى قوةً عبارةُ: « **من وراء الحجر والشجر** ».

المقطع الثالث: « **فَيَقولُ الحجرُ أو الشجرُ يا مسلمُ يا عبدَ اللَّهِ! هذا يهوديٌّ خَلْفِي، فتعالَ فَاقْتُلْهُ** »:

فيه حوار عجيب يبعث على تنشيط الذهن بعد هذا السرد، وفي هذا النداء المتلون تلويح إلى أن المسلم هو العابد الصالح، وأن النصر لا يكون إلا مع العبادة الصحيحة، أما جواب هذا الحوار فليس ثمة حاجة إليه؛ لأن جوابه حركة، أي: قتل اليهودي الذي طغى وأمعن في البغي والطغيان.

وهنا يأتي المقطع بمفاجأة فيها توضيح لمحور النص السابق: « **وراء الحجر أو الشجر** »؛ لأنه يستثني من الشجر شجر الغرقد، ثم يفسر المقطع هذه المفاجأة: « **فإنه مِنْ شجرِ اليهود** »: أي: في موافقة طباعهم في الخبث والتظاهر.

ومن جماليات البناء في هذا النص ما يؤكده المقطع الأول من ارتباط قيام الساعة بقتالنا لليهود، مما يدل على أهمية قتالنا لهم، وهم شعب عنيف استحق في هذا النص كلمة القتال « **يقاتل، فيقتلهم، اقتله** ». وثمة توازن موسيقي يتكرر هو الشجر والحجر، كما أن اليهود تذكر في النص أربع مرات ثلاث منها صريح في القتل، وهذا يعني بخطورة شأنهم وشدة عنفهم وأثر فسادهم في الحياة والشعوب.

ويتسم النص بقوة الترابط العضوي بين مقاطعه، كل فقرة تؤدي إلى التي تليها في تشابك واضح حتى ينتهي النص (فالنص كما يعبر المُحْدَثون توالدي).

وتتميز خاتمة الحديث هنا بأنها مفتوحة؛ لأن الغرقد يغطي اليهوديَّ ويستُره ويحميه، وهذه النهاية المفتوحة بوساطة الاستثناء تدعو إلى التفكر وإعمال العقل والقوى المختلفة؛ لمجابهة خطر اليهود الخفي، مع مجابهة خطرهم الظاهر.

جمال التصوير:

نصُّ هذا الحديث حَدَثٌ قصصي لحدث مستقبل يقوم على الاستباق الزمني في مصطلح القصّ، وعلى أنباء الغيب في علم الشرع.

وفي هذا الحديث مشهد لقتال عظيم دلَّ على عظمته أنه من أشراط الساعة، والمشهد يشغل مكانًا واسعًا غير محدد، لكن الزمان محدد أنه قبيل قيام الساعة ونهاية العالم.

ويصوِّر الحديث شدة المعركة حتى يعلو المسلمون ويلوذ اليهود بالهزيمة المنكرة.

وتأتي المفاجأة في هذا الفرار بنطق الجمادات « **فيقول الحجر أو الشجر** »، وهذه صورة تشخيصية مبنية على حقائق غيبية لا على استعارة فنية، وفيها إشارة إلى أن الجماد أكثر تقدمًا في سلم الموجودات من اليهودي، الذي تحول قلبه إلى جلمود صخر أو أشد قسوة.

وعلى قِصَرِ القصة فإننا نجد فيها تفننًا قصصيًّا عجيبًا، ففيها شخصيات جماعية: المسلمون - اليهود - وشخصيات فردية: اليهودي - وشخصية الجماد وهي شخصية كانت محايدة إلا أنها تنقلب إلى الخير في مساندة المسلمين، وإلى الشر في شجر الغرقد الذي ينتهي النص بذكره.

أما المكان في نص الحديث فهو عام غير محدد، لكنه يوضح بأنه مكان فسيح تكثر فيه الأشجار والأحجار، وهو آخذ في التحديد عندما نسمع كلام الشجر أو الحجر، ويتحدد أكثر عندما نتصور شجر الغرقد يحمي اليهودي ثم تنحصر صفة هذا الشجر: « **فإنه من شجر اليهود** »؛ ليحذرنا من خطر اليهودي الظاهر والخفي.

إرشادات الحديث:

١ - الحديث بجانب إخباره **بغيب لا بد أن يتحقق** يشير إلى نوع من أنواع الوسائل الحربية كالاختباء وراء الأشياء، واستعمال وسائل التمويه للوقاية، وهذا ليس من شأنه

حرب السيف والرمح، ففي الحديث **إعجاز بما قد أخبرنا به من انتصار** خارق للعادة، **وإعجاز** بالإخبار عن هذه الأسلحة.

٢ - هذا الحديث يوجب علينا **أن نقاوم دعايات العدو المخذِّلة**، وأن ننفض عنا روح اليأس، فإنه مهما تمالأت قوى الشر، ومهما رأينا من تسلط البغي والعدوان والفجور والإلحاد، فلا بد لهذه الأمة أن تنهض وتنتصر على أعدائها جميعًا.

٣ - **الحذر من اتباع المكر** مع المسلمين، وإظهار النصح وإخفاء غير ذلك، فهو خلق يهودي بغيض إلى الله ﷻ، كما عبر عنه الحديث في وصف الغرقد « **من شجر اليهود** ».

* * *
* *
*

في حياة
الإيمان والعبادة

في حياة الإيمان والعبادة

الأشواق النفسية الإيمانية سَلِيقَةٌ فُطِرَ عليها هذا الإنسان، وإنها مميز نفسي لهذا الكائن عن سائر الكائنات الأخرى، فإنا نجد الذكاء يوجد - ولو بنسبة محدودة - في الكائنات الأخرى، أما المزية التي تفرد بها هذا الإنسان وبها تتحقق إنسانيته فهي تلك الجوانب الروحية السامية، التي يستشعرها الإنسان في كيانه شوقًا، وحبًّا، ورهبة، أمام الذات الإلهية العليا، وآمالًا لا تنتهي بفيض الفضل الإلهي.

إن هذه الناحية التي ذكرنا أمثلة منها **تمتد أبعادها إلى ما لا نهاية له**، وتخترق في مسراها حدود الآفاق المحيطة بالإنسان. ولو أن عاقلًا تفكر في هذه البنية العجيبة التي ينطوي عليها هذا الظرف اللحمي لوجد فيها دليلًا يكفيه ويهديه إلى وجود خالقه ومعرفته لربه، إن الحكمة التي وضعت كل شيء بمقدارٍ معلوم، وأنزلت كل عالَم من العوالم في موضعه الذي لا يحسن له غيره، هذه الحكمة العميقة الدقيقة المحيطة بكل ذرات الكون **يستحيل أن تخلق فيك هذه الأشواق والمعاني غير المحدودة في سبيل أغراض مادية محدودة** وضيقة جدًّا، على الرغم من توهم البعض أنها واسعة وكبيرة.

إن المادة بكل عوالمها لأَحْقَرُ من أن يخلق لها عالم الروح الإنساني، وتخلق لها خصال هذه الروح. وإنها لأعجز شيء نتصوره مصدرًا لهذه الروح، ولهذه الجوانب الروحية المتمثلة في الإيمان بالله وعباداته، إن بديهة العقل وحقيقة الخلق لتشهد بأبلغ حجة أن الخالق العظيم الحكيم تقدَّست ذاته هو الحقيقة الوحيدة التي يمكن أن نفسر بها هذا الجانب الروحي، وإنها لتتحدى أعظم الماديين إلحادًا، أن يفسروا لنا هذا التكوين تفسيرًا صحيحًا سائغًا... اللهم إلا أن يكون هو الإيمان.. والإيمان وحده. وقد اعترفوا به ضمنًا في كلامهم لكنهم استعملوا اسمًا آخر غير اسمه، مثل الطبيعة... فرارًا من الخضوع للحق.

لقد كان **الإلحادُ أعظمَ داءٍ يصيب الإنسانية**؛ إذ يُجَمِّدُ قيمَ الإنسانِ وعالَمه الداخلي في سجن ضيق مظلم، يقطع صلة روحه بمصدرها وخالقها، الذي تشتاق إليه وتستشعر بتحسسها للغيب هيبته وعظمته. فإذا بها تهيم في هذه المادة تبحث ضالة حائرة، ثم تكون النتيجة - كما يحدثنا تاريخ الأديان - أن تتفاقم النكسة لتهوي بالإنسان المسكين إلى

أسفل دركٍ وإلى أشنع عارٍ، إلى درك الشرك.. وعار الوثنية المَهينة. لا تعجب من ذلك **فقد ظهرت بوادر انتشار الوثنية في أوروبا..!!**

لقد أقام ديننا الإسلامي الحياة الروحية على أساس فكري متين، وأرساها على عقيدة محكمة هي الإيمان بالله ربًّا واحدًا، ومعبودًا فردًا لا شريك له، ولا ندَّ يعارضه، وعُنِيَ بهذه العقيدة أعظم العناية، فرسَّخها في القلوب، ثم بنى عليها أسس الحياة في الجانب الروحي، وفي الجانب الخُلُقِي، وفي التشريع المتعلق بنظام أمور الدنيا.

والحياة الإيمانية والنفسية تعتمد على العبادة، وسوف ترى أن **العبادة في المقصد الإسلامي العام أوسع دائرةً وشمولًا من الفرائض** الدينية **الصِّرْفة**، لكن لا تزال تلك الفرائض أساسًا أوليًّا يُبْنَى عليه غيره، لا يُسْتَغنى عنها بحال من الأحوال؛ لأنها أركان بُنِيَ الإسلام عليها. ولقد أكثر الكاتبون في خصائص نظام العبادات في الإسلام، وأبرزوا من المزايا والخصائص ما يضيق عن ذكره المقام، ولكنا نرى أن أهم مزية في هذا النظام هي تقوية الصلة بين الإنسان وربه، وتمتين عُرَى التعارف المباشر - الذي لا تحجزه الحواجز، ولا يعترضه الوسطاء أو « الوكلاء » - بين الخالق والمخلوق. لذلك كان التفكر لمعرفة الله تعالى، والبحث في كمالاته وتعظيمه سبحانه أعظم العبادات فرضًا وفضلًا، وأعلاها شأنًا.

ومن هنا أيضًا نجد **العبادات تشمل كافة جوانب حياة الإنسان**، بتحقيق ما ذكرناه من الصلة بين العالم الإنساني المشاهد وبين عالم الغيب الإلهي.

فهي من حيث الأداء: عبادات بدنية: بالذكر والتسبيح والمناجاة المشوقة الخاشعة، أو بالصلاة والصيام.

وعبادات مالية: كالزكاة، والصدقات والنفقات الواجبة على الأقارب الفقراء، وغير ذلك مما يقرره التكافل المعاشي الإسلامي.

وعبادات مالية وبدنية في وقت واحد: كالحج، والجهاد.

ثم إن **العبادات في طابعها تشمل كافة الجوانب النفسية** الداخلية في نفس الإنسان في جوانبه الفردية والاجتماعية.

فالجانب الفردي والنزعة إليه تأخذ لها نصيبًا بقدرِ ما يناسب ذلك في العبادات الخاصة فيما بين الإنسان وحده وبين ربه.

وأما **الجانب الاجتماعي** فإن له عناية كبيرة بحيث تجد لكل أفق منه سراجًا من العبادة الروحية يضيئه ويشرق فيه.

ففي **المجتمع الصغير** المحيط بحياتنا اليومية تربط العبادة بين المسلم وهذا المجتمع في المساجد في الصلوات الخمس؛ حيث نرى أبناء الحي الصغير تجمعهم الصلاة في بيت اللَّه كل يوم.

و**المجتمع الأكبر** يرتبط به الإنسان كل أسبوع في صلاة الجمعة إذ تقام في المساجد الضخمة الجامعة. حيث تجمعهم كلمة التقوى، وتوحد كلمتهم شهادة التوحيد.

وثمة اجتماع كبير على الصعيد العام الذي يشترك فيه كافة المسلمين أبناء البلدة كلها، وأبناء العالم الإسلامي جميعًا، وذلك هو الاجتماع لصلاة العيدين، والاحتفال بهذين العيدين أيضًا.

إن عيد المسلمين يتفق مع الجوانب النفسية الاجتماعية للمسلمين، وقد تجاوبت الشريعة فيه مع النفس الإنسانية في الجانب الاجتماعي من تكوينها وذلك بصلاة العيد مع الجماعة، وكان من السُّنَّةِ أن يجتمع المسلمون خارج المدينة في العيد ليظهر الاحتفال عامًّا شاملًا.

وفي يوم عرفة يكون اجتماع المسلمين في الحج الذي يجمع العالم الإسلامي كله في مجتمع واحد متجانس متجاوب.

ثم إن في العيدين احتفالين يُشْعِران بالبهجة والسرور، وتقصد الشريعة أن يكون السرور والبهجة أمرًا عامًّا متسمًا بطابع العقيدة والمُثُل الإسلامية، فهو هنا عيد البهجة والسرور بالطاعة التي قدَّمها المسلم للَّه، فعيد الفطر يأتي بعد الصيام، وعيد الأضحى يأتي بعد أداء ركن الحج الأهم وهو وقوف الناس في عرفة، ففي ليلته ينزل الناس من عرفة وفي اليوم الأول منه يؤدي الحجاج الركن الثاني للحج وهو الطواف حول الكعبة، طواف الركن، وبذلك تنتهي أركان فريضة الحج.

وقد راعى الإسلام أن يكون المظهر الذي يبرز شخصية الأمة مظهرًا سديدًا سعيدًا، حيث أراد أن تكون الفرحة عامة للجميع، ولذلك شُرعت تكاليف مالية لتحقيق هذه الفرحة، حتى لا يبقى محروم ولا تعيس لا يشعر بفرحة العيد ولا يناله الخير منه، فعيد الفطر تقدم عليه صدقة الفطر، وعيد الأضحى تذبح فيه (الأضحية)، وهي لصاحبها

الذي يذبحها ويطعم منها المساكين، فلا نجد في المجتمع الإسلامي محرومًا، وهاتان الفريضتان موسميتان. أما فريضة الزكاة فغير مقيدة بوقت، ولكنها تكفي حاجة الفقراء، ولكنه قد يوجد في العيد إنسان محروم فتأتيه زكاة الفطر والأضحية لتوسع عليه، فالعيد موسم بهجة بعمل الخير، وسموّ يرتقي إليه الإنسان ويبتهج به، فيكون سعيدًا مسرورًا، وليس العيد موسم ارتكاب للمحرمات، بل إن الوقوع في المعاصي في هذه الأيام أشد؛ لأن هذه الأيام أيام خير وعبادة، يضاعف فيها الثواب.

وهكذا نرى النظام الروحي يشمل كافة الجوانب في حياة الإنسان، ويتناول جميع أنحاء نفسه، وأنه قد تجاوب مع النفس الإنسانية تجاوبًا مصعدًا، هذبها به، وارتقى بها وسما سموًّا عاليًا، يصلها به أقوى الصلة بربها سبحانه، وإذا بها تصدر في كافة الشؤون وتسير من منطلق واحد هو غايتها، وهو الذي يتحقق به معنى وجودها ذلك هو: « لا إله إلا اللَّه » بمعناها الكامل الشامل لحياة الإنسان، حيث لا معبود بحق، ولا خضوع وسلطان إلا سلطان اللَّه الذي خضعت له رقاب الجميع، وعنت له الخلائق.

* * *
* *
*

بناء الأعمال وأساسها

١٨ عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « **إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُوْلِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىَ دُنْيَا يُصِيْبُهَا أَو امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيهِ** ».

[متفق عليه] (١)

* * *

المفردات:

الأعمال: جمع مُحلّى بأل يفيد العموم، كما قال البخاري، والعمل حركة البدن بكله أو بعضه، وربما أُطْلِقَ على حركة النفس، فعلى هذا يُقَال: العمل إحداث أمر قولًا كان أو فعلًا، بالجارحة أو بالقلب، لكن الأسبق إلى الفهم الاختصاص بفعل الجارحة.

بالنية: النية القصد.

وفي رواية البخاري للحديث في كتاب الإيمان: « **الأعمال بالنيات** » وفي صحيح ابن حبان: « **الأعمال بالنية** » والمعنى في الكل واحد، والتركيب في جميعها يفيد الحصر، باتفاق المحققين من أهل العلم بالعربية؛ لأن الأعمال جمع محلى بأل مفيدٌ للاستغراق وهو مستلزمٌ للحصر؛ لأنه من حصر المبتدأ في الخبر، ويعبر عنه البيانيون بقصر الموصوف على الصفة، وربما قيل: قصر المسند إليه على المسند، والمعنى: كل عمل بنية، فلا عمل إلا بنية.

وأصل « إنما »: (إنّ) المؤكدة دخلت عليها (ما) الكافة، وهي حرف زائد.

لكل امرئ: بكسر الراء، أي: لكل رجل، والمراد هنا لكل امرئ وامرأة ما نوت.

هجرته: الهجر ترك الشيء والإعراض عنه، والهجرة ترك البلد إلى غيره. والمراد

---

(١) البخاري في أول صحيحه، وفي كتاب الإيمان ومواضع أخرى عديدة، ومسلم في الإمارة: ٦/ ٤٨، وأبو داود، رقم ٢٢٠١، والترمذي، رقم ١٦٤٧، والنسائي: ١/ ٥٩، ٦٠.

هنا الهجرة المعينة المشهورة في التاريخ، وهي الهجرة من مكة إلى المدينة التي أرخ بها تاريخ الإسلام.

دنيا: بضم الدال مقصورة على وزن فُعْلى، من الدنوِّ، وهي كل المخلوقات من الجواهر والأعراض الموجودة قبل الآخرة.

الإعراب:

إنما: « إن » المؤكدة و « ما » كافة لها عن العمل (أعربناها على الرواية المشهورة التي فيها إنما).

الأعمال: مبتدأ.

بالنيات: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر، وقد اختلف في تقدير هذا المحذوف، فقيل: التقدير: « الأعمال صحيحة أو مجزئة بالنيات » وقيل: التقدير: « الأعمال كاملة بالنيات ».

ونرى أن الأولى عدم تقدير كون خاص، وأن لا نتأثر باعتبارات الفقهاء، وإنما المراد أن حقيقة الأعمال من الناحية الشرعية وفي ميزان اللَّه تعالى هي بالنيات.

لكل: متعلق بمحذوف خبر مقدم، وهو مضاف، وامرئ مضاف إليه.

فمن كانت هجرته إلى اللَّه ورسوله: اسم شرط جازم يجزم فعلين مضارعين، وكانت فعل الشرط.

فهجرته إلى اللَّه ورسوله: الجملة مبتدأ وخبر، جواب الشرط.

وظاهر الكلام أن جواب الشرط وفعل الشرط شيءٌ واحدٌ، ولا بُدَّ من تغايرهما؛ لأن الشيء لا يكون شرطًا لنفسه، فكيف ذلك؟

أجيب عن ذلك بأن في الكلام حذفًا، والتقدير: فمن كانت هجرته إلى اللَّه ورسوله نيةً وقصدًا فهجرته إلى اللَّه ورسوله حكمًا وشرعًا، وهكذا نقدر نحو هذا التقدير في الجملة الثانية: ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة...

فالكلام على تقدير حال محذوفة، وهي حال مبينة.

وقد اعترض بأن الحال المبينة لا تحذف بلا دليل، وأجاب عن هذا بعض كبار العلماء: بأن ظاهر نصوصهم جواز الحذف، ويؤيده أن الحال خبر في المعنى أو صفة، وكلاهما يجوز حذفه لا لدليل، فلا مانع في الحال أن تكون كذلك.

وأجيب بجواب آخر هو: أنه إذا اتحد لفظ المبتدأ والخبر، أو الشرط والجزاء علم منهما المبالغة، إما في التعظيم، كما في الجملة الأولى هنا، وإما في التحقير، كالجملة الثانية.

المحتوى الفكري:

حديث: « **الأعمال بالنيات** » الذي ندرسه حديث جليل الموقع عظيم المكانة، وهو أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، وقال الإمام أحمد بن حنبل والإمام الشافعي: إنه يدخل فيه ثلث العلم، وذلك لأهمية مضمونه وشموله شَمَلًا عامًّا جامعًا.

وقد ابتدأ الحديث بهذا التعميم الشامل: « **الأعمال بالنية** » أو « **إنما الأعمال بالنيات** » أو ما يوافقهما من الرواية، فأتى بلفظ « الأعمال » الدال على العموم والشمول فشمل الأفعال، والأقوال، وسائر التصرفات، وجعلها مرتبطةً بالنية، مُقَوَّمَةً بها على ما بَيَّنَّاهُ من اختيارنا في الإعراب، وبذلك شمل اللفظ كل الأعمال حتى المباحات من الطعام والشراب والملبس، فإنها تُقَوَّمُ بالنية، إذا تعاطاها الإنسان بنية صالحة كالتَّقَوِّي على واجباته التي تلزمه فإنه يُثَابُ عليها وتكون طاعة، وإن قصد مجرد التمتع فهو عمل مباح لا ثواب فيه ولا عقاب. وإن قصد التفاخر أو التكبر مثلًا كان معاقبًا عليه، وهكذا كل شأن من درس وعلم وتعليم وتعاطي حرفة أو أيّ شيء، وقد شمل الحديث كل جوانب الحياة، وَوَجَّهَ الإنسانَ إلى التسامي بمقاصده في كل شيء منها إلى المعالي، وَرَفَعَهُ عن التصرفات التلقائية أو المندفعة بعامل الغريزة المجردة أو غير ذلك. وقد أكد الحديث ما أفاده هذا الشمول بالحصر الذي أفادته « إنما » في الرواية المشهورة، وباستغراق الأعمال المفيد للحصر على رواية حذفها. وهو من حصر المبتدأ في الخبر الذي يعبر عنه البيانيون بقولهم: « قَصْرُ مَوصوفٍ على صفة ». وربما قال بعضهم قَصْرُ المُسْنَد إليه على المسند، والمعنى كل عمل بنية، فلا عمل إلا بنية.

« **وإنما لكل امرئ ما نوى** ».

أفاد هنا العموم لكل الناس رجالًا ونساءً بأن لكل امرئ منهم الذي نواه فقط، لا يتجاوز حَظُّه من عملِه نيته، بل على حسب نيته يقدر ثوابه، وهذا حكم جديد غير الأول. وقد تَأَكَّدَ هذا الحكم هنا أيضًا بالقصر، وإنما على الرواية المشهورة وهو من قصر الصفة على الموصوف، أو من حصر الخبر في المبتدأ؛ لأن المقصورَ عليه في إنما دائمًا المؤخر. وتفيد العبارة القصر أيضًا على رواية حذف « إنما » بالاستغراق في قوله: « ما نوى ».

ثم انتقل الحديث بعد هذا التعميم للأعمال إلى تخصيص بعضها بالذكر، وهو عمل جليل سجله التاريخ في صفات الخلود، وذلك هو الهجرة.

ومناسبة تخصيص الهجرة قد تبدو جلية بصورة أقوى إذا لحظنا مناسبة واقعية سوى المناسبة العامة لذكر الخاص بعد العام، وتلك المناسبة الواقعية هو ما اشتهر أن سبب ورود هذا الحديث قصة مهاجر أم قيس المروية في المعجم الكبير للطبراني بإسنادٍ رجالهُ ثقات، من رواية الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: « **كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها: أم قيس، فأبت أن تتزوجَه حتى يهاجرَ، فهاجرَ فتزوجها. قال: فكنا نسميه: مُهَاجِرَ أمّ قيس** ».

ونبحث عن السر البلاغي في هذا التخصيص للمرأة بعد الدنيا من بين الدوافع، وهو ما يسميه العلماء التنصيص على الخاص بعد العام.

إن السر البلاغي هنا واضح، وهو الاهتمام، وإبراز مزيد الاعتناء بهذا الدافع على الخصوص؛ لأن التأثر به أشد، فإذا تأثر به إنسان في عمل جليل، بل عمل من أجلّ الأعمال في تاريخ الإنسانية، وكان يظهر قصد الهجرة خالصًا للّه، وهو في الواقع لا يقصدها وحدها بل يقصد معها رغبته الخاصة ومراد نفسه، فإنه يستوجب الذم بذلك؛ لأنه أظهر خلاف ما أبطن.

وقد عبر الحديث هنا بما يدل على غاية التعظيم في مقام الإخلاص حين قال: « **فهجرتُه إلى اللّه ورسوله** »، فوحَّد في اللفظ بين فعل الشرط وجزائه؛ ليدل على أنه ليس ثمة شيء يعبر عنه سوى التعبير عن فضيلته بنفسه، كما عبر في الثانية بما يفيد التحقير حتى كأنه لا يصلح أن يعبر عنه بشيء سوى نفسه: « **فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه** ».

ثم نلحظ في أسلوب الحديث السهولة والسلاسة، فألفاظه كلها واضحة مأنوسة، لطيفة الوقع على الأذن، وفيها التوازن مع قِصَرِ الجمل في أوله، ثم طولها نسبيًّا إلى درجة التوسط في الطول، مراعاة لغرض تقرير الحقيقة وترسيخها، والانتقال من التعميم إلى التخصيص ثم إلى التخصيص بعده، **فالتعميم الكلي في أوله** « **الأعمال بالنيات..** »، **ثم التخصيص** « **فمن كانت هجرته..** »، ثم التخصيص « **ومنْ كانت هِجْرَتُهُ إلى دُنيا يصيبُها أو امرأةٍ يتزوجها** ».

كما نلحظ في الحديث إطلاق العِنان للخيال ليذهب كل مذهب، وذلك في التعميم

والشمول الاستغراقي الذي في أوله « **إنما الأعمال بالنيات** » ثم في الوحدة اللفظية بين الشرط وجزائه.

وهنا تبرز عظمة البلاغة النبوية، فالخيال هنا ليس خيالَ حالمٍ، ولا تصوراتِ واهمٍ، وإنما هو خيال طبق الحقيقة التي أرادها النبي ﷺ، والتي هي مقصد الشريعة الإسلامية، بأن تسبغ كل تصرفات الإنسان حتى الطبيعية منها بطابع قصد الخير، والتسامي عن مجرد موافقة نزعات النفس الفطرية، إلى مقاصد إنسانية تسمو بها النفس وترتفع أهدافها حتى في طعامها وشرابها، وملبسها ومنكحها، ونومها، ودرسها وعلمها وعملها.

وأما العاطفة فهي هادئة لكنها ليست غير موجودة كما قد يتوهم، كما أنها ذات اتجاه متعدد، ففي صدر الحديث تثير الجملتان عاطفة الحرص على النية الصالحة، بسبب أسلوب القصر الذي اعتبر العمل غير موجود ولا معتبر ولا قيمة له إلا بالنية، وفي شطره الثاني تتحرك عاطفة التعظيم والتحقير في أسلوب التوحيد اللفظي بين فعل الشرط وجوابه، وتزداد هذه العاطفة تأثرًا وقوة بضرب المثال الواقعي « **فَمَنْ كانتْ هجرتُهُ إلى اللّه ورسوله...** »، وقد أصاب هذا المثال أهدافًا بلاغية متعددة، منها علاج حال السامعين الذين وقعت من بعضهم هذه القضية التي سبق أن ذكرناها، ومنها التأثير على كل من يبلغه هذا النص، لما أن فضل الهجرة وجلال شأنها وعظمتها في النفوس أمر واضح بَدَهي مُسَلَّمٌ به، وهذا مما يزيد حسن التوفيق في ذكر هذا المثال الخاص، فإذا كانت نية الدنيا أو الزواج وهو مباح دخلت في هذا العمل الضخم فأحالت على صاحبه الإزراء والحط عليه، فكيف بغير ذلك من أعمال يقوم بها الإنسان، وذلك ولا شك مما يثير في النفس عاطفة الحذر من خلل النية وفسادها في شؤونها، إن كان الإنسان حريصًا على سمو نفسه وكمالها. وذلك ما تقصد إليه التوجيهات النبوية، وقد تحقق ذلك أبلغ تحقق من خلال هذه الكلمات المعدودات الموجزات الطيبات التي صيغ بها هذا الحديث النبوي، الذي هو من جليل جوامع الكلم النبوي.

وقد سبق أن ذكرنا في مطلع الشرح قول الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل في هذا الحديث: « إنه يدخل فيه ثلث العلم »، أي: الدين، وتفسير ذلك: أن كسب الإنسان إما بقلبه أو بلسانه أو بأعضائه الأخرى، وقد شمل الحديث ما يتعلق بركن القلب وهو ثلثها.

بل قد جاء عن الشافعي قوله في هذا الحديث: « إنه يدخل فيه نصف العلم »، وتوجيه

ذلك أن للدين مظهرًا ومخبرًا، والنية تتعلق بالمخبر، والعمل هو الظاهر، وأيضًا فإن النية عبودية القلب، والعمل عبودية الجوارح.

جمال البناء:

اعتمد نص الحديث على التكثيف فالتفصيل فالتكثيف، وقد جاء بأسلوب سهل مُشَوِّق، فحمل معاني جمَّة في ألفاظ موجزة بليغة مفهومة.

وقد جاء الحديث في مقاطع متعددة؛ توضيحًا للفكرة وتعميقًا للمعنى العظيم الذي حواه النص، فابتدأ بمقطع قصير: « **إنما الأعمال بالنيات** » وعليه ارتكز في بقية النص، وهذا المقطع على وجازته حوى معاني جليلة حتى جعله العلماء « **فيه ثلث العلم** ».

وافتتح المقطع بـ « **إنما** » التي تفيد الحصر وتنفي كل ما عدا المذكور، وهذا يشد المتلقي إلى الاشتغال بما يذكره النبي ﷺ والحرص على التمسك به.

وقد استخدم لفظ « **الأعمال** » الشامل لكل شيء من أفعال وأقوال وتصرفات. وربطها بحرف الجر (الباء) الذي يفيد الإلصاق؛ ليبين أن لا عمل بلا نية، وأنه مهما كثرت الأعمال الخيرة فإنها لا تجدي شيئًا إن لم تكن نية صالحة، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

ثم يكرر البيان النبوي « **إنما** » ليفيد توكيدًا على توكيد، وليرسخ الفكرة وينفي ما عداها، فقال: « **وإنما لكل امرئ ما نوى** »، فبين أن ثواب العمل على حسب ما نواه الإنسان من وجوه الخير قلة وكثرة.

وكما استخدم العموم في « الأعمال » استخدم الإطلاق في « امرئ » الذي يدل على الرجال والنساء ليبين أن ثواب كل منهم هو الذي نواه فقط لا يتجاوز ذلك.

وهذا التكرار في المقطعين يفيد التوازن الموسيقي الذي يعطي النص جمالًا، والفكرة وضوحًا وشمولًا لأوجه العلاقة بين النية والعمل.

وبعد هذا التكثيف انتقل البيان النبوي إلى **التفصيل والتفسير في ثلاثة مقاطع:**

ففي المقطع الأول: « **فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته...** » نجد في هذا المقطع قمة البيان النبوي، فقد افتتح بـ « **من** » ثم جعل جواب الشرط مطابقًا لفعله ليدل على أنه ليس ثمة شيء يعبر به عنه سوى التعبير عن فضيلته بنفسه.

وقد اختار البيان النبوي هذا الجانب « **الهجرة** » للتعبير عن نيات الأعمال، وإن كانت

مناسبة تخصيص الهجرة لحادثة معينة « **مهاجر أم قيس** »، ولكن اختيار فعل « **الهجر** » بذاته يدل على خلوص القلب للَّه تعالى، فكما يتخلص المهاجر إلى اللَّه ورسوله من كل ما ارتبط به من أهل ومال وأرض، وكذلك المخلص في نيته، فإنه يهجر أهواءه ورغباته ودنياه، ويتوجه بكل قلبه وفكره إلى اللَّه تعالى، فيكون الإخلاص في الهجرة إلى المدينة وفي كل هجرة إلى اللَّه تعالى إلى يوم القيامة.

وقد جاء جواب الشرط مطابقًا لفعل الشرط « **فهجرته إلى اللَّه ورسوله** » مما يدفع المتلقي ويحفزه إلى مزيد من العمل الصالح ما دامت هجرته إلى اللَّه تعالى وهو الذي سيثيبه، فكما اختار لنفسه أرقى الهجرات وأجلها إلى اللَّه ورسوله، فإن اللَّه تعالى سيوفيه أعظم الأجور وأجزلها؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

ثم انتقل البيان النبوي في المقطع الثاني إلى أسلوب أقل حماسًا فقال: « **ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها** » وهو مقطع أقصر من الذي قبله، وقد استخدم « دنيا » بصيغة التنكير؛ ليدل على صغر شأنها وحقارة الشيء الذي يهاجر إليه ذلك الإنسان، وليشيرَ إلى أن هذا الذي يطلب الدنيا إنما يكفيه ما ارتضى لنفسه من مصير، فلا يعطيه اللَّه شيئًا سواها.

ثم انتقل إلى مقطع أقصر من سابقه فقال: « **أو امرأة يتزوجها** » فتدرج البيان النبوي في بيان مطالب الناس ودرجاتهم على حسب ذلك، فخص بعد ذكر طالب الدنيا، وذكر طالب المرأة، لذا جاء المقطع أقصر؛ ليدل على قِصَرِ همة هذا الإنسان الذي رضي أن يكون حظه من هجرته مجرد امرأة يهواها. فكما قصر هو همته على حصوله على تلك المرأة، فكذلك قُصِرَ جزاؤه على زواجه منها دون سواه من الجزاء.

ونلحظ التنكير في « امرأة » كما نكر « دنيا » ليدل على صغر شأن هذا الإنسان الذي اشترى الدنيا بالآخرة وتنازل من مراقي الفلاح.

أما المقطع الأخير « **فهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه** » فهو تكثيف بعد تفصيل، **فقد اختتم البيان النبوي النص بما بدأ به، وهذا هو الأسلوب الدائري المغلق**، وافتتحه بالفاء التي ربطت الإجمال بالتفصيل الذي تلاحق في النص، ثم استخدم أسلوب حصر المبتدأ على الخبر باستخدامه الجملة الاسمية، وهذا أسلوب في الحصر يوازي في توكيده أسلوب الحصر بـ « إنما » الذي ابتدأ به النص. وبشكل عام نجد في النص:

١ - التوازي بين الجمل: « إنما الأعمال بالنيات..، وإنما لكل..، فمن كانت هجرته..، فهجرته » وغير ذلك من الأمثلة.

٢ - التوازن الموسيقي واضح بين الجمل مما أعطى النص نغمًا إيقاعيًّا بديعًا.

٣ - التكرار: « إنما » « فمن كانت » « هجرته ».

٤ - تكرار لفظ « الهجرة » المشتمل على حرف الهاء مع الاستعمال المتكرر لضمير الهاء « هجرته، يصيبها، ينكحها » ولا يخفى ما لمخرج الهاء وصفتها من همس وكونها من أقصى مخارج الحروف وأقربها من باطن الإنسان حيث النية وعمل القلب، ولا يخفى ما لذلك من إبراز للإعجاز النبوي في ربطه المباني بالمعاني.

وبشكل عام، فإن النص على وجازته قطعة أدبية رائعة، حملت أوسع المعاني في أجمل المباني، فلا غرو أن يعده علماء الإسلام (**عليه مدار الإسلام**) وأنه (**ثلث الإسلام**).

إرشادات الحديث:

١ - **إن الاعتداد بالعمل موقوف على النية**، فلا عمل إلا بالنية. وهو صريح الحديث، لوروده بصيغة الحصر « إنما الأعمال بالنيات ». فَاسْتَحْضِر النية عند كل عمل.

٢ - إن الحديث عام **يشمل الأعمال كلها المطلوبة شرعًا، والمباحة**؛ لأن قوله: « **الأعمال** » جمع معرف بأل، وهو يفيد العموم، كذلك رواية: « العمل » المراد بها العموم. لذلك قال البخاري في أواخر كتاب الإيمان: « فدخلَ فيه الإيمان والوضوء والصلاة والزكاة والحج والصوم والأحكام، وقال اللَّه تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٤] على نيته ».

٣ - **إن المباحات يثاب عليها بالنية الصالحة**. مثل: نية التقوِّي على الطاعة بتناول الطعام والشراب، أو النوم، وإظهار النعمة بلبس الجيد وغير ذلك، لعموم قوله: « الأعمال ». لذلك قالوا: (المباحات تنقلب بالنية عبادات). فاغتنم ذلك، باستحضار النية الصالحة في المباحات والأعمال اليومية. يساعد على ذلك هذا الدعاء في التوجه ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. فأكثر منه مستحضرًا هذا القصد.

٤ - **إن الثواب يتضاعف بقدر ما فيه نية الإنسان من شمول واتساع**، لقوله: « وإنما لكل امرئ ما نوى »، فمن توضأ ودخل المسجد وصلى سنة الظهر بهذه النية فقط له ثوابها،

وإن نوى معها تحية المسجد فله ثوابهما، وإن أضاف إليهما سنة الوضوء فله ثوابها كلها. ومن عمل عملًا نافعًا ماديًّا أو معنويًّا كتعلم علم أو خدمة لعلم أو لأمرٍ ما يقصد نفسه فقط للَّه تعالى كان له ثواب نفسه، وإن قصد ناسًا بعينهم كان له ثواب بحسب ذلك، وإن قصد أن يبلغ النفع كل الناس كان له ثوابهم.

اللهم انفعنا بما علمتنا وانفع العالَم كله بما علمتنا يا أكرم الأكرمين، يا أقدر القادرين.

٥ - لزوم معرفة حكم الشرع فيما يفعله الإنسان؛ لأنه لا تصح نية فعل الشيء إلا بعد معرفة حُكمه.

* * *
* *
*

الحض على العلم

١٩ عن أبي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ ﷺ قال: ذُكِرَ لِرَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ رَجُلَانِ: أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ؟ فَقَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ ﷺ: « **فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ** ». ثُمَّ قَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ ﷺ: « **إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ، حَتَّى النَّمْلَةَ فِيْ جُحْرِهَا، وحَتَّى الحُوْتَ لَيُصَلُّوْنَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ** ».

[أخرجه الترمذي][1]

* * *

المحتوى الفكري:

هذا الحديث يبين لنا فضل العلم في الإسلام، وأننا إذا فاضلنا بين عالم وعابد فلا شك أن العالم الذي يعمل بعلمه - ولو لم يتفرغ للعبادة وينقطع لأجلها - أفضل من العابد المنقطع للعبادة المترهب.

هذا السؤال سأله الصحابة الذين عاشوا في زمن انتشرت فيه الرهبانية، وكانت المثل الأعلى للعبادة والكمال الإنساني، ولذلك ذكروا في معرض السؤال عن العالم والعابد؟ فبين النبي ﷺ أن العالم أفضل من العابد وأنه سابقه سبقًا عظيمًا.

والعالِمُ هنا هو العالِمُ بالشريعة العامِلُ بعلمه، ويميل المُحْدَثُون إلى الكلام عن العلوم الحديثة؛ لأنهم يريدون أن يُظْهِرُوا الإسلام بمظهر المنسجم مع العلم الحديث، أما كونه هكذا على الوجه الخَيِّر لا على وجه يؤدي إلى قلق الإنسانية فأمرٌ لا شك فيه. ولكن ليس معنى هذا أن نفسر كُلَّ لَفْظِ عِلْمٍ في القرآن والسنة على هذا المعنى كما وقع فيه كثيرون، بل نقول: إن العالِمَ المذكور في الحديث هنا هو العالم بالشريعة، وهذا هو الذي فضله الرسول ﷺ.

وقد أوضح الحديث المعنى المقصود، وضرب لهذا التقديم مَثَلًا واضحًا يبين فيه

---

(١) في آخر أبواب العلم (فضل الفقه على العبادة): ٥/ ٥٠، طبع مطبعة البابي وفيها « غريب »، و٣/ ٣٨٢ نسخة الشرح الهندية وقال: « حسن غريب صحيح ». لكن نقل في الترغيب والترهيب للإمام المنذري: ١/ ١٠١، أن الترمذي قال: « حسن صحيح ». ففي الطبعة المصرية سقط والله أعلم.

« **فضل العالِم** » وهو أمرٌ معنويٌ معروف « **كَفَضْلِي على أَدْنَاكُمْ** ». وهو أمرٌ معنويٌّ ولكنه في غاية الظهور عند كل المستمعين، فَحَسُنَ بذلك جَعْلُهُ مُشبهًا به.

ثم استأنف الحديث ليبين لِمَ كان فضل العالم على العابد بهذه الرتبة العليا، في استئناف بياني للجواب على سؤال مقدَّر لا بُدَّ أن يتوقع، فقال: « **إِنَّ اللَّهَ وملائكتَهُ وأهلَ السمواتِ... لَيُصَلُّون** » أي: يدعون له بالخير.

فما السبب؟ قالوا: إنَّ دَعْوَةَ العالِمِ العاملِ الناسَ أَدَّتْ إلى فِعْلِهِم الخيرَ الذي كان سبب نزول رحمة اللّٰه على خلقه، وبهذا يستفيد جميع الخلائق من إنس وغيره، فالسبب في نزول الرحمة هو المرشد للخير، كما أنه إذا نزل بلاء من السماء فإنه يؤذي الإنسان والحيوان. وإذا ما هاج البحر فإن هذا يتلف الحيوانات التي تعيش فيه حتى الحيتان الضخام، وبهذا تؤدي المعاصي إلى ضرر لها. والحقيقة أن خير هذه الأرض بما فيها وما عليها منوطٌ بالإنسان، وشر هذه الأرض بما فيها وما عليها منوط بالإنسان، فهو المعيار الذي يسبب للأرض الخير أو الشر؛ لذلك كانت المخلوقات جميعًا تنتفع بمعلم الخير، وتصلي عليه أي: تدعو له، معظمةً لشأنه.

لكن هل كلمة « **يصلون** » من باب الحقيقة أو أنهم يصلون بلسان الحال؟. إن في هذا التعبير بلاغة قوية، حيث أنطق الحيوانات للإشارة إلى قوة تأثرها بما يعمل الإنسان، حتى إنها لتدعو للعالم العامل بالخير؛ لأنه عَلَّمَ النَّاسَ الخير.

فاحرص على أن يفعل غيرك الخير، ولو في أدنى حد، قدر استطاعتك لتدخل في صلاتهم (اللهم اجعلنا منهم).

ما موقف الإسلام من العلوم غير الشرعية؟

لقد قرَّر العلماء أن قيام الأمة بما يكفيها ويسد حاجتها في كل علم من العلوم المفيدة النافعة فرض كفاية، أي: تكون جميع الأمة آثمة إذا لم تُوَفِّرْ هذا الغرض، وتُعِدَّ من أجله الأشخاص الذين يحققون المحافظة على العلوم وتقدمها ونهضتها، فدراسة كافة العلوم المفيدة الخَيِّرَة، وإن كانت مباحة جائزة تخضع للعامل والدافع الشخصي... تخضع لقاعدة: « إنما الأعمال بالنيات » فأنت إن تعلمت العربية وتريد أن تعرفها في كافة الجوانب لتقرب هذه الأمة من مقوماتها الفكرية والتعبدية، فيلحق عملك هذا بمن يعلم الناس الخير...

وهكذا الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء وسائر العلوم...

وقد أوجب اللَّه على المسلمين أن يوجد فيهم من يكفيهم الحاجة، أي: يجب على المسلمين أن يهيئوا لكل علم حاجته، فلا يحتاجون إلى غيرهم، هذا هو الواجب العلمي، فمن يريد أن يقوم بهذا الواجب ويتحمله ليتعظ بأسرار الخلق - وهي آياتٌ تُعَرِّفُ الإنسان بربه -، وليسدي الخير والنفع للناس. أو لإسقاط هذا الواجب عن المسلمين، خصوصًا في أمور لا توجد عندهم فهذا لا شَكَّ أنه ملحق بمن يعلم الناس الخير، فيتحقق له من هذا الحديث بقدر ما أفاد من علمه من تحقيق الخير، والأهداف الصحيحة التي قصد إليها، فالمفهوم من هذا الحديث علم الشريعة. ولكن كلمة الخير تلحق بهم كل من عَلَّمَ الناسَ الخيرَ بنيةٍ صادقة، ومَنْ سَدَّ حاجة المسلمين العلمية فلا يحتاج المسلمون إلى أحد غير المسلمين.

جمال البناء:

المقطع الأول: « فضل العالِم على العابدِ كفضلي على أدناكم »:

قصير نسبيًا في صيغة اسمية تشتبك جملتاها بكاف التشبيه، الذي يُقرِّبُ لنا فضل العالم بذكر فضل النبي ﷺ، ونجد فيه: توازي الجملتين في التركيب في العالم والعابد، وتكرار كلمة « فضل » مما يعطيها جمالًا في التناسق والوزن.

المقطع الثاني: « إِنَّ اللَّه وملائكته وأهلَ السموات.. »:

وهو طويل يمتاز بطبيعته الاسمية المؤكدة بـ« إن » لِيُرَسِّخَ فضل العلم الذي يفيده هذا المقطع بذكر صلاة اللَّه وملائكته وكل الخلق على معلم الناس الخير.

وجاء نص الحديث يؤكِّدُ شمول كل المخلوقات بهذه الجملة « حتى النملة في جُحْرِهَا.. » فذكر النملة التي ضُرِبَتْ مثلًا بصغر المخلوقات البرية ليدل على شمولها كلها، ويعارضها الحوت الذي هو مثل للمخلوقات البحرية، فدل على شمول التوجه بالصلاة على معلم الخير من كل الكائنات الحية، وأكد ذلك تكرار « حتى ».

ويتنوع التركيب في الحديث: ففي المقطع الأول جاءت الصيغة اسمية لتدل على الثبات، وجاء التعبير عن الصلاة بالمضارع « يصلون » ليدل على التجدد المستمر.

وارتباط النص ببعضه توالدي، حيث جاء المقطع الثاني مُبيِّنًا أهمية المقطع الأول ودليلًا عليه.

جمال التصوير:

في المقطع الأول تشبيه غير محذوف الأداة، وهوتشبيه مقام بمقام أو مرتبة في الفضل بمرتبة في الفضل، ويدعى تشبيه العلاقة، وهو لا يخلو من إثارة الخيال، وخصوصًا إذا استسلم المرء للمعاني الفياضة لفضل النبوة الغيبية المسكوبة على مكانةِ العالِم.

وفي المقطع الثاني: صورة حقيقية خالية من المجاز، لكنها مثيرة للخيال؛ لكونها ترسم عوالم غريبة ومواقف غير معهودة في عالم المادة، فالصلاة من اللَّه ﷻ رحمة، ومن الملائكة دعاء بالخير، وكذلك نطق النملة والحوت، فهنا صورة سمعية، إذ يلاحق الذهن هذه اللغات الغريبة التي يدعو بها الحوت والنملة؛ لينطلق الخيال إلى ما لا نهاية له في تصور فضل العالم والعلم، وسعة العلم الإسلامي، والخير الذي فيه، حتى تسبب بهذه الصلاة على معلم الناس الخير، ثم لِتثورَ عواطفنا محبة ورغبة في هذا العلم إلى أقصى مدى، ونبذل فيه أقصى جهدنا.

إرشادات الحديث:

١ - الحض العظيم على علوم الشرع من عقيدة وأخلاق وتفسير وحديث وفقه وغير ذلك مما يقوم به نفع العالم وإبلاغ الدعوة. ولا أبلغ من الحديث في عبارته الجليلة، فإنه جعل « نسبة شرف العالم إلى شرف العابد كنسبة شرف الرسول إلى شرف أدنى الصحابة ». فإن المخاطب بقوله: « أدناكم » هم الصحابة - رضي اللَّه عنهم -.

٢ - سبب استغفار المخلوقات لمعلم الناس الخير أن بركة علمهم وعملهم وإرشادهم وفتاواهم ودعوتهم الخلق إلى اللَّه سبب لانتظام أحوال العالم؛ لأن الإسلام جاء بخير العالم كله.

٣ - في ذكر النملة والحوت درس بليغ في فضل علوم الإسلام، فإنه بذكرهما تم ذكر جميع أنواع الحيوان، ودلالة على إنزال المطر ونزول الخير والخصب العام للكل ببركة العلماء.

٤ - وفي ذكر الحوت موعظة في الحرص على تعلم الدين، فإن الحوت لا يفتقر إلى العلماء افتقار غيره، ومع ذلك فهو يعيش في جوف الماء أبدًا فينتفع ببركتهم فكيف بغيره.

دعامات إسلامية

٢٠ عن مُعَاذِ بن جَبَلٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ ويُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ.

قَالَ: « لَقَدْ سَأَلْتَ عَن عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عليه، تَعْبُدُ اللَّهَ ولا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رمضانَ، وتَحُجُّ البيتَ ».

ثُمَّ قَالَ: « أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، والصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئةَ، كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ، وصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ » قال: ثُمَّ تَلَا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

ثُمَّ قَالَ: « أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ، وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ » قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قال: « رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ، وعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ ».

ثُمَّ قَالَ: « أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ » قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وقال: « كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا ».

فَقُلْتُ: يا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ...؟.

فَقَالَ: « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذ!!، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ».

[أخرجه الترمذي وقال: « هذا حديث حسن صحيح »][١]

* * *

(١) الترمذي في الإيمان (باب حرمة الصلاة): ٢/ ٨٦ طبع الهند، و ٢/ ١٠٧ طبع بولاق، وفيها « برأس الأمر » دون كلمة « كله » والصحيح إثبات كلمة « كله » في هذا الموضع. ثبتت أيضًا في طبعة مصطفى البابي الحلبي: ٥/ ١١، ١٢. وأخرج الحديث ابن ماجه ببعض اختصار ٢/ ١٣١٢ - ١٣١٤ وأخرجه أحمد في المسند: ٥/ ٢٣١، ٢٣٧.

المفردات:

جُنَّة: وقاية وحماية.

الأمر كله: أي كل شيء يهم الإنسان ويعنيه، والمقصود أن منزلة الإسلام من كل أمر بمنزلة الرأس من الجسد في احتياج الجسد إليه وعدم بقائه من دونه.

وعموده: أي ما يقوم ويعتمد عليه، أي: إن الصلاة بمنزلة العمود للبيت المضروب من الخيام.

ذِرْوَةُ سَنَامِهِ: أي أعلى السنام، وهو ما ارتفع من ظهر الجمل. أي: إن رفعة الدين وقوته تحصل بالجهاد.

مِلَاك: بكسر الميم وفتحها وهو ما به إحكام الشيء وإتقانه وانتظام أمره.

وهل يَكُبُّ: مضارع كَبَّهُ إذا صرعه على وجهه، بخلاف أَكَبَّ فإنه فعل لازم معناه: سقط. وهو معطوف على مقدر، أي: لا تظن غير ما قلت لك ولا يَكُبُّ والعكس.

المحتوى الفكري:

منطلق الحديث هو حرص معاذ ﷺ الشديد على أن يعلم ما يدخله الجنة، وهذا هو شأن المسلم المؤمن بالآخرة. إذ به يشم ريح الجنة ويستعيذ من النار، هذا خُلُقُ الإيمان، وخُلُقُ الصحابة، ومِثْلُ هذا السؤال كثير على ألسنة الصحابة، وقد جاء الجواب النبوي هنا على أسلوب في غاية الإبداع والبيان.

فقد بَيَّنَ أولًا أن هذا الأمر عظيم إعدادًا للنفس لتستقبل ما يُلْقَى عليها إعدادًا قويًّا. فقال النبي ﷺ بين يدي الجواب: « **لقد سألتَ عن عظيم** » ولكن هذا العظيم ليس بالمتعسر والشَّاقِّ على الإنسان، بل هو « **يسيرٌ على مَنْ يسره اللَّه عليه** »، وبذلك بدأ بتوجيه قلب المرء إلى اللَّه ليستعين به لعبادته تعالى، وذلك هو الواقع، فمن صدق برغبته في العبادة سَهُلَتْ عليه أمورها وَحُبِّبَ إليه. وقد أراد ﷺ بذلك أن يُقَوِّيَ يقين معاذ ويستنهض همته؛ لِيَجِدَّ وينشط في العمل، ثم أبانَ له سبيل تحقيق أمنيته: « تعبد اللَّه ولا تشرك به شيئًا و... ».

إِنَّ المُرَبِّي بمنزلة الطبيب يُلقي ما يصلح للإنسان، ومن هنا **استطرد الحديث** في الجواب إلى ما لم يسأل عنه معاذ، فقال: « **ألا أدلك على أبواب الخير..** »، وكلمة الخير

هي الجامعة للمراتب العالية لا الفرائض فقط، بل يجمع الفرائض وغيرها. وهكذا ألقاه عليه سؤالًا ليتنوع الأسلوب ويَتَلَوَّنُ بالسؤال والجواب، وهذا أسلوبٌ بليغٌ في إلقاء المعلومات. إذ يُعِدُّ الذهنَ ويُشوِّقُ النَّفسَ لما سوف يُقَال، فحين يأتي الكلام يصادف قلبًا متشوقًا، فيتمكن منه، وهنا فَصَّلَ له ما شَوَّقَهُ إليه فقال: « **الصَّوْمُ جُنَّة** » والمراد من « الصوم جُنَّة »: صيام النفل؛ لأن صوم الفريضة ذُكِرَ في الأركان الخمسة في أول الحديث. ومعنى جُنَّة: وقاية. إنَّ فضلَ الصوم شَيْءٌ معنوي، لكن بلاغة الحديث صورته لما يترتب عليه من الآثار في النفس بصورة محسوسة: صورة الترس الواقي، فقد شبهه الحديث بالمادي. وهل هو وقاية من العذاب أو من السيئات أو من سوء الخلق... هو وقاية من كل ذلك.

« **والصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ** »: الصدقة عامل إيجابي في منع الشر من المجتمع. وذلك بالقضاء على ما يسبب الألم للناس، فإطفاء الخطيئة يتضمن مجازًا؛ لأن الخطيئة تؤدي إلى العذاب بنار جهنم، فكان إذهابها إطفاء للنار، لذلك سمَّاها الرسول ﷺ إطفاء للخطيئة، وفي ذلك بيان لهول الخطايا وخطرها، كما أنه أفادنا أهمية إطفائها وإزالتها، وإزالة الخطيئة شيءٌ معنويٌّ وَضَّحَه الرَّسُولُ ﷺ بشيء مادي، إزالة الصدقة للخطيئة بإزالة الماء للنار، والمناسبة بين الشيئين واضحة؛ لأن الماء يطفئ النار وبذلك تطبع الكلمة في ذهن السامع صورة محسوسة ترغبه وتحفزه نحو العمل الخير..

ثم أرشد الحديث مُعَاذًا ﷺ إلى أكمل تلك الأعمال: « **وصلاة الرجل في جوف الليل** »: هؤلاء الصالحون دفعتهم إلى ذلك المحبة، حتى إن مَنْ يعبد اللّه في هذا الوقت فإنه يجد من الأنس بعبادة اللّه تعالى ما لا يعادله شيء في الدنيا، وفي صلاة الليل مجاهدة للنفس في ترك النوم، ثم فيها إنارة للإنسان، إذ يقال: « مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ في الليل حَسُنَ وجْهُهُ في النهار »[1].

ثم تلا ﷺ قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

ولما كان معاذ ﷺ يسأل عن أمنية عظيمة: (**الجنة**)، وكان كل إنسان يهتم بأمور معينة

(١) هذا قاله شريك بن عبد اللّه النخعي القاضي المحدث، (ت ١٧٧هـ)، لثابت بن موسى الزاهد (ت ٢٢٩هـ)، فظنه بعضهم حديثًا نبويًّا، انظر قصة ذلك في علوم الحديث لابن الصلاح: ١٠٠ وتحقيق أنه من المدرج في شرح النخبة: ٩١ وتعليقنا عليه، المصنوع في معرفة الحديث الموضوع للمحدث الشيخ علي القاري، رقم ٣٦٠ وكتابنا منهج النقد: ٤٤٢ في بحث المدرج.

يُولِيهَا غاية عنايته وتستولي على مشاعره، فقد نبَّهَهُ إلى أهمِّ كل أمر، والأمر هو كل شيء يهتم به الإنسان ويَعْظُم عنده، لذلك يقال « أمرٌ » أي: عظيم. فَبَيَّنَ الحديث أن أعظم ما يهتم الإنسان به ويجب أن يتجه إليه بكليته في كل شأن هو الإسلام، فإنه صلاح كل شيء، وبه تتحقق كل مصلحة يريدها الإنسان، وكل منفعة من الخيرات لنفسه أو للناس، ثم بَيَّنَ أن عماد ذلك الإسلام وما به رفعته وقوته.

وههنا نرى الإبداع النبوي البليغ يتفنن في التعبير والأسلوب، فيخاطبنا بلغة المحسوسات المادية المتجسمة أمامنا، على طريق تصويري بارع فيعرض لنا ثلاث صور حسية قريبة إلينا جدًّا، قوية الأثر في أفهامنا وقلوبنا. هي: الرأس ومنزلته من الجسد، فنحن نعلم أن الرأس مدير الجسد، ولا نستطيع أن نتصوَّر جسدًا بدون رأس، إلا أن نتصوره جثة فاقدة الحياة هامدة، ألا فَلْيعلم المُسْتَخِفُّونَ بأمر هذه الحقيقة العظمى الذين أهملوا أمر الفكر وتقويم عقيدته أنهم قطعوا من كل أمورهم رأسها، وأصبحت مهماتهم التي يُعْنَونَ بها غُثاء تجرفه تيارات الدنيا، فيتلاشى بَدَدًا.

ثم أوضح لنا الحديث أهم دعامة لإقامة هذا الإسلام الذي هو رأس كل شيء وأهم كل أمر، بصورة بيانية أخرى قريبة من فهمنا قوية الأثر في نفوسنا، وهي صورة الخيمة، والخيمة هي سكنى البدوي الذي يكنه من البرد والحر وعوارض الجو، وهي للحضري صورة بسيطة فيها الندرة والتعبير عن الضروري الذي ليس عنه استغناء، إن الخيمة لا تقوم جدرانها ولا سقفها إلا على ذلك العمود الضخم المتين الذي يحملها، وبدونه تكون أشبه بالعدم، فكذلك هي الصلاة في استقامة أمر الإسلام بها، وتوقف كماله وآثاره في الإنسان على هذه الفريضة فريضة الصلاة.

وبالأسلوب نفسه كشف لنا النبي ﷺ النقاب عن وسيلة إعزاز هذه الدعوة، ودفع العوادي عنها، وهو الجهاد، والجهاد لكل أمة شعار قوتها ومنعتها، وشريانُ بقائها على هذه البسيطة، به تدفع عنها العناء، ثم به تعلو قمة العزة والرفعة والعلاء، فهو كذِرْوَةِ السنام، مَنْ ارتقاها أَشْرَفَ على الناس من عَلٍ فهو فوقهم وهم دونه، لا يسهل عليهم أن ينالوه بضر؛ لأنه من فوقهم، فله السلطان عليهم، كذلك أمر الجهاد، ويرحم اللَّه الصِّديق الأعظم أبا بكر، إذ واجه الأمة منذ اللحظة الأولى لتوليه الخلافة بقوله: « ما ترك قوم الجهاد في سبيل اللَّه إلّا ذلّوا ».

لقد استكمل النبي ﷺ هذه التوصيات المتعددة التي أوصى بها، جوانبَ العمل، واستوفى الأمر كلـه: الأمر الذي هو همّ كل إنسان، بل أعظم ما يُهِمُّ كـلَّ إنسان، فاختتم بأمسِّ ما تحتاج إليه تلك الأمور كلها، وأرشد إلى ضابط تصلح به كافة الأمور فمهد لذلك بسؤال: « **ألا أَدُلُّكَ على مَلَاكِ ذلكَ كُلِّه.. كُفَّ عليك هذا، وأشار إلى لسانه** ».

بهذا لمس الحديث مشكلة الناس في كل زمن، وهي أن عامة الناس يتأثمون ويخافون من عمل سوء تقترفه جوارحهم، لكنهم يتوهمون أن لسانهم مطلق الحرية، يملك الحق في أن يقول ما يهوى، طالما أنه لا تناله قيود الحديد..؛ إنها مشكلة الناس في ذلك العصر.. وفي هذا العصر..، وهكذا كان مُعاذٌ متأثرًا بهذا العرف الخاطئ، فلقد تعجب من أن يكون الكلام سببًا لمؤاخذةٍ وحسابٍ، وإذا به لا يُخْفِيْ تعجبه، بل يصرح به في هذا السؤال: « **وَإِنَّا لَمُؤاخَذُون بما نتكلم به؟!..** » كان هذا السؤال أمارة على الغفلة عن هذه الحقيقة الخطيرة، الحقيقة المهمة، فإن الكلمة الواحدة تُحْدِثُ من الخير ما لا يحيط به الحصر، وقد تحدث من الشر ما لا يحيط به الحصر، وهل الأعمال التي نلمس آثارها، والمشاريع الضخمة التي تشيد الحضارات إلا ترجمة عملية لكلمات خَطَّتْ خِطَّتَهَا ورسمت مناهجها.

لذلك كان الموقف بحاجة إلى التنبيه والإيقاظ، بحاجة إلى إثارةٍ تُرْهِفُ الحِسَّ؛ تهيِّئ النفس، وقد حقق الحديث ذلك بهذه المفاجأة: « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا معاذ!! ». إن الحديث لم يقصد الدعاء، بل درج على سنة العربي الذي يستعمل مثل هذا التعبير للتنبيه والحث البليغ بهذه الكلمة، لا على أساس الدعاء، بل أريد أن يستدعي انتباهه؛ ولا يخفى أن (الثَّكل) يثير في النفس غاية الخوف والتنبيه والاهتمام، وهنا تهيأ الجو للإدلاء بهذه الحقيقة، الحقيقة الخطيرة التي صرح بها: « **وَهَلْ يَكُبُّ الناسَ في النارِ على وجوهِهِم إلا حَصَائِدُ ألسِنَتِهِم** ».

كان الاستفهام من معاذ تعجبًا واستغرابًا. فجاء الجواب على الأسلوب البلاغي نفسه، إذ استعمل أسلوب الاستفهام الإنكاري الذي يفيد النفي، وعقَّبه بإلّا (أداة الحصر). وليس المقصود هنا القصر الحقيقي، بل المقصود الإضافي أو المجازي، وهو يقابل التعجب السابق للرد عليه ردًّا بليغًا قويًّا، فكأنه يقول: لا أخطر من المسؤولية عن اللسان،

حتى كأنه الوحيد الذي يسبب العذاب، وقد صور هذا العذاب بصورة مخيفة، يُلْقَى فيها الإنسان على أكرم ما عنده، وهو الوجه، فتعذب النار أشرف الجوارح وأكرمها، لكن لماذا؟ وما هو السبب: « **إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ** ».

شبه اللسان بالمنجل الذي يحصد الزَّرع، فلا يدع أخضر ولا يابسًا إلا قطعه، لكن الحصاد هنا ليس حصاد خير، بل هو ما يلقي به اللسان من الكلم، يرسله على عَوَاهِنِه وعِلَّاته، سواء كان فكريًّا أو اجتماعيًّا يلقيه جزافًا لا يباليه بالًا، ولا يهتم بأن يكون خيرًا أو شرًّا، إفسادًا بين الناس، أو إثارةً لأحقادٍ وضغائنَ، أو فتنة تزلزل القيم العالية المستقرة، وتشكك فيها، إنها حصائد يلقيها اللسان، كما يلقي المِنْجَلُ السنابل، لكنها حصائد نار، وأهوال جحيم، يهلك صاحبها أفظع هلاك.

وفي صيغة الاستفهام الإنكاري: « وَهَلْ يَكُبُّ »، والعبارات القوية التنبيه كقوله: « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ »، وقوله: « وهل يكب الناس.. » ما يقوي هذه المعاني في النفس، إذ تَهُزُّ الإحساس هزًّا قويًّا.

وقد جعل - عليه الصلاة والسلام - للسان أهمية عظمى؛ لأنه عنوان على الباطن، وإذا ترك الإنسان لسانه على سجيته يلقي بكل ما يخطر له، فإن ذلك يؤدي إلى انعدام القيم في النفس. ففي الجانب الأخلاقي يتكلم بكل شيء يشين دون احتشام أو حياء، وفي الأمور الدينية يلقي بما يؤدي به إلى الكفر أو الفسوق والعصيان.

وقد يبدأ الإنسان بأن يطلق العِنان للسانه في أمور يَخَالُها يسيرة، أو يظنها من باب الذكاء والمهارة فَيَكْذِبَ، ويُخْلِفَ الوعود، ومرة بعد أخرى يتعود على ذلك، ويفقد قيمه الأخلاقية... ولا شك أن هذه النتيجة شر ما يصل إليه الإنسان.

جمال البناء:

يقوم بناء هذا الحديث على الحوار بين طرفين هما: النبي - عليه الصلاة والسلام - ومعاذ بن جبل ﷺ، ويبدأ النص بالسرد الذي حدَّد المكان الذي يحتوي الحوار، ذلك الحوار الذي يبدأ بطلب بعد نداء « يا رسول اللّه » المخضل بالترجي والشغف لمعرفة الأمر، ثم يأتي مفصلان متوازيان في التركيب متعارضان في المعنى « **أخبرني** »، « **يدخلني** »، « **يباعدني** » هذا التوازي يشكل إيقاعًا موسيقيًّا يسعى إلى تنظيم العمليات النفسية.

ثم يكون الجواب في مقطعين:

المقطع الأول: « لقد سَأَلْتَ عن عَظِيمٍ، وإنه لَيَسِيرٌ على مَنْ يَسَّرَه اللَّهُ عليه »:

بدأه بصيغة القسم تأكيدًا على أهمية السؤال، وحذف الموصوف وأتى بالصفة « عظيم » فالتقدير « شيء عظيم » أو أمر عظيم، وفي هذا دلالة على الأهمية البالغة للمسؤول عنه.

ثم جاء بالصيغة الاسمية المؤكدة « وإنه ليسير.. » والتأكيد يعضد القسم، وثمة تأكيد يربط المبتدأ بالخبر وهو اللام المزحلقة « ليسير » وفي هذا المقطع إظهارٌ للفظ الجلالة « اللَّه » الذي يبث الراحة والطمأنينة.

المقطع الثاني: « تَعْبُدُ اللَّهَ ولا تُشْرِكُ به شيئًا، وتقيمُ الصلاةَ، وتُؤتي الزكاة.. »:

هو مقطع طويل لأنه جواب عن السؤال وبيان للسائل، وقد أتى على إيقاعات فعلية ثنائية، مما يشكل توازيًا شكليًّا وترابطًا بين الأفكار، وجاءت الكلمات من حقلٍ معنويٍّ واحدٍ ووفق ترتيب يقدم ضابط العمل الصحيح، وهو صحة العقيدة والإخلاص في العمل.

هنا يزداد التفاعل النفسي عند المُتَلَقِّي « معاذ » لكي يزداد معرفة ترقى به بعد أن عرف هذه الفرائض الأركان، فيوافيه النَّبي ﷺ بحكمته فيطلعه على « **أبواب الخير** »، بتكرار منظم للمفردات السابقة، لكنها هنا من النوافل، ثم ما يجب أن يرعاه في كل شأنه « رأس الأمر الإسلام » ثم ما يحفظ كل عمله، ويقوم عليه نظامه، وهو حفظ اللسان.

وتبرز في آخر الحديث حركة سريعة مُسْتَغْرَبَة هي حركة النَّبي ﷺ « **فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ** »، وذلك يعطي مزيد إثارة وتشويق لتلقي المطلوب، « كُفَّ عليك هذا »، وهو فعل الأمر الوحيد في هذا الحديث.

ويظهر في بناء الحديث المنهج الحواري، الذي يدور الحديث عليه، مما يُشَوِّقُ المُتلَقِّي، ويزيد هذا الشوق أنه ﷺ كان ينتظر قليلًا بين فقرة وأخرى، كما تدل على ذلك عبارته « ثم قال » المتكررة في النص، كما تغلب عليه الجمل الاسمية، الدالة على الثبات؛ لأنه يقرر قضايا ثابتة، وقواعد مستقرة.

وبناء الحديث محوري كذلك؛ لأنه صَعَّدَ الأحداث لِيُهَوِّلَ معصيةَ اللسان، إذ يمكن أن نقول: إن كف اللسان هو العمل الذي يدخل الجنة ويباعد من النار؛ لأنه محور النص.

جمال التصوير:

تتجلَّى في بداية هذا النص عِدَّةُ صُوَرٍ في ضمن كثير منها دروس وإرشادات نفيدها من هذا الحديث الجليل؛ **نوجزها فيما يأتي**:

١ - صورة العمل الذي يقوم بحركة الإدخال إلى الجنة والإبعاد عن النار.

٢ - في تعبير « **أبواب الخير** » صورةٌ مَزَجَتْ بين الأبواب والخير بوساطة الاستعارة، وفي هذا الصنيع تجسيم؛ إذ جعل للخير المجرد أبوابًا، والباب هو المنفذ إلى البيت رمز الراحة النفسية والجسدية، وموطن تحقيق الأمنيات.

٣ - « **الصَّوْمُ جُنَّة** » والجُنَّة: قطعة من أسلحة الحرب القديمة وجذوة من حماسها، ولكن مع هذا فإن تعبير الجُنَّة يصبح في نظرنا أي وسيلة دفاع وقائية ندفع بها خطر العدو، وعلى هذا تتخذ الكلمة دلالات كثيرة، وقد امتزجت الكلمتان بوساطة التشبيه البليغ، وجاء الصوم في صيغة ثبات كما تدل الجملة الاسمية.

٤ - « **الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئة** » جاءت صورة الصدقة في جملة فعلية « تطفئ الخطيئة »؛ لأن الصيام يطول زمنه حتى يبدو ثابتًا، في حين تُقَدَّمُ الصدقة في دقائق، ولكن ذلك لا يقلل من أهميتها، بل تفيد التكرار والتشجيع عليها، كما تحوي هذه العبارة تجسيمًا في نقل المجرد إلى الحسي بما يذكرنا بعملية الإطفاء المعهودة، ويوحي بنار جهنم الهائلة.

٥ - « **صَلَاةُ الرجلِ في جَوفِ الليل** » نتصور منه الليل الدامس يلف هذا المؤمن الفاضل، فهي صورة ضوئية متضمنة الحركة حيث القيام والقعود، وهذا يفيد أن العمل الصالح نور لصاحبه.

٦ - « **رأس الأمر الإسلام** »: ثم شبه الإسلام بالرأس، وفي هذا تشخيص وتكريم للإنسان المؤمن لتشبيه الإسلام بأشرف عضو في الإنسان وأعلاه مما يوحي بالسمة العلوية للمؤمنين.

٧ - « **وعموده الصلاة** »: وشبه الصلاة بعمود الخيمة الذي يحملها ويتوسَّطها، وفي هذا التصوير إيحاء بأن الصلاة أمر ضروري مركزي، لاستقامة كل شيء، وما دامت الخيمة قائمة فالأمن عميم شامل.

٨ - أما تعبير « **ذِرْوَةُ سنامه الجِهاد** » فهو ضرورة طولانية ولكنها تتخذ صورة الهرم، فلا بد من قاعدة كما في السنام، وهذا يعني استعداد النفس والعناية بالعبادات قبل التفكر

بالجهاد، هذه القاعدة تشمل - على سبيل المثال - الصلاة والصيام والصدقة ومحبة الناس ومساعدتهم.

٩ - « **فأَخَذَ بِلِسانِهِ وَقَالَ: كُفَّ عليك هذا...** » صورة إشارية، إذ أشار النبي ﷺ بلسانه ويده، وفي هذا استحضار ووسيلة إيضاح للتأكيد والحث على التأثر، ويتبع هذه الصورة صورة حركية عنيفة: « **وهل يَكُبُّ الناس في النار** ». فهذه الأعمال تجسمت لتحرك الإنسان وترميه على أنفه لتكسر كبرياءه واستهانته بالناس، فانقلابه على الأنف أشد مهانة مصحوبة بألم جسماني في إطار ناري واسع هو نار جهنم، فهنا صورة حرارية حركية لَوْنِيَّة، تبعًا للون جهنم.

١٠ - « **حصائد ألسنتهم** »: تصوير حصد الألسنة للأعمال بطريق الاستعارة، وهذا التصوير له دلالته النفسية والفكرية، إذ يوحي أن الأعمال الطيبة زرعٌ ونماء، ومعاصي اللسان وسائر المعاصي حصد أو بمنزلة التلف، وأن الإسلام نماء وحياة.

وبعد فإن هذا الحديث قطعة أدبية رائعة جمعت قوة التأثير إلى ذروة المعاني العالية، وسبكت ذلك كله في قوالب لفظية بليغة جزلة قوية، ففيه التنويع بين أساليب الكلام، ثم الاستعارات المنبثة في كافة جوانبه دون أن يشعر بها القارئ لسهولتها وعدم تكلفها، وكأنها تعابير حقيقية، وقد راعت في كل موطن من المواطن الغرض من التشبيه، ونجحت نجاحًا عظيمًا في التعبير عن مقاصد الحديث بأن انتزع المعاني من أشياء مادية مهمة، يحس الإنسان بضرورتها، وأنه لو فقدها لفقد سعادته، وعاش في نصب وتعب وعناء لا يتصور معه بقاء واستمرار.

إرشادات الحديث:

١ - في الحديث إرشادات كثيرة جليلة الشأن تدل عليها عبارات الحديث بوضوح، فتأمل عباراته واعمل بها.

٢ - إن الأساس في أي عمل أو أمر هو الإسلام، أي: أن تكون في هذا الأمر أو العمل مستسلمًا لشرع اللَّه تعالى عاملًا به، وعبارة الحديث واضحة « ألا أخبرك برأس الأمر كله ». وقوله بعد ذلك: « رأس الأمر » أي: كله « الإسلام ».

٣ - لفت الانتباه إلى خطورة أمر الجهاد، وأن به عزة الأمة، وعلو شأنها في العالم، وقد قصر المسلمون في هذا الركن في العصر الأخير كثيرًا جدًّا.

٤ - التحذير من آفات اللسان، وأن خطرها عظيم، بل رب كلمة يقولها الإنسان « **لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار أربعين خريفًا** »، كما ثبت الحديث[1]. أي: أربعين سنة. لذلك كثر التحذير من آفات اللسان[2].

* * *
* *
*

---

(١) بنحوه رواه الترمذي، رقم ٢٣١٤، وأحمد في المسند: ٢/ ٢٣٦، ٣٩٧، وصححه ابن حبان، رقم ٥٧٠٦.

(٢) راجع هذا العنوان في إحياء علوم الدين وغيره.

المتحرر

٢١ عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: « الطُّهُوْرُ شَطْرُ الإيمَانِ، والحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ المِيزَان، وسُبْحَانَ اللَّهِ والحَمْدُ للَّهِ تَمْلَآن - أو تَمْلأُ - ما بَيْنَ السَّمَواتِ والأَرْض، والصَّلَاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، والصَّبْرُ ضِيَاءٌ، والقُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَو عَلَيكَ. كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَايعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا ».

[أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه][1]

* * *

المفردات:

الطهــور: بفتح الطاء: اسم لما يتطهر به كالماء. وبضمها تعني: التطهر (مصدر) وهو المراد هنا. شطر الإيمان: نصفه.

يـغـــدو: الغُدُوُّ: الذهاب والإياب.

بـــايـــع: بالياء عند مسلم، وبالهمز « بائع » عند غيره. وهي هنا تحتمل معنيين: البيع والشراء، والظاهر هنا البيع (يبيع نفسه لربه).

وبـــايـــع: خبر لمبتدأ محذوف، أي: فهو بايع.

فمُعْتِقُـهَـا: معطوفة على بايع.

أو مُوْبِقُهَا: ليست معطوفة على معتقها بل على بايع، ومعناه مهلكها.

المحتوى الفكري:

جمع هذا الحديث خصالًا من الخير مهمة، وَبيَّنَ أمورًا لها فضل عظيم عند اللّه ﷻ.

والطُّهُور: الوضوء، والغسل من الجنابة، ويشمل كل أنواع الطهارة.

الإيمان: يوجب على المرء الطهارة عند الصلاة وقراءة القرآن وغير ذلك..

والمقصود من التطهر: التحقق بالتطهر الكامل. أي: أن يكون قلب المرء وجسمه

---

(١) مسلم في فضل الوضوء: ١/ ١٤٠، والترمذي في الدعوات (باب منه): ٥/ ٥٠١، والنسائي في الزكاة (وجوب الزكاة): ٥/ ٨، وابن ماجه، رقم ٢٨٠.

طاهرين من كل أثر للشهوات والنقائص، والطُّهُورُ الظاهري وسيلة لتطهير القلب والنفس، فإن الإنسان يرتفع مستواه بالطهارة، إذ يأنف الأشياء المستقذرة والأشياء الدنيئة، فضلًا عن أن الطهارة وسيلة عظيمة للوقاية من الأمراض والأوبئة، إذ إنها تفرض على المسلم دائمًا مستوى من النظافة وتنشط أجهزته تنشيطًا كافيًا؛ لوقايته من العدوى بالأوبئة...

الحمد للَّه: هذه الجملة فيها وصف اللَّه ﷻ بغاية الكمالات؛ لأن كلمة « **الحمد** » تشمل معاني المدح والشكر. والمدحُ هو الوصف بالصفات الجميلة والكمالات التي توجد في الممدوح. والشكر: هو الثناء لشخص أنعم عليه وأسدى معروفًا.

فأتت كلمة الحمد تجمع هاتين الصفتين، وقد قال بعض المحققين: « الـ » في « **الحمد** »: للاستغراق لأن الحمد عام شامل لكل شيء. لذلك استحق اللَّه تعالى كل حمد، وقد تضمنت كلمة الحمد كل صفة جميلة. فإذا قال القائل: « **الحمد للَّه** » مستحضرًا هذه المعاني فإنها تملأ الميزان، والمقصود أن ثواب كلمة: « الحمد للَّه » عظيم، وأنها لو تصورت بجسم مادي لملأت الميزان، لكنا في هذا الوقت نستطيع أن نقول: « الميزان » يطلق على كل ما يقاس به، فهناك ميزان الحرارة، والرطوبة، والسرعة، والضغط والاهتزاز...

لذلك لا حاجة بنا أن نقول: « الحمد للَّه » لو صوِّرت بجسم مادي لملأت الميزان، بل المقصود بها أنه يصل تقديرها إلى أعلى ما تقدر به أعمال المرء، ثم ما عبرت عنه من المدح والشكر للَّه فالمعنى أن كل وصف جميل، وكل فعل خير فهو للَّه تعالى، فهذا الذي أسدى معروفًا فحمدناه عليه فإن مآل الحمد للَّه؛ لأن من مدحناه إنما اصطنع الخير بتوفيق اللَّه وهدايته، وبوصفنا لأحد الناس بأنه ذو عقل واسع، هذا مدح للإنسان من جهة، ولكنه حمد للَّه ﷻ من جهة أخرى؛ لأنه تعالى هو الذي أعطى المرء هذا العقل الواسع وتلك الموهبة التي مدحناه بها، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢]. وإنَّ هذا الذي تعنيه كلمة « الحمد للَّه » ليُربي في نفس قائلها سُموًّا عظيمًا، إذ يردُّ الأمور كلها للَّه، فيخضع له لا لغيره، ولا يَذِلُّ لأحد سواه، وحسب الإنسان ذلك منطلقًا في حريته وفكره.

« **وسُبْحَانَ اللَّهِ والحَمْدُ للَّهِ تَمْلَآنِ أو تَمْلَأُ...** »: هذا شَك من الراوي. والمعنى على كلا الحالين جائز؛ أما تثنية الفعل فلأنه اعتبر الكلام جملتين، وأما الإفراد فلأنه عطف

جملة على جملة فاعتبرت جملة واحدة. ومعنى « **سبحان اللَّه** »: أي تنزيهًا للَّه. والتسبيح من السَّبْحِ أي الابتعاد في الماء، ثم استعمل في الإبعاد الكامل الذي تتقطع به صلة كل شيء. أي تنزيهًا للَّه عن كل وصف من صفات النقص، فكل نقص يُنَزَّهُ اللَّه تعالى عنه؛ من إشراك أو تشبيه أحد به أو غير ذلك. فالجملة الأولى تنزيهية، والجملة الثانية نعت للَّه - تعالى - بالكمالات التي لا نهاية لها، فاشتملت هذه الجملة على غاية التعظيم، وجمعت كافة مقاصد العقيدة، فكانت هاتان الصفتان تملآن ما بين السماء والأرض، أي نور هذه الكلمات الصالحة يملأ ما بين السماء والأرض، كما أن هذه العوالم السماوية والأرضية ما كانت لتوجد إلا بصنع إله قدوس متنزه عن كل نقص، متصف بكل كمال.

« **والصَّلاةُ نُورٌ** »: هذه الأشياء الثلاثة وصفها الحديث بالنور والبرهان والضياء، فالصلاة نور؛ لأنها مشتملة على الإشراقات الإلهية التي يُشرق بها النور الإلهي في قلب المؤمن، وهي منيرة للإنسان تضيء له طريق الخير في الدنيا؛ لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر الأسود القاتم، كما تنير طريق الصراط المستقيم في الآخرة، والمقصود بالصلاة هنا: إقامتها على وجهها بمراعاة أحكامها وحضور القلب فيها.

« **والصدقة برهان** »: هي برهان على إيمان الإنسان؛ لأن المتصدق قد بذل ماله؛ لأنه مؤمن إيمانًا حقيقيًّا بالبعث والآخرة فما تصدق هذا الإنسان إلا لإيمانه القوي، حتى إن هذا المؤمن قد آثر الآجل وضَحَّى بالعاجل؛ لذلك سميت الصدقة برهانًا؛ لأنه يثبت بينه وبين نفسه صدق إيمانه، كذلك ليثبت أمام الناس صدق إيمانه.

« **والصَّبْرُ ضِياء** »: الضياء أكبر من النور، وقد جعل الصبر أقوى من غيره؛ لأن كل هذه الأعمال تحتاج إلى صبر.

« **والقرآن حجة لك أو عليك** »: من استمسك به نجح، ومن تركه فهو حجة عليه.

والنتيجة أن موقف الناس من هذه الأعمال كموقف رجلين، فالناس جميعًا يسعون ثم ينقسمون قسمين: الأول باع نفسه للَّه فضمنها؛ لأنه أنجاها من عذاب النار، فشبه الإنسان في عمله بما ذكر أو عدم عمله، بإنسان ينزل إلى السوق وبضاعته نفسه، فمنهم من يبيعها للَّه فيضمنها، فيكون قد أعتقها، أو هو يشتريها من المهالك فهو يعتقها. أو يرفض ذلك، فتكون عرضة للنهب والسرقة، فيكون قد رمى نفسه بين المهالك.

وقد عبر بالموبق؛ لأن هذا اللفظ يدل على الهلاك العظيم.

جمال البناء:

بناء هذا الحديث تجاوري تتعانق فيه المقاطع بوساطة حرف العطف، وكل المقاطع جمل اسمية متقاربة في مساحتها في النص.

المقطع الأول: « **الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ** »: على إيقاع ثلاثي، تأتي كلمة « شطر » صلة الوصل والعامل المسبب، وما دام الأمر يتعلق بالإيمان فالجملة الاسمية مناسبة له لدلالتها على الثبات والدوام.

أما المقطع الثاني: « **الحَمْدُ للَّهِ تَمْلأُ المِيزَان** » فهو مقطع اسمي ذو جملتين أو مفصلين: الأول اسمي والثاني فعلي بصيغة المضارعة للدلالة على التكرار والاستمرار.

المقطع الثالث: « **وسبحان اللَّه والحمد للَّه.. تملأ ما بين السَّموَات والأرض** » أطول بيانًا وإشباعًا، وهو رديف لما سبقه، وتكرار لفظ الجلالة فيه « اللَّه » يؤكد التعلق باللَّه، وكلمة « تملأ » افتتاحية ترد في موضعين، لكنها في الثانية تتخذ فاعلية أكبر وتنويعًا لغويًّا واسعًا، فالميزان يقابل ما بين السموات والأرض، وهذا يفيد عند المتلقي لهفة نحو معرفة الفضائل وثوابها.

ومقطع « **الصلاة نور** » قصير اسمي يبني علاقة بين مجرد وحِسِّي، وما دام الكلام على ثواب الصلاة لا الصلاة فحسب، فقد ناسب أن يتَّصف المقطع بالثبات؛ لأن الثواب ثابت عند اللَّه.

ويتبعه مقطع آخر على إيقاع ثنائي أيضًا « الصدقة برهان » ثم « الصبر ضياء » ويربط المعنى بين هذه الجمل؛ فالتسابيح تفيد الإقرار بالوحدانية والربوبية، ويتبع هذا الصلاة؛ لأنها الصلة بين العبد والرب، وهي شاملة على الأفكار، ثم الصدقة، وهي الدليل على موافقة الباطن للظاهر، وهي عبادة مع الآخرين، ثم أَطَّرَ هذا بالصبر؛ لأن العبرة بالاستدامة على حفظ العقيدة والتشريعات والفضائل، وهذا يحتاج إلى صبر، وهكذا نرى الترتيب مُقْنِعًا في لَبوسٍ فنيّ رائع.

ومن مظاهر التنسيق الفني في البناء: ورود ثلاثة مقاطع طويلة ثم ثلاثة قصيرة، بل إن الثلاثة الأولى تبدأ بثلاث كلمات فأربع كلمات فثماني كلمات، ثم ثلاثة مقاطع قصيرة، ونرى أن التطاول سمة تعبر عن الاستفاضة في الإيمان والتعمق فيه والتدرج في العبادات، كذلك يأتي مقطع اسمي « **القرآن حُجَّة** » مبتدؤه وخبره اسمان. في حين يأتي

المقطع الأخير اسميًّا « **كُلُّ النَّاسِ يغدو** » مبتدؤه اسم وخبره جملة فعلية، وهذا يفيد أن القرآن حجة ثابتة مع الحق وعلى الباطل، وههنا يحصل ترجّح من خلال حرفين: « **لك، عليك** » يؤكد هذا الترجح الخير أو الشر، إذًا فالثبات في الحجة يتطلب ثباتًا في الجملة الاسمية، والحجة لا تتغير، بل الوقائع والناس يتغيرون.

كما تؤكد الفاء التعقيبية وتعبير: « **فَمُعْتِقُها أو مُوبِقُهَا** » نتيجة كبرى أخيرة تمثلت في تعارض « معتق » و « موبق »: الخلاص والهلاك، وهذا التعارض على أشده لأجل التوازي الصوتي في المفردتين.

جمال التصوير:

الصور في هذا النص متعددة متنوعة، لا يخلو مقطع من تصوير.

الصورة الأولى: « **الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمانِ** »: تحتوي على وسيلتين بلاغيتين التشبيه البليغ « الطهور شطر » والاستعارة الإضافية « شطر الإيمان » وما دام الطهور هنا يشتمل على الوضوء وسائر الطهارات ويؤدي إلى الطهارة النفسية فَحُقَّ أن يغدو نصف الإيمان، كذلك لأن الصلاة تحدد الإيمان وتميز المؤمن، والوضوء خصوصًا والطهارة عمومًا شرط لها، وهذه الصورة تجسم الإيمان ويجعله نصفين، مما يشجع على فعل الطهارة لدى المُتَلَقِّي.

والصورة الثانية: « **والحَمدُ للَّهِ تملأُ المِيزَانَ** » أي: إن ثواب قبولها والإقرار بمضمونها يملأ الميزان، وهنا يُثَارُ الخيال لدينا؛ لأن الميزان في الآخرة من العوالم الغيبية، وإن كنا نجد له شبيهًا في عالم الشهود، فإنه يظل يشغل الذهن والخيال بخصوصيته. والصور هنا حركية « تملأ » تنشط العامل النفسي لِأَنْ يُرَدِّدَ الإنسان هذه الكلمة « الحمد للَّه » خصوصًا بعد الترغيب بفاعليتها في الميزان الذي يحدد المصير.

الصورة الثالثة: « **وسُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ للَّهِ تَمْلآن...** » ضخمة الحجم آخذة في العلو، وهي صورة تراكم ثواب قول التسبيحتين « سبحان اللَّه والحمد للَّه »، وما دامت السماء كائنًا مخلوقًا غير محدود المسافة، فإن هذا الثواب مطلق يجيء في صورة شاقولية تريح النفس؛ لأن محطتها الأخيرة هي العالم العلوي حيث العدل والخلود.

أما صورة « الصَّلاةُ نور »: فهي صورة ضوئية تُفسِّر الثواب الذي ينفي ظلمات العذاب والقبر، وجاءت الصورة بالنور لا بالضوء؛ لأن النور بارد لا يتسم بحرارة، وهذا يدل

على أن المسلم مستريح في صلاته لا يجد فيها مشقة كما هي حال المنافق، والترابط والعناق بين المفردتين « الصلاة نور » بوساطة التشبيه البليغ يؤكد أن النور في منظور المسلم هو الصلاة والصلاة نور، وهي صورة ثابتة لأنها في صيغة اسمية توائم ثبات الثواب عند اللَّه ﷻ.

صورة « **الصَّدَقَةُ بُرهَانٌ** »: والبرهان اسم من أسماء الشمس، فهنا صورة ضوئية لمسية، ولكنها بمعنى الحجة والدليل، فهي صورة مشخصة، كأن الصدقة شخص ينطق بإثبات الإيمان باللَّه واليوم الآخر للمتصدق.

صورة « **الصَّبْرُ ضِيَاءٌ** »: حيث المشقة التي تتبعها الملذة؛ لأن الصبر يشتمل على مقاومة النوازع والمغريات الباطلة والرذائل بشتى أنواعها، والصورة توحي بالحرارة؛ لأن الضياء لغويًّا هو نور بحرارة، والحرارة كائنة في كبح الغضب والرغائب المختلفة، وما دام الضياء نتيجة فثمة خلاص وثمرة طيبة للصبر، والصيغة اسمية تؤكد لزوم وثبات أهميته في شتى الأحوال.

وفي تعبير « **القُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أو عليكَ** » مَشْهَدٌ تَحَوَّلَ فيه القرآن شاهدًا، يشهد بالأمرين على الإنسان: بالخير والشر، وذلك لأنه مقياس استقامته أو اعوجاجه، ومرجع يكشف اهتداء العبد أو ضلاله. يوضح هذه الصورة الحديث: « **مَن جعله أَمَامَه قاده إلى الجنة، ومَن جعله خلفه سَاقَه إلى النار** ».

وفي صورة « **حُجَّة** » قوةٌ تناسب قوة القرآن وهيمنته على الأفكار المغايرة.

وفي خاتمة الحديث: إطار زمني للصورة؛ لأنها تكتسي بالفعلية، فهذه صورة حركية، تليها استعارة تأتي سريعة بالفاء، وهي بيع النفس « **فَبَائِعٌ نفسَه** »، الذي يعبر عن مسألة الاختيار، فالبائع مسيطر على ما يبيع، فإما أن يبيعها للخالق فينجح، وإما أن يبيعها للشيطان فيخفق، وأردف هذا باسم الفاعل مرتين، وهو يفيد الفعل، والفاعل لحظة فعله، فيتضمن الحركة، حركة العتق الموحي بالاتساع والانفراج على النفس، وحركة الموبق الآخذة بالضيق، نتيجة تراكم الذنوب على النفس، بل إن الفعل الأخير يشتمل على نهاية العاصي؛ لأنه يشبه بالذي قذف نفسه في مهلكة عظيمة الهلاك، لينال العذاب النفسي والعذاب الجسدي، وهذا يدل على أن الإيمان حرية ورقي وانفراج، وأن الكفر سقوط وضيق وتدنٍّ.

إرشادات الحديث:

١ - في كل جملة من جمل هذا الحديث دلالة على أمر عظيم في مصلحة الدين والدنيا والآخرة، وهذا السبب في عظمة شأنها التي أفادها الحديث، فاستحفظه وتأمله كلمة كلمة، تفهمًا وتعلمًا وعملًا.

٢ - خطورة شأن القرآن في مستقبل الإنسان، فهو المقياس لكل عمل تقوم به، إن اتبعته كان حجة لك، وإن خالفته كان حجة عليك. فواجب كل مسلم مواصلة قراءة القرآن والعمل به.

٣ - إثبات الاختيار لكل مكلف، وإبطال زعم الجبرية، أو ما يسميه بعض الصحفيين والعصريين « القدرية »، يقصدون بها الجبر؛ لسوء فهمهم معنى القدر، فالحديث يثبت الاختيار والحرية لكل إنسان؛ لأنه أفاد أن كل إنسان يسعى بنفسه، فمنهم من يبيعها للَّه تعالى بطاعته فيعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعهما فيوبقها، أي: يهلكها، فالاختيار والحرية في الحالين لك، فاختر لنفسك ما يحلو.

* * *
* *
*

هِجْـرَتُـنَـا

٢٢ عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **الِعبَادَةُ فِي الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ** ».

[أخرجه مسلم والترمذي][(١)]

* * *

المفردات:

العِبَادَةُ: المقصود بالعبادة في هذا الحديث: العبادات النوافل بكل أنواعها (الصلوات والصدقات ومجالس الذكر...) وغير ذلك، وليس المقصود بها الفرائض؛ لأنها شيء مفروض ومفروغ منه.

الهَرْج: لغة: يطلق على الاختلاط والسرعة. هَرَجَ الفرس في مشيه أي: أسرع. هَرَّجَ: خلط. والتَّهْرِيج: الفعل المُضحِك؛ لأن فيه تخليطًا يُضحك. والمقصود بالهَرْج: الفتنة التي تَخْتَلِطُ فيها أحوال الناس وتفسد.

كهجرةٍ إليَّ: الهجرة تطلق بمعانٍ، منها الهجرة من مكة إلى المدينة، وقد انقطعت بفتح مكة. ومنها هجرة المسلم من دار الكفر إلى دار الإسلام، وهي فريضة على كل مَنْ فقد الطمأنينة والسلامة على دينه. وهناك هجرة عامة باقية هي الهجرة من المعصية إلى الطاعة « **والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنه** »[(٢)]. والحديث بَيَّنَ أن المقصود هنا بالهجرة هو الهجرة إلى النبي ﷺ.

المحتوى الفكري:

يشير الرسول ﷺ في هذا الحديث إلى ما سيقع للناس من اختلاط الأمور بسبب شيوع الجهل بالإسلام، واتباع الناس الأهواء والآراء الغريبة، وتزيينها، حتى تختلط الأمور، فلا يدري الإنسان ما يفعل، ولا يعرف أي شيء يأتي أو يذر، ويصف الحديث لنا العلاج الناجع في هذه الحالة، وما ينبغي للمسلم أن يفعله، وكأنه يقول: أوصيك في هذه الحال وهذه

---

(١) مسلم في الفتن (فضل العبادة في الهرج): ٨/٢٠٨، والترمذي (ما جاء في الهرج والعبادة فيه): ٤/٤٨٩ وابن ماجه (الوقوف عند الشبهات) رقم ٣٩٨٥.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري، رقم ١٠، في الإيمان (المسلم مَنْ سلم المسلمون...)، ومسلم، رقم ٤٠، في الإيمان (بيان تفاضل الإسلام وأي الأمور أفضل).

الظروف أن تكثر من العبادة؛ لأن فضلها عظيم، وهي المنارة الواضحة في تلك المُلِمَّات، حتى لقد سمت وصارت كهجرة إلى النبي ﷺ يُتْرَكُ لها الوطن والأهل في سبيل الدين.

وثمة ناحية أخرى توضح فضل العبادة في الهَرْجِ وهي أن العبادة في الأزمان المضطربة قليلة، فلذلك كان المتعبدون والمُعْتَنُون بأمور دينهم وعباداتهم قليلين، وكان الرجل المتعبد قويّ الإيمان كإيمان الأولين، صفوة أتباع هذا الدين، وذلك ما نجده الآن، فقد غلبت النزعة المادية على عقول الناس حتى صرفت كثيرًا من الشباب عن التفهُّم للقيم الإيمانية، وكذلك نجد عدوى المادية تسري في صفوف المتدينين، فكثير من شبابنا المسلم صرفه التفسير المادي للإسلام عن النظر في عقيدته، وأن يُقَوِّيَ إيمانه وعرفانه بربه، وسيطر ذلك على أذهان البعض حتى أصبح يتطلَّب في الإسلام ما جاءت به الحضارة الأجنبية المتمردة على الدين وعلى الأخلاق، المتنكرة للمثل والقيم الإنسانية، فهذا يريد من الإسلام أن يبيح اختلاط الجنسين، وهو المِعْوَل الهَدَّام في بُنيان المجتمع، وآخر يقول: « ابحثوا عن حل لمشكلة الربا أبيحوه لنا » وكأن شريعة اللّٰه ألعوبة في أيدي الناس.

فنبَّهَ الحديث العالَمَ الإسلامي كله إلى علاج لهذه المشاكل، وذلك باللجوء إلى حياة العبادة، فإنها تهذب النفوس وترقق الأفئدة فتصلح ما فسد من شقوة الناس؛ لأن مفهوم العبادة في الإسلام يتناول كل فعل خير كالصلاة والصيام والزكاة وعون المحتاجين بأي مساعدة أو غير ذلك من الأمور النافعة.

ملامح فنية:

يتضمن هذا الحديث وجازةً في التعبير بحيث تَكَثَّفَتْ المعاني الوفيرة في كلماته القليلة الكلية الجامعة، فالعبادة كلمة جامعة لعبادات شتى قلبية ولسانية حركية مالية عبادات ومعاملات وكل ما يقتضيه الشرع، فالعقيدة أيضًا عبادة، وهي أهم العبادات في زمن تختلط فيه الأمور فتفسد العقائد، وتفسد أعمال القلوب من محبة في اللّٰه ومحبة اللّٰه، وخوف من اللّٰه، ومراقبة اللّٰه، وغير ذلك.

ويتكون هذا النص من مفصلين: « **العبادة في الهرج** » و « **كهجرة إليّ** ». ويُلحظ في المفصل الأول اختيار دلالة الهرج للتأكيد على الحركة المائجة للفتنة، فالصدور تغلي، والرؤوس تقطع، والدماء تسيل، والمدن تهدم...

والمفصل الثاني « **كهجرة إلي** » يشتبك بالأول بوساطة كاف التشبيه الذي يفيد الترغيب، حيث المقارنة بين مقامين، والضمير في « إليّ » يتسم في الخطاب المباشر، كما أنه يعبر عن الراحة الكبرى لدى المتلقي؛ لأنه يصبح في كنف سيد البشرية.

ثم إن الأصوات متشابهة بين الهرج والهجرة مما يعني التزام قوة الحركة في الهَرَب من الفتنة بقدر ما تمور وتتحرك هذه الفتنة، فهذا يعني أن الهرج يعارض الهجرة، فالهرج إشارة للكفر ولما يخالف الشرع من سفك دماء وانتهاك حرمات، والهجرة تجديد للإسلام، كما كانت الهجرة علامة الإسلام زمن البعثة مما يؤكد أمر العبادة.

والكلمة تثير الخيال في عصرنا؛ لأن الهجرة إلى النبي ﷺ اليوم تعني العودة إلى الرسالة وهي القرآن وتبيانه المتمثل في السنة الطاهرة، فهي هجرة إلى أفكار لا إلى أشخاص، وهذه الأفكار تتخذ صورة مُجسَّمة تحدد مسافةً ومشهدًا عرضيًّا يريح الباصرة والبصيرة.

ووجه الارتباط في هذه الصورة التي أفادها التشبيه أنه في الزمن الأول كان الناس يَفِرُّونَ من دار الكفر وأهله إلى دار الإيمان وأهله، فإذا وقعت الفِتَنُ تَعَيَّنَ على المؤمن ولَزِمَ أن يَفِرَّ بدينه من الفتنة، لكن الفرار هنا إلى العبادة، وأن يهجر أولئك القوم وتلك الحالة المضطربة، وهو أحد أقسام الهجرة.

وقد جاء طَرَفَا التشبيه هنا معنويان، والأكثر أن يكون التشبيه لأمر معنوي بأمرٍ حسّي، لكنه هنا شبه العبادة وهي أمر معنوي (أو عقلي كما يعبر البلاغيون) بالهجرة وهي أمر عقلي، وحَسّنَ هذا الفن هنا وضوح فضل الهجرة وما استقر من عظمتها في بداهة العقول، فكانت نموذجًا جميلًا للمشبَّه به.

كما أن النص جاء وفق صيغة اسمية تعبر عن الثبات، وهذا يوائم ثبات المسلم إزاء الملمات والفتن وضغط المغريات وغياب الحقائق، وهو ثبات باطني وداخلي، لَكنه يتجلى حسيًّا في مواقف متعددة.

إرشادات الحديث:

١ - في الحديث إخبار عمَّا سيقع في المستقبل من اختلال أمور الحياة والفتن والأهوال، وفي ذلك إعداد لنفس المؤمن أن تتأهب لمواجهة ذلك، وقد كثر نحو هذا الخبر في آيات القرآن والأحاديث النبوية، وكان لذلك أثره في تثبيت القلوب وثبات المواقف.

٢ - في اختيار الحديث هذا التشبيه: « **العبادة في الهرج كهجرة إليّ** » فائدة دقيقة مهمة جدًّا، يوضحها الحديث الآخر « **والمهاجر من هجر ما نهى اللَّه عنه** »، فالمتعبد إنسان هجر المعاصي والفتن والاقتتالَ لأجل الدنيا، واتجه إلى ربِّه، وهذه الهجرة أعظم العبادات.

٣ - التحذير من نزوع الناس إلى الأهواء واتباع الشهوات، فإنها شر خطير وبلاء مستطير.

٤ - إن العلاج الذي تواجه به الفتن بأنواعها هو اللجوء إلى العبادة والتقرب إلى اللَّه تعالى[1].

* * *
* *
*

(١) راجع باعتناء كتاب التقرب إلى اللّـه تعالى لفضيلة أستاذنا الشيخ عبد اللّـه سراج الدين.

الغُرُّ المُحَجَّلُون

٢٣ عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ** ».

[أخرجه الشيخان][1]

* * *

الإسناد:

الحديث من رواية نُعَيْمٍ المُجْمِرِ قال: رَقِيتُ مع أبي هريرة، فتوضأ فقال: إني سمعتُ رسول اللَّه ﷺ، يقول: « إنّ أمتي... » وقد تَفَرَّدَ نُعَيْم بذكر هذه الجملة « فَمَنِ استطاع... » في الحديث. **قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في جملة « فمن استطاع منكم.. »: « ولم أرَ هذه الجملة في رواية أحد ممن روى هذا الحديث من الصحابة وهم عشرة، ولا ممن رواه عن أبي هريرة غير رواية نُعَيم هذه »**[2].

فهذا يشعر بأنها مدرجة في الحديث من كلام أبي هريرة، ولا سيما أنه روي عن نعيم الشكُّ فيها أنها من الحديث أو من كلام أبي هريرة.

المفردات:

الــغُــــرُّ: جمع أغر، وهو صاحب الغُرَّة ليست هي خصلة الشعر المتدلية كما يُتَوَهَّمُ، بل هي لَمْعَةٌ في جبهة الفرس تُخَالِفُ بقية لون الفرس.

المُحَجَّلُون: من التحجيل، وهو البياض في قوائم الفرس.

المحتوى الفكري:

هذا اللفظ بيان لمكانة الأمة الإسلامية وفضلها وأن لها علامة مميزة يوم القيامة تظهرها بمظهر خاص هو أثر لعمل من أعمالها وهو الوضوء. أي: إن المسلمين يأتون ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ ﴾ [التحريم: ٨].

---

(١) البخاري في الوضوء (فضل الوضوء والغر المحجلون): ١/ ٣٥، ومسلم في الطهارة (استحباب إطالة الغرة): ١/ ١٤٩، والنسائي (حلية الوضوء): ١/ ١٠١، وابن ماجه في الزهد (صفة النار) رقم ٤٣٠٦.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ١/ ١٦٧.

يريد النبي ﷺ أن يُفْهِمَ الحاضرين هذا المعنى في صورة تحيطه إليهم وتؤثر فيهم كثيرًا، ولذا عَبَّرَ بأمرٍ حسِّيٍّ واضح الحُسْنِ والجمال، هو الغُرَّةُ والتَّحْجِيل، فشبههم بالخيل الغُرِّ المحجَّلة، ولو قال سيأتون بنور في أيديهم وأرجلهم لما أثر في السامعين، وقد اختار الرسول ﷺ هذا اللون من التعبير والتشبيه بالخيل، إذ صَوَّرَهُمْ قد جاؤوا غُرًّا مُحَجَّلِين من آثار الوضوء (للعناية به، والمحافظة عليه)، فوجه التشبيه هو وضاءة الوجه والجوارح وحُسنها، وجمال لونها، بسبب الوضوء فأشبه الفرس الأغرَّ المُحَجَّل، وأعطانا تذوقًا لطيفًا، نتمتع بمنظره، فضلًا عن زيادة الفهم، وعمقه في النفس. والحديث على إيجازه قد أتى بمعانٍ واسعة جليلة، مع غاية الوضوح، وكمال السموّ في التعبير والبلاغة.

بناء النص:

يتكون هذا الحديث من مقطعين:

المقطع الأول: « **إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ غُرًّا مُحَجَّلِين** » نجد فيه توكيدًا يتصدر المقطع، ويشكل المفصل الثاني « مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الوضوءِ » تمددًا معنويًّا بمنزلة البيان والتوضيح الفكري، فضلًا على استكمال الصورة.

وعَدَلَ البيان النبوي عن القول « أمتي تدعى » إلى « يدعون » لتأكيد الكثرة، وهذه الكثرة تثير مشاعر الترغيب في الصلاة والاطمئنان لوجود هذه الجموع الغفيرة، وكذلك مشاعر الحب والحبور والطمأنينة بالانتساب إلى ذاته الشريفة ﷺ « أمتي » ولا أحسن من الانتساب إلى ذاته الشريفة.

ونجد في الحديث الاستباق الزمني الذي يؤطِّر هذه الصورة؛ لأنها لم تقم بعد، فيزيد هذا الاستباق في حَثِّ النفس على كثرة الصلاة والمواظبة عليها طمعًا في الثواب والنعيم العميم.

وقوله: « **غرًّا مُحَجَّلِين** » يجعلنا إزاء صورة لونية يتركز البصر فيها على الجزء الأبيض في الأيدي والأرجل، والعدد كبير جدًّا إذا تصوَّرناه يوم القيامة.

أما المقطع الثاني: « **فمن استطاع منكم..** » الذي يحتمل أنه من قول أبي هريرة، فقد تأثر بالبيان النبوي فجاء موجزًا يعتمد على الشرط، وهو يقين قابل للحدوث، أي ثمة دعوة مرغبة بتزايد البياض الذي هو رمز الخير.

وهذا المقطع يؤكد التباين اللوني بين الأبيض وغيره، ولكن الأبيض يمتد شيئًا فشيئًا في المشهد تبعًا لتنفيذ النصيحة النبوية.

جمال التصوير:

نَص هذا الحديث الشريف على وجازته يحفل بالمعاني الوفيرة والمساحات النفسية الواسعة، كما امتزج تصويره بالفكرة؛ لتغدو طاقة في حنايا الصَّدْرِ تغذيه بحب الوضوء والصلاة، وقد بيَّنا كيف أسبغت الحسيات المستفادة من الواقع المرئي على النص مشاعر تتدفق أكثر فأكثر، فكلما فهم المرء جزئية حسية أدرك أبعادها التصويرية وطاقتها الوجدانية.

وإن النص ليثير فينا حاسة اللمس في موقعين من النص: في أوله عندما نتصور كثرة المياه من تكرار الوضوء، كما تُثَارُ صورة استطالة أمكنة الوضوء في الأطراف، وهذا اللمس المريح يتزامن بشعور اللهفة نحو اللقاء مع اللَّه في الصلاة.

إرشادات الحديث:

١ - الحث على الوضوء وعلى الإسباغ فيه، والحد المقبول أن يسبغ إلى منتصف العضد وخلف الأذن وإلى الرقبة في الوجه وإلى نصف الساق في الرجلين، وقال أبو هريرة: « من استطاع منكم أن يطيل غرته فَلْيَفْعل » لم يذكر التحجيل فيه؛ لأنه لازم الغرة في الحديث، فاكتفى بالغرة عنه، أي: الغرة والتحجيل، كما في قوله تعالى: ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ [النحل: ٨١] أي: الحَرَّ والبردَ.

٢ - جاء في الحديث دلالة على فضل المحافظة على الوضوء وحضَّ عليها، وقد جاء في الأحاديث قوله ﷺ: « **الوضوء سلاح المؤمن، لا يحافظ عليه إلا مؤمن** »[1]. فقد جعل الوضوء سلاحًا؛ لأن المتوضئ يرتقي إلى قوة معنوية تعلو به وتسمو على الوساوس والأحابيل الشيطانية، فكان كالسلاح في الدفع عن صاحبه وحمايته.

* * *
* *
*

(١) رواه بنحوه أحمد في المسند: ٥/ ٢٧٦، وصححه ابن حبان، رقم ١٠٣٧، والحاكم: ١/ ٢٢٠، ووافقه الذهبي.

النَّهْرُ المَاحِي

٢٤ عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيءٌ؟ » قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيءٌ.

قال: « فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الخَطَايَا ».

[متفق عليه][1]

* * *

اللغة:

أرأيتم : المقصود به أخبروني، وأصل هذا التركيب استفهام عن الرؤية، ثم اسْتُعْمِلَتِ الرؤيةُ بمعنى الإخبار؛ لأنها سبب يؤدي إليه، واستعمل الاستفهام بمعنى الأمر، فصار المعنى أخبروني من باب المجاز المركب.

لَوْ أَنَّ نَهْرًا: لو من أدوات الشرط التي لا تجزم، فعلُها محذوف تقديره: ثَبَتَ. والجواب جملة « هل يبقى.. ». وإنما جاز وقوع الاستفهام جوابًا؛ لأن المقصود به الإخبار بالنفي، والمعنى لا يبقى.

دَرَنِه: وَسَخِهِ.

مَثَلُ: أي: صفة الصلوات الصفة العجيبة البالغة حدود الغرابة، حتى أصبحت مَضْرِبَ المَثَلِ.

المحتوى الفكري:

مقصد الحديث بيان فضل الصلوات الخمس، وأثرها في سلوك الإنسان، ومكانتها في صحيفة أعماله، بأنها تكفر الخطايا، وإذا كانت تكفر الخطايا فإنها تبعد النفس عن

---

(١) البخاري في كتاب المواقيت (الصلوات الخمس كفارة): ١/ ١٠٨، ومسلم في المساجد (المشي إلى الصلاة تُمحى به الخطايا): ٢/ ١٣١، ١٣٢، والترمذي في الأمثال (مَثل الصلوات الخمس): ٥/ ١٥١، والنسائي في الصلاة (فضل الصلوات الخمس): ١/ ٢٣٠، ٢٣١.

المآثم، ضرورة التنافي بين المحافظة على الصلاة وبين ارتكاب الآثام.

وقد عبَّر الحديث عن هذا المعنى في صورةٍ حسيةٍ عرضها على السامع، هي صورة الاغتسال خمس مرات كل يوم وأثره في النظافة من الوسخ.

يمهد الحديث لهذه الصورة الحسية بهذا الاستخبار « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا.. » فاختار هذا التركيب؛ ليُحْضِرَ الصورةَ أمام المخاطب يراها أمامه في خياله، وصاغ الإخبار بهذه الصيغة الاستفهامية؛ ليحرك فكر السامع ويستثير انتباهه، فإذا بالقضية قد فكر فيها وحققها فكان الجواب ما تضمنه الاستفهام نفسه، وهو الموافقة: « لا يَبْقَى مِن دَرَنِه شيء ». وهكذا أخرج النبي ﷺ هذه الصورة الحسية بأقوى أسلوب، وكأنه يقول: « الأمر واضح مرئي للعين فأخبروني عما سألتكم، وبذلك أثار الانتباه إثارة عظيمة، بهذا الأسلوب الذي لاءم ذلك القصد ملاءمة تامة، ثم ألقى إليهم المقصد الذي يُكِنُّهُ ويرمي إليه من ذلك التمهيد الأخَّاذ ».

وهذا أسلوب تربوي ناجح، عظيم الأثر في النفوس، والمُرَبِّي يجب أن ينوع طرقه في التعليم، ويلون أساليبه في الأداء، فيخبر أحيانًا، ويستفهم أخرى، ويستعمل الإنشاء ثالثة بمعناه الحقيقي والمجازي.

هذه المقدمة أعدت نفوسنا وأثارت الانتباه جدًّا، وإنها لتمهيدٌ إقناعي، هيَّأ النَّفْسَ لتقبل ذلك المعنى العقلي الصرف، وهو أيضًا في الوقت نفسه معنًى غيبيّ، لا يُعْلَمُ إلا بطريق الوحي من اللَّه تعالى.

ولعل الحديث الشريف لحظ ما قد يُحْدِثُهُ المعنى المجرَّد (تكفير الصلاة للخطايا) من استغرابٍ عند البعض الذين لم يعرفوا معنى إقامة الصلاة في حقيقة حضورها وخشوعها، وإن عرفوا أداء شكل الصلاة وفعل حركاتها فقط، لكن هؤلاء لم يفقهوا معنى الحديث ولا حقيقة الصلاة، إن الصلاة التي تمحو الخطايا هي التي نستطيع أن نقول لصاحبها: إنه أقامها فعلًا وحقًّا، بما يتضمنه هذا الإطلاق القرآني: « أقيموا الصلاة... » من معانٍ عالية في أدائها.

إذا اتَّسخ جسمك، ولم تنظفه فما تكون حالك؟

أَلَسْتَ تتضايق؟ ألست تجد من نتن الريح ما يجعلك تخشى مخالطة الناس؟ ثم أَلَسْتَ تخشى المرض والآفات...؟.

هذا أمرٌ يسيرٌ علاجه، كما أن علاجه مهم لك، مهم لنشاطك، مهم لمكانتك الاجتماعية، مهم لصحتك وعافيتك... لبقائك.

لكن ثمة أمر هو أهمُّ من هذا، أمر أعظم خطرًا، وأبعد أثرًا!! ذلك هو تطهير النفس مما يشوبها ويعكر صفاء إنسانيتها وطهرها، فما الذي يطهر النفس مما يشوبها ويعكر صفاء إنسانيتها؟ إنه شيء معلوم مفروض هو الصلوات الخمس يمحو اللَّه بهن خطايا المصلي الذي يحافظ عليهن.

جمال البناء:

يتبع البيان النبوي في هذا النص أسلوب المحاجة والحوار، ليقدم من خلال الأسباب النتائج الأكيدة، ويتألف من مقطعين:

المقطع الأول: وهو مقطع يتصاعد فيه التوتر النفسي لدى المتلقي، ويتكون من ثلاثة مفاصل:

« أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بباب أحدكم » و « يغتسل منه كل يومٍ خمسَ مرات » و « هل يبقى من دَرَنِهِ شيء ».

في المفصل الأول: الرؤية المطلوبة هي التيقن العقلي إلى جانب استحضار المشهد من الواقع المرئي، ويوصف النهر أنه « بباب أحدكم » والباء للإلصاق، مما يؤكد شدة تماسٍّ وترسيخٍ لأهمية الصلاة، وإن استخدام ضمائر الخطاب ليستجلب قلوب السامعين ويشركهم في الحوار: « **أرأيتم – أحدكم** ».

ويأتي المفصل الثاني « يغتسلُ منه كُلَّ يوم خمس مرات » ليبين الفاعلية أي: الأثر البليغ، بعد أن بيّن الماهية أي: الحقيقة، والصيغة « يغتسل » هنا تفيد التكرار، وهذا يوائم طبيعة الصلوات الخمس.

والمفصل الثالث « هل يبقى من درنه شيء » صيغة برهانية جاءت في شكل استفهام، خصوصًا باستخدام « هل » التي يكون جوابها الإيجاب أو النفي.

وتكرار الصيغة بتمامها من الصحابة زيادة في الإقرار الذي يعد برهانًا لهم ولنا، بالإضافة إلى النغمة الموسيقية في التكرار.

ثم يأتي: المقطع الثاني: موضحًا التصوير السابق بمفصلين: « فذلك مثل الصلوات الخمس » و « يمحو اللَّه بهن الخطايا ».

ويشكل تعبير « **الصلوات الخمس** » تلاقيًا ضمنيًا مع « خمس مرات » مما يدل على تعانق جزئيات النص وتماسكه.

أما المفصل الثاني « يمحو اللَّه بِهِنَّ... »: فيأتي على إيقاع فعلي تقترب مساحته من مساحة المفصل الأول الاسمي الذي يعبر عن الماهية، في حين يعبر الثاني عن الفاعلية ويتضمن الحركة.

وقد بدأ بلفظ يُسنِد المحو إلى الخالق ﷻ، ويختم بلفظة « **الخطايا** » إيغالًا في الترغيب، فهي على تعددها يمحوها اللَّه الغفور الرحيم بالمحافظة على الصلوات الخمس.

جمال التصوير:

إن التجلي البصري المجسم في الصورة واضح من بداية الحديث، الذي افتتح بلفظة « **أرأيتم** »، وفيه إثارة لتلقف التصوير الحسي وتفهم جوانب المعنى.

ونجد أن النهر هنا يختلف عن النهر المعهود؛ لأنه يمر بالباب « **بباب أحدكم** »، وهذا يزيد تنبه المتلقي للقضية.

ونجد أن البيان النبوي جعل الدرن عالقًا بالظاهر الجسدي فلا يصيب الباطن؛ لأنه على الجلد فقط، وذلك لأن النبي - عليه الصلاة والسلام - لم يرد أن ينسب لباطن المؤمن أي سوء لطفًا به وتبشيرًا بسعة الرحمة الربانية.

ثم فعل « **يغتسل** » يدل على إحاطة المغفرة، وهنا تبرز فاعلية المساحة الشفافة في إزالة درن لا بد من وجوده، وهو الذنب من ابن آدم، الذي يصنع عليه مساحة داكنة، كما لا بد من تدرن الجسد تبعًا للطبيعة الفيزيولوجية.

وحركة الاغتسال متكررة، كما أكد التعبير « **خمس مرات** » وشيئًا فشيئًا يتضاءل اللون الداكن وينحسر ليمتد في المشهد لون أبيض مُريح، وهذا ما توحي به أيضًا **الصورة الأخيرة من النص: « يمحو اللَّه بهن الخطايا »**، وجاء الفعل بصيغة المضارع؛ ليدل على الاستمرار والتكْرَار.

وهكذا يمكن أن نقول: إن النص اشتمل على صور لونية تَمَّ فيها التباين اللوني بين الأبيض والداكن المشيرين إلى ثنائية الخير والشر، وهي صورة غير ثابتة، بل هي متسمة بالحركة بامتداد اللون الأبيض وبفعل الاغتسال في النهر، كما اشتمل على صورة لمسية تثير الشعور بالماء البارد سواء في النهر أو في الوضوء المعهود، وعلى صورة حركية

« يمحو اللَّه بهن »، تأكدت في الخاتمة التي جاءت بصيغة التشبيه « مَثَلُ الصلوات »، وهي حركة لا ترى بالعين الباصرة، ولكنها تُحَلِّق بالخيال البشري سعيًا وراء تفهمها.

إرشادات الحديث:

١ - إن **الحياة غاصَّة بالمغريات** تستهوي هذا الإنسان، كما تستهوي النَّارُ الحارقة الفراش المسكين؛ وإن هذا الإنسان ليضعف أحيانًا أمام إغراء المال، ويضعف أحيانًا أمام إغراء الجاه والمنصب، وقد يضعف أحيانًا أمام إغراءات أُخَر... فما الذي يُقَوِّي هذه النفس، وما **الذي يطهِّرُها** من دَرَن لحظات الضعف هذه، ما الذي يعلو بالنفس إلى سماء إنسانيتها ويحميها أن تهبط بثقل الأحمال من الأوزار؟ إنها الصلوات الخمس، **الصلوات الخمس** بما فيها من مواظبة على الإنابة بالرجوع إلى اللَّه، والتوبة والاستغفار.. والتضرع والدعاء.

فمن كان حريصًا على نفسه أن يكون إنسانًا، ومن كان يحذر على كرامة آدميته أن تهان فليعتصم بعروة الصلاة، إن قول الإنسان في الصلاة وهو حاضرُ القلب والعقل: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] وسائر ما اشتملت عليه الصلاة من تسبيح ودعاء، يحقق كمال إنسانية الإنسان، بكل ما تشتمل عليه من حرية، ومن عزة؛ لأنها تقرر الحرية الشخصية وتقرر التحرر من كل سلطة إلا سلطة واحدة هي سلطان اللَّه وحده.

٢ - **ما هي الذنوب التي تمحوها الصلاة..؟؟**

كثيرٌ من الشُّرَّاح قالوا المقصود بالخطايا ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١] أي: الصغائر. أما الكبائر فلا تُمحى إلا بالتوبة، لكن الصغائر تمحى بالصلاة، وقد وقع الإشكال بين المفسرين في هذا الأمر؛ لأن ترك الذنوب الكبائر إذا كان يطهر الذنوب الصغائر كما دلت عليه الآية فماذا بقي للصلاة؟ الحقيقة أن الموضوع حسبما يظهر أن المحافظة على الصلوات الخمس تمحى بها الذنوب الصغائر والكبائر بشرط أدائها حقًّا؛ لأن المحافظة على الصلاة لا تتفق مطلقًا مع الإصرار على الكبائر؛ لأنه يتناقض مع الحالة النفسية التي توجدها الصلاة، فالمحافظة على الصلوات الخمس لا بد إذًا أَنْ يُوَفِّق صاحبها إلى ترك الكبائر والذنوب والتعديات على الخلق، فالحقيقة هي أن المحافظة على الصلوات الخمس مطهِّر كما ذكرنا للخطايا، ويقول علماء الأصول في أبحاثهم اللغوية « إن الجمع المعرف بأل يشمل كل الأفراد الذين يدل

عليهم اللفظ »، فلا منافاة إذًا بين الحديث والآية، وهذا شيء ملموس، وهو أن المحافظة على الصلاة لا تتفق مع الفحشاء والمنكر.

٣ - ضرب المَثَل بتشبيه الأمر المعقول بالأمر المحسوس؛ لعظمة فائدته بزيادة الإيضاح وقوة التأثير؛ لذلك كثر هذا الفن في القرآن والحديث.

* * *
* *
*

اليقظة للفُرَص

٢٥ عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال: « **إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِيْ فِيْ امْرَأَتِكَ** ».

[متفق عليه][1]

* * *

المحتوى الفكري:

هذا الحديث يصحح مفاهيم الناس ويوضح معنى الصدقة في الشريعة. وقد أخبر النبي ﷺ أن الصدقة مفهومها الإسلامي واسع جدًّا، حتى إنها لتشمل أمورًا لا يلتفت إليها أكثر الناس الآن، ويحتاج المسلم إلى هذا الحديث كثيرًا؛ لأنه يدله على أبواب من الخير لا تكلفه إلا تقويم النية، وصحة الاتجاه فيما يأتي ويذر من أعماله اليومية، ففي كل يوم ينفق الإنسان على نفسه وعلى عائلته، وقد جعلت العادة هذا الأمر كأنه عمل روتيني، ولكن القرآن الكريم أتى بالدين القويم ليقول للمسلم: لا تجعل أعمالك روتينية، افعل ما تفعل لا على أساس تلقائي؛ لأن الأعمال التلقائية من شأن الحيوانات التي تسير في تصرفاتها بشكل غريزي دون أن تفقه ما تفعل، بل يجب عليك أن تكون مسيطرًا على مشاعرك، وَلْتَكُنْ مشاعرك هذه متيقظة متنبهة، لا أن تسيطر الأهواء الخارجية عليك، وهذا يثبت أن الإنسان حُرٌّ لا يسيطر عليه شيء إلا اللّه. وقد قال العلماء: النيات يُصَيِّرْنَ العادات عبادات.

هذه الناحية التي ألمح إليها الحديث الصحيح هي في الواقع قمة التهذيب الروحي، والكمال النفسي، فديننا الحنيف يريد من كل فرد أن يتصرف بإرادة كاملة يوجهها عن وعي مستيقظ، ولقد عُنِيَ علماء النفس والتربية بهذه الناحية ووجدتُ أحدَهم (وهو دكتور)

---

(١) البخاري في أواخر كتاب الإيمان: ١/ ١٦، مقتصرًا على هذه الجملة ومطولًا في ضمن حديث أوائل الوصايا: ٤/ ٣، وأوائل: ٧/ ٦٢، كذا مسلم في أوائل الوصية: ٧/ ٧١، وأبو داود أول الوصايا: ٣/ ١١٢، ووقع عندهم في هذه المواضع « حتى اللقمة ترفعها إلى في... » وأخرج أصل الحديث بقصة سعد بن أبي وقاص لما مرض في مكة الترمذيُّ في الجنائز رقم ٩٧٥، والنسائي: ٦/ ٢٤١ - ٢٤٣، وابن ماجه: ٢/ ٩٠٣، ٩٠٤، ليس عندهم النص المطلوب، وانظر الروايات للفظة « في في امرأتك » في فتح الباري: ١/ ١٠٢، و « في » الثانية الفم.

في علم النفس، يلفت النظر إلى أمور لا يلقي لها الإنسان المقصّر بالًا، بينما تجد الشريعة تُرَتِّبُ عليها نتائج، وتجعل لها أحكامًا خاصَّة، فحكُّ الشَّعر مثلًا وسقوط شيء منه أمرٌ اعتيادي لا يؤبه له، لكنه في الإحرام بالحج أمر ذو بال وأهمية، إذ يَلزَمُ الحاج بإسقاط الشعر فديةٌ للفقراء، فيجب أن يكون في غاية التيقظ، ومثل ذلك يمكن أن نلمسه في أحكام الصلاة والوضوء، فالإسلام إذًا هدف إلى الإعداد النفسي بفضل التوجيهات والفرائض والتشريعات التي جعل منها أمورًا تعبدية محضة، وهذا أصل لا يمكن تجاهله أبدًا، ولكن الحكمة الإلهية جعلت في هذه العبادات تربية لهذه النفوس؛ لتكون أكمل نفوس إنسانية.

ملامح فنية:

يتضح من حجم الحديث اتصافه بالتكثيف، **وهو يتكون من مقطعين:**

المقطع الأول: « **إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وجهَ اللَّهِ إلا أُجِرْتَ عَلَيها** »:

بدأ المقطع بتأكيد النفي المرتبط بأداة الحصر ليدل على التوكيد، وهذا يُكَوِّنُ فِكْرَةً دائرية؛ لتُغْلِقَ على ذاتها، فكما أن النقاط الواقعة على محيط الدائرة متساوية البعد عن مركز الدائرة، فكذلك لا عمل إلا بأجر.

واستخدم الحديث الاستباق الزمني بـ « لن » حيث تنفي المستقبل من غير حدود، وفي هذا غاية التأكيد وتوسيع كبير لدائرة الخيال في تعداد النفقات وتوالي الأيام وتراكم الثواب.

ويأتي تكرار الأصوات لترسيخ الأمر، حيث التوافق بين « **تُنْفِقُ، نفقَةً** » « **نفقةً، أُجِرْتَ** » وكلاهما من حقل معنويٍّ واحد.

أما المقطع الثاني: « **حتى ما تجعل فِيْ فِيْ امرأتك** » فهو يحتوي على صورةٍ كنائيّة، إذ كَنى عن الطعام بهذا التعبير.

والصورة تدفع المرء إلى ذكريات طيبة واستحثاث نحو الحب الزوجي؛ حيث المداعبات والملاطفات بأجر قائم عند اللَّه، مع ما نراه من تَوازٍ موسيقي في التكرار « فِي فِي امرأتك »، ومع ما نراه من إبراز ضمير المخاطب « تجعل »، « امرأتك »؛ لتحريك مشاعره نحو الخالق من خلال مشاعره نحو زوجته.

ويشتبك المقطعان بوساطة « حتى » التي تنقلنا من الأمثلة الكبيرة إلى المُثُل الصغيرة والجزئية الضئيلة، وفي هذا الانتقال تصعيد من أعلى إلى أدنى، يؤكد وحدة النص من

الناحية الفنية، ومن الوجهة المعنوية، يتصاعد الثواب ما دام المرء يثاب على هذه العادة البسيطة التي لا يؤبه لها عند الكثير.

وبعد، فقد جاءت الألفاظ مأنوسة محتوية الفكرة المبتغاة في تصوير يثير الفكر والعاطفة ليحرص المتلقي على اغتنام فرص الخير، وما أكثرها، إنها محيطة بك في تقلب حياتك اليومية، وسبيلك إليها سهل جدًّا. إنه تصحيح النية.

إرشادات الحديث:

١ - يجب أن يكون شعور المسلم وإرادته رائدًا لأعماله دائمًا، لا أن تسير أعماله استجابات آلية للمحيط الذي يعيش فيه، أو ردَّ فعلٍ لمؤثرات عرضت عليه دون تأمل وتدبير، بل يجب أن يوجه أعماله في نيته إلى الهدف الذي آمن به، فالأثمان التي تدفعها ثمنًا للكتب، والطعام الذي تأكله والجهد الذي تبذله... كل ذلك يجب أن نُوجهه لغرضنا هذا، فنحن نأكل لنعيش، ونعيش لنعمل للَّه رب العالمين، فصار طعامنا عبادة، وصار سعينا لكسب الرزق عبادة، وهذا المعنى قد قرب العبادة منا، وفتح أبوابها سهلة ميسرة، وكذلك قَرَّبَ منا رِضَا اللَّه تعالى.

٢ - **إن فرص الخير كثيرةٌ جدًّا ومواتيةٌ** لمن أراد السعي الحميد، حتى لَنَعْجِز عن حصرها، مما يذكرنا بقصة لطيفة، إذ حُكِي أنّ شابًّا نائمًا مرّ عليه رجل ثري وامرأته، وتفرسا في وجهه فقالا: لو أنا جعلناه وريثًا لنا، ثم أعجلتهما القافلة فرجعا قبل أن ينتهيا من تأملاتهما، وقبل أن يستيقظ وينال تلك الفرصة الذهبية، فهذا النوم هو نوم القلب الذي يغفل عن الخير العظيم يناله بتيقظه نحو أهدافه ومراميه.

٣ - **إن الثواب في الإنفاق** يحصل بقصد طلب الثواب من اللَّه تعالى أو نية صالحة يقترن بها إنفاقُ المال، ولو **كان إنفاقه واجبًا**، مثل النفقة على الزوجة، أو الولد القاصر، أو غير ذلك فكيف إذا لم يكن واجبًا.

٤ - في قوله: « **حَتَّى ما تجعل فِيْ فِيْ امرأتك** » **درس بليغ في سعة - رحمة اللَّه -،** وكثرة فرص الثواب والتقرُّب إليه، فإن وضع اللقمة في فمِهَا يقع غالبًا حال المداعبة والمباسطة، ولشهوة النفس في ذلك قسطٌ وافر، ومع ذلك يحصل به الثواب إذا قصد ما فيه رضا اللَّه، قال الإمام النووي: « وإذا كان هذا بهذا المحل مع **ما فيه من حظ النفس،** فما الظن بغيره مما لا حظ للنفس فيه.. » فما أوسع رحمة اللَّه بخلقه!!

قيـد البخــل

٢٦ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: « مَثَلُ البَخِيْلِ وَالمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيْهِمَا، فَأَمَّا المُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ - أَوْ وَفَرَتْ - عَلَى جِلْدِهِ، حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَأَمَّا البَخِيْلُ فَلَا يُرِيْدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلَا تَتَّسِع ».

[متفق عليه][1]

* * *

اللغة:

الجُبَّــة: الثوب الطويل. وفي رواية « جُنَّتَان » من الجُنَّة وهي الحِصن وأطلقت الجُبَّة على الدرع السابغ لكل الجسم لوجود القرينة، وهي « من حديد ».

ثُــــدِيّ: جمع ثَدْي.

تَرَاقيهــا: جمع ترقوة، وهو العظم الناتئ في آخر العُنق.

سبغــت: غَطَّتْ.

أو وفَرَت: هذا شك من الراوي - أي: الكلمتين قالها الرسول ﷺ - ووفرت بمعنى سبغت.

وتَعفو: تغطي أثره. ومنه عفت الديار، إذا غطتها الرمال.

والمعنى ظاهر، وهو أن الدرع في جسم البخيل يظل ثابتًا عند ترقوته، فيصير قيدًا يربط يديه إلى عنقه.

المحتوى الفكري:

الصدقة تُظِلّ صاحبها يوم القيامة. وتقي صاحبها من عذاب اللّه ومن نار جهنم. وثمة جانب آخر مقابل للصدقة هي النفس الحريصة على المال وجمعِه. فهذا دافع نفسي يقـاوم الدوافع التي تَحُضُّ على دفع الصدقـة، فهذا الوضع كائن بين إنسـان

---

(١) البخاري بلفظه في الزكاة (مَثَل المتصدق والبخيل): ٢/ ١١٥، ومسلم: ٣/ ٨٨، ٨٩.

يعطي، وإنسان أَلِفَ البخل، حتى إذا ما أراد أن يمد يده بالبذل حجزها البخل بقيوده، فلا يعطي شيئًا.

هاتان الخصلتان خصلة الكرم، وخصلة البخل ثم ما تتنازعه النفس من إعطاء ومنع هذه الأمور المعنوية يصوِّرها النبي ﷺ في صورة حسية، هي صورة إنسانين قد استعدا للقتال، وكل منهما يريد أن يَقِيَ نفسه بدرع يلبسه، فأما الأول فقد اتسعت الدرع وغطت أنامله وسبغت حتى عفت - أي: محت - آثاره. وأما البخيل فقد وقفت في مكانها، فبدلًا من أن تحميه أصبحت عائقًا له، فلا يستطيع أن يتحرك فيها، فلو لم يلبسها لكان خيرًا له.

ذانك هما شأنا البخيل والكريم، يبرز كل منهما في صورة حسية بليغة الأثر في هذا التشبيه التمثيلي. فهناك أولًا الكريم الذي أَلِفَ السَّخاء والبذل وامتداد اليد بالإعطاء، ويقابله البخيل الذي لا يستطيع الحركة، وكذلك الكريم قد تحققت له الوقاية بسخائه، وفي نفس الوقت البخيل عندما تنازعه نفسه وتدفعه للعطاء يمد يده فلا تتسع الدرع أي: إن البخل والشح قيَّداه، حتى أصبح حبيس شحه وبخله، فقد ظلت الدرع في مكانها ولم تتسع على جسده.

فهذا الحديث أعطانا نوعًا بديعًا من التشبيه التصويري يبين غريزة الإنسان لحب المال، فاختار صورة الجبة بأنها درع من الحديد: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨].

وعبر بجبة الحديد عن المال؛ لأن الإنسان يُعِدُّه ليتقي ما ينزل به من الحاجات. والكريم استطاع أن يدفع عن نفسه النار، كما قال - عليه الصلاة والسلام -: « **اتقوا النار ولو بشق تمرة** »(١).

وقد وفَّى الحديث معنى السَّبغ والستر والوقاية، توفيةً كاملة؛ إذ جعل الدرع تغطي أنامله وتعفو أثره، ثم في هذا إشارة إلى محو الصدقة للخطايا؛ لأنها بذلك تقطع على العدو الطريق فلا يدركه، كذلك الصدقة تمنع العذاب فلا يدرك المتصدق، وكما قال - عليه الصلاة والسلام -: « **الصدقة تطفئ غضب الرب** »(٢).

---

(١) رواه البخاري، رقم ١٤١٧، في الزكاة (اتقوا النار ولو بشق تمرة)، ومسلم، رقم ١٠١٦، في الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة..

(٢) رواه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة، رقم ١٨٤٨، وصححه ابن حبان، رقم ٣٣٠٩، ورواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم ٣٣٥١.

أما البخيل فقد لبس الدرع ومنع الخير مما جعله مُقَيَّدًا لا ينجو من عذاب يوم القيامة، بل بالعكس فقد أصبحت عائقًا له.

وقد أراد البخيل أن يوسعها فلا تتسع وصور الناحية النفسية تصويرًا قويًّا، فالدرع لم تنفعه، بل بقيت مكانها، كذلك بخله يجعله لا ينفق. وبذلك أصبحت الدرع عائقًا له، فلا يستطيع أن يدافع عن نفسه أيضًا.

وهكذا انتهت بنا الصورة البيانية في الحديث إلى قطعة فنية من التشبيه والبيان، وصور النتائج المادية من عذاب في يوم القيامة، أو سلامة منه، ثم أكد هذه المعاني بهذه الطريقة، حتى استقرت في النفس عوامل الإيمان، بحيث يتصور المسلم أن الزكاة والصدقة منجًى له من عذاب يوم القيامة، فحبُّ العيش غريزة موجودة في الإنسان. وضرورة المحافظة على النفس أمر مستقرٌّ في نفس الإنسان، ولكن تحقيق ذلك بالبذل في وجوه الخير، وعدم الإقتار والإمساك، بعكس حب المال الذي يتوهم بعض الناس أنه سرٌّ في سعادة الإنسان، فإن الضنَّ بالمال يؤدِّي إلى عكس المقصود، يؤدي إلى الهلاك بسبب هذا المال نفسه. وهكذا أوصلنا الحديث إلى المطلوب عن طريق التسامي بميل الإنسان الطبيعي إلى الحرص؛ ليتحول إلى ميل للبذل والإحسان.

جمال البناء:

يعتمد بناء هذا الحديث على التكثيف ثم التفصيل، وتتشابك مقاطعه بوساطة التشويق، حيث ينتظر المتلقي تفصيلات حول المقطع المكثف.

المقطع الأول: « مَثَلُ البَخِيلِ والمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيهِمَا جُبَّتان من حديد... »:

يمثل هذا المقطع التكثيف، ويتكون من ثلاثة مفاصل، يبدأ الأول وينتهي بالاسمية « **مَثَل البَخيلِ والمُنفِقِ** » وقدم البخل فيه على الإنفاق لشدة خطورته على المجتمع الإسلامي، وليشوق المنفق. وأبرز التعارض بين نقيضين « البخيل والمنفق »، لا سيما باختياره لفظة « المنفق » التي تمثل فاعلية الكرم.

المفصل الثاني: « **كَمَثَلِ رَجُلَين..** » يشتبك بالأول بكاف التشبيه، ويتناسق معه بتكرار « مثل » ليركز الفكرة في الأذهان، وتظهر للمتلقي معالم التثنية لموافقة ثنائية البخيل والمنفق، ويتمثل المال في ذكر الجبتين ثم الوصف الجزئي لوقاية المال، فتوصف الجبتان من حيث امتدادهما في المساحة « **مِن ثُدِيِّهما إلى تَراقِيهِما** »؛ لنتلمس تحصينهما للرجلين.

المقطع الثاني: « فأما المنفق فلا ينفق إلا... ».

هذا المقطع مخصص للمنفق، وتمتزج فيه الفعلية والاسمية. ونجد فيه: قلبًا للترتيب؛ لأنه عاد فبدأ بالمنفق بعد أن كان قد بدأ بالبخيل. وتأتي « أما » للإشارة إلى حالة تفصيلية، ثم يأتي المعنى داخل دائرة مغلقة إيغالًا في التوكيد بوساطة الحصر « **فلا يُنْفِقُ إلا سَبَغَتْ** » فالمضارع يفيد الاستمرار في الحدث؛ مما يشجع المتلقي على تكرار فعل فضيلة الصدقة، أما الماضي في « سبغت » فيؤكد تمام الحدث، ومضيُّ فعله يعني تأكيد تحققه.

وتأتي « حتى » للإطار الزمني والمكاني الذي يصوّر حركة الإسباغ، ويتبعها مفصلان « تخفي بنانه وتعفو أثره » وهما متوازيان في المبنى حيث الإيقاع الفعلي.

المقطع الثالث: « وأما البخيل.. »:

يشكل هذا المقطع في مضمونه تعارضًا تامًّا مع المقطع الثاني « فأما المنفق »، ولكن يتوازى معه في التوكيد؛ ليؤكد شدة التعارض، ويعطي نغمًا موسيقيًّا يساعد في فهم النص وحفظه، هذا التضاد يزيد المتلقي شوقًا واستيضاحًا للفكرة، ويأتي المفصل التالي يحمل معنًى داخلَ دائرةٍ مغلقةٍ للتوكيد « فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت »، واختيار فعل الإرادة يصور خطورًا في قصد الإنفاق في النفس، لكن المانع وهو البخل عطَّله، ويعارض فعل « لزقت » مع « سبغت » ويوازيه في التركيب.

وينتهي النص بمفصل اسمي « فهو يوسعها ولا تتسع » ويحمل الترجيح بين الثبوت والنفي حيث التوازي الصوتي والتعارض بالنفي؛ ليصور الحركة النفسية اليائسة للبخيل.

وهكذا بدأ الحديث بالتكثيف المُشَوِّق إلى التفصيلات الواردة في شكلٍ قصصيٍّ، يتتابع بوساطة التوالد إلى أن يختم بمصيرين متناقضين تبعًا للخير والشر. وكل هذا من الفنون والتعابير الثَّرَّة التي يحملها البيان النبوي في أحاديثه؛ ليؤكد تماسك نصوصها ووضوحها وفاعليتها في العقل والوجدان.

جمال التصوير:

يشتمل هذا الحديث على لوحة فنية ذات مشهدين: مشهد المنفق، ومشهد البخيل. وهذا مستفاد من صيغة « مَثَل - كمَثَل »، التي تطالعنا في بدايات الأحاديث النبوية مشيرةً إلى مجيء تشبيه متعدد.

ويأتي استخدام « **جُبّتان من حديد** »؛ ليدل على الوقاية من الخطر، لكن هذه الجبة

تتسع دلالتها؛ لتدل على أن التصَدُّق حجاب يصون الجسد من نيران جهنم.

ويستحضر النص الرجلين بجبتين مما يشير إلى الحرب الضارية على النفس لمقاومة شرورها.

وفي المشهد الأول نلحظ امتداد الحديد شيئًا فشيئًا مع تكرار الصدقات، في حين نلحظ في المشهد الثاني ثبوتًا وتقلُّصًا يشعران بتكبيل البخيل عن وقايته لنفسه.

وثمة حركة سريعة قوية متكررة تتجلى في عبارة « **لا يريد** » « **إلا لزقت** »، لكنها حركة محدودة مقطوعة: « **فهو يُوسِّعُها ولا تَتَّسِع** »، تتقلص الجبة ولا تتسع، فنحس بهذا الرجل يختنق لضيق هذه الجبة التي انتقلت من كونها وسيلة دفاع إلى عبء ثقيل وخطر وبيل.

إن هذين المشهدين يمتعان البصر إلى جانب القيمة النفسية لدى إظهار مشاعر البخيل المنقبضة ومشاعر المنفق المنبسطة، فالأول يوحي بالحسرة، والآخر يشعر بالبهجة، ويكون حافزًا للمتلقي على فعل الخير.

وقد اعتمد الحديث في تصويره على جمالية التجسيم، واستحضر مستلزماته من الواقع الحسي المعهود؛ ليكون المعنى راسخًا في الأذهان، ولتكون الطبيعة الحسية عامل تأثير في نفوس المتلقين يؤكِّد المقصد الديني ويحثُّ عليه.

إرشادات الحديث:

١ - **نَفعُ الصَّدقةِ صاحبَها بتخليصه من الأخطار**، فهي بمنزلة جُبَّة من حديد أي: درع يغطي جميع البدن حتى يخفي أصابعه بل رؤوس أصابعه فهي وقاية كاملة من الأخطار في الآخرة، وسبب لطف الله بصاحبها في الدنيا؛ كما ورد في الحديث « **الصَّدَقةُ تُطْفِئُ غضبَ الرَّبِ** »[(١)].

٢ - **خطورة البخل، ومنع الزكاة**؛ لأنه يعني انتشار الفقر، والفقر داعية المهالك في الدين والدنيا، « **كاد الفقر أن يكون كفرًا** »[(٢)]، كما يؤدي إلى تخلف الأمة، وزيادة خطر الأزمات الاقتصادية. فصار المال سبب تلف صاحبه البخيل المانع لحقه، عوضًا عن أن يكون سبب سعادته، كما يصور له الوسواس الخناس.

٣ - إن عمل الخير يعود على صاحبه بالخير، وعمل الشر يعود على صاحبه بالشر.

---

(١) سبق تخريجه ص١٦٤.

(٢) سبق تخريجه ص٤٠.

واحدٌ أكثر من مائة ألف!!

٢٧ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « سَبَقَ دِرْهَمٌ مائَةَ أَلْفِ دِرْهَم!! » قِيل: وَكَيْفَ يَا رسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمَانِ، تَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا، وانْطَلَقَ رَجُلٌ إلى عُرْضِ مَالِهِ فَأَخَذَ منهُ مائةَ أَلفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا ».

[أخرجه النسائي][1]

* * *

المحتوى الفكري:

هذا الحديث يريد أن يُعمِّمَ الحَضَّ على الصدقة لكل الناس، ويريد أيضًا أن لا يفخر من هم أكثر مالًا على مَن هم أقل مالًا.

والحديث يسبق النظرية النسبية، فيقرر أنَّ من تصدق بِلِيرَة وهي نصف ماله أعظم بكثير من الغني الذي تصدَّق بمائة ألف هي جزء من ماله. فالحديث يطلب عدم الاغترار بكثرة النفقة، بل على الغني أن ينافس هذا الفقير الذي تصدَّق بنصف ماله ويسابقه. وقد أدَّى هذا الحديث بهذه الصورة هذه الإيحاءات التي يطلبها الإسلام من المؤمن، وسلك في أدائها طريقة طريفة بليغة، إذ مهَّد لها بهذه الجملة المدهشة: « **سبق درهمٌ مائة ألفِ درهم!!** »، مما يبعث على التساؤل والاستغراب، كما يبعث على الحرص الشديد، كي يستطيع الإنسان أن يفوزَ بدرهمٍ واحد يسبق به مائة ألف درهم، فتشوقت النفوس بهذا الاستهلال البارع، واستعدت بغاية الشوقِ لتَلَقِّي الموضوع، فكان إلقاء الكلام بعد ذلك موافقًا للمقصد، ناجحًا في تحقيق المراد.

ملامح فنية:

اعتمد هذا الحديث في بدايته على التشويق بإطلاقه عبارة تثير العجب بحالة غريبة، وهي سبق الدرهم الواحد لمائة ألف درهم، أي: تغلُّبُ الضئيل على الكبير. وسرعان ما يثور السؤال الذي يحمل التعجب: « **وكيف يا رسولَ اللَّهِ؟!** »، وفيه الواو؛ لتدل على أنهم صدّقوا ولكن يطلبون الكيفية، فيأتي المقطع الثاني جوابًا لهذا التساؤل.

---

(١) في الزكاة: (جهد المُقِلّ): ٥/ ٤٤.

وهذا أسلوب جيد في التعليم، إذ يأتي التفسير بعد الإجمال والتشويق، ويكون هذا التفسير قصة بصيغة السرد، بطلا القصة فقير وغني، نشهد في الأول إيمانًا عميقًا يقدم شخصية مثالية، شخصية رجل يقدم نصف ماله الذي لا يتجاوز درهمين، أما الغني فهو ينهل من ماله الوفير مائة ألف درهم هي جزء يسير من المال مما يدل على سبق الأول لهذا الأخير.

إن الخيرية تشمل الطرفين، ولكن العلو هنا في جانب الفقير.

هذه القصة الوجيزة هي تجسيم لأهمية الصدقة وتفسير لقوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ [آل عمران: ٩٢]. وقد كان هذا الفقير متجاوزًا ذاته تجاوزًا كبيرًا عندما تصدق بنصف ما يملك.

ويلحظ في الحدث الأول الصيغة الاسمية التي توحي بالهدوء، أما الفعل فقد تصدَّر مجرد الإخبار « تصدق بأحدهما »، وهذا يدل على أن التصدق عند الفقير أمر اعتيادي، وسهل على النفس، يفعله بطيب خاطر بدون نَوازعَ تمنعه أو تَرُدُّه.

أما الحدث الثاني فقد تجلت فيه الحركة باستخدام الفعلية « وانطلق رجل... فأخذ »، وتعبير « عُرض ماله » ثم الفاء « فأخذ » الدالة على الحركة السريعة. وختم الحديث بجملة فعلية: « فتصدق بها » ليُؤكِّد همة المتصدق واعتقاده بأنه يتكلَّف المشقة ويصنع الكثير.

إرشادات الحديث:

أفادنا الحديث **قاعدتين مهمتين:**

الأولى: الثواب على قدر الجهد. فمن كان عنده ليرتان تصدق بإحداهما وترك الأخرى ثوابه أكبر ممن تصدق بمائة ألف ليرة وعنده مال كثير، فالأول تصدق بنصف ماله، بينما تصدق الثاني بجزء منه.

الثانية: أن على الغني ألا يغتر بإنفاقه الكثير، فيختال على الذين لا يتصدقون بمثل ما يتصدق به من المال الكثير؛ لأنهم قليلو المال.

* * *
* *
*

أيُّ الصدقة أفضل؟

٢٨ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رجل: **يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أفضل؟**. قال: « **أَنْ تَصَدَّقَ وَأنتَ صَحِيحٌ حَرِيصٌ، تَأْمُلُ الغِنَى وتَخْشَى الفَقْرَ، ولا تُمْهِلْ، حتى إذا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذا، ولِفُلَانٍ كذا. وقَدْ كانَ لِفُلان** ».

[متفق عليه][(١)]

* * *

المحتوى الفكري:

يبين هذا الحديث فضل الصدقة عند اللَّه تعالى وأي الصدقات أفضل، ويأتي هنا البيان تجاوبًا مع حرص الصحابة على أفضل الصدقة، لغاية تقواهم وفضلهم - رضي اللَّه عنهم -، فلما سُئل ﷺ « **أيُّ الصدقة أفضل؟** » قال: « **أن تَصَدَّقَ وأنت صحيح حريصٌ** ». وكلمة حريص تعبر أكثر من كلمة شحيح، وكلمة شحيح نقل بالمعنى لا باللفظ. وطبيعة الإنسان التسويف، ولكن القضية قضية التنفيذ، فالإنسان صاحب المال يريد إدخار المال لأمر مفاجئ، ويُمَنِّي نفسه أنه في المستقبل سيتصدق، مما يجعله شحيحًا بخيلًا، حتى إذا حضر أجله تراه أعظم سخاء من حاتم الطائي، يتصدَّق بأمواله ويقول: أعطوا فلانًا، وأعطوا فلانًا، كذا وكذا من الصدقات، لكن « وقد كان لفلان ».

قال بعض الشراح: « وقد كان لفلان »: معناه أن يقر بالديون، لكن سياق الحديث بمعزل عن ذلك، وإنما ورد بخصوص الصدقة. « فكان » هنا تعني أنّ المال أصبح لفلان، أي: للوارث، فكلمة « فلان » هي الوارث؛ لأن المريض مرض الموت لا يستطيع أن يتصدق إلا بثلث ماله، فعلى الإنسان أن يتصرف ويتصدق بأمواله أثناء صحته الكاملة؛ لأنه لا يستطيع أن يتصرف إلا بثلث تركته، ولا شك أن هذا يحتاج إلى مجاهدة للنفس، يقاوم فيها حب المال والخوف من الفقر، **وهذه الحالة النفسية عالجها الحديث بأمرين:**

---

(١) البخاري في الزكاة « أي الصدقة أفضل »: ٢/ ١١٠، والوصايا بلفظه (الصدقة عند الموت): ٤/ ٤، ومسلم: ٣/ ٩٣، والنسائي: ٥/ ٥١.

الأول: أن حرّض على الصدقة حال صحة الإنسان، وخوفه من الفقر، فهذه أفضل الصدقة؛ لأنها تكون عن إيمان ومجاهدة للنفس.

الثاني: نهاه عن الضد: « **ولا تُمْهِلْ** »، إن كنت تريد التصدق، فالإمهال هو التأخير، والإهمال التقصير. « **حتى إذا بلغت الحلقوم** » عبر عن بلوغ الإنسان الموت واقترابه منه بإيجاز الحذف، وهذا تصوير لألم الإنسان إذا بلغت الروح الحلقوم في أثناء الموت، الأمر الذي يبعثه على التوبة والصدقة، ولكن بعد فوات الأوان.

« **وقد كان لفلان** »: هذه العبارة وقعت في النفس موقعًا قويًّا، إذ صورت انعكاس قصد المنفق المتمهل؛ فقد أخرَّ التصدُّق ليتصدق أكثر بزعمه، لكنه حُرِم من الصدقة؛ لأن المال خرج عن إرادته، و « قد كان لفلان » أي: أصبح لوارثه. فجاءت هذه الجملة **تدخُّلًا في السرد**، يزيد دفع المتلقي إلى الصدقة قبل فوات الأوان.

ملامح فنية:

يبدأ الحديث بجملتين طلبيتين تُوَجَّهان من رجل من الصحابة إلى النبي ﷺ: « **يَا رسُولَ اللَّهِ** »، « **أيُّ الصدقة أفضل** » والثانية استفهامية، تحمل الاختصار والوجازة، وتدل على العموم. **ثم تأتي الإجابة في مقاطع**:

المقطع الأول: « **أن تَصَدَّقَ وأنتَ صَحِيحٌ حَرِيص** »: في هذا المقطع تركيبان اسميان يفيدان ثبات الأمر، والتركيب الثاني جملة حالية مستمرة في فاعليتها مع دفع الصدقة. وتتضح الخطابية الحوارية في ضمائر هذا الإيقاع: « **تصدق – أنت** »، ويُختم بتوازنٍ بين « **صحيح** » و « **حريص** » فالكلمة الأخيرة امتداد للسابقة؛ لأن الحرص حركة، والصحة حالة ثابتة.

المقطع الثاني: « **تَأْمُلُ الغِنَى وتَخْشَى الفقر** »: يتسم بالتعارض والتوازي، فالفعلان « تأمل » و « تخشى » على وزن واحد، ولكنهما متعارضان في المضمون، وهذا التضاد يوضح الفكرة، كما أن الفقر والغنى متعارضان مما يؤكد التضاد ويزيد الفاعلية.

المقطع الثالث: « **ولا تُمهِلْ حتى إذا بَلَغتِ الحُلْقُومَ قلت: لفلان كذا...** » مقطع طويل يشتمل على الخطاب: « ولا تُمْهِل »، ويبدأ بالنهي المقرون بزمن ممتد « حتى إذا بلغت »، وينتهي بالخطاب على لسان المخاطب: « قلتَ: لفلان كذا... ». وتعبير « إذا بلغت الحلقوم » يفيد طول الزمان ويقين الحصول، وفي هذا برهان جَلِيٌّ، يشتبك مع

المفصل التالي بأنه جواب شرط، ويستحضر صورة شدة الموت.

وبعد، فالحديث على وجازته يقدم لنا الخيرية الفاعلة التي يتصف بها المتصدق المنجزُ أيام صحته وحرصه، ويُحَذِّرنا من المماطلة التي تُفَوِّت فرصتنا، وقد تعانقت التراكيب والجمل في سبيل تحقيق وحدة النص الفنية، التي جاءت موائمةً للقِيَمِ الفكرية التي حَضَّ عليها نص هذا الحديث.

إرشادات الحديث:

١ - **فضل الإنفاق في وجوه الخير حال الصحة**، أي ولو في مرض غير مخوف، وذلك لأن مجاهدة النفس مع قيام الشح المانع من التصرف بالمال دليل على تمكن الرغبة عند المتصدق في التقرب إلى الله تعالى.

٢ - **التحذير من مُسَايَرَةِ الإنسان أَمانِيَّهُ**، بالإمهال أي: التأخير للصدقات؛ لأنه إذا حضر الموت صار تصرفه مفضولًا، بل ربما فاتته الفرصة التي كان يتوهمها عياذًا بالله تعالى.

٣ - **إن سلطة الإنفاق والتصدق في مرض الموت مقيدة**، وذلك بسبب تعلق حق الورثة بالمال، فلا ينفذ إلا في حدود الثلث.

* * *
* *
*

حقيقة المال

[٢٩] عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « أَيُّكُمْ مَالُ وارِثِه أَحَبُّ إِلَيهِ مِنْ مَالِهِ؟ ».

قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مالُه أَحَبُّ إليه.

قال: « فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ ».

[أخرجه البخاري][(١)]

* * *

المحتوى الفكري:

الحديث علاج نفسي لغريزة حب المال والميل إلى جمعه، فأنت يا هذا تحب المال، ومن عجبٍ أن يكون هذا الحب دافعًا إلى المغامرات والمخاطرات لِجَنْيِ المال! فيأتي الحديث النبوي مبينًا لك أنك قلبت الأمر على عقبيه.

إن مال الإنسان أحبُّ إلى الإنسان من مالِ أيِّ إنسان آخر، ومالُه الحقيقي الجدير بذلك الجهد هو: « ما قَدَّم » أي: ما صرفه الإنسان وأنفقه في سبيل الخير، وفي حقوق نفسه وغيره عليه.

فالحديث أتى لتصعيد ميل النفس تصعيدًا قويًا، فلجأ إلى إثارة الحسّ، وكلما كان المحسوس واضحًا عند النفس كان النجاح أفضل، وهنا يثير الحديث غريزة التملك نفسها؛ ليصل إلى مقصده: إذ لفت النظر إلى أن الإنسان عندما يموت ويخلف مالًا، فهذا المال ليس ماله، بل هو مال وارثه، فقد تعب هذا الإنسان المسكين وحرص حتى أصبح يُعَيَّرُ بالبخل والشُّح، وحُرِمَ الثواب العظيم لا من أجل ماله - وهو دنيا تافهة - بل من أجل مال غيره، وهو الوارث.

وقد جاء أسلوب الحديث مبينًا لهذه الناحية مؤكدًا لها، فجاء بهذا الأسلوب الذي مهَّد فيه النفوسَ، وأعدها فألقى السؤال: « **أَيُّكُم مال وارثه أحب...** ».

(١) في الرقاق (ما قدم من ماله فهو ماله): ٨/ ٩٣.

ولم يأتِ الحديث على أسلوب الإخبار المحض، كأن يقول: مالكم هو ما تنفقونه ومال غيركم ما تتركونه، بل أتى بصيغة تهز الشعور الإنساني، فسألهم هذا السؤال الذي يكون جوابه معلومًا ضرورة، لكنه بذلك أثار الانتباه بقوة في كل واحد، وهذا من أسلوب المُرَبِّي الحكيم، فلما أجابوه، ألزموا أنفسهم بالحجة والبرهان؛ لأنهم أقروا بما يطلب منهم، عندما استنطقهم الرسول ﷺ بهذه العبارة: « **أَيُّكم مالُ وارثه أحب إليه من ماله؟!** ». فلما أجابوه بين لهم: مالُكم هو ما تنفقونه، ومال وارثكم هو ما تتركونه.

ملامح فنية:

يعتمد البيان النبوي على أسلوب من الأساليب التربوية التعليمية الناجعة في إشراك المتلقي في الحدث والزيادة في إفهامه، إذ بدأ بسؤال يثير العجب ويحرك الحوار: « **أَيكم مَالُ وَارِثه أحبُّ إليه من ماله** ». ويأتي الجواب من الصحابة في شكل حوار جماعي موجه إلى شخص واحد « يا رسول اللّه » ثم يأتي **المفصل الثاني**: « **ما منا أحد** » يتضمن الشمول وتأكيد العموم.

أما المفصل الثالث « **إلا مالُه أحبُّ إليه** » فيتوازى مع نهاية المقطع الأول، حيث أعيدت الكلمات، ويتضمن الحصر، وهو الصيغة المُؤكِّدة للفكرة التي أرادها الرسول من طرح السؤال.

ويختم النص بمقطع أخير مفتاحه فعل القول، واعتمد على الترتيب حيث بدأ بحال الإنسان المورث، ثم بحال الوارث، ولهذا يتم التعارض بين « ما قدم » وما « أخَّر » وبين « ماله » و « مال وارثه » هذا التضاد يرسخ الفكرة ويوضحها. وكلا المفصلين يبدأ ببداية اسمية، أما الخاتمة فجملة فعلية تناسب الحركة في استخدام المال في المجالات الخيرة.

وبعد، فالحديث يعتمد في بنائه على الحوار والتشويق لاستجلاب العقول والقلوب، وجاء في ألفاظ مأنوسة.

أما من حيث التصوير فهو يصور المجلس الذي يضم النبي ﷺ محوطًا بالصحابة الكرام وهم يتشوّقون إلى جزئيات كلامه، مشدودين إليه بلهفة لمعرفة دينهم القويم، يرقبون الحكمة والقيم الإنسانية من سيد البشرية ﷺ.

إرشادات الحديث:

١ - الحَضُّ على الجود والسخاء في الوجوه المشروعة، ووجوه الخير والطاعات، فإن ذلك هو التحقيق لوجود المال، وإلا تحوّل الغَنيُّ إلى خادم يخدم الورثة، ويسعى لحظهم ولشقاء نفسه مما يؤدي إلى ندامته وخسرانه. وقد عبّر الحديث بقول « وارثه » ليزيل تأثير وصف القرابة ونحوها، وليذكِّر الغني بأنهم مع قرابتهم التي يودهم لها، لا ينسى أنهم ورثة.

٢ - يقرر الحديث بهذا الأسلوب مبدأً اقتصاديًّا له أهميته الواضحة، التي تمتد آثارها إلى جوانب المجتمع كافة، فالإنسان إذا لم يتصرف بماله فكأنه ليس ماله! لماذا؟ لأن المال ظرفٌ لا يقصد لذاته، بل لما يتضمنه من الفائدة. فالمال وجد للإنفاق الذي تحصل به الطيبات التي خلقها اللّٰه وأَبَاحَهَا لنا. وبذلك تتحقق الغاية من المال، وقد شرح الاقتصاديون الإسلاميون هذه النظرية الاقتصادية في الإسلام، وبينوا أن الشرع قرر أن المال يجب ألا يُكدَّس، بل يصرف وينفق في أعمال الخير والدنيا، ومشاريع الإعمار.

وقد تَكَفَّلَتْ أحكام الشريعة بذلك ففرضت الزكاة، وحرمت كنز المال، وحضَّت على البذل في وجوه الخير، والأعمال النافعة وحرمت الربا ليتحتم على المال سبيلٌ واحد لا يجد غيره هو سبيل الإثمار لا الاستغلال.

* * *
* *
*

تصحيح مفهوم

٣٠ عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ ». قيل: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ؟. قال: « يَعْتَمِلُ بِيَدَيهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّق » قالَ: قيل: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قال: « يُعِيْنُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوْفِ ». قال: قيل له: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قال: « يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ أَو الخَيرِ ». قال: قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قال: « يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَة ».

[متفق عليه][1]

* * *

المفردات:

كل: أفادت العموم سواء أكان غنيًّا أم فقيرًا.

أرأيت: أَخْبِر. استعمل الرؤية بمعنى الإخبار مجازًا؛ لأنها سببه، ثم استعمل الهمزة بمعنى الطلب، فصار المعنى: أخبر.

يَعْتَمِلُ بِيدَيْهِ: يعمل، وزيادة التاء للمبالغة في النشاط والعمل.

الملهوف: الذي صار مضطرًّا لشيء من الأشياء. أو المظلوم.

فإنها: بضمير المؤنث أي: الخصلة من الخير وهي الإمساك عن الشر. وفي رواية « **فإنه له** » أي: فإن الإمساك للممسك عن الشر صدقة.

المحتوى الفكري:

هذا الحديث يهدف إلى تصحيح مفهوم الناس عن الصدقة، وأنه ليس مُضَيَّقًا قاصرًا على المعنى المتعارف عليه، بل إن معنى الصدقة أوسع شمولًا، وأعمق في أغوار النفس دلالة.

هذا الحديث يدل على أن كل عمل خير هو صدقة، وقد مهد لذلك بمقدمة: « **عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ** »، فشمل كل المسلمين غنيهم وفقيرهم! فوقع الناس في الإشكال وقالوا: « **إن لم يجد؟** ».

---

(١) البخاري في الزكاة (باب على كل مسلم صدقة): ٢/ ١١٥، ومسلم بلفظه: ٣/ ٨٣.

والحديث تدرَّج بأعمال الخير حتى انتهى إلى الحد الأدنى الذي لا عذر لأحد في تركه، وهو ترك الشر، وهذا لا يتكلف أعمالًا ولا مالًا.

وبهذا وَسَّعَ الحديث أمامنا معنى الصدقة ومفهوم الخير توسيعًا عظيمًا، حيث جعل في عمل كل خير صدقة؛ لأن عمل الخير يحقق مصلحة الناس. وبما أن النفس هي أولى المحتاجين، وجب على الإنسان أن يعمل؛ ليتصدق على نفسه، ويقويها؛ لتستعد للقيام بواجباتها الدينية والدنيوية.

ثم دَلَّنا الحديث على أفضل أنواع الأعمال وهو العمل باليد، فالإنسان يعمل بيديه فينتج إنتاجًا صناعيًّا يفيد المجتمع ويفيد نفسه، فإذا تمكن أن يتصدَّق بما يزيد على حاجته فهذا أعلى مراتب الصدقات، وبذلك قرر الحديث فضلَ العمل وشرفه.

ولما كان بعض الناس لا يستطيع العمل ورَد السؤال: « أرأيت إن لم يستطع؟ »، كأن لم يكن صاحب حرفة؟ قال: ليعمل عملًا آخر يؤدي به خيرًا للآخرين، دون أن يكلفه مالًا، وذلك بأن « **يعين ذا الحاجة الملهوف** »، فلما اعتذر له، قال: هناك عمل آخر لايكلف جهدًا بدنيًّا، ولكنه يكلف جهدًا نفسيًّا ويتطلَّب جرأة أدبية « **يَأمُرُ بالمعروف** »، فالناصح يكون في موقف حرج أمام الناس حيث يغلبه الخجل وضعف النفس، فعليه أن يقاوم ذلك الضعف ويجاهد المنكر ويزيله فيحقق بذلك فائدة عامة، وقد يصادف الإنسان منكرًا لا يستطيع أن ينهى عنه، فيجب أن يمسك نفسه عن الشر، ولا يكون مسايرًا فيه إطلاقًا، فالشذوذ إذًا ليس مجالًا للظهور، ولا هو دليل على إبداع صاحبه وسموه. بل إنه ليدل على خيبته في اتباع الخير والبر، حتى لجأ إلى مخالفة العرف والخُلُق والفضائل، وإن هذا التفاخر بالقشور الخنفسية لنذير شؤم يؤذن بفشل هذا النوع من الناس في فكرهم وفي نشاطهم المثمر، وإنهم لقدوة سوء، يَجُرُّون الشباب إلى مهاوي الجريمة والرذيلة، ويعرقلون نهضة الأمة وتقدمها.

جمال البناء:

يتجلَّى البناء التصعيدي والتوالدي في نص هذا الحديث، إذ يُصَعِّدُ تصعيدًا إلى الأسفل من الأكبر إلى الأصغر، بوساطة الحوار الجاري بين طرفين، فكل فكرةٍ تؤدي إلى التي تليها بواسطة السؤال.

المقطع الأول: « عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ »:

هذا التعميم يثير تساؤلات؛ لأن للصدقة مفهومًا ماليًّا، وهذه التساؤلات تقابل بأجوبة تعبر عن رحمة الإسلام، وتعدد جوانب الفضائل وإمكان فعلها من أي إنسان.

المقطع الثاني: « أرأيت إن لم يجد! »:

نجد في هذا المقطع حذفًا للمفعول به، والتقدير: إن لم يجد مالًا، وفي هذا السؤال طلب الرؤية، أي: طلب الإخبار نتيجة نظرة فاحصة إلى الواقع المرئيّ، ويَبْرُزُ طَرَفٌ مُضْمَرٌ هو الفاعل الغائب « لم يجد » ليدل على شمول أي فرد من الناس.

المقطع الثالث: « يَعْتَمِلُ بيديه فينفع نفسه ويتصدَّق »:

نجد استخدام عبارة « يعتمل » بزيادة التاء على يعمل لتدل على زيادة في المعنى، فالمقصود طلب حركة قوية في العمل وهمة عالية في البحث عن عمل واستحثاث الطاقة البشرية.

ونجد التمدد في عبارة « بيديه » للتأكيد على العمل ومباشرة الإنسان له بنفسه.

وفي قوله: « يَنفع نفسَه وَيَتَصدق » ترتيب، فالنفس مقدمة على الآخرين، وهذا يؤكد واقعية الدين الإسلامي « فينفع نفسه » والمقصود ذاته وعياله ثم يأتي التصدق.

المقطع الرابع: « أرأيت إن لم يستطع »:

هنا حلقة ثانية من التصعيد أي النزول من أن يجد المال إلى العمل لأجل المال إلى عدم الاستطاعة للعمل.

المقطع الخامس: « يعين ذا الحاجة الملهوف »:

فيه تصعيد آخر، إذ انتقل من أخذ المال إلى العمل لجمع المال إلى عمل لا علاقة له بالمال، وهكذا تتخذ الصدقة ملامح وجدانية نفسية أكثر من كونها كائنًا ماليًّا، وتعبير « ذا الحاجة » يثير الشعور بالشفقة على هذا المحتاج، ثم يحصل تمدد « الملهوف » الذي يعمق الحالة النفسية عند المحتاج، فتعبير « ذا الحاجة » إطار حسي، أما « الملهوف » فهو الإطار النفسي، الذي يصوِّر فاعلية الحاجة وتفاقم المشكلة.

المقطع السادس: « أرأيت إن لم يستطع »:

يتضمن تركيبًا يوازي المقطع الرابع ويختلف عنه في الإيحاء النفسي؛ لأن المتلقي

قد ازداد تعلقًا لمعرفة الجواب لـ « **أرأيت إن لم يستطع** »، ويكون الجواب في المقطع السابع: « **يأمر بالمعروف أو الخير** » إنه نفع تجاه الآخرين، لكنه يشتمل على اهتمام نفسي لا يكلف مالًا، وقد ذكره في صيغة المضارع؛ ليدل على استمرار العمل الصالح في نصح الآخرين وإرشادهم؛ للتسهيل على المتطوع بطاقته في نشر تعاليم الدين.

ويأتي سؤال: « **أرأيت إن لم يفعل** » يتضمن مغايرة، إذ لم يقل « يستطع » لأن الأمر هَيِّنٌ عمليًّا ويعتمد على الذات.

ويكون الجواب « **يمسك عن الشر فإنها صدقة** »؛ لأنه ما دام أحجم عن إصدار الخير فلا يُصْدِرْ شرًّا؛ ليحافظ على صدقة فعلها، والقسم الأول من الجواب فِعْلِي « يمسك » ليدل على استمرارية الإمساك عن الشر، والثاني اسمي « فإنها صدقة » ليدل على ثبوت ثواب الصدقة.

سمات عامة في النص:

١ - التكرار في « أرأيت إن لم » والتنويع في « يجد، يستطع، يفعل » وهذا يعطي نغمًا موسيقيًّا فضلًا عن ترتيب يساعد على الحفظ وعمق الفهم.

٢ - التصعيد من حيث العمل إلى أسفل، وكذلك من حيث الثواب؛ لأن الذي يدفع المال يحصل على ثواب الصدقة، وكذا الذي يمسك عن الشر.

٣ - استخدام الأفعال المضارعة؛ ليصوِّر الحدث ويستحضره في الخيال، وليفيد استمرار الفعل الذي يعني تكرار الصدقة.

جمال التصوير:

لا يحوي النص عبارات مجازية، لكنه يثير الخيال؛ لأنه حوار يدعو إلى تصوير مشاهد وحركات سماعية ونفسية.

- والصورة التالية هي مشاهد من الحياة توحي بها عبارة « **يعتمل بيديه** » فتصور العمل اليدوي المتنوع، والجهد العضلي للإنفاق على الذات والعيال ثم التصدق، وههنا عمل لأجل الصدقة؛ تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤] وهذه المشاهد تتضمن حركات حسية مرئية تواكبها حركات ذهنية.

- ثم تأتي صورة جزئية: « **يُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوف** »، وهي فريدة في شكلها، ولكن

المضارع يدل على تكرار حدوثها، ونشهد فيها المسلم يُهْرَعُ ملهوفًا لِعَوْنِ أخيه الملهوف، فالحركة المُتَصَوَّرَة سريعة؛ لأنها إعانة ذا الحاجة الملهوف.

وفي تعبير « **يأمر بالمعروف أو بالخير** » صورة حركية قولية وجسدية تجعلنا نتصور المسلم داعية نشيطًا في بيته وفي حيِّه وفي بلدته، يدعو إلى اللّٰه ويحذر عذاب الآخرة، فهي حركة خارجية متجهة للآخرين.

وقوله: « **يمسك عن الشر** » فيه حركة نحو الداخل، إذ يحصن نفسه عن فعل الشر « ويمسك » توحي بالشدة والصبر على مجاهدة النفس.

وهكذ نجد أن هذه الحركات المتنوعة تؤكد الرحمة الإلهية في تيسير الحصول على ثواب الصدقة بأفعال مختلفة: مالية وجسدية ونفسية وبحركات خارجية نحو الآخرين وداخلية تحصن النفس من الشر؛ لتقرر عموم وجوب الصدقة على المسلمين جميعًا وعدم اقتصارها على الأغنياء؛ لأنها ذات مفهوم واسع يشمل كل خير وكل امتناع عن الشر.

إرشادات الحديث:

١ - **تصحيح مفهوم الصدقة، وبيان أنه شامل لكل عمل خير، فعليٍّ أو قوليٍّ**، بل يشمل الإمساك عن الشر، فإنه صدقة؛ لأنه إن كان يَلْحَقُ ضَرَرُهُ للغير فالإمساك عنه تصدّق على هذا الغير، وإن كان ضَرَرُه مختصًّا به فقد تصدَّق على نفسه.

٢ - **شرف العمل باليد** وتقديمه على غيره؛ لأن الحديث قدمه على غيره، ولأن فيه نفعًا لنفسه ولغيره.

٣ - **إن الشذوذ** عن العُرف الاجتماعي الصحيح أو عن الخلق الفاضل **شر يجب الإمساك عنه**، وليس دليلًا على إبداع صاحبه ورُقِيه، بل هو دليل على خيبته وضعف نفسه، وواجبه التمسك بِعُرْوَةِ الخُلُقِ والفضيلة والدين الإسلامي والكف عن أي مخالفة لها، أو عن أي شر، فإنه يثاب إذا قصد بهذا الترك طاعة اللّٰه أو أيّ قصدٍ صالح.

٤ - مقصود الحديث **توسيع مجال الصدقة** وكسب الثواب، **وليس مقصوده أن لا يفعل الإنسان الخصلة المتأخرة إلا بعد العجز عن السابقة لها بالفضل**، فمن أمكنه أن يفعل جميع المذكورات في الحديث جميعًا في وقت واحد فليفعلها.

٥ - في الحديث عبرةٌ عظيمة؛ لأن مُحَصَّلَهُ أنه **لا بد من الشفقة على خلق اللّٰه تعالى**،

وقد أحاط الحديث بجوانبها؛ لأنها إما بالمال أو بغيره، والمال إما حاصل أو مكتسب، وغير المال إما فعلٌ وهو إعانةُ محتاجٍ لِعَوْنٍ وإغاثَةٌ لملهوفٍ، وإما ترك وهو الإمساك عن الشر. **فأحاط الحديث بكل جوانب الشفقة على الخلق**، وهذا من بديع جوامع كَلِمِهِ ﷺ وحكمته في دعوة الخلق.

* * *
* *
*

في الجهاد

٣١ عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيْلِهِ: لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيْمَانٌ بِي وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي أَنْ أَرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، أَو أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ. وَلَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ».

[متفق عليه][1]

* * *

المفردات:

انتدب: أجاب إلى ثوابه مسارعًا، من ندبتُ فلانًا فانتدب، فإذا دعوته فأجاب.

« **لا يخرجه.... إلى قوله: الجنة** »: هذه الجملة من الحديث القدسي وهي في محل نصب مقول قول محذوف تقديره: « قائلًا: لا يخرجه... »، وهذا الحذف كثير في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]. أي قائلين: سلام عليكم.

سَرِيَّة: السرية: الفرقة المحاربة التي لا يكون فيها النبي ﷺ. والغزوة: هي التي يشهدها النبي ﷺ.

ولَوَدِدْتُ: جواب قسم ثانٍ معطوف على الجواب الأول، والتقدير: والذي نفسي بيده لوددت.

المحتوى الفكري:

هذا الحديث فيه حَضٌّ على الجهاد والقتال في سبيل اللَّه، وذلك ببيان الأجر والثواب العظيمين للمجاهد.

يبين النبي ﷺ ما أعد اللَّه تعالى للمجاهد، وما يعطيه اللَّه له من أجر عظيم، فالمجاهد

---

(١) البخاري بلفظه في الإيمان (باب الجهاد من الإيمان): ١/ ١٢، ومسلم: ٥/ ٣٣، والموطأ في الجهاد (الشهداء في سبيل اللّه): ١/ ٤٦٠، والنسائي في الجهاد: ٦/ ٢٠.

ظافر فائز على كل حال؛ لأنه إن سلم وغنم فله أجره، كما أن له حصة من المغنم الذي فاز به، وإن استشهد دخل الجنة مباشرة بعد موته.

وههنا لما عبَّر النَّبِيُّ ﷺ هذا التعبير « لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ » أدرج الشرط وهو أن تكون نية المجاهد خالصة لوجه اللَّه، وحكاه بلفظه عن اللَّه أنه يقول سبحانه: « **لا يُخْرِجُه إلا إيمانٌ بي** ». وهذا من الحديث القدسي.

وقد بين الرسول ﷺ حديثه وميزه عن الحديث القدسي بواسطة السياق بانتقاله من الغيبة إلى التكلم. فحذف كلمة (قائلًا) وانتقل من الغيبة إلى المتكلم.

وهذا التعبير فيه لفت في تأثيره النفسي، **حيث إنه نبَّه إلى أمرين عظيمين:**

الأول: أن يكون الخروج فيه خالصًا للَّه، لا يبتغي منه سمعة ولا لقبًا ولا دُنيا.

والثاني: ما أعد اللَّه تعالى للمقاتل من الفضل العظيم، وأن ثواب هذا المقاتل ثابت مضمون في كل الحالات: الغنيمة والأجر مع سلامته، أو الجنة مع استشهاده.

ولما كانت التربية الإسلامية قد رَبَّتِ المسلم على عدم الفرار فلم يتعرض الحديث لهذا أبدًا.

ثم أراد النبي ﷺ أن يبين عُذره في عدم الخروج للقتال أحيانًا ليشجع بهذا البيان غيره ويحضهم على القتال، ذلك أن ذهابه دائمًا فيه مشقة على الناس؛ لأنه يؤدي لأن تضطرب أوضاع المقيمين في المدينة، كما أن الصحابة كانوا إذا خرج رسول اللَّه ﷺ خرجوا معه، وهذا يكلف الصحابة جهدًا لا يستطيعونه، فخروجهم لم يكن على سبيل الإلزام، بل إذ كانت نفوسهم لا تطيب أبدًا بالقعود خلاف رسول اللَّه، فلا يريدون أن يحارب هو ويقعدون هم، وذلك حرج عظيم، فقد بلغ عدد السرايا نحو السبعين، مع أنه يكفي لها العدد اليسير.

ثم بين النبي ﷺ فضل الجهاد العظيم ببيان حرصه عليه، وقد بين هذا الحرص أبلغ بيان، إذ أقسم قسمًا عظيمًا باللَّه ﷻ: « **والذي نفسي بيده** » أي: والذي روحي في قبضة قدرته. فهو يتمنى أن يخرج في كل سرية، وأن يُقْتَلَ ثم يَحْيا، ثم يُقتل، ثم يحيا، ثم يُقتل، ولا شك أننا بهذا استشعرنا في قلوبنا حماسًا عظيمًا للجهاد، وقتال العدو مهما كلفنا ذلك.

جمال البناء:

يبدأ النص بسرد موجز يقدم الكلام الرباني: « **انتدب اللَّه لمن خرج في سبيله** » ثم يحصل حذف يسمى في الفن المرئي (المونتاج)، أي: وصل مقطعين، ونرى حذف فعل القول أو كلمة قائلًا يفيد التأكيد على الطابع التصويري واستحضار المتكلمين مباشرة، كما يتضمن هذا المنهج تنشيطًا ذهنيًّا في المتلقي، إذ تحول من ضمير الغائب إلى المتكلم: « **لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي** ».

أما الكلام الرباني فيشتمل على تأكيد بوساطة الحصر « **لا يخرجه إلا إيمان** »، فالإيمان تصديق ثابت وفاعلية متجلية في الجهاد. ثم يقول: « **وتصديق برسلي** » وهذا امتداد للقسم الأول له أثره في الواقع، فالمسلمون يرون رسول اللَّه ﷺ فيهرعون إلى نُصْرَتِه ورفع كلمة اللَّه، ويتوازى هنا « إيمان بي » مع « تصديق برسلي ».

ثم قال: « **أن أرجعه بما نال** » فيتعارض الرجوع مع الخروج، ويسند الفعل إلى اللَّه فيتخذ دلالة واسعة، والقوة بارزة في هذه التعدية، كما أن التوازن الصوتي بارز بين « يخرجه » أو « أرجعه ».

ثم فَصَّل ما أجمله في « ما » فذكر الأجر، وهو مجرَّد، وقدَّمه لأهميته على المكاسب الدنيوية، ثم أردفه بالنتيجة الحسية العاجلة، « أو غنيمة ». ثم يأتي فعل « **أُدخله** » متوازنًا مع « **يخرجه** » و « **أرجعه** » وما دام يسند الإدخال إلى اللَّه فهو يدل على عناية ورعاية ربانية خاصة بالمجاهد في سبيل اللَّه.

ثم ينتقل البيان النبوي إلى متكلم آخر هو النبي ﷺ، ويقدم برهانًا بوساطة الشرط « **لولا أن أشق..** » واختار « أشق » الذي يوحي بحرصه الشديد على الجهاد المتواصل لولا المانع الشديد وهو دفع المشقة عن الأمة. ثم إنه نسب الأمة إلى ذاته الشريفة « أمتي » ليدل على غاية إشفاقه ورفقه بهم ويختتم بشرط غير قابل للحدوث « **لَوَدِدتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحيا ثم أُقتلُ ثم أُحيا ثم أُقتلُ** ». ويلحظ ازدياد هذا الأمر تأكيدًا بالتكرار للقتل والإحياء، وأنه اختتم بكلمة « **أقتل** » لتعظيم فضل الاستشهاد في سبيل اللَّه.

جمال التصوير:

إن بروز قول اللَّه في الحديث مباشرة بعد السرد دون فعل القول يضعنا أمام تصور

الوعد الإلهي الحق، ثم يتبعه تصور فعل الجهاد، فتصور فعل الخروج والنفوس عامرة بالإيمان مخلصة للَّه. ثم نتصور فعل العودة باحتمالات ثلاثة: الأجر بدون غنيمة مادية، أو الغنيمة، أو العودة إلى اللَّه ودخول الجنة، وهكذا انتقل من المجرد إلى الحسي الضيق إلى الحسي الفسيح الذي تحتويه جنة النعيم، ويتسع المكان في المشهد إلى حدود لا نعرفها.

ثم نجد صورة احتمالية في المشهد الآخر « **وَلَولَا أَن أَشُق على أُمّتي ما قعَدتُ خلفَ سَرِيَّةٍ** »، وهي تجسيم لهمة الرسول ﷺ العالية وحب تنفيذه للرسالة السماوية، وهذا يذكرنا بمشاهد غزواته ﷺ وتقدمه الجيش واستبساله.

ويختم النص بالأمنية الخارجة عن الواقع المعهود، وهي تكرار القتل والإحياء، مما يفيد أنه لا يتوقف عن الجهاد فإنه هو الذي يحافظ على وجود الأمة وكرامتها، وكأنه لغاية فضله لا يكتفي الرسول بعمر واحد، بل يتمنى أعمارًا يأتي بعد كل عمر جديد استشهادٌ في سبيل اللَّه؛ لتكون الشهادة خاتمة الأعمار.

إرشادات الحديث:

١ - إن روح الجهاد والتضحية في سبيل اللَّه مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالإيمان، إذ يتشوق المؤمن إلى ما أعده اللَّه له ووعده به، وقد أخبر النبي ﷺ أن حب الجهاد في سبيل اللَّه أمرٌ مِن خصال الإيمان وشُعَبِهِ، قال: « **من مات ولم يَغْزُ ولم يُحَدِّث به نفسَه مات على شُعبةٍ من نفاق** ». أخرجه مسلم[1].

وهذا معناه أن الجهاد لا ينفصل عن قلب المؤمن، فإن المؤمن يشتاق إلى ربِّه ولا يفر من لقائه. وهذا ما نجده في أقوال كثير من الصحابة: عندما سمع أبو الدرداء وهو في غشية الموت، زوجته تقول: واثكلاه فقال لها: بل وافرحتاه: غدًا ألقى الأحبة، محمدًا وصحبه.

٢ - غاية فضل الجهاد، وغاية فضل الشهادة في سبيل اللَّه، وهما محور الحديث.

٣ - رفع همة المؤمن وطموحه إلى ما لا نهاية له، حتى يجعله طموحه يتمنى ما لا يوجد في الدنيا من الخيرات، مثل أن يتمنى القتل في سبيل اللَّه، ثم أن يُحيا، ثم يُقتل، ثم يُحيا، ثم يُقتل. كما تمنى النبي ﷺ. وهو القدوة في كل فضل.

---

(١) في الإمارة: ١٣/ ٥٦ بشرح النووي.

٤ - **ما مدلول هذه الكلمة: « في سبيل الله »**: إن هذا الشعار « في سبيل الله » هو الفارق الجوهري الذي شهده التاريخ بين أهداف الحرب في الإسلام، وأهداف الحرب لدى الدول المغامرة، فليس هدف المحارب المسلم استعمار بلاد، ولا استذلال رقاب، وليس هدفه إرغام الناس على الإسلام؛ لأن إيمان المُكْرَهِ لا يَصِحُّ.

وإنما هدفه نصرة الضعفاء، وإعلاء الفضيلة، وتحرير الإنسانية. وإن هذا المدلول لذو معانٍ شاملة تشمل القتال في سبيل أي حق من الحقوق الإنسانية، فالقتالُ للدفاع عن أموال المسلمين وثرواتهم جهاد في سبيل الله، والقتالُ للدفاع عن أعراض المسلمين وكرامتهم جهادٌ في سبيل الله، والحربُ للدفاع عن الأراضي المقدسة طبعًا جهادٌ في سبيل الله. وكل قتال في سبيل غاية شريفة وغرض مشروع قتالٌ في سبيل الله، ما دام صاحبه يقاتل امتثالًا لأمر الله ويحارب ابتغاءَ رضوان الله تعالى.

وإنه لا شك أن ذلك يقتضي مجاهدةً للنفس ولأطماعها؛ كي تنطلق مخلصة لهدفها الحق النبيل، لذلك نجد سياق الحديث يشتمل على تأكيد لهذا الشرط بالالتفات الذي يثير الانتباه في قوله: « **لا يخرجه إلا إيمان بي..** »، ثم في الحصر الذي اشتمل عليه الحديث، ولقد أدَّى ذكر الحديث القدسي بلفظه هدفًا قويًّا، إذ ألقى على النفس مهابة عظيمة، تجعل القلب يتجه لله لا لغيره أبدًا، فكان لذلك أثره في تحقيق الغرض المنشود، وهو الإخلاص لله.

ونظرًا لأهمية الإخلاص نجد الأحاديث تؤكده وتوضحه، فقد سئل النبي ﷺ فقيل له: يا رسول الله، الرجل يقاتل رياء، والرجل يقاتل فخرًا، والرجل يقاتل ليرى مكانه؛ أيّ هؤلاء في سبيل الله؟ فقال: « **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله** »[1].

* * *
* *
*

(١) رواه بنحوه البخاري، رقم ١٢٣، في العلم (من سأل وهو قائمٌ عالمًا جالسًا)، ومسلم، رقم ١٩٠٤، في الإمارة (من قاتل لتكون كلمة اللـه هي العليا).

شعار المجاهد

[٣٢] عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال لعليٍّ يوم خيبر: « **أُنْفُذْ على رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِم، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الإِسْلَام، وأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيهِم مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيْهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا واحِدًا خَيرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ** ».

[أخرجه مسلم][1]

* * *

المحتوى الفكري:

هذا الحديث كان في واقعة خيبر عندما حاصر النبي ﷺ اليهود في خيبر. وكان هؤلاء اليهود قد نكثوا عهودهم وأظهروا حقدهم على دعوة الإسلام ونبيها وأهلها، وكانوا يظنون أن هذه الدعوة لن تستمر طويلًا، حتى تستطيع دسائسهم أن تقضيَ عليها، ولكن ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٤٨]، فكشروا عن أنياب الحقد، وأظهروا عداءهم ضد المسلمين، مما جعل النبي يقضي على تجمعاتهم، فكان يهود خيبر من أقوى التجمعات اليهودية؛ لذلك جهز النبي ﷺ لهم حملة قوية.

فلما حاصرهم النبي اشتد الأمر على المسلمين أول الأمر فقال النبي ﷺ: « **لَأُعْطِيَنَّ هذه الراية رجلًا يفتح اللَّهُ عليه** » هذه الحصون. وكان علي ﷺ قد رمدت عينه، فدعا به، فأتى، فمسح عينه فَشُفِيَتْ، ثم أعطاه الراية، فقال له علي: أمضي لأقاتلهم؟، فأمره النبي ﷺ أن يدعوهم للإسلام ويعرفهم بحق اللَّه عليهم، ولم يتكلم النبي ﷺ عن الصلح معهم لأن السنين الطوال أثبتت عدم جدواه، إلا أن يستغلوه ضد المسلمين. فقضية الصلح لم تكن واردة ولم يكن هناك إلا القتال، أو الإسلام؛ لأن الإنسان متى أعلن إسلامه صار مسلمًا من المسلمين معصومَ الدَّمِ والمال والعِرض. فأمر النبي ﷺ عليًّا أن ينفذ إلى ساحتهم ويدعوهم إلى الإيمان وما يجب عليهم من إيتاء الزكاة وتحريم الرِّبا وغيرهما. وحثَّه حثًّا عظيمًا على دعوتهم للهداية، حيث أبان له أن هداية رجل واحد خير له من حُمْرِ النَّعَمِ، وهي الجمال ذات اللون الأحمر الجميل. وكانت أنفس نوق العرب، وهي عندهم

---

(١) مسلم في الفضائل: ٧/ ١٢١، ١٢٢. وللحديث قصة أَوْرَدْتُ هنا معناها في الشرح.

بمنزلة أفخم السيارات في زماننا؛ لأنها عنوان الثراء والعزة والجاه العريض في زمانهم، فهي إذًا أعظم ما يُرغب فيه من مظاهر الدنيا.

أراد النبي ﷺ أن تكون أهداف أصحابه هداية الناس لا القتال، بل إن القتال لا يأتي إلا اضطراريًّا بعد أن يرفض الأعداء مسالمة الإسلام. وهذا المقصد قد حبَّبه الرسول - عليه الصلاة والسلام - إلى الناس، حيث فضله على حُمْر النَّعم، فهذا التعبير واختيار المفضل عليه فيه، قد استوفى كافة ما قد يُثار في النفس من دوافع الحرص الشديد.

وقد أكد الحديث هذا المعنى بتأكيدات بالغة غاية القوة: أكد بالقسم « **فواللَّه** » الذي هو أبلغ أنواع التأكيد، ثم عبر بالجملة الاسمية التي تدل على الثبات والدوام « **لَأَن يهدي اللَّه بك... خيرٌ** »، مما يجعل الرغبة واقعةً في النفس أقوى وقوع.

ملامح فنية:

في المقطع الأول: « **انْفُذْ على رِسلِك حتى تنزل بساحتهم** » يريد النبي ﷺ التأني من علي بن أبي طالب ﷺ وضبط النفس كما أفاده قوله: « **على رِسلِك** »، وَتُصَوِّرُ الأداة « **حتى** » الفترةَ الزمنيةَ التي تسبق النزول في الساحة، فثمة تحضيرات مادية عسكرية اختصرها البيان النبوي مع تحضيرات نفسية تواكب العُدَّةَ والعَدَدَ، أما النزول بالساحة فيصور لنا علو الجيش المسلم وعزته.

ثم المقطع الثاني: « **ثم ادعهم إلى الإسلام** » جاء مشتبكًا بالمقطع السابق بوساطة « ثم » التي تدل على تراخي الزمن، وهذا من باب الرحمة في الإسلام والتمهل في الدعوة، مما يحتم نجاح الدعوة، إذ يريهم ترجمة حقيقية ناصحة لمعطيات الدين بتصرفاته الإيجابية، ومِن ثَمَّ يدعوهم، وينتقل إلى تعريفهم بالإسلام وجزئياته: « **وأَخْبِرْهُم بما يجب عليهم من حق اللَّه فيه** ». هذا المقطع على وجازته يشتمل على حقوق اللَّه جميعًا في العبادات والمعاملات وما يسبقهما من صحة العقيدة أول حقوق اللَّه ﷻ.

وتتوالى في هذه المقاطع ضمائر الغائب الجَمْعِيَّة « بساحتهم - ادعهم - أخبرهم » لتؤكد مواجهتهم بالحق الإلهي الذي يطالبون به دون استثناء أحد، فالأمر دعوة لِسِلْم، لا قتال يخصُّ المقاتلين منهم.

ويختم النص بصورة تشبيهية مؤكدة بوساطة التفضيل: « **لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّه بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمْرِ النَّعَمِ** »، فالهداية أعلى من الإبل النفيسة، التي ترمز إلى مباهج

الدنيا ومتاعها الزائل، وأكد هذا بقوله: « **رجلًا واحدًا** » فهذا الفرد يقابل الجمع في « حُمْرِ النَّعَم » الجمع غير المحدود، مما يعني أن ثواب الهداية كبير جدًّا لا يُحدُّ. يوضح فخامته صورة « حُمْر النَّعَم » الإبل البيض أو الحمراء، التي تعني الغنى والعزة والجاه، وكل متاع دنيوي.

إرشادات الحديث:

١ - فضل الهداية إلى الإسلام، حتى جعل النبي ﷺ هداية رجل واحد خيرًا من أعظم مال الدنيا وأبهجه منظرًا وعِزَّةً ومن كل متاعها.

٢ - الحديث يبين لنا لماذا شُرع القتال في الإسلام، فعلي ﷺ استأذن النبي - عليه الصلاة والسلام - بقتالهم، فلم يأمره الرسول بالقتال، بل أمره بهدايتهم؛ لِيُعَلِّمَ المؤمنَ أن يحب الرحمة للناس، ويُحِسَّ بالشفقة عليهم، ولهذا يشعر بوجوب هدايتهم. وعلى هذا الأساس انطلق المسلمون، وكان هذا هو عنوان الجهاد والقتال في تاريخ الإسلام.

أما القتال لسفك الدماء أو لإدخال الناس قسرًا في الإسلام فليس من الدين في شيء ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وانطلاقًا من أن الانتصار في المعركة هو تبليغ الإنسان الرسالة، لا إكراهه على ذلك، فقد تفرع عنه أشياءُ كثيرة امتاز بها تاريخ الإسلام، إذ نجد في الفتوحات الإسلامية أحداثًا لم يألفها التاريخ في أحداث الحروب والفتوحات، فالرومان وأبناء البلاد المفتوحة كانوا يحسنون استقبال الفاتحين المسلمين ويرضون بهم؛ لأنهم رأوا فيهم الرأفة بهم والإنصاف، بل لقد آثروا حكم المسلمين على حكامهم الأصليين، أهل دينهم، فخالد ابن الوليد بعدما فتح حمص طوقته جموع من الروم، فما كان منه أن يسترق أموال الناس وهو مفارق المدينة؛ انتقامًا لأنه اضطر إلى الانسحاب، كلا، ولم ينسحب بما أخذ من ضريبة الجزية، بل جمع رؤساء المدينة وزعماءها وقال لهم: إننا سنترككم؛ لأنه لا قبل لنا بمقاتلة هؤلاء، فهذه جزيتكم لأننا لن نستطيع أن نحفظ أَمْنَكُم منهم. ثم كانت الوقائع نصرًا للمسلمين؛ لأن الحق لا يُغْلَب إذا كان المسلم متبعًا لقواعد الحق، فإذا حمص تغلق أبوابها في وجه الروم؛ حبًّا للمسلمين؛ لأنهم لم يروا منهم سوى الإحسان، الذي جعلهم لا يَقْبَلون الحياة تحت حكم الروم أهلِ دينهم.

فالمقصد من الفتح الإسلامي عرض الإسلام الذي لا يخدش ديانة الآخرين،

فالديانة المسيحية أتت بأخلاق تتلاقى مع أخلاق الديانة الإسلامية، إلا أن الإسلام قد جاء بأنظمة تفرَّد بها، حيث نظم حياة الإنسان، وهذه أحكام لا تعارض بقاء الديانات الأخرى؛ لأن الديانات الأخرى لم تأتِ كاملة في الأحكام شاملة لنظم الدنيا، والديانة الإسلامية لن تمسَّ أحكام الديانات الأخرى الشرعية، فَتُرِكُوا وما يدينون « لهم ما لنا وعليهم ما علينا ».

أما لو نظرنا إلى ما يحدثنا به التاريخ من أنباء الانتصارات عند غير المسلمين وسألناه: ما الذي كان سببًا لهذه الحروب، فإننا لا نجد إلا شهوة لزعيم في أن يوسع ملكه، أو في السيطرة على ذخائر الدول الأخرى. ومن هنا فإن الاستعمار الحديث لم يستطع أن يتفاهم مع الأمم والشعوب؛ لأن أغراضه التوسعية وأطماعه الجشعة ملأت طباق الأرض ظلمًا وفجورًا، ورَوَت أرجاء البسيطة من دماء المستضعفين المغلوبين، فثارت الشعوب على الظلم، ولم تمكِّنْهُ من البقاء في ربوعها، فجعل الحيلةَ وسيلتهُ كي يكون الغرض الأساسي حاصلًا، وهو الاستعمار الاقتصادي، وذلك لإذلال الشعوب الأخرى، وتسخيرها لأنانيات الشعوب المتحكمة المتسلطة.

لو زرنا مقابر قتلى الحرب العالمية الثانية، وسألناها، واستنطقنا رفات قتلاها: « ما كان هدفكم الذي دمرتم العالم لأجله؟ لسمعنا النداء من كل جانب: الذهب الذهب... البترول البترول... السيطرة الاستعباد... الاستكبار ».

ولو زرنا قتلى معركة بواتييه المسلمين، الذين غَزَوْا أوروبا وسألنا ديارهم: « ما كان هدف الحرب التي استشهدتم لأجلها؟ » لسمعنا هتافهم الذي قُتِلُوا وهم ينادون به؛ الهتاف الذي جمع أسمى الغايات النبيلة الإنسانية: اللَّه أكبر.. اللَّه أكبر.. هتاف التوحيد وشعار الكرامة، كرامة الإنسان، تمنح لجميع الناس، مسلمين أم غير مسلمين، شعار العدالة والإخلاص الذي وسع الطوائف كافة على مر العصور[1].

* * *
* *
*

---

(١) ذكروا أن أصوات التكبير ظلت تُسمع من مراقد الشهداء في بواتييه زمانًا بعد انصرام المعركة..

فضل الشهيد

٣٣ عن جابر بن عبد اللَّه - رضي اللَّه عنهما - قال: « أُصِيْبَ أَبِي يومَ أُحُدٍ، فَجَعَلْتُ أَكْشِفُ الثوْبَ عَنْ وَجْهِهِ وَأَبْكِي، وجَعَلُوا يَنْهَوْنَنِي، ورَسُولُ اللَّهِ ﷺ لا يَنْهَانِي. وَجَعَلَتْ فَاطِمَةُ بنتُ عَمْرٍو تَبْكِيه »، فقال ﷺ: « تَبْكِيهِ أَوْ لَا تَبْكِيهِ، مَا زَالَتِ المَلائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حتَّى رَفَعْتُمُوه ».

[متفق عليه][1]

* * *

المحتوى الفكري:

هذا الحديث يصور حادثة استشهاد أحد الصحابة الأَجلَّاء وهو عبد اللَّه بن حرام ابن عمرو من كبار الأنصار والد جابر، وأحد المبايعين بيعة العقبة التي اتفق فيها أن يهاجر النبي ﷺ والمسلمون إلى المدينة، فهذا الشهيد زعيم في قومه، كبير القدر والشأن عند المسلمين.

والنبي ﷺ كان له موقف من هؤلاء الذين أصيبوا بمقتل الرجل، فجابر يكشف الثوب ليرى أباه مقتولًا قد مَثَّل به العدو، ولكن النبي لا ينهاه، إنما أنكر بكاء فاطمة بنت عمرو أخت الشهيد المقرون بالصياح، هذه العادة الجاهلية أنكرها النبي ﷺ؛ لأنها لا تناسب كرامة المؤمن، فلهذا لم يُقِرَّ بالمبالغة. أما الحزن والبكاء الصامت فهذا أمر جائز مباح. ثم أراد أن يبين لها سبب عدم الإفراط في البكاء فقال: « تبكيه أو لا تبكيه »: البكاء وعدمه سواء فلا تبكيه؛ لأنه قد حاز فضلًا وشرفًا عظيمين جديرين بأن يُفْرَح له، لا أن يُبْكَى عليه؛ « مَا زَالَتِ المَلَائكة تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوه »، فمقتله تحت سَنَابِك الخيل لم يكن إهانة له، بل رفعتهُ الملائكة وأظلته تعظيمًا له، حتى رفعوه. ومتى رفعوه أدخل الجنة مباشرة، وهذا فضل اللَّه على الشهداء، حتى إن الملائكة وهي الأرواح العالية تُظِلُّ الشهيد وتفرح به، لما له من مكانة عظيمة، فلا يحزن أحد أن يموت في سبيل اللَّه؛ لأن

(١) البخاري في الجنائز: ٢/ ٧٣، ٨١، والجهاد (ظل الملائكة على الشهيد): ٤/ ٢١، ومسلم في فضائل الصحابة بلفظه: ٧/ ١٥٢.

ذلك ترقية له وتكريم لا يناله إلا من يفرح بمقدمه، ولذلك كان دأب المسلمين دائمًا لقوة إيمانهم أنهم يَتَسَابَقُون إلى الشهادة، حتَّى سجل قوادهم هذا في رسائلهم إلى أعدائهم كقول خالد: « إني جِئتُكَ بأقوام يحبون الموت كما تحبون الحياة.. » هذا هو الجهاد الذي حَضَّ عليه الإسلام، وهذه أهدافه التي من أجلها شُرِع، وبه تحققت النهضة والحضارة لهذه الإنسانية، حتى قال خصومه: لولا دعوة محمد - عليه الصلاة والسلام - لظل العالم اليوم في ظلمات العصور الوسطى.

ملامح فنية:

إن المشهد الرائع الذي صوَّره النبي ﷺ بلفظه يقف في وجه المشهد المأساوي السابق، ويجعله يتلاشى أمام البصر، وينقل المتلقي من لحظات الأسى إلى لحظات الاستبشار العميق.

إننا نتصور هذا الصحابي الجليل وقد سقط شهيدًا في سبيل اللّه، وبعد هدأة المعركة الطاحنة يهرع ابنه الشاب إلى رؤية والده القتيل مدفوعًا بمشاعر البنوة الصادقة، فينهاه الصحابة ويسمح له النبي ﷺ، لا ليزيد من فاجعته، بل ليخرج الحزن من أعماقه، ويصبح مستعدًّا لتلقي البُشْرى بالوعد الرباني.

ثم يقول للباكية: « تبكيه أو لا تبكيه » فحصل ترجيح بين مفصلين، وأعاد الأصوات نفسها لتأكيد حتمية المعنى وتوازي الطرفين. ثم يَحْضُرُ مشهد غيبي وهو تظليل الملائكة هذا الشهيد بأجنحتها، ويستمر هذا لفترة زمنية كما تفيده: « حتى » في صورة حسية توحي بالظل الوارف اللطيف المَلمَس على الجلد: « **ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه** ».

هذه الصورة حقيقية لا مجازية، لكنها مثيرة للخيال بعناصرها الغيبية التي ألهبت المشاعر ووسعت الخيالات لمتابعة كيفية تظليل الملائكة بحجومها الكبيرة لهذا الرجل الواحد، وكيفية رؤية النبي - عليه الصلاة والسلام - لهم دون الآخرين من الصحابة الكرام.

إنها جزئيات خارقة لا تعرف حدًّا في الخيال، تلقي السكينة والرضوان على قلوب أهل الشهيد، بل تجعل كل واحد يتمنى لو كان شهيدًا.

إرشادات الحديث:

١ - فضل الشهيد في سبيل اللَّه تعالى.

٢ - كراهة البكاء على الميت شهيدًا أو غير شهيد بكاءً مقرونًا بالصياح والنُّوَاح، وقد شددت الأحاديث في ذلك تحذيرًا من عادات الجاهلية، ولأنه خلاف الصبر الذي أمر اللَّه تعالى به.

٣ - إظلال الملائكة للشهيد في سبيل اللَّه تعالى، تشريفًا له وتكريمًا لمقامه ومنزلته.

* * *
* *
*

فضل الحج

٣٤ عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « مَنْ حَجَّ لِلَّهِ، فَلَم يَرْفُثْ، ولَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَومِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ».

[أخرجه الستة إلا أبا داود][(١)]

* * *

المفردات:

الرفث: القول الفاحش في الأمور الجنسية، والكلام الخارج عن الأدب.

الفسق: الخروج عن الطاعة، وهو حرام دائمًا، لكنه في الحج أشد إثمًا وتحريمًا.

المحتوى الفكري:

ثمة جهاد لا قتال فيه وهو الحج، والحج ركن من أركان الإسلام الخمسة، فرضه اللَّه على عباده، وحَضَّ عليه النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، وفي هذا الحديث يذكر النبي ﷺ ما أعده اللَّه للحاج من ثواب عظيم يفوز به، حيث إن هذا الثواب يمحو الخطايا والذنوب كلها.

وقد أراد النبي ﷺ أن يبين شرط ثواب الحج العظيم هذا، وهذا الشرط هو أن يكون الحج للَّه وأن يتحقق الإنسان فيه بِمُثُلٍ عُلْيَا يتمسك بها في حياته كلها. فهو في الحج يُعِدُّ نفسه لذلك، فيسير وفق نظام خاصٍّ من التقشف الحازم، ويأخذ نفسه بما يسمو بها عاليًا سموًّا يشمل القلب والقول والعمل. وذلك ما قصد إليه الحديث فلننظر كيف عبر عن هذه المعاني الكبيرة الجامعة.

أما الهدف والمقصد: « مَنْ حَجّ للَّه »: فيجب أن يقصد الحاج رضاء اللَّه وامتثال أمره وتلبية ندائه لزيارة بيته الحرام ولطاعته في كل أمر؛ لذلك نجد شعار الحج: « لبيك اللَّهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك ».

في القول: « فلم يرفث »، لم يلفظ القول الفاحش من أمور النساء، أو الخارج عن الأدب.

---

(١) البخاري بلفظه (فضل الحج المبرور): ٢/ ١٣٣، ومسلم: ٤/ ١٠٧، والترمذي: ٣/ ١٧٦، والنسائي: ٥/ ٨٥، وابن ماجه: ص٩٦٤، رقم ٢٨٨٩.

وفي العمل: « ولم يفسق »، فلا يرتكب مخالفة للشريعة، ولا مخالفة لأحكام الحج ونظامه.

إذا تحقق الحاج بذلك استحق ذلك الفضل العظيم الذي ذكره الحديث، وإنه لثواب يطمح إليه الإنسان دائمًا، ألا وهو إعفاؤه من ذنوبه وخطاياه، فقد تحقق له ذلك، وعبر عنها النبي ﷺ أبلغ تعبير تصويري كِنَائِي في هذا التمثيل المحسوس: « **كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّـهُ** ».

ملامح فنية:

جاء الحديث على وجازة رائعة، فقد بين المعاصي المتعددة بإشارته في الرفث والفسوق. وهو يتكون من أربعة مفاصل:

بدأ بصيغة العموم « من حج ». ثم أورد مفصلين متوازيين في التركيب يعطيان تنغيمًا « **لم يرفث، ولم يفسق** »، وقد ناسب المضارع هنا تكرار الرفث والفسوق المحتملين في الحج، ثم قال: « رجع كيوم.. » بصيغة الماضي لتأكيد حتمية الغفران.

وورود الولادة يذكرنا بأن الإسلام هو الحياة الحقيقية، ويذكرنا ببقاء الشريعة الإسلامية وفطرة الدين الإسلامي.

ونجد في النص فعل « **حَجَّ** » يعارض « **رجع** »، في حين إن فعل « **يَفْسُق** » يرادف « **يرفث** »، ويكون امتدادًا له في البيان النبوي، فاجتمعت هذه الألوان؛ لتؤدي غرض الحديث أوفى أداء.

إرشادات الحديث:

١ - **الشرط الأساسي المعنوي المطلوب في الحج هو أن يحقق في المسلم سموًّا عاليًا يلتزم به مدة الحج**، وتظهر هذه الحكمة في أمور واضحة فُرِضَت في الحج، فقوة الإرادة الإيمانية تتجلى في الإحرام بالحج، فلا يتطيب ولا يقرب زوجته ولا يتكلم بالكلام الخارج عن الأدب.. ثم يلتزم التقشف فلا يقص أظافره ولا شعره، ويلبس للإحرام ثيابًا بسيطة جدًّا غير مَخِيطة.. والغرض من ذلك أن يقف موقف العبد الذليل أمام ربه، حالُه حالُ المُلْتَجِئ المستجير، كما يتحلى بصموده أمام نفسه ورغباتها.

٢ - الإحرام بالحج يعلم الإنسان أن **يهتم بكل أمر صغير أو كبير**، فمثلًا من المألوف سقوط الشعر، ولكن لا يجوز أن يسقط المحرم شعرة أيام الحج، والصيد حرام على المحرم، فلا يجوز أن يقتل شيئًا من الحيوانات النافرة، كل هذا يفعله الإنسان، وهو

من جهة الدين تَعَبُّدٌ للّه، وإخضاع لكل الغرائز الإنسانية طوع الأمر الإلهي، فالحاج هو الذي يتحكم في غرائزه وتصرفاته، والحج مدرسة تُعَلِّمُ الوصول إلى قمة الخضوع إلى اللّه ﷻ، ولا شك أنه كلما كان الإنسان أعظم انتباهًا وأكثر تيقظًا كان أصلح للقيادة، وهذه هي غاية رسالة الإسلام. وهي أن تعد كل مسلم لدور القيادة.

٣ - **مظهر آخر واضح ظاهر هو إشعار المسلم بيوم القيامة.** فالوقوف في الحج مع الآلاف الكثيرة من الجموع كلهم على هذه المظاهر من التقشف والتضرع إلى اللّه يري الحاج مشهدًا من مشاهد يوم القيامة فيخاف المسلم ويذكر اليوم الآخر.

٤ - **في الحج يجدد الحاج معاهدة اللّه على الإسلام**، ويؤدي مناسك الحج وهي استسلام كامل للّه تعالى، فيرجع « **كيوم ولدته أمه** ». إلا أننا في هذا المجال لا بد لنا أن ننبه إلى أن بعض الناس يسيء فهم هذا الحديث، فيظن أنه إذا أكل مال الناس بالباطل وقصَّر في واجباته الدينية ثم ذهب للحج كَفَّر اللّهُ عنه ذنوبه هذه كلها، وسقطت عنه الحقوق والزكوات السابقة والصلوات المتروكة، وهذا خطأ وجهل عظيم؛ لأن الأوامر العينية لا تسقط إلا بوفائها، فالصلاة والدَّيْنُ والزكاة وحقوق الناس لا تسقطها حجة ولا توبة ولا عبادة. إلا أن يسدد الدَّيْنَ ويصلي المرء ما عليه، ويؤدي الحقوق.

إن الإسلام في الواقع نظام متكامل يكمل بعضه بعضًا، وإلا لهانت الشريعة، وتهدمت أركان الإسلام، وهذا أمر لا يمكن أن يُتَصَوَّرَ إطلاقًا، فالحج يُكَفِّر الذنوب، أما الحقوق العينية فيجب تأديتها ثم يكون الاستغفار والمغفرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

* * *
* *
*

في القـرآن

٣٥ عن علي ﷺ عن النبي ﷺ قال: « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ ».

[أخرجه البخاري والترمذي][1]

* * *

المحتوى الفكري:

قد يتبادر إلى أذهاننا أن المقصود هو من يعلم القرآن للأولاد على الطريقة البدائية، ولكن الذي يفسِّر لنا هذا الحديث أعمال الصحابة، فإنهم كانوا إذا نزلت الآيات القرآنية يتفرغون لها دراسةً وحفظًا؛ لكي يفهموها ويقرؤوها في الصلوات، ثم يروضون أنفسهم ويجاهدونها حتى يطبقوها؛ فجمعوا الحفظ والعلم والعمل جميعًا.

إن القرآن الكريم هداية كاملة في كافة الأمور الدينية والدنيوية.

ففي العقيدة دعا إلى التوحيد الخالص وإلى تنزيه اللَّه عن كل وصف لا يليق به، وللاعتقاد بصفات الكمال للَّه، وقرر أركان الإيمان كلها بما يقبله العقل ويقوي اليقين.

وفي العبادة شرع أنواع العبادات الشاملة، وتوسَّع في مفهومها توسيعًا لأبواب الجنة، وحرَّر المؤمن من رقّ الوساطة التي استعبدت الناس للناس من دون اللَّه، **وفي الأخلاق أتى بأمثل الأخلاق**، وربَّى المؤمن على المُثُل العليا الفاضلة التي امتازت بمثاليتها وواقعيتها.

وفي التشريع: أتَى بشريعة شاملة لكل جوانب الحياة المدنية والجنائية والاقتصادية وغيرها، وأسس حضارة نَعِمَتْ في ظِلِّها الإنسانية وسعدت.

وفي العلوم: أبان الحقَّ في المعارف الإلهية والغيبية، ونفى عنها الخرافات، ونبَّه الأنظار ولفت الأفكار **إلى أسرار الكون**، فأثار بذلك الفكر العلمي المبدع في الكونيات، وَوَجَّهه جِهَةَ الخير، ألا وهي خدمة الإنسان وتقوية إيمانه.

أليس من أحاط علمًا بهذا الكتاب قد امتاز على غيره من الناس؛ بلى إنه أرقَاهم فِكرًا،

---

(١) البخاري (فضائل القرآن): ٦/ ١٩٢، والترمذي في فضائل القرآن (ما جاء في تعليم القرآن): ٥/ ١٧٥.

وأمثلُهم خُلُقًا، وأوسعهم إدراكًا في العوالم التي تحيط به. هذا هو المعنى الذي أراده الحديث الصحيح، ووصفه بأنه خير الناس؛ لأنه استكمل جوانب الكمال في النفس، وأصبح ينبوعًا يغذي غيره، فهو خير لنفسه، وخير للعالم، يُشع هدايةً وبرًّا ونورًا.

وليس المراد أن نتعلم القرآن كالأشرطة التسجيلية، كلا... فحظ تعلم القرآن إنما هو لمن يعمل به، إلى جانب علمه، وهو العلم الذي حدَّث عنه تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨].

فكل علم نتعلمه إذا أدى إلى زيادة الإيمان فهو علم محمود وممدوح عندما نسلك به الطريق المحمود، وكل علم حق أيًا كان موضوعه نظريًّا أو عمليًّا فإنه يتصل بالقرآن الكريم والإسلام. وليس هناك فصل بين العلوم الحديثة والقرآن؛ لأن كل العلوم تتصل بالقرآن الكريم عن طريق التنبيهات القرآنية الكونية اتصالًا وثيقًا، إلا أن الغرض القرآني يرمي من ورائها إلى دعم المُثل الإيمانية، وتعزيز مكانة هذا الإنسان الذي جعله اللَّه خليفة في الأرض.

أما الغرض المادي المحض الذي يتجاهل القيم الفاضلة فهو خروج عن مقصده الحكيم الفاضل، وعن حكمة اللَّه تعالى في تسخير الكون للإنسان، لذلك كانت العلوم التي أتانا بها الغرب فيها بلاء على هذه الإنسانية.

ملامح فنية:

يتضمن هذا الحديث الأسلوب الخطابي « خيركم » وذلك لوجود كاف الخطاب، وهذا يعني السعي إلى إثارة انتباههم وتفهمهم وإشراكهم، وذكر بكلمة « خيركم » لأن الخيرية أعلى من كل القيم، مثل أفضل وأحسن، وأجمل؛ لأن الخير يتضمن الحق والجمال، فهذه الكلمة أعلى من غيرها، كما أنها تشتمل على الكثير من القيم الرفيعة.

ونجد التشابه الصوتي (الجناس الناقص) بين « تعلم » و « علم »، لا يفرق بينهما إلا التاء الدالة على الجهد في فهم القرآن؛ لتوصيل مضامينه إلى الآخرين، فالفعل الأول حركة تلقٍّ أي حركة إلى الداخل، والفعل الثاني حركة إرسال أي حركة إلى الخارج، فهما يتعارضان من حيث الوظيفة، ولكنهما يتكاملان من حيث إن الأول: التعلم، سبب للثاني: التعليم، كما نجد في النص الوجازة الدالة على كلمات قليلة تحتوي المعاني الوفيرة.

فضل تلاوة القرآن

٣٦ وعن أبي مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنةٌ، والحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا. لَا أَقُولُ ﴿ الٓمٓ ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، ولَامٌ حَرْفٌ، ومِيمٌ حَرْفٌ** ».

[أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه][1]

* * *

ملامح فنية:

يتجلى في هذا النص البناء التوالدي، إذ تشتبك مقاطعه بوساطة التصعيد إلى الأعلى، من الحسنة إلى عشر أمثال إلى الحسنات الكثيرة للأحرف، وهذا من مظاهر تماسك جزئيات النص، يتضح هذا التشابك في قوله: « **حسنة والحسنة بعشر أمثالها** ». وهو عدد تقريبي لزيادة الثواب.

كذلك نجد التوازن الصوتي في تكرار كلمة حرف إذ ترد ثلاث مرات، ويذكرنا هذا التوازن بالانسجام الموسيقي في كلمات القرآن، فالنص يثير صورًا متنوعة، وينقلنا إلى تذكر النسق الموسيقي القرآني حيث الجهر والهمس والاستعلاء والشدة والرخاوة، وغير هذا من وسائل إثارة المتلقي وتشويقه، في الجملة: « **لا أقول** »، ثم يأتي الاستدراك « **لكن أَلِفٌ حَرْفٌ**... ». وبعد فالنص يمتاز بوجازة التعبير وسلاسة المفردات.

* * *

٣٧ عن عبد الله بن عَبَّاس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: « **إنَّ الذِي ليسَ فِي جَوْفِهِ شَيءٌ مِنَ القُرْآنِ كالبَيتِ الخَرِبِ** ».

[أخرجه الترمذي وصححه][2]

* * *

(١) في فضائل القرآن (باب من قرأ حرفًا من القرآن): ٥/ ١٧٥، ١٧٦.

(٢) في فضائل القرآن وقال: « حسن صحيح » (باب ١٨): ٥/ ١٧٧.

المحتوى الفكري:

إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب، فهذا الإنسان قَدْ فَقَدَ مصدر الخير والمُثُل؛ لأنه ليس في جوفه شيء من كلام اللَّه الذي هو مصدر المثل والفضائل، فهذا المعنى وهو فقدان مصدر الخير أمر معنويٌّ دقيق، لكن الحديث قد جلَّى لنا هذا المعنى بمعنى مادي قوي؛ إذْ شبَّه ذلك الإنسان فجعله كالبيتِ الخَربِ الذي لا تجد فيه سوى الحشرات والبوم والعناكب، فالإنسان عندما يكون سالكًا طريق الفضائل يزيل الرذائل عن نفسه، فلا بد له من القرآن؛ لأنه مصدر هذه القيم الدينية والخُلُقية الفاضلة؛ لذلك كان أمر البيت الخرب متاحًا للعواصف والحشرات، كذلك أمر من خلا قلبه من القرآن، فكلما كان حظ الإنسان من القرآن الكريم بعلمه بالقرآن وعمله به أكبر كان الإنسان فاضلًا أكثر، خَيِّرًا يعمل لخير الناس، ويستطيع أن يقضي على شرور نفسه وعلى شرور الناس.

ملامح فنية:

يتكون هذا الحديث من مقطع ذي مفصلين: **الأول: « الذي ليس في جوفه شيء من القرآن » والثاني « كالبيت الخرب »**.

وقد بُدِئَ النص بالتوكيد بـ « إنَّ »، واختار الجوف للدلالة على الصدق، فكثيرون الذين يحفظون القرآن ولا يعملون به ولا يصدقون، وقد ربط طرفي الكلام بكاف التشبيه.

ويضعنا النص في مقارنة بين مكانين داخليين: الأول ذهني مجرد وهو جوف الإنسان، والثاني حسي مشاهد وهو البيت الخرب. فالقرآن أَمْنٌ وسكينة للإنسان، فإن احتوى الجوف على القرآن كان كالبيت الآمن العامر بالأهل، وإن انتفى من القرآن كان كالبيت الخاوي المُهَدَّم الذي يُمْسِي مأوى الحشرات والحيوانات التي ترمز إلى الذنوب وتَدَاعي المعاصي بسبب ترك حفظ القرآن.

هذا التشبيه يثير فينا الرعب حتى لنشعر أن القرآن ركن السلام والملاذ الذي يحمينا من مظاهر الفناء، ويثير فينا الحب تجاه القرآن الذي يبني الإنسان روحًا وجسدًا.

ويفسح النص أمام النفس مجالًا لتحصيل الخيرات، فهو يشير إلى تصاعد المثوبة، فبحفظ آيات من القرآن بدت في البيت ملامح الأمن والأنس، فانتقل بذلك من

الضروريات إلى الكماليات الجمالية؛ ليغدو البيت نموذجًا يجسم الإنسان الكامل في الإسلام.

* * *

٣٨ عن عبد اللَّه بن عمرو - رضي اللَّه عنهما - أن النبي ﷺ قال: « **يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْـرَأْ وَارْقَ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْـتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَـا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِـرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا** ».

[أخرجه الترمذي وصححه][1]

* * *

المحتوى الفكري:

يقصد الحديث إلى حَضِّ الناس على قراءة القرآن الكريم ببيان فضله، فيقول تعالى لقارئ القرآن: « اِقْرَأْ وَارْقَ ». هنا جناس ناقص غير متكلف وذلك ما كانت عليه طبيعة البلاغة النبوية، حيث كان - عليه الصلاة والسلام - لا يحب التكلف، فالحريص على ثواب اللَّه تعالى يكثر من قراءة القرآن الكريم.

فهذه الصيغة التي رسم الحديث بها وضعية قارئ القرآن الكريم، فقال: « يقال »، ولم يقل: « سيقال »، تفيد حضور الشيء، كذلك كون اللفظين « اقرأ ورتل » متجانسين يوحيان بقوة ارتباط المعنى ببعضه: القراءة بالترقي؛ لينسجم المعنى مع المراد من الحديث.

وهذه الصورة قوية ومعبرة استعانت بالألفاظ لربط المعنى مما يثير كوامن الرغبات في النفس، وذلك مما أوتيه النبي ﷺ.

ملامح فنية:

يتكون الحديث من ثلاثة مقاطع تشترك بأن كل مقطع يمتلك توازنًا موسيقيًّا.

ففي المقطع الأول: « **اقرأ وارقَ** »: نجد الحروف نفسها تعاد بالعكس، وهذا يعني أن القراءة رُقِيٌّ وعُلُوٌّ وصعود بالإنسانية.

وفي المقطع الثاني: « **رتل... ترتل** »، **وفي الثالث:** « **آخر آية** » حيث المد الذي يفتتح المفردتين.

---

(١) في الموضع السابق وقال: « حسن صحيح »: ٥/ ١٧٧.

المقطع الأول: سردي يتضمن الحكاية في بدايته، ثم يفتح باب الخطاب: « **اقرأ ورتل** » والمخاطب هو « **صاحب القرآن** »، أي: لكثرة ملازمته قراءة القرآن وتدبره، نشأت بينهما صحبة يُعرف بها القارئ، وهذا يكون بالمواظبة والمجاهدة.

والمقطع الثاني: يأتي طلبيًّا « **رتل** » يتبعه توازن في تكرار الكاف « **كما كنت** »، ثم يردنا البيان النبوي إلى الماضي، ويرسم أمامنا مشهد القراءة في الدنيا.

وفي **المقطع الثالث**: نتصور تصاعد المنزلة بالقراءة، و « **عند** » ينقلنا من مكان الآيات إلى مكان فسيح، وهذا المكان هو المكافأة غير المحدودة عند اللّه في الجنة.

ويعد هذا الحديث صورة صوتية في عالم الغيب، حيث الحوار بين الخالق والعبد الصالح القارئ، يتخلل هذه المرئيات صور صوتية، هي من موسيقا القرآن وترتيله، وجمال أصواته الممتعة، التي تنقلنا إلى إمتاع البصر برؤية النعيم المنتظر.

* * *
* *
*

معنى العبادة ومفهومها

٣٩ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَن عِبَادَتِهِ؟ فَلَمَّا أُخْبِروا كَأَنَّهُم تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِي ﷺ قَد غُفِرَ لَه مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ومَا تَأَخَّر؟.

قَالَ أَحَدُهُم: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيلَ أَبَدًا. وَقَالَ آخر: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِر. وقال آخر: أَنا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلا أَتَزوَّجُ أبدًا. فجاء رسول اللَّهِ ﷺ، فقال: « أنتم الذين قُلْتُمْ كذا وكذا، أَمَا واللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَه، لكِنِّي أَصُومُ وأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وأَرْقُدُ، وأَتَزَوَّجُ النِّسَاء، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي ».

[متفق عليه][1]

* * *

المحتوى الفكري:

هذا الحديث المروي بإسناد من أصح الأسانيد يوضح لكل مؤمن وكل شاب يريد التدين، ويصحح له ما علق بذهن كثير من الناس فهموا معنى العبادة فهمًا خاطئًا، مما أدَّى إلى ضلال جماعات فهمت الإسلام خطأً فألزمتْ نفسها أشياء لم تستطع السير في طريقها، مما أدَّى إلى انحرافها.

هؤلاء الثلاثة ظنوا أن الترقي في العبادة يكون بأن يرهق الإنسان نفسه في هذا الطريق، حتى ينال - رضوانَ اللَّه تعالى -، وبما أن القدوة العُليا لكل مسلم هو النبي ﷺ فقد راحوا يسألون عن عبادته، لكنهم وجدوا الجواب خلاف ما يتوهمون من التشدد فيها، فَسَوَّل لهم فَهْمُهُم الخاطئ أن يفسروا فعله ﷺ بما يتلاءم مع هذا الفهم، فقالوا: إننا لسنا مِثْلَهُ، « قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر »، فالذي لا يذنب لا يبالغ في العبادات - بزعمهم ووهمهم - ولكننا نذنب؛ لذلك علينا زيادة عبادتنا. وطريق ذلك قهر الجسد وإرهاقه بالتعبد الشاق، وكبت النفس.

(١) البخاري في أول النكاح: ٧/ ٢ ومسلم: ٤/ ١٢٩.

لكنهم أخطأوا خطأً عظيمًا، فبادر النبي ﷺ لتصحيح خطئهم هذا، فقال لهم - عليه الصلاة والسلام - عندما سمع بكلامهم: « **أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟** »، هكذا باستفهام إنكاري، ولم ينتظر جوابًا، بل قال لهم: إني في خشية اللَّه وتقواه أعظم منكم جميعًا، وقد جاء في بعض الروايات: « **إنَّ أتقاكم وأعلَمَكم باللَّه أنا** ».

فالخشية من اللَّه مرادفة للعلم به. فكلما زاد علم الرجل باللَّه زادت خشيته من اللَّه، والنبي ﷺ كما جاء في الصحيح: « كان يقوم الليل حتى تَوَرَّمَتْ قدماه »، فقيل له في ذلك فقال: « **أفلا أكون عبدًا شكورًا** »[1]. فالرسول ﷺ وصل إلى درجة كاملة للعبادة، وأبان للناس أن الإسلام قد وَفَّقَ في مفهوم العبادة بين واقع الإنسان وبين طموحه. وهذان أمران متعارضان في الوهم؛ لأن الطموح المثالي لا يدركه الواقع، ومن هنا نجد أنه كثيرًا ما يتحدث الناس عن واقعية المُثُل العليا، فالمَثَل الواقعي هو الذي ينسجم مع واقع الإنسان، ويوجهه توجيهًا صالحًا للتطبيق، لا يكلفه عنتًا وإرهاقًا، وليس الذي يساير نزواته وطيشه.

هذه هي الواقعية الصحيحة، وليست الواقعية تلك التي تقر شريعة الأهواء والشهوات، تقول: إن الإنسان قد يريد الكذب، والكذب أمر واقع في الحياة، فليكذب، وإنه فُطِرَ على حُبِّ المال، فليأخذه كيفما اتفق، وإن فيه غريزة الجنس فليروها من أي سبيل، إن هذه في الواقع شريعة الغاب، وديانة الذئاب، وهي الطريق الذي انتهى بالأمم إلى الدمار، حتى عَفَتْ منهم الآثار.

إن حاجة الإنسان للراحة والنوم جِبِلَّةٌ فُطِرَ عليها، والعبادة لا شك أنّ فضلها عظيم وثوابها جزيل يُرْغَبُ فيه، لكن لا يجوز أن تكون تلك الرغبة على أساس إرهاق الجسم وترك النوم كلية، بل يجب أن يُعْطِيَ هذا الجسم حقَّه الضروري من النوم، وأن تجمع بين الأمرين: النوم واليقظة قبل الفجر؛ لعبادة اللَّه ومناجاته.

وحاجة الجسم للغذاء ضرورة حيوية، تتطلبها سلامة بنيته؛ كي يتمكن من القيام بأعبائه وواجباته، والصيام عبادة عظيمة، ومجاهدة للنفس وتربية لها، ولكن لا يجوز أن نُفْرِطَ ونبالغ فيه، حتى نَقْضِيَ على جسمنا بمواصلة الصيام.

---

(١) رواه البخاري، رقم ١١٣٠، في التهجد (الصلاة) (قيام النبي ﷺ حتى تورّمت قدماه)، ومواضع أخرى، ومسلم رقم، ٢٨١٩ في صفات المنافقين (إكثار الأعمال والاجتهاد).

وفوق ذلك كله غريزة الجنس، والمتعبدون في عصر النبي ﷺ على اختلاف أديانهم واتجاهاتهم ينظرون إليها بازدراء عظيم، وحذر شديد ويجعلون تجنبها من أشد الضروريات للعبادة، لكن التشريع الحكيم أَقَرَّها، وشرع لها أحكامًا تنظمها، بل إن الإسلام كان أكثر تقدُّمًا مما يتصوَّره أي إنسان يعرف تلك البيئة، أو البيئات الأجنبية في عصرنا هذا، إذ جعل الزواج سُنَّةً مؤكدة يطلب من المسلم أن يفعلها، ولو لم يجد من نفسه دافعًا يخيفه من الفاحشة.

وقد بيّن لنا هذا الحديث الترغيب العظيم في الزواج، حتى قال: « **فمن رغب عن سنتي فليس مني** ».

بل إن الإسلام جعل الزواج جزءًا من برنامج العبادة، فلقد قرر العلماء أن إنسانًا لو قال: إني سأتفرغ للعبادة ليل نهار، وأترك الزواج حتى لا تشغلني المسؤولية عن الزوجة ثم عن الأولاد عن العبادة لحظة واحدة، لقلنا له: إن الزواج والانشغال بهذه المسؤوليات أفضلُ وأحب إلى اللَّه من الانقطاع الكلي للعبادة. والحديث بين أيدينا صريحٌ في ذلك غاية الصراحة، قويٌّ غاية القوة.

هذه هي المثالية في الحياة الروحية، اعترفت بواقع الإنسان وأقرته، لكنها هَذَّبَته وصقلته، فالإسلام يثق بالإنسان وبفطرته، وأنها فطرة - إذا سلمت من الكدورات - خَيِّرةٌ، يصلح البناء عليها في الرقي الروحاني، وهذا فرق شاسع ما بين الإسلام وغيره ممن يسيئون الظن بفطرة الإنسان، التي خلقه اللَّه - تعالى - عليها، ويرون سلامته ونجاته في التمرد على هذه الفطرة وكَبْتِهَا ووَأْدِها، في سبيل أهداف روحية أو مادية، وإن هذا الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ هو الحل السليم الصحيح، الذي تصلح به الحياة، وتستقيم أمورها، وإنه لتقدم وكمال عظيم في عالم التربية، أن نوفق بين هذه الغرائز، وبين الفضائل العليا، وذلك بما جاء به هذا النبي ﷺ، من تهذيب هذه الدوافع وتنظيم سلوكها، حتى صارت داخلة ضمن العبادة والحياة الدينية؛ لأن حياته ﷺ كلها عبادة، وهي الكمال الذي يجب على المسلم أن يحققه، ولا يَتَزَيَّدُ عليه، فمن رغب عن سنته فقد انحرف عن الصراط السوي « **فَمَن رَغِبَ عن سُنَّتِيْ فليس منِّي** ».

ملامح فنية:

نتصور في بداية هذا النص حركة القلق لدى هؤلاء الثلاثة وهم يذهبون إلى بيوت

أزواج النبي ﷺ سائلين بشغف، عن ماذا؟ عن عبادة النبي ﷺ؛ لأنهم رغبوا في الازدياد من الطاعات، وليس ثمة مرجع تعرف منه إلا أعماله ﷺ الداخلية. لكنهم لم يجدوا الغلو والشدة التي توهموها، ولعل أحوال بعض الرهبان أثرت في تصورهم فرجعوا إلى أنفسهم في حوار داخلي جمعي: « **أينَ نحنُ من النبي ﷺ** ».

ثم ترد ثلاثة مقاطع في النص كل واحد منها يقدم مشهدًا يعتمد على الاحتمال القابل للحدوث، الصلاة الدائمة في الليل، والصيام الدائم، واعتزال النساء. حتى يأتي البيان النبوي رافضًا هذه المقولات ومُبْعِدًا هذه الصور عن الذهن، مُؤكِّدًا طابعها الخيالي الجانح عن الحق، فهو يقول: « **أنتم الذين قلتم كذا وكذا** »، وبدأ بالضمير « أنتم » لاستلفاتهم إلى جلال المقام وأهمية الكلام، وهذه الروح الخطابية تجعلهم محوطين بالبيان النبوي، معنيين بمقاصده؛ ليصبحوا بعد ذلك نماذج لغيرهم، وزاد في تخصيصهم بذكر اسم الموصول « **الذين قلتم** » فقد وصفهم به، وعبرّ بالماضي « قلتم » ليبين أنه كلام قد انتهى لا يعودون إليه.

وفي المقطع التالي تتعانق أدوات الاستفتاح والتنبيه والقَسَم والتوكيد مما يدل على أهمية ما يقول وخطورة الموقف الذي شاهده « أما واللَّه إني » وهي أدوات تتفاعل مع العقل ليضع القضية في المكان المهم، وتتفاعل مع الخيال؛ لأنها تثير فيه مظاهر الخطورة في السلوك الذي عيّنه هؤلاء الثلاثة.

ثم أتبع هذا بصيغتين على وزن واحد حيث صيغة التفضيل على وزن أفعل وتعني الأفضل في القمة، وليس ثمة مقارنة بينه وبين أحد « **أخشاكم، أتقاكم** » تردان على سبيل الترادف إذ كلاهما في حقل معنوي واحد، ولكن قدمت الخشية؛ لأنها سبب للتقوى التي هي نتيجة من حيث السلوك اليومي.

وبعد أن يذكر الكلي الدائم يذكر الجزئي، وهو كونه يصوم ويفطر ويصلي وينام، فهذه التعارضات تعطي توازنًا في التركيب، وتؤكد التوازن النفسي في سلوك المسلم، « أصوم، أفطر، أصلي، أرقد »، كل هذه الأفعال بالإضافة إلى « **أتزوج النساء** » جاءت في صيغة المضارع، وذلك لاستحضار المشاهد التي يذكرها، وإلى كونه مستمرًّا في هذا النهج القويم المعتدل، ويبدو لنا أن البيان النبوي بدأ بلذة الطعام وضرورته؛ لأنه حاجة حسية ظاهرة التفاعلات، ثم أردفها بلذة النوم لأن الحاجة إليه أقلُّ تجلِّيًا، ثم لذة النساء

لأنها لا تقتضي اشتراك الجميع فيها من طفل وعجوز. ويلحظ أنه قال: « **أتزوج النساء** » ولم يقل: لا أعتزل النساء؛ لأنه أراد أن يترفع عن ذكر منهجهم المعوج المُغَالِي.

وينتهي النص بمقطع يوضح التوجيه بعد البيان « **فَمَن رَغِبَ عَن سُنتي فليسَ مِني** »، وتبرز فيه توازنات صوتية: « **فمن، عن** »، « **سنتي، مني** »، حيث ترد النون الساكنة أربع مرات، وقد جاء هذا المقطع في تركيب شرطي أي: هو يقين، وفي هذا أسلوب برهاني.

وبعدُ، فالحديث يتسم بوضوح الألفاظ فهي مأنوسة سلسة، وبوضوح العبارات القائمة بوظائف التتميم، وبوضوح الجمل وتقسيمها بحسب متطلبات الموقف وحيثياته.

إرشادات الحديث:

١ - إن مصدر كمال المعرفة والسلوك والعبادة هو النبي ﷺ، وعلى المسلم أن يبحث في سيرته ﷺ وسنته، للاقتداء به ﷺ، ويُقَصِّر المسلم كثيرًا بقلة اهتمامه أن يحيط بسيرة النبي ﷺ وشمائله.

٢ - يُسَنّ للمؤمن اتباع أحوال الكَمَلَة المتبعين للنبي ﷺ، لأن الأخذ من الواقع التطبيقي لا بد منه؛ لتوضيح السلوك وكيفية العمل بالشرع، ولو احتاج لِأَخْذِهِ عن النساء.

٣ - الترغيب في الزواج والحَضّ عليه؛ لأنه جزء من سنة النبي ﷺ. وتأكيد الحديث أمره وتشديده على مَنْ قرر اعتزال النساء يكاد يفيد الوجوب، فَلْيتذكرْ شبابُ الإسلام القادرين وليسرعوا إليه.

٤ - سماحة الإسلام وبعده عن التشدد في العبادة، وأن سنة النبي ﷺ فيها الاعتدال؛ ليوازن المتعبد بين عبادته وواجباته الدنيوية، بل إنه يستطيع أن يكون متعبدًا في كل أحواله وأفعاله إذا نوى بما يعمل للدنيا النية الصالحة لإعفاف نفسه وإعانتها على تقواها، وتقوية المسلمين.

٥ - الحَضُّ على الاستمساك بطريقة النبي ﷺ، والتحذير من التَّنَطُّعِ والتَّزَيُّدِ على ما شرعه، وفي ذلك إبطال للرهبانية التي ابتدعها أهل النصرانية وغيرهم. وجَمْعٌ بين صلاح التدين وصلاح الدنيا، وإعمار الحضارة في ضوء أهداف الإسلام، وإغناء المسلمين، وإعزاز الأمة المسلمة.

* * *
* *
*

في النفس
والقيم الإنسانية

في الأخلاق والقيم الإنسانية

ترتبط الأخلاق والقِيَمُ الإنسانية بالإسلام ارتباطًا وثيقًا، نجده واضحًا في هذا الحديث المشهور: « إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ »[1]. كما يدلنا على مدى رفعتها عند الله ذلك الثناء الإلهي على الرسول ﷺ، إذ يقول الله له: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

ومن هنا نجد أن أركان الإسلام مُهَذِّبةٌ لهذه النَّفس الإنسانية، كما أنها العروة الوثقى لصلة الإنسان بخالقه وأداء حقه.

فالصلاة يقول فيها القرآن: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

والزكاة تطهر النفس من رذيلة البخل، وتنمي فضائلها ومشاعرها الإنسانية، كما يصرح بذلك قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣]. والتزكية هي التنمية؛ لأنها تنمي الفضائل.

والصيام يقول تعالى فيه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]. وفي الحديث: « إذا كانَ يومُ صومِ أَحَدِكُم فلا يَرْفُثْ ولا يَصْخَبْ »[2].

وكذلك الحج يقول فيه القرآن: ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّۗ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وهكذا يتجلى للنظر الموضوعي أن الإسلام يحمي الإنسان من المساوئ والآفات بوساطة العبادة التي تحدد المعاملة مع الخالق والخلق، حتى تصير العبادة نظامًا يريح الإنسان من المشكلات؛ ليَفْرَغَ لمحبة ربه والتفكر بنعيمه.

* * *
* *
*

---

(١) رواه أحمد في المسند: ٢/ ٣٨١، وابن سعد في الطبقات الكبرى: ١/ ١٩٢.

(٢) رواه البخاري، رقم ١٩٠٤، في الصوم (هل يقول إني صائم إذا شُتِمَ) ومسلم، رقم ١١٥١، في الصيام (فضل الصيام).

الأخلاق والإيمان

[٤٠] عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: « أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُم خُلُقًا، وَخِيَارُكُم خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا ».

[أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح][1]

* * *

[٤١] وعن أبي قِلَابَةَ عن عائشة - رضي اللّه عنها - قالت: قال رسول اللّه ﷺ: « إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إيمانًا أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا وَأَلْطَفَهُمْ بِأَهْلِهِ ».

[رواه الترمذي بسنده وقال: « هذا حديث حسن
ولا نعرف لأبي قلابة سماعًا من عائشة »][2]

* * *

السند:

حديث عائشة صرَّح الترمذي بأنه لم يسمعه راويه أبو قلابة منها، وهذا يعني أن الحديث منقطع، وقد عرفنا أن المنقطع ضعيف، لكن الترمذي قال: (هذا حديث حسن). ولعل سبب ذلك أن الحديث وجد له شاهد روي من طريق آخر، كحديث أبي هريرة السابق، فتقوى الحديث، وارتفع إلى مرتبة الحسن، وهو من نوع (الحسن لغيره).

المحتوى الفكري:

الحديثان يبينان أهمية الأخلاق، ويضربان مثالًا يُقاس به الإنسان في سلوكه الخُلُقي؛ ليظهر صدقه فيما يظهر عليه من سيما التحلي بالفضائل الخلقية.

وقد قَرَّرَ الحديثان أهمية الأخلاق ومكانها بما لا مزيد عليه من البيان، إذ وجدنا الأخلاق مرتبطة بالإيمان، متناسبة معه تناسبًا طرديًا لا يتخلف، فالإيمان في القلب يتأثر

---

(١) الترمذي في الرضاع (حق المرأة على زوجها): ٣/ ٤٦٦، وأبو داود إلى قول « خلقًا » في السنة (الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه): ٤/ ٢٢٠.

(٢) في الإيمان (باب استكمال الإيمان وزيادته ونقصه): ٥/ ٩، وفيها قوله: « صحيح... إلخ ». وفي طبعة بولاق: ٢/ ٨٠ « حسن ».

كثيرًا بسلامة السلوك الأخلاقي للمؤمن، فهو يزيد وينقص تبعًا لكمال السلوك الأخلاقي ونقصانه.

وهنا يضع النبي ﷺ قاعدة دينية مهمة تصحح ما يدور بوهم الجاهلين الذين يتبعون أهواءهم وأوهامهم في تصور معاني الإيمان؛ إذ لا يرونه أكثر من فكرة عن الاعتقاد بوجود اللَّه، وشيء من الشكليات التي لا يرون لها أهمية ولا يبالون بها.

كذلك يوقظ الحديث الغافلين الذين غرتهم أعمالهم، فظنوا أن الشعائر الدينية كالصلاة والزكاة مثلًا، قاصرة على حدودها الضيقة التي يتم فيها أداؤها فقط، ثم لا يشعر أحدهم بالغضاضة أن يكذب، أو يغش في صناعته أو تجارته أو بنيانه، وهو يحمل ألقابًا طرحها عليه العرف تُشعر بأدائه الشعائر الدينية.

إن النص النبوي الذي بين أيدينا يقرر أن الإيمان لا يتم ولا يكتمل بمجرد دعوى أو دعاية يظهرها الإنسان أمام الملأ، وإنما الإيمان جذوة مضيئةٌ في القلب يضيء شعاعها تصرفات سلوكه، ويظهر أثرها في أخلاقه؛ كمالًا وتهذيبًا وسموًّا.

وإن لهذا البيان أثره البالغ في تقويم سلوك الناس، فالمجتمع الذي نعيش فيه يُعاني من رسوبات وتقاليد، سرت في أخلاقٍ تبعده عن كمال الخلق واستقامة الأمر، إلى أخلاق الجاهلية وعادات السفهاء؛ وذلك بسبب الفصل بين الأخلاق والسلوك الأخلاقي وبين الإيمان وآثاره التي لا بد منها؛ ليستدل على قرار الإيمان في القلب واكتماله.

كم من أناس يحسبهم الجاهلون ملائكة تسير على الأرض، لا يكاد أحدهم يُغلق باب منزله من ورائه حتى ينقلب شيئًا آخر، فهو بين الناس حسنُ الكلام مهذب اللفظ، لكنه في بيته خشن قذر الألفاظ، وهو بين الناس ناعم يسيل عذوبة ورقة، لكنه في بيته جاف غليظ الطبع، وهو بين الناس أنيس يجتذب إليه جليسه لكنه في بيته فاجر متوحش.

هذا هو المقياس الحقيقي للخلق « خياركم خياركم لأهله »، حيث تبدو الحقائق الدفينة في النفس تُنبِئُكَ من أنت وماذا تكون؟

هذه هي أسس الأخلاق، يحدد مبادئها الإيمان، والتزامها إنما هو بالإيمان باللَّه والتقوى للَّه، ومقياسها أجلى مظهر للنفس على سجيتها، استوعب الحديث ذلك كله في هذه الكلمات المعدودة، فكان غاية في الإيجاز، إلى جوار كونه غاية في الوضوح

وسهولة الفهم. ثم كانت فيه تلك القوة المؤثرة في النفس إثارة وتحريضًا على هذا الخير، في الافتتاح بأفعل التفضيل مضافًا لكلمة المؤمنين: « **أكمل المؤمنين إيمانًا** »، وكذا قوله: « وخياركم خياركم لنسائهم.. » إذ استشعرت النفس بهذا عظمة المعنى، بذكر جماعة المؤمنين كلهم، فوجدت نفسها في حلبة السباق، السباق في الخير، في مكارم الأخلاق، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

ملامح فنية:

الحديث الأول: « أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وخياركم.... » يتألف من مقطعين:

المقطع الأول: من مفصلين « أكمل المؤمنين إيمانًا »، « أحسنهم خلقًا »، ويشتبكان بوساطة الخبرية، فإن الثاني خبر للأول، وحيث إن الإيمان أساس كل خير وشرط كل عمل استحق أن يُذكر بالكمال دون الحسن، فقال: « أكمل المؤمنين ».

ونجد تنغيمًا بين المقطعين في « إيمانًا » و « خُلُقًا »، وتوازنًا في مجيء « أكمل » و « أحسنهم » على وزن أفعل.

المقطع الثاني: « خياركم خياركم لنسائهم خلقًا »: انتقل من الحسن إلى الخيرية التي هي أعم، ونجد التوازي بتكرار « خياركم » والروح الخطابية باستخدام كاف الخطاب ليؤثر في المتلقي في هذه الجزئية من الأخلاق.

أما الحديث الثاني: « إن من أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا.. » فنلحظ فيه زيادات جمالية وموضحات للمعنى: بدأ بالتوكيد « إن » مُنَوِّهًا بجلالة المقصد، وأردفه بحرف جر « من » للتبيين والتشويق. واستخدم صيغة التفضيل « أكمل » وأضافها للمؤمنين ليأنس المتلقي بكثرة المؤمنين، وليحثّه على المسابقة في الخيرات. وجاء التنكير في « إيمانًا » و « خلقًا » لتوسيع دائرة الإيمان والخلق الحميد. ثم التوازن الموسيقي في « إيمانًا » و « خلقًا » ثم في « أحسنهم » و « ألطفهم ».

وبشكل عام: اتسمت ألفاظ الحَدِيثَين بالسهولة، ولعل هذا يتصل بالرحمة المطلوبة في مقام الخلق الحسن ورعاية الأهل.

وذكر « **أهله** » دون زوجته فيه دلالة تهذيبية، إذ فيه ترفع وتهذب في ذكر المرأة، وإشارة إلى كونها سببًا لمحبة الأولاد والأحفاد، فكأنها هي الأهل كلهم.

وقد أشار النصان إلى أن ثمة حركة عبادية تتجلى في معاملة الأهل وتتصل بالتصديق بوجود اللَّه تعالى وتعمقه، وهذا من أسمى مظاهر التحضر الإسلامي.

إرشادات الحديثين:

١ - تضمن النص الحديثي قاعدة في الأخلاق عظيمة الخطورة والأهمية، إذ قرر أن السلوك الأخلاقي ينبثق عن الإيمان باللَّه وتقواه، وحسبان اليوم الآخر والاستعداد له.

وبهذا تقوم الأخلاق على أساس قوي متين، يضمن لها التنفيذ في عالم الواقع، لا أن تظلَّ حُلمًا في الخيال؛ إذ يستشعر المؤمن رقابة اللَّه واطِّلاعه على كل أمره، فيراعي بضميره وقناعته ما يحققه ويجعله متصفًا بأحسن الأخلاق.

وفي الحقيقة إن إقامة الأخلاق لا تتم إلا بناءً على عقيدة إلهية صحيحة، تستقر في القلب وتُشع آثارها وتُترجم معانيها في السلوك.

لكن كثيرًا من الناس اليوم يروِّج لفكرة دعا إليها بعض الفلاسفة القُدامى، وأحياها بعض فلاسفة الغرب، تلك هي الدعوة للأخلاق كسجايا تُرَبَّى عليها النفس وتلتزمها، بعيدًا عن الدين والعقيدة الإلهية.

هذه الدعوة بظاهرها جميلة تُدخل على الإنسان السُّلوان إذ تطمئنه ألا خوف على قيمه الإنسانية إذا سلخناه من قيمه الدينية وجردناه منها. لكن الخلاف يعود أشد ما كان عليه صاحب الفكر إذا أعمل النظر والروية في هذه النظرية اللطيفة الظاهر، الشنيعة الباطن، إذ يجد نفسه أمام تساؤلات لا يجد لها حلًا، في مواجهة إشكالات خطيرة، تودي به في مهاوٍ فظيعة.

أول ما نطرحه على هؤلاء من السؤال أننا نطلب منهم مجاوزة التشبث بهذا الاسم الجميل « الأخلاق » إلى تحديد مفهوم الأخلاق، والمبادئ والمقاييس التي يكون بها الإنسان « أخلاقيًا ». وهنا يجدون أنفسهم أمام متاهة تشعبت طرقها إلى ما لا نهاية إلا بتدمير الأخلاق، فالأخلاق التي يضعها الفلاسفة ذات منشأ بشري، نرى فيها التناقض وعدم العموم، ويحق أن نطلق عليها أخلاقًا نسبية، يسعد لها هؤلاء وينكرها هؤلاء، أو تموت مع تقادم الزمان، في حين نجد الأخلاق الدينية ذات طابع إنساني شامل، كما هي في التشريعات الدينية، وهي ثابتة في قيمها على مر العصور؛ لأن مُشرعها صانع

النفوس - تعالى وتبارك - وليست وليدة نزوة أو عنجهية ومكابرة أو مرض خفي أو حذلقة فارغة في الكلام.

إن الفلاسفة الباحثين في الأخلاق قد اختلفوا في تحديد مفهومها جملة وتفصيلًا، اختلافًا لا لقاء فيه. فأنت تجد الجزئية التفصيلية الواحدة من السلوك الأخلاقي في موضع خلاف كبير جدًّا، حتى تجدهم يختلفون في أبسط المسائل مما لا تتصور بادئ الأمر أن يكون مثل ذلك موضع مناقشة أو نظر!!.

فإذا ارتقيتَ بعد ذلك إلى تقرير مبادئ تجعلها أساسًا لإزالة الخلاف والمشاكل استفحل عليك الإشكال وأعضل الجواب؛ لأنك تجد بين يديك من الطرائق ما اختلف اختلاف المشارق والمغارب، فهناك فلسفة الأخلاق المثالية التي ترتفع بأفكارها وراء عقل الإنسان وطاقته، وهناك الأخلاق الواقعية التي تقرر أن مجاراة الإنسان للواقع بما فيه من كذب وغش وفجور هو عين الاستقامة والفلاح، وهنالك النظرية النفعية التي تقيس الفضيلة بمقياس المنفعة التي يفيدها الإنسان، وهناك النظرية النفسية التي تشجع على الغرائز الحيوانية وتقول له: أنت حيوان في حال كبت، بل هناك النظرية الفوضوية واسمها ينبئ عما تحتويه من خطل وتحلل من معايير الدين والمجتمع السوي.

فَمَنِ الذي نأخذ منه الأخلاق الفاضلة ونعتبره هاديًا لأقوم سبيل خلقي؟ مَنِ الذي يحقق للإنسان كماله الإنساني، ورقيه الذي يسمو به على الكائنات الحية؟ ثم من الذي يمنحه السلطة للحكم على هذا بأنه خُلُقٌ فاضل وعلى غيره بأنه سَيِّئ؟.

ليس من سبيل إلا سبيل الخَلَّاق العليم الذي يعلم السر وأخفى، ويعلم من خلق، ويهديه سواء السبيل.

على أنا لو تغافلنا عن ذلك وتجاهلنا خطورته الكبيرة، ثم دخلنا ميدان التنفيذ المسلكي للأخلاق أيًّا كان نوعها لا نلبث أن نفاجأ بمشكلة أعظم وخطورة أكبر، هي منبع الإلزام بالخُلُق!

٢ - ما مصدر التزام الإنسان للسلوك الأخلاقي؟ مَنِ الذي يملك الحق في هذا الإلزام؟

إن القانون لا يستطيع التدخل في تصرفات الناس في خلواتهم وسرهم، كما أنه لا يُبدي أي رأي في سلوك الإنسان الشخصي الذي يتعلق بذاته شخصيًّا.

فهل يكون التزام الأخلاق صادرًا عن تبادل المنفعة بأن لا نكذب حتى لا يكذب علينا أحد، وما أضعف هذا الحبل الذي يتهافت سريعًا أمام أي مصلحة أو احتمال للإخفاء يتوقعه الإنسان لشذوذه ومخالفته.

أو هل يكون مصدر الالتزام إجلال شخص ما، تقبل الأمة ما يقرره لها من مبادئ خُلُقِيَّةٍ، فتلتزم ذلك في خلواتها التزامها له على جلواتها وعلانيتها؛ إجلالًا له وامتثالًا؟ وما الذي تركناه بعد ذلك للوثنية العابدة للأصنام، وللحاكم المتأله الذي استعبد شعبه حتى ذهبت كلمته مثلًا في التاريخ « أنا ربكم الأعلى ».

أجل إنه لا غِنى للبشرية عن مصدر لتحديد المفاهيم الخلقية، هو الدين السماوي الحق، كما لا غنى لها أبدًا عن الإيمان باللّٰه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ ليكون مصدر التزام يحقق السلوك الأخلاقي، فبقدر ما يصدق محب الأخلاق في العمل بها يقوي إيمانه بربه منزلها؛ لأنه كما أن « **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا** ». فإن أحسنهم خلقًا لا يمكن إلا أن يكون أكملهم إيمانًا أيضًا؛ لأن الإيمان هو الذي يقرُّ في الضمير حارسًا يقظًا لا يفتر، مراقبًا سلوك الإنسان، مقوِّمًا لعوجه، إذ يحس المؤمن دائمًا أن اللّٰه مطلع عليه، مراقب له، « **أن تعبد اللّٰه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** »[١].

ولأن شكر المنعم الأعظم والاعتراف بحقه أعظم مبادئ الخلق وأوضحها حتى لقد قرر الفلاسفة والحكماء منذ العصور الأولى هذه القاعدة الأخلاقية: « شكر المنعم واجب عقلًا ». فوجب أن يكون المنعم الحق علينا هو مصدر التزامنا في أخلاقنا.

وههنا نجد النبي ﷺ يضع مقياسًا عمليًا لتحقق الإنسان بكمال الخلق إذ يقول « **خِيَارُكُم خِيارُكُم لِنسائهم خُلُقًا** »، وربما توهم البعض أن الخيرية هنا ليست مرتبطة بكمال الإيمان. وذلك خطأ فادح عظيم؛ لأن الخيرية نفسها لا تتحقق إلا بالإيمان، وقد جاء الحديث الآخر ينص على ذلك إذ يقول: « **إن من أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وألطفهم بأهله** ».

فالمقياس الذي تقيس به نفسك في مضمار الأخلاق هو سلوكك العائلي، وليس

---

(١) هو جواب للسائل جبريل عليه السلام حين سأل رسول اللّٰه ﷺ عن الإحسان. والحديث رواه البخاري، رقم ٥٠ في الإيمان (سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام...) ومسلم، رقم ٨، ٩، ١٠، في الإيمان (بيان الإيمان والإسلام).

سلوكك أمام المجتمع الأجنبي فقط. إن التقاليد الاجتماعية تفرض على الإنسان أن يتظاهر باللطف، وحسن الخطاب، ولين الجانب، يصطنعها لرفيقه، أو صديقه أو أي إنسان يصادفه. لكن هذا ليس كافيًا لتحكم على نفسك باستقامة الخلق وكماله، حتى ترى نفسك عارية، كما هي، لم تلبس ثوب التصنع وتتزين بكساء المجاملة المتكلفة، ذلك الانكشاف الحقيقي تراه هنا في محيطك الذي لا تُلقي له بالًا، ولا تخشى منه لومًا ولا ذمًّا، محيط أهلك وأبيك وأمك وزوجتك وولدك وأخيك وأختك، محيطك الطبيعي الذي لا تكلف فيه ولا مجاملة ولا رياء.

* * *
* *
*

الدين النصيحة

٤٢ عن تَمِيمٍ الدارِيِّ ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: « **الدِّيْنُ النَّصِيْحَة** ».

قلنا: لمن؟

قال: « **لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُوْلِهِ، وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِيْنَ وَعَامَّتِهِمْ** ».

[أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وعلقه البخاري][1]

* * *

المفردات:

الدين: الدين في الأصل اللغوي: الجزاء، ويطلق على الطاعة. والمراد به هنا الشريعة بكل جوانبها في العقيدة والعمل و ... أطلق عليها لما فيها من الطاعة والانقياد.

النصيحة: أصل النصيحة: من نصح الثوب إذا خاطه، وسُمِّيت النصيحة بذلك لأن الناصح يذب عن صديقه العيوب ويسد الخلل، كما يذب الخياط عن الثوب العيوب ويسد خلله؛ ليكتسي به الجسم ساترًا له وجميلًا، فالكلمة في أصلها تستعمل في أمر مادي بحت، ثم استعملت للمعنى المعروف.

لأئمة المسلمين: أئمة جمع إمام. وللشراح في تفسير هذه الكلمة شرحان: فمنهم من فسرها بعلماء المسلمين، ومنهم من فسَّرها بكبار المسلمين ولا خلاف بين الشرحين؛ فلا بد للإمام أن يكون عالمًا، والمقصود هو الخضوع لمن تَقَلَّد زِمام أمرهم.

عامة المسلمين: هم بقية الناس.

المحتوى الفكري:

هذا الحديث فسر الدين كله تفسيرًا أخلاقيًّا، وجعل التفسير الأخلاقي محورًا يظهر

---

(١) مسلم في الإيمان (بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون): ١/ ٥٣، وأبو داود في الأدب (باب في النصيحة): ٤/ ٢٨٦، والنسائي في البيعة (النصيحة للإمام): ٧/ ١٤٠، وعلقه البخاري في كتاب الإيمان فقال: (باب قول النبي ﷺ: الدين النصيحة للّـه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم): ١/ ١٧، وهذا تعليق بصيغة الجزم، وهو حكم منه بصحة الحديث.

فيه تحقق الدين، فالذي ينبني عليه هذا الدين هو الأخلاق، وعماد الأخلاق النصيحة، ويظهر لنا في هذا الحديث مَعْنَيَا النصيحة الإيجابي والسلبي؛ ذلك لأن النصيحة ترفض الشر، وتُلزِم صاحبها الخير، ونتيجة لهذا التفسير الأخلاقي فقد بين الرسول ﷺ أن هذا المعنى عام شامل فيما يتناوله: بدءًا من اللَّه تعالى حتى عامة البشر.

لكن كيف نفهم النصيحة بالنسبة لكل من هذه الأركان الخمسة: « **للَّه، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم** ».

أولًا: النصيحة للَّه: هي أن تؤمن باللَّه، فلا يكون في القلب ما ينفر مما تطلبه هذه العقيدة، فالإيمان يوقظ الضمير ويُحْيِي الشعور الإنساني، فيوجد رقيبًا على النفس، يضبط شهواتها ونزواتها؛ رضًا بحكم اللَّه وامتثالًا لأمره، فلا يمكن أن يجتمع اتباع الهوى وطاعة الشهوة مع الإيمان، وإذا اجتمعا يظهر الإنسان مزدوجًا، ثم تَؤُول النتيجة لأحد أمرين: إما أن يثور لدينه فيسلم إيمانه فهو النصيحة للَّه، وإما أن يظل على اتباع الهوى وهذا يجعل الإنسان يمقت ذلك المنبه الإلهي الذي ينبهه ويوقظ ضميره بين الفينة والأخرى، وبذلك يكره كل ما يتصل بالدعوة إلى اللَّه تعالى، لما أن هذا يتناقض مع شهوته ورغباته، فتؤول معه القضية إلى معاداة الإيمان بل يكون عدوًّا للَّه ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٥].

والإخلاص والنصيحة للَّه قد جاءت من الإيمان وتخليص القلب من شوائب الهوى، وهذا بالتالي يدفع إلى العبادة وإلى الطاعة، فالنصيحة للَّه قد جاءت بجوامع الخير فيما يتعلق بالدين حُبًّا في اللَّه وشوقًا له.

ثانيًا: النصيحة لكتابه: وهي أن نقرأ كتاب اللَّه بقلبٍ واعٍ، لا أن نقرأه وقد سدَّت الأهواء عقولنا، فالمنكر له يكرهه لا يفكر أن يقرأه ويتمعَّن فيه، النصيحة للقرآن هي القراءة له والعمل به والدعوة إلى ما يدعو إليه من العقيدة والخلق والفضائل، النصيحة للقرآن هي أن يَحُلَّ القرآن في القلب محلًّا قويًّا، بأن نقرأه ونفهمه وهذا يجعل في النفس صلة قوية بالقرآن، ومن هنا نجد أن المسلمين الأولين كانت لهم مع القرآن أحوال عظيمة، ورد فيها أخبار كثيرة، فالنبي ﷺ قرأ آية طول الليل فسُئل عن ذلك فقال: إني رأيت فيها ما أريد من شفاعة لأمتي، وهذه أسماء بنت أبي بكر الصديق يأتيها قريبها في حاجة فيراها تقرأ الآية: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٧]، فذهب إلى السوق ساعة

ثم عاد، فإذا هي تقرأ هذه الآية.. فهي تتأمل بما في هذه الآية من المعاني التي تسبغ الرغبة والرهبة في النفس.

فالنصيحة للقرآن فيها القراءة وإمعان الفكر وتطبيق ما جاءت به آيات هذا الكتاب المعجز، وفيها كل أحوال الدنيا والآخرة؛ لكي ينال المسلمون دنياهم وآخرتهم.

ثالثًا: أما النصيحة لرسوله: وهي التجرد من كل ما يُخلُّ بتكريم النبي ﷺ، فهو أَكْمَلُ خلق اللَّه تعالى من قادة البشرية الذين بعثهم اللَّه كواكب نور لهذا العالم، هذه هي حقيقة الرسول. لكن أعداء الحق تَعْمَى عيونهم عن فضائله التي ملأت السموات والأرض، وتجدهم يختلقون المطاعن يزيفونها من فضائله، واستمع إلى بعض أعداء النبي يتكلم عن زواجه بتسع نساء وعن اتصاله الكاذب المزعوم ببعض الأحبار، ولكنه يغفل ويتجاهل الحقائق الصحيحة، والعجيب أن يكون مثل تعدد زوجات النبي نقدًا له مع أنه ما كان إلا لفضيلة، فلو كان للشهوة لاختار أجمل نساء زمانه، وأكثرهن شبابًا. لكنه ﷺ لم يتزوج بكرًا قط إلا عائشة، وأكثر الباقيات ممن أصيب رجالهن في الجهاد، وفي الوقت نفسه كانت هذه النسوة ينتسبن إلى قبائل مرموقة، وإحدى نسائه تسببت في إسلام قومها بعد إعتاقهم من الرق، فلم يكن زواجه ﷺ به منهن زواجَ هوًى ورغبةٍ، ومن أراد ذلك فإنما يطلب الجمال وما كان أكثره، لكنه لم يفعل ذلك قط، وهذه أم سلمة بعد مقتل زوجها لم يبقَ من قومها مسلم فإذا بقيت فستعيش بين المشركين، فطلبها النبي ﷺ للزواج فاعتذرت؛ بأنها تخشى عليه إزعاج الأولاد وأن « يتضاغوا عند رأسك »، ولكن النبي ﷺ قَبِلَ لأهداف سامية عالية، وذلك لإعزاز الإسلام، ولكي يكفكف من غلواء المشركين إذ يشعرهم بالرعاية لمصاهرتهم، فينظرون إليه على أنه ذا نسب متصل بهم فتهدأ بعض عداواتهم، لما للمصاهرة عند العرب من أهمية، هذا فضلًا عن معنًى خفي آخر هو أن المرأة ظلَّت شيئًا لا يذكر على مدى الأيام وفي كافة الأنظمة حتى في هذا العصر[1] إلا في نظام الإسلام الذي أوجد للمرأة كيانًا وحقوقًا وفتح لها مجال التعليم وحَضَّ الناس على تعليم بناتهم؛ ليملأ الفراغ الذي في شخصية المرأة كإنسان، فهو أول من أنصف المرأة هذا هو موقف النبي ﷺ من المرأة، ولكن أقوامًا حالفوا الشيطان

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا « ماذا عن المرأة؟ » وبحثنا « عمل المرأة واختلاطها وحجابها » يسّر اللّه إخراجه.

فغمزوا من مكانة النبي ﷺ من هذه الناحية، ولكن لا شك أن هذا من التقولات المصادِمَةِ للحقائق.

وأعجب ما نسمع من مزاعمهم عن النبي ﷺ قصة اتصاله بالراهب بحيرا وتعلمه منه، ومن هو بحيرا؟ إنه إنسان قابع في صومعته، تروي التواريخ أنه رأى النبي وهو صغير ابن عشر سنين عندما ذهب مع عمِّه إلى الشام في تجارة، فهل من المعقول لابن عشر سنين أن يتعلم بلمحة بصر كل هذه التعاليم، ولكن أصحاب الباطل يجعلون من وراء ذلك تفسيرات ويختلقون أكاذيب، وما أتى به النبي ﷺ لا يتفق مع ما عند الراهب بحيرا؛ فعلم الغيب أمر إلهي وما في الإسلام من فرائض وأركان من صلاة وصوم وحج وغيرها.. كل هذا مستقل عن أي نظام آخر سوى الإسلام، إننا لن نجد مجالًا للمقارنة إلا ما بَيَّنَهُ النبي ﷺ: إنه يصحح لهم ما يدعونه من الكتب التي بين أيديهم، هذا هو الشيء الوحيد الذي جاء به عليه النبي ﷺ كما صرَّح به القرآن: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، أي: حاكمًا به: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٥].

لكن مثل هذا الذي يأبى إلا الإلحاد والكفر لا يمكن لنا أن نقنعه بالحقيقة، ولكن علينا أن ننقي أنفسنا من اتباع الهوى، فإذا تخلص الإنسان منه وتجرد للحقيقة فإنه سيصل إلى أن النبي ﷺ هو النبي الحق وسيحبه؛ لأنه مثال الكمال الإنساني. ولا شك أن هذا المعنى الذي توفر في النبي ﷺ لو أراد الإنسان أن يسير على طريق الحق فإن أول شيء يعمله أنه يريد مثالًا عمليًّا يتقلد أوضاعه، وعند ذلك لن يجد إلا الرسول الكامل والمثال الأعلى محمد بن عبد اللَّه ﷺ فيكون بذلك جامعًا للخُلُقِ والمُثُلِ العليا.

رابعًا: النصيحة لأئمة المسلمين: والنصيحة لأئمة المسلمين تكون في محبتهم وموالاتهم والمقاتلة من ورائهم...

وبالتالي مَنْعُ الفوضى مِنْ أن تسود في أرجاء الأمة حتى تكون الأمة الإسلامية وحدة متماسكة ومجتمعًا فاضلًا.

خامسًا: النصيحة لعامة المسلمين: وذلك بأن نُنَقِّيَ القلب من كل حقد على أي مسلم.

والإسلام لا يعرف الحقد الشخصي إطلاقًا، الحقد والحسد من شريعة الشيطان، ولذلك كانت أول قصة في القرآن عن آدم ﷺ وإبليس هي قصة الحقد والحسد.

إن الحقد والحسد يجعلان الإنسان يكره الخير للناس، ويتألم أن يجد مثيله وقرينه رئيسًا أو بخير وعافية ونعمة، فيسعى لإتلافه وتدميره.. هذه أمور (الحقد والحسد) تتنافى مع النصيحة، فالنصيحة أن نمنع عن المسلمين الأذى ونريد لهم الخير، فيتحرك قلبك الإنساني للفقير ويشفق على الجاهل، ويخشى على الناس من الفساد والمنكرات، فتعمل على إزالتها وتسعى لكي تدعم ما في المجتمع الإسلامي والعربي من شرف وعفة، فقد انقلبت الأوضاع بتقليدنا لأعدائنا الأجانب وأخذت قِيَمُنا ومُثُلُنا تضعف، مما يجعل الأمة اليوم بِأَمَسِّ الحاجة لقلوب مصلحة شفيقة، تَجمَعُ الشَّمْلَ وتَلُمُّ الشَّعثَ، هي قلب كل مسلم واعٍ.

وبهذا كان الحديث بليغًا، في الغاية القصوى من البلاغة، إذ أجمل المعنى وطرحه للسامع يفكر فيه، ويتشوق لتفصيله ثم فصل، فأورد النصيحة التي يجب أن تكون للَّه ولرسوله وإلى المسلمين كافة، فالخلق الديني هو المصداق الحقيقي الذي تتم به شُعَب الإيمان.

ملامح فنية:

يبدأ هذا الحديث بجملة اسمية: « الدين النصيحة »، أفادت صيغتها الاسمية وتعريف طرفيها الحصر، أي: ليس الدين إلا النصيحة: مما يدل على أهمية النصيحة، حتى كانت الدينَ كلَّه بمعناها الواسع كما صحَّ في الحديث. وأفادت ثبات القضية التي تقررها؛ لكونها جملة اسمية، والجملة الاسمية تفيد الثبات والدوام.

ثم ذكر الدين دون الإسلام لتتخذ كلمة الدين معنًى واسعًا تُصَوِّرُ ثبوت هذه الأخلاقيات في أصل الإسلام بوصفه دينًا.

وتبعًا لهذا التعميم بادر الصحابة للتساؤل: « لمن » وجاء الجواب متسمًا بالسمات الآتية:

١ – جاء في مفاصل متوازية لا تستغني عن حرف الجر اللام، محافظةً على الاسمية العَلَمِيَّة.

٢ – تكرر فيه أسلوب الإضافة إلى الهاء ثلاث مرات: « كتابه، رسوله، عامتهم » على حين تضاف « الأئمة » إلى « المسلمين » في مفصل تمتد مساحته؛ لأنهم جماعة.

سمات النص العامة:

١ - يتبع النص أسلوب التشويق بإثارة الذهن في سرد كلمة تحتاج إلى زيادة شرح وإفهام.

٢ - كانت العبارات سلسلة متلاحقة في تراكيب واضحة.

٣ - الألفاظ معهودة معروفة خصوصًا في الحقل الإسلامي، وهذا يفيد التعبير الجيد عن الفكر العميق في ألفاظ سهلة، مما يبين شدة التواصل بين المبدع المُرَبِّي - عليه الصلاة والسلام - والمتلقين، في كل زمان وكل مكان.

إرشادات الحديث:

١ - إن عماد دين الإسلام وقيام نظمه في العقيدة والشريعة على سلامة توجه القلب، وخلوص النفس من الشوائب، في الإيمان باللَّه ورسوله وكتابه، وفي تعامل الإنسان مع الناس خاصة وعامة. فواجب كل إنسان قبل كل شيء تصحيح توجه نفسه إلى ربه.

٢ - يفيد الحديث التحذير من انتفاء الإيمان عمن فقد القيم الخُلُقية فلا يلتزمها ولا تظهر آثارها في تصرفاته، وأنه إن فقد بعضها فقد جزءًا من دينه وإيمانه.

والحديث في تعداد خصال النصيحة قد شمل نواحي التصرف في الإنسان كلها، فتناول اختلال الأخلاق في النواحي القلبية، وفي الأقوال وفي المعاملة وفي السلوك الاجتماعي أيضًا، ونحن بحاجة إلى تخطيط تربوي يزيل ما علق بالمجتمع من مفاسد ويمنع ما تفشَّى من عادات سيئة، وبهذا تتم النصيحة التي أرادها النبي - عليه الصلاة والسلام - بقوله: « **الدين النصيحة** ».

٣ - إن النصيحة للخلق عامة وخاصة فرض، وفرض على المنصوح قبولُها، وقد قالوا: « من قبل النصيحة أَمِنَ الفضيحة ». ومن أبى فلا يلومن إلا نفسه.

٤ - من مقاصد الحديث في اختيار لفظ النصيحة، أن الناصح وهو لغةً الخائط يؤلف أجزاء الثوب حتى يصير قميصًا أو غيره، فينتفع به، وهذا تمهيد للمتلقي أن الناصح في دين اللَّه هو الذي يؤلف بين عباد اللَّه وبين ما فيه سعادتهم وآخرتهم وبين خلقه[1]. فالْحَظْ ذلك ورَسِّخْهُ في نفسك.

---

(١) فيض القدير للمناوي: ٣/ ٥٥٦.

النفاق فَقْدٌ للخُلُق

٤٣ عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ».

[متفق عليه][1]

* * *

المحتوى الفكري:

هذا الحديث يُبَيِّنُ صلة الإيمان بالأخلاق ويُؤكِّدها بطريقة سلبية؛ إذ جعل انسلاخ الإنسان من الخلق الفاضل عنوانًا ودليلًا على أقبح أنواع الكفر وهو النفاق.

وأصل النفاق الرواج، ثم أصبح المقصود منه إبطان الإنسان خلاف ما يظهر وهو نفاق؛ لأن الإنسان يبطن السوء ويظهر الخير لكي يروج عند الناس.

والنفاق يفسر تفسيرين: نفاق العقيدة، وهو إخفاء الكفر والتظاهر بالإسلام، ونفاق العمل، وهو أن يعمل أعمال الكافرين وهي المعاصي، وإن كان العامل ليس منافقًا بالنسبة للإيمان، بل هو مؤمن بحق، لكنه كإنسان غير معصوم تقع منه المخالفة تساهلًا لا استحلالًا وإنكارًا لحرمتها، ومنه الرياء. ومنه النفاق الاجتماعي الموجود في زماننا الذي يسمى « مجاملة ».

والنفاق إذا أطلق في نصوص الكتاب والسنة كان المراد به نفاق العقيدة، لكن بعض الشراح قال: إن المقصود هنا بالنفاق نفاق العمل لا نفاق الإيمان. والذي دعاهم إلى ذلك أن من أسلم ونطق بالشهادتين فهو مؤمن وله حقوق وواجبات المؤمن، إلا أن هذا التفسير مخالف لظاهر الحديث لأن كلمة النفاق إذا أطلقت في القرآن والحديث يراد بها إبطان الكفر وإظهار الإسلام.

---

(١) البخاري في الإيمان (علامة المنافق): ١/ ١٢، ومسلم: ١/ ٥٦، والترمذي: ٥/ ١٩، ٢٠، والنسائي: ٨/ ١١٦، واللفظ للبخاري.

وأما الشبهة من أن الإنسان إذا صلَّى الصلوات الخمس فله حقوق المسلم فلا تدل على تحققه بالإيمان في قلبه؛ لأن هذا حكم بالنظر إلى ظاهره، فكل من أظهر الإسلام فإنا نعتبره مسلمًا؛ لأن القوانين الدنيوية والأحكام لا تتعلق بسرائر الناس إنما تتعلق بظاهرهم، ولهذا قررت الشريعة هذه القاعدة (لنا الظاهر واللّه يتولى السرائر). فمن أظهر الإسلام فليس لنا أن نحرمه من حقوقه كمسلم، فليس عندنا في شريعة الإسلام محاكم تفتيش تفتش سرائر الناس، إنما نُحاسبهم على الظواهر ونترك للّه السرائر، فلا مناص من أن قوله ﷺ منافق هو إبطان الكفر وإظهار الإيمان، حتى إن من ابتلي بهذه الأشياء عليه أن يتهم نفسه حتى يُقَوِّمَها.

وقد أكَّد النبي ﷺ هذه المعاني بطرق مختلفة فقال في هذا الحديث: « **ومن كانت فيه خصلةٌ مِنهن كان فيه خَصلَةٌ من النفاق حتى يدعها** ». وكذلك قال في حديث آخر: « **وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم** ».

إن مقصد الحديث بيان انتفاء الإيمان عمن فقد القيم الخلقية فلا يلتزمها ولا تظهر آثارها في تصرفاته، وأنه إنْ فقد بعضها فقد جزءًا من دينه وإيمانه، وقد شمل الحديث في تعداد الخصال نواحي التصرف في الإنسان كلها، فتناول اختلال الأخلاق في النوايا القلبية، وفي الأقوال، وفي المعاملة، وفي السلوك الاجتماعي أيضًا.

فهذه الجملة « **إذا اؤتمن خان** » دليل على اختلال ركن الخلق في المعاملة فلا يحفظ أي شيء يأتمنه عليه صاحبه، وإنما يخونه فيه، فهذا المنافق كلما وجد سبيلًا للبغي على الناس في المعاملة سلكه مستغلًّا ائتمان الناس إيَّاه وثقتهم به.

والجملة « **إذا حدَّث كذب** »: تدل على اختلال ميزان الفضيلة في الأقوال؛ لأن الصدق عمود فضائل اللسان، فإذا كثر الكذب وفَحُش دلَّ على عدم تأثره بالإيمان، وأن حقيقة الإيمان مفقودة الأثر في هذا الجانب من شخصيته.

وكذا الجملة « **إذا عاهد غَدَر** »: تدل على خبث النية وفساد الطوية فالإنسان الذي دأبه الغدر من إخلاف الموعد ونقض العهود، إنسان ماكر مخادع طويت نفسه على الخبث والدَّهاء، حتى فشا الخلل في وعوده وعهوده؛ لأنه لا يرتبط بشيء، وإنما يستغلها لأنانيته وشهواته.

وفي الجانب الاجتماعي يدلنا « **وإذَا خَاصَمَ فَجَرَ** »: على أن علاقته الاجتماعية مع

الناس مُصْطَبِغة بصبغة العدوان، فما إن تتاح له بادرة للظهور في مخاصمة أو مخالفة في شيء حتى ترى الفجور على الناس والافتراء والظلم واضحًا في أمره.

إن هذا الحديث من جوامع الكلم؛ لأنه بهذه الكلمات القليلة قد استوفى كل الأخلاق: في القلب وفي الظاهر، وفي الأعمال، والإيمان، وبيَّن لنا أن الإنسان لا يكون مسلمًا إلا إذا سلم من هذه الشرور، فإذا قلنا: إن الإسلام هو قوة معنوية في القلب تسخّر قوة الإنسان، فلا نتصور أن ينطبق الإيمان على من اختلت فيه هذه الشروط؛ لأنه قد بلغ فيه الأمر إلى أن شمل هذا الاختلال فضائله كافة التي يجب أن يتصف بها، وهذا الاختلال ليس عابرًا أو مصادفًا يحدث مرة بعد مرة، ولكنه اختلال دائم يدلنا على ذلك أداة الشرط « إذا »، فليس هنا إشكال يدعو إلى أن يخرج الحديث عن معناه الأصلي في النفاق؛ لأنه إذا كذب شخص مثلًا مرة أو مرتين فهذا لا يدل على نفاقه، ولكن الذي يكون منافقًا هو الذي تكرر منه الكذب وكثر في أحاديثه، وإذا وعد فمواعيد عُرقوب، وإذا اؤتمن كانت الخيانة هي الأصل، وإذا لم يخن فَلِعِلَّةٍ، وكَذَلك الفجور إذا خاصم أحدًا. معنى هذا أن تصرفاته في الجوانب كافةً لا تسلَم ومِثل هذا بعيد أن يوجد في نفسه الإيمان.

وبهذا نرى أن الإيمان يزيد وينقص، فمن جاهد نفسه حتى وَفَّاها الشُّعَبَ الإيمانية كافةً فإن هذا يكون كامل الإيمان عالي الدرجة عند اللَّه من المقربين في جنات الخلد، لهم الدرجة العليا.

جمال التركيب:

يعتمد بناء الحديث على التكثيف ثم التفصيل بأسلوب ملون مقنع وممتع، فالفكرة ذات أقسام معروفة، يسبقها مفتاح تشويقي.

يبدأ هذا المفتاح بكلمة « **أربع** » لِيُهَيِّئ المتلقي لتلقف أربع قضايا، وحذف فيها المعدود للتشويق إلى معرفته، ثم أَرْدَفَ بقوله: « **مَنْ كُن فيه** » فارتبط مع الأربع بضمير النون، والتعبير بحرف الجر « فيه » ليصور هذه الخصال الفاسدة وقد اتخذت الصدر سكنى لها.

والمقطع التالي « **ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها** » يشتمل على جملة مركبة طويلة شرطية، ونجد في هذا المقطع السمات الآتية:

١ - كونه متوازيًا يعطي نغمًا منسجمًا.

٢ – تأتي « حتى » في قوله: « حتى يدعها »؛ لتفيد الإطار الزمني الذي يحدد فترة بقاء خصال النفاق، وفيها الحض على التخلص منها سريعًا.

٣ – يأتي الفعل « يدعها » وهو لحظة الخلاص، وقد جاء مضارعًا وحده لاستدعاء المشهد إلى الأنظار؛ ليحث به على المثابرة إلى الخير والتخلص من مظاهر النفاق.

٤ – تكررت كلمة « خصلة » وهي تشبه في أصواتها كلمة « خالصًا »، وكأن هذا يوحي بالتفريع الشديد من خصلة واحدة من النفاق ليصبح الإنسان خالص النفاق.

المقطع الثالث « إذا اؤْتُمِنَ خَانَ، وإذا حدَّث كذَبَ، وإذا عَاهد غَدَرَ، وإذا خَاصَمَ فَجَرَ »: جاء فيه التفصيل الذي يشرح الإجمال السابق في مفاصل متوازية، تبدأ جميعها بأداة الشرط « إذا »، ونجد افتتاحيةً موسيقية يتبعها تنويع: « اؤتمن خان »، « حدث كذب »، « عاهد غدر »، « خاصم فجر » وكل هذه الأفعال مبنية للمعلوم إلا « اؤتمن » لِشَدِّ الانتباه إلى الخائن نفسِه الذي خان، لا إلى الذي ائتمنه.

كذلك « حدّث » يعارض « كذب »، والعهد يناقض الغدر، أما الفعلان الأخيران فلا نجد تعارضًا فيهما، بل التمدد الطغياني، فالخصومة ليست كنقض العهد، فهي خُلُق مذموم، يحصل التمادي به حتى يفجر المخاصم في لفظه وحركاته. كذلك يتوازى « غدر » و « فجر » في نبر قوي ليجسما فظاعة الموقف.

جمال التصوير:

في هذا الحديث نجد صورًا مختلفة ناشطة، فثمة صورة حركية محتملة أو منقطعة، وهي في الذهن ببيانها تَتَجَلَّى للأبصار، تعني صورة الإنسان المنافق وقد هرع إلى ترك النفاق، وهذه حركة ذهنية لأن الترك عملية قلبية تحتاج إلى تخيّل.

إننا نتصوّر شكل المنافق في مواقف يحددها إطار النص.

فنتصور مشهدًا يتضمن الأمانة، ثم في قرب من الزمن نرى مشهدًا آخر يتضمَّن الخيانة، وفي هذا المشهد تبرز الحركة لأن الدوافع الشريرة تتطلب حركة عنيفة، بخلاف الائتمان الذي يتضمن الإقرار والحركة السكونية.

ثم نرى صورة تمثل حركة مستمرة « إذا حَدّث »، ثم يحدث انحراف « كذب »، ويأتي الفعل بمنزلة صدمة وانعطاف.

أما صورة « عاهد غدر » فنلحظ فيها الليونة الكاذبة التي تتجلى في أصوات « عاهد » وهي تجسم موقف المتملق المُرائي خصوصًا في طول الألف ولين الهاء الهامسة وكأنه يهمس في أذن مخدوعه ليتمكن منه، ثم يصدمه بعنف كما في أصوات « غدر ».

ويختم النص بصورة صوتية حركية « خَاصَمَ فَجَرَ » فيها الخاء المفخمة ثم الصاد القوي، والنبر القوي على الراء مما يوحي بعنف الخصومة، وكلمة « فجر » توحي بما يتصف به المنافق من ألفاظ قاسية نابية.

وهكذا أفادنا هذا الحديث غاية التنفير والتحذير بهذا الرسم للقبح، والدعوة إلى تركه بتهويل المرئيات الخبيثة المشاهدة، خصوصًا عندما ربطها بفساد العقيدة.

إرشادات الحديث:

١ - **التحذير من خصال السوء** أفعالًا أو أقوالًا أو أخلاقًا، والإعلان به بشدة لينزجر كل المسلمين عنها على أبلغ وجه وآكده.

٢ - **إن هذه الخصال** مذمومة جدًّا وخطيرة جدًّا؛ لأنها **طلائع النفاق**، الذي هو أسمج القبائح، فإنه كفرٌ مُمَوَّهٌ باستهزاء وخداع مع رب الأرباب ومسبب الأسباب، وهذا تحذير شديد من أي خصلة من هذه الخصال الأربع؛ لأنها منافية لحال المسلمين، فيجب على المسلم أن يحذرها ويحتاط منها، ولا يقترب منها، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه[1].

٣ - ضرورة تشبث المسلم بالصدق، والوَفَاء بالعهد، وتحقيق العهد، والإنصاف والعدل مع من يختلف معهم، والاستقامة في أمره كله، فذلك من لوازم الإيمانِ وزيادتِهِ حتى يستقر في القلب ويجدَ حلاوته. ويناسب ذلك هذا الحديث: « **أربع إذا كُنَّ فيك فلا عليكَ ما فاتك من الدنيا: صدقُ الحديث، وحفظُ الأمانة، وحُسنُ الخُلُق، وعِفَّةُ مَطْعَمٍ** »[2]. أخرجه الإمام أحمد والطبراني والحاكم وغيرهم.

* * *

---

(١) فيض القدير: ١/ ٤٦٤.

(٢) الجامع الصغير رامزًا لحسنه وقال الهيثمي: إسناد أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني حسن. انتهى. انظر: مجمع الزوائد: ٤/ ١٤٥، وقال المنذري: « رواه أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني والبيهقي بأسانيد حسنة » الترغيب والترهيب: ٣/ ٥٥٦، ٥٥٧ وقارن بـ ٢/ ٥٣٤، وانظر فيض القدير: ١/ ٤٦٢.

ذرة الخطر

٤٤ عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ** ». قال رجل: **إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً**؟ قال: « **إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ النَّاسِ** ».

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه][1]

* * *

المفردات:

بَطَرُ الحق: دَفْعُه وإنكاره بالتعالي عليه.

غَمْط الناس: احتقارهم وازْدِراؤهم. ويقال: غَمَصَ، وهو بمعناه.

المحتوى الفكري:

تكلمنا في المحاضرات السابقة عن علاقة الأخلاق بالإيمان، وصلتها به سلبًا وإيجابًا، وأن توافرها يدل على كَمَالِ الإيمان، ونقصانها يدلُّ على عدم إيمانه حقًّا، بل ادعائه دعوى الإيمان مجردةً عن البرهان، وقد يؤدي إلى أن ينزع الإيمان من صاحبه، وقد خَصَّ النَّبِيُّ ﷺ في هذا الحديث بعض القبائح الخُلُقية بالتحذير وبيان مساوئها، لما لها من نتائج سيئة، تلك الخصلة هي **الكِبر وحب التعالي** والتعاظم على الناس، وإنها لخصلة قوية الأثر في نفس صاحبها، وفي سلوكه، تجعله بعيدًا عن الخُلُقِ مَتَجَافيًا عن الحق.

وقد بين الحديث خطورة هذه الخصلة أبلغ بيان فقال: « **لَا يَدْخُلُ الجَنَّـةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ** »، أي: أقل حدٍّ ومقدار منه. لكن التعبير أوقع بعض السامعين في الإشكال؛ لعدم تمييزه الكِبْر الذي يقصده الحديث وهو التعالي على الحق وغمط الناس أي: احتقارهم، وهذا التوضيح الذي جاء في الحديث هو توضيح للكبر باعتبار آثاره، فلم يعرف الكبر ببيان حقيقته النفسية، وهي شعور النفس بأنها كبيرة بل **أوضحه بآثاره. وذلك يمتاز بأمرين:**

---

(١) مسلم بلفظه في الإيمان: (تحريم الكِبْر): ١/ ٦٥، وأبو داود في اللباس: (باب ما جاء في الكبر): ٤/ ٥٩، والترمذي في البر والصلة: ٤/ ٣٦١، وابن ماجه في المقدمة رقم ٥٩ والزهد رقم ٤١٧٣.

الأول: أن السائل لما التبس عليه الأمر كان بحاجة ماسة لمزيد الإيضاح، وهذه الطريقة التي سلكها الحديث أوضح للسائل وللناس كافة، فكان في هذا حكمةٌ تربوية منه ﷺ في مقام التعليم والتفهيم، فمراعاة مقتضى الحال جعلت هذا الأسلوب أوضح وأبلغ، بل هو عين البلاغة وحقيقتها.

الثاني: إن بيان آثار الكِبْر تفسر عدم دخول الجنة فكان هذا الشرح متضمنًا لعلة عدم دخول الجنة، وكأنه قال: لا يدخل الجنة؛ لأن الكبر أثره فظيع، وهو التعالي على الحق واحتقار الناس وازدراؤهم، ولا شك أن صاحب هذا الوصف - وصف الكبر - لا يدخل الجنة؛ فإن اغترار المرء بنفسه وحبه للتعاظم يجعله يرى في التزام الحق والإقرار به غضاضة تنقص من قدره العظيم في زعمه، وتحط من مكانته في وهمه! حتى إنه قد يؤدي ذلك إلى التعالي على كبرى الحقائق العقلية التي تشهد بها بداهة العقول، حقيقة الإيمان بخالق الأكوان، وإلا فما الذي ينطوي عليه قول من يزعم أنه لم ير دليلًا على وجود خالق الأكوان، مع هذه الشواهد القاطعة التي بَثَّها الخالق في كل ذرة من هذا الكون تشهد بوجوده وعظمته؟ فما الذي ينطوي عليه هذا الجحود إلا كبر وتعاظم من قائله على كل حقيقة علمية، بل على كل بدهية عقلية. ومن قبل كان الكبر رائدًا لأسلاف هؤلاء، فكذبوا الأنبياء مع يقينهم بصدقهم، علوًّا واستكبارًا فقالوا: ليس عندنا دليل: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

فكان مآل الكِبر ذلك الدرك الفظيع الذي وصل إليه هؤلاء. ولو سلم إيمان المتكبر فإنه واقع في ذنوب لا محالة؛ لأنَّ مَنْ تعالى على الحق فإنه يتوهَّم أن ما فعله هو الصواب، وكل ما يخالف عمله خطأ، فلا شك أن مثل هذا الوضع يؤدي إلى أن يقع الإنسان في مخالفات تجعل إيمانه غير كامل، فهو يؤمن بالصلاة، ولكن تكبره يجعله مستخفًّا بها فيتعرض لغضب اللَّه، وإذا ما تجادل مع شخص في بيع أو شراء أو أمر فإنه يزعم أن الحق حليفه، والكبر يجعله يأبى الخضوع للحق فيكون بذلك التكبر مستحقًّا للجزاء والعقوبة، فلا بد له من جزاء حتى تطهر نفسه من الكبر فيدخل الجنة طاهرًا مطهرًا؛ لأن الجنة لا يدخلها إلا الطاهرون ظاهرًا وباطنًا، وكان من حكمة اللَّه تعالى في إنزال البشر إلى الدنيا؛ لتكون غِرْبالًا يُصَفِّي الناس، فيجعل كل شخص في مكانه؛ لذلك كان القليل من الكبر مُضِرًّا.

وهنا نجد الحديث قد أوضح هذا الأمر المعنوي إيضاحًا قويًّا بهذا التعبير المادي؛ إذ

جعل الكبر شيئًا ماديًّا يُوزن، وعبر عن ذلك بقوله: « **مثقال ذرة** »، فجاء التعبير على طريق الاستعارة، لكنها قوية وواضحة، حتى لا تكاد تحس بهذا اللون من المجاز في الكلام، مع إفادة الخطر الكبير الذي يثير الانتباه بقوله: « **لا يدخل الجنة** »، فكان الحديث في غاية التحذير من الكبر.

والحقيقة أن صفة التكبر لا تأتي إلا فيمن يشعر بالنقص.

والمؤمن لا يرى في نفسه عقدة نقص، فإن رأى مَنْ هو خير منه فإنه ينظر إلى نعم اللّه عليه، وأن الكبر حرام فهو ينبذه ويهجره؛ لأن الإيمان قد كمّل نفسيته، إما بأن يعتز بدينه وبالإيمان وهذا يعوض من أي نقص يشعر به الإنسان، أو من ناحية أخرى فإنه يرى أن هذه الخصلة محرمة، والمحرمات لا تجتمع مع الإيمان فهذه العلل كلها قد عالجتها التربية الأخلاقية النبوية.

وإذا تأملنا علاج القرآن للكبر في قوله: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨] فإنَّ هذا التعبير عندما يأتي المؤمن لقراءته يرى أن هذه الآية قد أظهرت عدم فائدة الكبر بطريقة ساخرة، وخير ما يعالج الكبر هو السخرية، فجاءت طريقة القرآن في معالجة الكبر ساخرة قوية، وجاء الحديث الآخر مُؤكِّدًا الآية، وأشار الحديث إلى أن الكبر نتيجة ضعف: « **يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يوم القيامةِ كأمثالِ الذَّرِّ يطَؤُهُم النَّاس بأقدامهم** »[1].

والمغزى هنا من جهتين:

١ – أن المتكبر يعاقب بعكس ما أراد التظاهر به.

٢ – أن أعمال الإنسان وأحوال الناس تتمثل يوم القيامة بحقائق مناسبة للحقائق التي انبعثت منها في الدنيا، فالتكبر هو نتيجة الضعف والشعور بالنقص؛ لذلك يظهر يوم القيامة ضعيفًا حقيرًا يدوسه الناس؛ لأن الكبر نتيجة لشعور الإنسان بتفاهة أمره فيتصنع العظمة والغرور، ولكنها لا تخفى على أحد من الناس، بل سرعان ما نحس بهذه الخصلة الخبيثة فيه، فنخرج محتقرين له، بل إن الكبر يغطي فضائلَ الإنسان.

ثم إن الحديث قد بيّن الكبر المذموم وجلاه جلاء واضحًا؛ فعندما سأل السائل « **إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنةً** » بيّن النبي – عليه الصلاة والسلام – أن

---

(١) رواه البزار بنحوه كما في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٠٨).

هذا ليس من الكبر في شيء، بل على النقيض إنه شيء يَحُضُّ عليه الإسلام؛ فلذلك قال: « **إن اللَّه جميل يحب الجَمَالَ** ».

فما معنى « اللَّه جميل »؟ قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]؛ فكل صفة من صفاته ليست كمثل المخلوقات، ولا تشابهها أبدًا. ووصفه بأنه جميل معناه أنه متصف بالكمال، والجمال بالنسبة للإنسان معناه أنه لا ينقصه شيء، أما بالنسبة للَّه تعالى فمعنى الجمال أنه كامل، ولكونه كاملًا فهو يحب ظهور النعمة والكمال على عبده. فحسن مظهر المؤمن وعنايته بنفسه ليست من المحظورات ما دامت لا تحمل أيّ إسراف أو كبرياء أو افتخار على خلق اللَّه، وهذا مما حَضَّ عليه النبي ﷺ صراحة في أحاديث أخرى؛ لأن المسلم يجب أن يكون معبرًا عن ذوق الإسلام، حتى في الملبس والهندام؛ لذلك قال النبي لأصحابه وقد عادوا من السفر: « **أصلحوا رحالكم وأصلحوا ثيابكم حتى تكونوا كأنّكم شامةٌ في الناس** »[1] والشامة هي رمز للزينة، وكذلك نجد أن الكثير من العلماء ومن سلف هذه الأمة كانوا يعتنون بمظهرهم ويعتبرون ذلك من إظهار نعم اللَّه عليهم، وكان الحسن بن علي – رضي اللَّه عنهما – يلبس الحلة بمئة ألف درهم ولا يرد سائلًا، والمعنى في هذا أن يلاحظ الإنسان صفاء قلبه من الكبر أو الإعجاب بنفسه.

وأما ما نسمع عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه كان يلبس الثوب المُرقَّع، وكذلك ما كان عليه كثير من السلف من حال التقشف، فالحق أنهم كانوا يفعلون ذلك أحيانًا كي يستشعروا نعمة اللَّه عليهم، ولا تجعلهم عادةُ التزين يألفون ذلك فيغفلون عن شكر اللَّه، أما عمر وغيره من قواد الصحابة – رضي اللَّه عنهم – فقد كانوا يلتزمون التقشف والتزهد شعورًا بمسؤوليتهم عن الأمة، ومساواة لأفرادها في الحياة، ثم ليكونوا مثلًا أعلى للعمال (أي: الولاة أو المحافظين) في البلاد، كما قال القائل لعمر: « لو رَتَعْتَ لَرَتَعُوا ».

ملامح فنية:

يتألف الحديث من ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول: « لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ... ».

يبدأ بنفي ثم مضارع يفيد استمرار استحقاق البعد عن الجنة، وهي بداية تزرع في

(١) رواه بنحوه أبو داود، رقم ٤٠٨٩، وأحمد في المسند: ٤/ ١٨٠.

القلوب الخوف والرهبة؛ لأن الجنة غاية كبيرة، وهي رمزُ البقاء والخلود.

ثم يبين السبب بقوله: « **من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر** » فشبه القلة المتناهية بالذرة من حبات الرمل والتراب، وفي هذا التشبيه ضرب من التعجيز؛ لأنه لا يمكن وزن هذه الذرة، وذلك يدل على خطورة الكبر العظمى.

المقطع الثاني: « إن اللّه جميل يحب الجَمال »:

يبين الفرق بين الجمال والتكبر، إذ لا يتنافى الاهتمام بالمظهر مع التواضع، ولا تدل الثياب الرثة على تواضع النفس في كل الأحوال.

وقد بدأ بـ « إن » التوكيدية لتمهد للجملة، وهي جملة رشيقة للتلاقي الصوتي بين الاشتقاقين « جميل » و « الجمال ». وهي جملة اسمية دالة على ثبات صفة الجمال للّه تعالى، وعبر بالفعل المضارع « يحبّ » ليفيد حُبّهُ - تعالى - لكل ما يتجدد من جمال.

المقطع الثالث: « الكِبْرُ: بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس... »:

هذا المقطع يشتمل على مفصلين نجد فيهما التوازي « بطر الحق » و « غمط الناس »، ونلحظ قوة الصوت في هاتين المفردتين مما يشي بالطبع القاسي لدى المتكبر، إضافة إلى التوازن بالتنكير والإضافة إلى المعرفة: « بطر الحق » و « غمط الناس »، الذي يشير إلى تساوي القضيتين.

وهكذا فإن الألفاظ المأنوسة والتراكيب الواضحة وفت بتصوير الحق والباطل، فَتُنَفِّرُ من الباطل وتحثُّ على الحق والفضائل، وتجعل هذه الخصلة الفظيعة سببًا للإبعاد عن الجنة، كما جعلتها مكروهة في الدنيا والآخرة، إذ أصبح المتكبر مقطوعًا من العلاقات الاجتماعية محتقرًا، مقطوعًا عن الرحمة الربانية، وذلك غاية الخسران...

إرشادات الحديث:

١ - التحذير الشديد من صفة الكبر، وهي أن يرى الإنسان لنفسه صفة العظمة، ويستصغر غيره، وإن أقل القليل من الكبر عظيم الخطر، مانع من دخول الجنة حتى يزول من النفس.

٢ - التحذير من عادة ما يسمى بالمجاملة، فإنها تورث الكبر، وخصوصًا إذا مُدِحَ الإنسان بما ليس فيه، وإذا مُدِحَ بما هو فيه فليُرَاعَ ألا يؤدي به ذلك إلى الكبر، أو الإعجاب بنفسه، ويكون في حدود التشجيع على الاستمرار أو الازدياد.

٣ - من دواء الكبر أن يتذكر الإنسان ضعفه، ومبدأه ومنتهاه، وما يحمل في بدنه من نجاسات. ومنه تذكر نعمة اللَّه عليه وشكره عليها، وأنه لولا فضله تعالى عليه وتوفيقه إياه ما حصّل الذي فاق غيره: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١].

٤ - الحث على نظافة البدن والثياب وتحسينها؛ انسجامًا مع حسن الإسلام، وإظهارًا لنعمة اللَّه تعالى.

* * *
* *
*

الإنسان والطبيعة

٤٥ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ فيما يرويه عن ربِّهِ: « **يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ** ».

[متفق عليه][1]

* * *

٤٦ عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ في جبل أُحُدٍ: « **هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ** ».

[متفق عليه][2]

* * *

المحتوى الفكري:

هذان الحديثان يتصلان بموضوع واحد، هو علاقة الطبيعة بالإنسان وكلنا نذكر ما حفل به الشعر العربي من سب الدهر والشكوى منه، وأن هذه الظاهرة ما زالت موجودة وقد ظهرت على ألسن كثير من الناس.

وفي هذا المسلك تَهَرُّب من المسؤولية **يتضمَّن خطرين**:

الخطر الأول: إن حقيقة التصرُّف والتدبير إنما هي للَّه، وليست لليل والنهار، **فسبُّ الدهر يتضمَّن العود إلى الربِّ** ﷻ، فكان هذا مغضبًا للَّه ﷻ؛ لذلك عبَّر تعالى عن غضبه لهذا الذي يسبُّ الدهر بـ « يؤذيني ». والإنسان أحقر من أن يؤذي اللَّه، ولكن الأذى يُقْصَدُ به الغضب والسخط؛ لأنه سبب للغضب، فَعَبَّرَ الحديث القدسي بهذا التعبير عن السخط والغضب الذي يلحق مَنْ يَسُبُّ الدهر، فهذا الخطر يرجع للناحية الاعتقادية، وهي أن

(١) البخاري في التفسير (سورة الجاثية - وما يهلكنا إلا الدهر): ٦/ ١٣٣، ومسلم في الألفاظ من الأدب: ٧/ ٤٥، وأبو داود آخر سننه: ٤/ ٣٦٩، واللفظ للبخاري وأبي داود.

(٢) البخاري في الجهاد (من غزا بصبي للخدمة): ٤/ ٣٥، وانظر ٣٦ و ٥/ ١٠٣ وغيرها، ومسلم أواخر الحج (باب أحد جبل يحبنا): ٤/ ١٢٤، والموطأ: ٢/ ٨٨٩، والترمذي، رقم ٣٩٢٢، وابن ماجه، رقم ٣١١٥. وهذا لفظ البخاري والترمذي. ولفظ مسلم وابن ماجه: « إن أحدًا جبل... ».

الدهر لا يفعل شيئًا إنما اللَّه تعالى هو صاحب الدهر وخالقه يقلب الليل والنهار.

الخطر الثاني: إنَّ هذا الأسلوب في الحياة **يسوغ الهزيمة للإنسان** ويفتح له الباب كي يبررها بعامل مجهول يتستر به ويدرأ عن نفسه الإهمال والتقصير، فهو لا يَعْتَبِر نفسه مسؤولًا عن نتيجة ما يعمله، بل يعظمها ويجلها عن ذلك ولا يستطيع أن ينحي باللوم على فرد معين؛ إذ يظهر عندئذ بطلان قوله وزور كلامه فيرجع باللائمة على الدهر والزمان...

فالحديث يعالج هذه المشكلة من مشاكل الإنسان علاجًا تربويًّا، إذ يبين خطورة هذا المسلك وأنه مغضب للَّه تعالى، ويعلم المسلم أن يكون ذا أخلاقٍ عالية تُحَلِّيه بالشجاعة في مواجهة الحقيقة المُرَّة دون مواربة أو تهرُّب، وإننا لَعَلَى يقينٍ أن المرء لو جاهد نفسه على التربية الأخلاقية التي تضمنتها السُّنَّة لكان هو الإنسان الكامل، والإنسان الصالح السويّ الذي لا يعرف الأمراض النفسية والعُقَدَ أبدًا.

والحديث الآخر الصحيح يبين موقف الإنسان من المصاعب: « **المُؤمِنُ القويُّ خيرٌ وأحَبُّ إلى اللَّهِ مِن المُؤمِنِ الضعيف** »[1]. إن الاعتقاد بالقدر ليس مبررًا لتقصير المهمل، لكنه مُطَمْئنٌ لمن بذل جهده، وإن عقيدة القدر في القرآن التي علمنا إيَّاها القرآن هي عقيدة بنَّاءة في كل جوانب الحياة؛ لذلك قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]، اللام في « لكيلا » متعلقة بـ « في كتاب »، فالإنسان إذا بذل جهدًا ولحقه نقص أو نجح في نتيجة سعيه فلا يحزن ولا يعجب بنفسه لأنه « قدر اللَّه ».

أما في الناحية الإيجابية فقد يجر النجاح إلى شيء من العُجْب يؤدي بالإنسان إلى الهلاك بسبب الغرور والكبرياء، لأن نجاحنا – كما علمتنا الآية – بفضل اللَّه، فلا يتكبر الناجح بما أصاب من خير. وأما من الناحية السلبية: أي إذا لم ننجح فلحكمة أرادها اللَّه ولا نَيْأَسُ من فضله في مرة ثانية، وعساه يجعل لنا ثوابًا يجبر ما نزل بنا، وفي هذا علاج للتشاؤم أيضًا؛ لأنه ما دام الأمر للَّه فعلى المسلم أن يعمل ويتوكل على اللَّه، ولا يحزن لما أصابه فإنه « قدر اللَّه وما شاء فعل ».

ومن هذا القبيل جاء الحديث الثاني في أحد: « هذا جبلٌ يحبُّنا ونحبُّه ». فلا تخفى

---

(١) رواه مسلم، رقم ٢٦٦٤، في القدر باب الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة باللَّـه...

علينا قصة معركة أحد، وما كان في تقسيم النبي لأصحابه من عبقرية حربية، فقد أسند ظهره إلى جبل أحد، وكان أمام الجبل مرتفع صغير، فوضع ﷺ الرُّماة على هذا المرتفع فقطع الطريق على المشركين، وكانت الحادثة المعروفة أن الرُّماة عندما انتصر المسلمون أتوا ليأخذوا الغنائم فجاء خالد بن الوليد من خلفهم فقتل سبعين رجلًا وجرح سبعين، وكُسِرَت رُبَاعِيَّة النبي - عليه الصلاة والسلام -، فهذه الحادثة قد تجر الناس إلى التشاؤم من جبل أُحُد، ولكن النبي - عليه الصلاة والسلام - يريد أن يُقصي هذا المفهوم عن الأذهان فيقول: « إن أُحُدًا جبلٌ يحبُّنا ونُحبُّه »، فهذا الحديث فيه ذكرى لهذا الجبل الذي آواهم إذ أسندوا ظهرهم إليه.

والحديث على كل حال يتصل بسبب عظيم إلى القاعدة القرآنية التي أوضحت صلة الإنسان بالله. وهنا يكمن الفرق البعيد بين التوجيه القرآني وبين قول الغربيين: « انتصرنا على الطبيعة »، فهم يشعرون بخصام بين الكون وبين الإنسان، وهي خرافة ترعرعت في أحضان الديانات الوثنية، وتسربت إلى عقول القوم، وكان الخوف من الطبيعة سببًا لتخلف الإنسان. أما القرآن فإنه يقول: إن الكون ليس عدوًّا للإنسان، بل إنه خادم يؤتي الإنسان خيراته، ويعطي الإنسان ما أَوْدَعَهُ فيه الخالق من نبات ومنافع: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ... ﴾ [البقرة: ٢٩]. وبهذا أبطل القرآن الكريم والأحاديث خرافة العداوة بين الطبيعة والإنسان. بل إن القرآن الكريم قرَّرَها قاعدة ضخمة سبق بها عصر الفضاء واستخدام الإنسان للفضاء في مثل هذه الآية: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

ونجد النبي ﷺ يقلب منظور المسلمين في شأن جبل أحد الذي يمكن أن يحسبوه مصدر شر عليهم، فبين أنه إنما هو حليف صديق؛ لأنه - على الأقل - جزء من هذا الكون الذي هو حليف للإنسان، يعطيه ما أَوْدَعَ الله فيه، ولهذا يقول النبي ﷺ في أُحُدٍ هذا القول، فكيف بسائر أجزاء الدنيا، فلا ينبغي للإنسان أن يتشاءم من شيء في هذه الدنيا، فالشؤم من الإنسان ﴿ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ [يس: ١٩]. ولا شك أن هذين الحديثين دافعان إلى الإيمان بأن هذه الدنيا خُلقت لخير الإنسان؛ وذلك توجيه عظيم في تفاؤل الإنسان بالحياة، وبإمكان تقدمها علميًّا وحضاريًّا، وهو من جملة أسباب الروح الحضارية المتألقة التي حملت هذه الأمة منارتها في تلك القرون الطويلة.

ملامح فنية:

أول ما يلفت النظر في الحديث الأول: « يؤذيني ابن آدم! يَسُبُّ الدهر... » أنه قدسي، فمفرداته تتسم بدلالات خاصة وفضاءات واسعة، وذلك لإسنادها إلى اللّٰه ﷻ. ويتكون من أربعة مقاطع:

- **المقطع الأول: « يؤذيني ابن آدم »:**

وفيه اختار التعبير بالأذى الذي يناسب الضرر الزائد. واستخدم صيغة المضارعة؛ ليناسب كثرة الكبرياء وتكرره في العصور، كما استخدم ضمير المتكلم « يؤذيني... أنا... أقلب » ليدل على الرهبة والجلال.

وبَيَّن الحديث الفاعل بأنه « ابن آدم » ليبين أن الإنسان كائن ضئيل لا يحق له التكبر، فهو يوجد بوساطة أبيه وأمه، ونسبه إلى آدم لِيُذَكِّرَه التواضع بتذكيره بطريقة إيجاده.

- **المقطع الثاني: « يَسُبُّ الدَّهرَ »:**

يشي بالعنفوان والتشاؤم وروح الكبرياء في صورة صوتية، إذ تذكرنا بالألفاظ القبيحة التي يتلفَّظ بها الجاحد، وصورة بصرية، إذ يرسم حركة الجاحد وهو يسب، واستحضر المشهد بصيغة المضارعة لينقلنا إلى رؤية حركات التجهم ويومئ إلى العالم الداخلي له. ويرتبط هذا المقطع بما قبله ارتباطًا معنويًّا قويًّا؛ لأنه مفسِّر له، وذلك يفيد أيضًا التشويق له.

- **المقطع الثالث: « وأنا الدَّهرُ بيدي الأمرُ »:**

جاء هذا القسم بُرهانيًّا في صيغة الاسمية للدلالة على الثبوت أنه الدهر، وأنه بيده الأمر، والفاعلية في الكون، ويلحظ الضمير « أنا » الذي يبرز الخطاب ويوحي بكثير من الإيحاءات لاتصاله بالخالق ﷻ.

- **المقطع الرابع: « أُقَلِّبُ اللَّيلَ والنَّهَارَ »:**

حركة بصرية وصورة كونية هائلة المساحات، تذهب بنا إلى تصوّر الكواكب ومداراتها، وفي هذه الصورة تضاد كوني، لا يقوم علىٰ المبالغة، بل يرسم صورتين لليل الأسود والنهار المُضِيء، وإنها لَصُورةٌ حركيةٌ مستمِرةٌ جليلة أفاد استمرارها الفعل المضارع « أقلب »، وجلالها لا يقوم على مساحتها الكبيرة بقدر ما على المحرك لهذه الكائنات، وهو اللّٰه ﷻ.

أما الحديث الثاني: « هَذَا جبلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه » فيتكون من مقطعين:

١ – « هذا جبل »:

بدأ بالجملة الاسمية التي تبين الماهية، وذكر « جبل » إلحاحًا على ماهيته وتُرابيتهُ.

٢ – « يحبنا ونحبه »:

نجد في تركيبه الداخلي اتساقًا موسيقيًا يتجلَّى في تكرار أصواته. وفي ترتيب كلمتيه نجد تقديم محبة الجبل للإنسان لأهميتها في هذا المقام، وكأنه هو الذي يسبق في الاندفاع العاطفي.

ومن جهة تصويره فهو يشتمل على صورة مشخَّصة؛ لأنه يسند المحبة إلى جمادٍ جامد غير متحرك كالأنهار، فالجبل على قساوته وكثافته يَحِنُّ ويَرِقُّ ليحب النبي والمؤمنين الذين يقتربون منه والذين جاهدوا عنده، فالطبيعة فاعلة لا منفعلة، والمحبة تصعّدت بهذا الجماد حتى غدا بشرًا محبًّا سبّاقًا إلى الحب، وهذا تصوير على الحقيقة بأن تكون للجبل كينونة يحب بها بما لا نعلم حقيقته، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]. أو تصوير على طريق المجاز، ولا يخلو من إعمالٍ للخيال والمبادرة إلى حب هذا الجبل.

إرشادات الحديثين:

١ – إن تدبير أمر العالم كله هو للّه تعالى، وليس لكائن مهما عظم تأثيرٌ فيه إلا بإذنه تعالى، وذلك يوجب كمال الخضوع للّه تعالى، والتحرر من الذل لغير اللّه تعالى.

٢ – إن سَبَّ بعض الناس للدهر اعتداء على اللّه وجهل بالحق الثابت؛ أن تقليب الأمور بيد اللّه.

٣ – إن ظواهر الطبيعة ليست ضد الإنسان بل هي صديق محالف له، حتى إنَّ ما قد يتشاءم الإنسان منه؛ لاقترانه بمكروه أصاب الإنسان، مثل جبل أُحُد، الذي لا تفارق ذكرى النكسة عنده ذاكرة المسلمين، « **يحبنا ونحبه** ».

٤ – يجب على الإنسان الاجتهاد في استخراج خيرات الدنيا والطبيعة؛ لأنها صديق له، خلقت مسخرة لأجله.

التنافس في ماذا؟

٤٧ عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَين: رجلٌ آتاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هلكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا ويُعَلِّمُهَا** ».

[متفق عليه][1]

* * *

ضبط الحديث:

هذا الحديث مما انقلب على البعض وهو في الصحيحين كما أثبتناه، فقلبه بعضهم ورواه بتقديم « رجل آتاه اللَّه الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » ثم إن كتابة الحديث في صحيح البخاري هكذا: « رجلٌ معًا »[2] أي: إنه يقرأ بالأوجه الثلاثة، وهذا من عناية المحدثين بضبط ألفاظ الحديث فقد عُنُوا بذلك عناية بالغة. ومن أمثلة ضبطهم (أبو الجوزاء) بالجيم كنية راوٍ مشهور يروي عن السيدة عائشة، وهناك راوٍ آخر كنيته (أبو الحوراء) فكتب المحدث فوق الحوراء (حور عين) لئلا يظن القارئ أنها الجوزاء؛ نظرًا لشهرته فكتبها هكذا (أبو الحوراء) وفوقها: « حور عين ».

المحتوى الفكري:

موضوع الحديث يتصل بحاسة من حواس الإنسان الغريزية، فالإنسان لا يحب أن يكون غيرُه خيرًا منه، وهذه الغريزة قد تتخذ وضعًا خبيثًا في الإنسان، إذ ينقلب إلى أن يكون شريرًا يتمنى زوال النعمة عن الشخص المنعم عليه، حتى ولو لم يُفِد هو بأن يأتِيَهُ شيء منها. هذا ما يسمى بالحسد. فالحسد: هو تمني زوال النعمة عن المحسود. أما الغِبطَةُ فتعني تمني تحصيل نعمةٍ مثل ما حصل لشخص آخر دون أن يتمنى الإنسان زوالها عن ذلك الشخص. والحسدُ حرام، والحسد والكبر هما اللذان كانا في إبليس

---

(١) البخاري في العلم: ١/ ٢١، ٢٢، والزكاة (إنفاق المال في حقه): ٢/ ١٠٨، والأحكام: ٩/ ٦٢، ومسلم في فضائل القرآن: ٢/ ٢٠١، ٢٠٢، وابن ماجه في الزهد رقم ٤٢٠٨.

(٢) أي: إن عليها علامات الرفع والنصب، والكسر، وفوقها كلمة (معًا).

وجعلاه مطرودًا من الجنة. والنبي – عليه الصلاة والسلام – يقول هنا: « لا حسد إلا في اثنتين... ».

فهل المقصود تمني زوال النعمة عن صاحب المال أو عن صاحب الحكمة؟ لا، إنما المقصودُ بالحسد هنا الغبطة. فهذا الحديث عالج هذا الأمر النفسي بطريق جيد: حصر الأمر أولًا في أمرين هما خير ما يتنعم به الإنسان. ثم عبر ثانيًا بكلمة الحسد عن هذا الأمر وهو يقصد بالحسد الغبطة، فعبّر بالحسد عن الغبطة نظرًا لاجتماع الأمرين في مطلق التمني.

ولا يكفي لكي تكون الاستعارة بليغة مجردُ وجود وجه الشَّبَه فيها، بل العبرة بالمقصد البلاغي، والمقصد البلاغي هنا في التعبير بالحسد عن الغبطة هو بيان شدة حرص الإنسان على تحصيل هذه النعمة؛ كأنه لشدة حرصه أشبه حالُه حالَ الحسد. وقد أراد النبي – عليه الصلاة والسلام – بهذا أن تتنافس النفوس في هذين الأمرين فما هما ذانك الأمران؟

أما الرجل الأول: فهو « رجل آتاه اللّه مالًا » أي إنه الغني الشاكر الذي ينفق في الخير، وقد عبر الحديث عن هذا الغني الشاكر فصوَّره بغاية الخير والسخاء، وذلك في التعبير عن الإنفاق بالجملة الفعلية وبكلمة « سلط » التي فيها المبالغة في الإنفاق وجعل ما ينفق عليهم بمنزلة إهلاك ماله، ولكن في الخير. فهذا التعبير « **فسلطه على هلكته في الحق** » **غاية في الحسن** إذ يعبِّر عن المنفق السخي الذي يعطي بكثرة فلا يتأخر عن تلبية نداء الخير بهذا التعبير.

أما الرجل الثاني فهو: « آتاه اللّه الحكمة »، والحكمة تمنع من الجهل وسوء التصرف. وقد قال بعض الشراح: الحكمة هي القرآن. ومنهم من قال: الحكمة بمعنى ما يمنعُ من الجهلِ وسوءِ التصرفِ والإتقانُ في الأعمالِ. وهذا هو المراد هنا، وهو يشمل الحكمة القرآنية؛ لأن خير ما يُؤتى الإنسان من الحكمة هو حكمة القرآن الكريم، فهذا الرجل امتاز بمزايا بالغة إذ إنه فضلًا عن حكمته في نفسه وفي تكوين شخصيته فإن هذا المعنى الجامع للخيرات: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. يَشِعُّ منه ليكون خيرُه للجميع، فهو في تصرفاته يقضي بها، ويعمل بموجبها، ثم يُعَلِّمُها غيره؛ ليكثر في الناس أمثاله.

فالحديث سلك طريقًا لطيفًا في حَضِّ الناس على بذل المال؛ لأن مقصد النبي – عليه

الصلاة والسلام – أن يقول: التنافس إنما يكون في الخيرات ولو قال: تنافسوا في الخيرات لكان الأمر مجهولًا، ولذلك قال: تنافس في الخيرات واغبط صاحبها عليها، ثم حددها فقال: « **رَجُلٌ آتاه اللَّه مالًا فسلَّطه على هَلَكته في الحق** ». وكلمة في الحق تؤكد الأمكنة التي يجب فيها الإنفاق، فهي للاحتراز عن العبث. ثم الخيرات التي تتصل بالأعمال البدنية في الرجل الذي آتاه اللَّه الحكمة ووصفه بأمرين: « يقضي بها... ويعلمها ». فهو منارة مشعة على العالم، والحديث بهذه العبارة الوجيزة اشتمل على فنون بلاغية عظيمة في هذا المقام فقد جاء فيه أولًا فنُّ حُسنِ التقسيم البديعي؛ إذ حصر التنافس في هذين الأمرين، ثم ذكرهما، وهذان الأمران جامعان لأنواع الخير التي تتطلع إليها النفس؛ **لأنها إما خيرات تتصل بالأعمال المالية وإما خيرات تتصل بالأعمال البدنية**، فخيرات الأعمال المالية في قوله: « آتاه اللَّه مالًا... » وخيرات الأعمال البدنية: « رجل آتاه اللَّه الحكمة فهو يقضي بها ».

وبهذا نرى أن الحديث ذكر منابع الخير وأرشد إليها بهذا الأسلوب الناجح، ثم عالج غريزة الحسد على طريقة التصعيد، **بهذه الحكمة النفسية في المعالجة** في التعبير بقوله: « **لا حسد إلا في اثنتين** »؛ لكي يقع الحديث في نفس الحسود موقعًا جيدًا؛ فيعرف الطرق التي يحسد الإنسان عليها؛ أي يسابق غيره فيها، فالرجل الغني المنفق ماله وصاحب الحكمة أخيارٌ لنفسهما ولغيرهما، فقال للحسود: نافس في هذين الأمرين. وعبر بالحسد؛ لكي يسلك بالنفس الحاسدة طريق التسامي إلى الفضيلة؛ لأنه إذا تمنَّى المال الذي عند الآخرين؛ فليتمنَّ ذلك عن طريق شريف؛ لينفق كما أنفقوا، فالحسد لصاحب المال ليس لأنه صاحب مال، بل لأنه ينفق في طريق الخير، وكذلك صاحب الحكمة ليس لمجرد لقبه حكيم عاقل، بل لأنه انتفع بالعلم ولأنه مصدر للخير، وقد قال النبي – عليه الصلاة والسلام – في الحديث الذي شرحناه سابقًا: « **إِنَّ اللَّهَ ومَلَائكته وأهلَ السَّمواتِ والأرضِ لَيُصَلُّونَ على مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَير** ».

ملامح فنية:

احتوى هذا الحديث « لا حسد إلا في اثنتين » تراكيبَ وأنساقًا فنيةً، أسهمت في الكشف عن المعنى، وزادت في قدرته على التأثير.

يبدأ الحديث **بالتكثيف المشوق ثم يتبعه بالتفصيل**، وهذا المنهج – كما بينا سابقًا –

يدل على جاهزية الفكرة وتقسيمها في ذهنه الشريف - عليه الصلاة والسلام -، كما يدل على حصر المعنى في العدد المذكور في التكثيف، فضلًا عن إثارة التشوق إلى المعرفة.

قوله: « لا حسد إلا في اثنتين »:

عرض الفكرة بالأسلوب الدائري المغلق، حيث استخدم النفي والاستثناء « لا... إلا » مما يسمى الحصر، وتكرر « لا » مع « إلّا » لتفيد توازنًا موسيقيًّا وتأكيدًا للفكرة، وقد حذف المعدود « خصلتين » واكتفى بالعدد ترسيخًا للحصر.

ثم يأتي التفصيل في مقطعين طويلين متوازيين: « رجل آتاه اللَّه الحكمة.. » « رجل آتاه اللَّه مالًا.. » ونلحظ في هذين المقطعين:

أنه ذكر الرجل دون المرأة وذلك لتغليب الذكورة في الأسلوب العربي، فهو يشتمل النوعين، كما يفيد طلب القوة والحركة القوية في جمع الحكمة والمال والتصرف فيهما فيما يُرضِي اللَّه ﷻ.

ثم نلحظ تنكير « مالًا » وتعريف « الحكمة » فالتنكير يسجل الكثرة التي لا حدود لها. وهذا يبعث على الحركة في الأرض بجمع المال وصرفه في مصارف إسلامية مشروعة، أما الحكمة فهي لا تُعَدُّ كالمال، بل لها حد يميزها من غيرها. وما دامت غير معدودة ويُقْدَرُ على جمعها وصرفها في كل زمان فقد جاء التعبير بالمضارع: « يقضي بها ويعلمها » ليعبر هذا عن الاستمرار. أما المال فينفَدُ، وفي نَفَادِهِ الوصول إلى القمة، ولذلك ذكره بصيغة الماضي: « فسلَّطه » لمضي إنفاقه وسرعته.

وقوله: « فَسَلّطه »: يفيد أنه مهيمن على ماله، ويدل على غاية كرمه أيضًا قوله: « هلكته » فهو يُفْنِي المالَ إفناءً ويهلكه إهلاكًا نافيًا عن نفسه أي: تعلق به، وتأتي كلمة « في الحق » احترازًا حسنًا جدًّا، يبعد توهم الخروج عن الشرع أو الصواب.

إرشادات الحديث:

١ - **تنزه المسلم عن الحسد** وما يؤدي إليه من سعي لإضرار غيره، بل هو طموحٌ يسعى لسبق غيره دون إضرار به.

٢ - **لا بد للعبادة من المعرفة.** فهي ذات أبعاد إنسانية عملية، وليست مجرد إحاطة بالذهن.

٣ - لزوم إنفاق المال في وجوه الخير، وذلك يقوي ترابط المسلمين ببعضهم، ويعينهم على اجتياز المحن والأزمات الاقتصادية؛ لذلك أتى بالإهلاك؛ ليفيد كثرة الإنفاق.

٤ - لزوم طلب العلم، ومعرفة أحكام الدين، وأن العالِم يجب أن يُعلِّمَ الناس.

٥ - فضل من يسعى لنفع غيره؛ لأن كلًّا من صاحِبَي الفضيلتين المذكورَتينِ صالح في نفسه نافع لها، وهو مُوَصِّلٌ للنفع الكثير للناس.

* * *
* *
*

الرحمة

[٤٨] عن أبي هريرة ﷺ قال: قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الحَسَنَ بنَ علي - رضي الله عنهما - وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بن حابِسٍ فقالَ الأقرعُ: إِنَّ لي عَشرَةً مِنَ الوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا! فنظر إليه رسولُ اللَّهِ ﷺ ثم قال: « مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ ».

[متفق عليه][1]

* * *

الإسناد:

هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وهو حديث متواتر. والحديث المتواتر هو الذي رواه عدد كثير عن مثلهم لا يتصوَّر تواطؤهم على الكذب، وهذا التواتر معناه عناية النبي ﷺ بهذا التوجيه الأخلاقي الكريم، وأن هذا المعنى الإنساني الراقي قد نَبَّه إليه لأهميته العُظمى في مناسبات كثيرة جدًّا، حتى رُوِيَ الحديث على سبيل التواتر لرواية كثير من الصحابة له، ثم يرويه كثير من أتباع الصحابة عن الصحابة وهكذا من أول السند إلى نهايته.

المحتوى الفكري:

لا ريب أن الرحمة التي يحتاج إليها الناس معنًى إنسانيٌّ راقٍ من أرقى السمات الخُلُقية، ولذلك فإن النبي ﷺ نبَّه إلى هذا بالعبارة الأكيدة القوية التي تجعل المرء أمام معنًى ذي وقعٍ في النفس قويٍّ جدًّا، ومَنِ الذي لا يستشعر الهول بقوله: « لا يُرحم... »؟!. إن هذا الجزاء الذي استحقه قاسي القلب جاء وفاقًا ينسجم مع العمل، وقد جاء أسلوب الحديث موجزًا جدًّا مؤثرًا تأثيرًا مباشرًا لِشَغَافِ القلب، بحيث يُؤَدِّي المعنى بقوة... وقد حذف المفعول: « من لا يرحم المسلمين، أو المخلوقات »، حذف على سبيل الاقتصار؛ لأن المقصود هو تخلق المؤمن بهذه الخليقة الإنسانية الفاضلة، وهي الرحمة، بقطع النظر

---

(١) البخاري في الأدب (رحمة الناس والبهائم) من حديث جرير: ٨/ ١٠، وباب رحمة الولد بلفظه: ٨/ ٧، ومسلم في فضائله ﷺ: ٧/ ٧٧، وأبو داود: ٤/ ٣٥٥، والترمذي في البِرِّ والصلة: ٤/ ٣١٨، وثبت الحديث على الوجهين: جزم « يرحم » ورفعه في الموضعين. فالجزم على أن « مَنْ » شرطية، والرفع على أنها اسم موصول. والعبارة تفيد العموم على كِلَا الوجهين، فتنبه.

عن أي عامل شخصي أو فارق من الفوارق قد يخفف من أثر الخصلة الإنسانية العُليا.

لذلك صرحت الأحاديث بالرحمة لجميع البشر على اختلاف أشكالهم وأديانهم وأفكارهم « من لا يرحم الناس لا يرحمه اللَّه ﷻ ». والناس تشمل جميع المخلوقات البشرية، والرحمة من أبرز صفات المسلم؛ لأن الإيمان جعله لا يعرف القسوة؛ ولا شك أن هذا الحديث بتواتره ومعناه ذو أثر واضح في تربية المسلمين فيما بينهم وبين أنفسهم وبين العالم، وقد كانوا يَجِدُّونَ ويُحَصِّلُون المال، لكنه لم يكن للاستكثار من الدنيا، وإنما كانوا عندما تناديهم نداءات الخير الإنسانية والدينية يبذلون كل ما يستطيعون، وبهذا فهموا معنى الزهد، فليس الزهد هو الكسل في الحياة البعيد عن إقامة المدنية، ذلك بعيد عن مفاهيم الإسلام، إنما الزهد والرحمة معنًى إيجابيٌّ في العمل وإسداء الخير وظهور العاطفة الإنسانية، بحيث لا يُفرِّق بين أحد وأحد، ومن هنا فإن ميزة المجتمع الإسلامي ميزةٌ رائعة، حتى كانت التعليمات للمجاهدين في الفتوحات تُعنَى بغاية حسن المعاملة، وهذه وصية قواد المسلمين بدءًا من النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وغيرهما: « لا تقتل عسيفًا - أي: عاملًا - ومزارعًا مستأجرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا طفلًا صغيرًا، ولا امرأة، ولا تَغُلُّوا، ولا تغدِروا، ولا تقطعوا شجرةً، ولا تذبحوا حيوانًا إلا لِمَأْكَلَة... ».

أي إنه ينهى عن التخريب، وهو ما يفعله المعتدون، ومن ثَمَّة نجد خصوم هذه الأمة ومخالفيها يشهدون لها هذه الشهادة التي لخصها المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون فقال: « لم يعرفِ التاريخ فاتحًا أرحم من العرب ». لقد قالها بعد دراسته المطولة حيث وجد نفسه لا يستطيع إلا أن يعترف بشفقتهم ورحمتهم الفريدة في التاريخ، وبعد أن أنحى باللائمة على عصبية قومه ضد العرب التي توارثوها ظلمًا وعدوانًا.

وأنت إذا نظرت إلى أثر هذه الوصية في المجتمع لرأيت أنه لا يمكن أن يبقى فيه محروم أو تعيس؛ لأن يد الرحمة ستمتد إليه وتغذيه، وتنعش قلبه المكلوم الجريح، وتحقيقًا لذلك فرضت الشريعة فرائض متعددة لكفالة تحقيق هذا المعنى بإلزام القانون، منها:

١ - **الإحسان إلى الجار**: قال رسول اللَّه ﷺ: « **واللَّه لا يؤمن ثلاثًا** »، قالوا: مَنْ

يا رسول اللَّه؟. قال: « **من لا يأمن جاره بوائقه** »[1] أي: أذاه. وقال: « **ما آمنَ بي من باتَ شبعان وجاره إلى جنبه جائعٌ وهو يعلم** »[2].

فالإيمان الحقيقي الذي غرسه القرآن وعلمه النبي ﷺ ليس دعوى تسجل في بطاقة شخصية وليس شهادة تُعلَّق على الجدار، ولكنه قيم عملية إنسانية أقوى من العوامل والمؤثرات المادية، فهو يسمو عليها ويسخرها للخير.

٢ - **فرضية الزكاة**، التي هي عمود واجب الأمة في محو الفقر.

٣ - **النفقة الواجبة للإنسان** على الأصول والفروع، حيث يكون معدمًا أو عاجزًا عن العمل محتاجًا.

وإذا كُنَّا تحدثنا عن هذا المعنى بالنسبة للمجتمع وبالنسبة للفرد وبالنسبة للسياسة في أقسى حالاتها وهي حالة الحرب لا بد لنا أن نقول: إن عنصر العاطفة الإنسانية يجب أن يتوافر في الشاعر والكاتب الأديب أكثر من الباحثين الآخرين، وإنه ليست القضية قضية تجربة لمغامرات عاطفية كما يزعم بعضهم بل هي الإنسانية في شخصية الأديب والشاعر، تجعله يستطيع أن يتجاوب مع قلوب بني الإنسان ويؤثر فيها، ويبث في السامعين أنواع العواطف والانفعالات، أما الذي لم تتوافر في فطرته هذه السجية السامية ثم عجز عن اكتسابها بوسائل الكسب المفيدة الناجحة فإنه لا يصلح أن يكون أديبًا ولا شاعرًا؛ وذلك لأنه شخص قد جمَّد خياله وعاطفته فلا تغنيه التجارب، كما لا تغنيه الآيات والنذر، في ترك الفحشاء والمنكر.

ويعجبني في هذا المجال ما تحدث عنه الدكتور محمد مندور حيث تعرض للمذهب الذي ألمحنا إليه وذكر قصة غريبة في كتابه « المذاهب الأدبية »، حاصلها أن فنانًا أراد أن يرسم لوحة للسيد المسيح، فكيف يرسم لوحةً يبرز فيها عوامل التأثر والألم على شخص السيد المسيح؟ كان له عبد فأتى بالعبد وأوثقه من يديه ورجليه، ثم جاء بميسم وكواه وأخذ يرسم، حتى إذا أنهى هذا الخط، رجع إلى العبد يكويه ويرسم خطًّا أو خطين، وهكذا حتى فارق الرجل الحياة شهيد اللوحة، وسمع الناس بهذه الغِلْظَةُ وأتت جموع

---

(١) رواه البخاري: ٨/ ١٠ في الأدب (إثم من لا يأمن جاره بوائقه)، ومسلم، رقم ٤٦، في الإيمان (بيان تحريم إيذاء الجار).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير: ١/ ٢٥٩، رقم ٧٥١.

غفيرة ثائرة عليه، ولكنه عجل بلوحته وأبرزها إليهم فكانت مخففًا من حدتهم وثورتهم، وهكذا فقد إنسانيته.

لذلك يصرح الدكتور مندور بأن هؤلاء التجريبيين دعاة هذه النِّحْلَةِ إنما هم أناس جامدو العاطفة، ثم إنهم قد جمد خيالهم وحسهم، كما جمدت مشاعرهم الإنسانية، غاية ما أفادوه أنهم تَسَفَّلُوا إلى مخاضات داعرة فاجرة، ثم أتوا بما لا يستحق أن يُسمى أدبًا أو شعرًا، وإن أتوا بما يستحق أن يسمى فجورًا ودعوة فاضحةً إلى الرذيلة. فالقضية بالنسبة لكل الناس وللأجناس كافة قضية إنسانية، وقيم إنسانية محضة، أخلاق فاضلة تهذب النفس والعواطف، وتجعل الإنسان مرهفَ الشعور يستطيع أن يلامس بمخيلته وعواطفه القلوب ويثيرها ويحركها، وبهذا يكون أديبًا وشاعرًا، ومن دون ذلك لا يسمى شيئًا، ولايكون في الأدب شيئًا مذكورًا.

وهذا الحديث يهدينا إلى الطريق الصحيح للتربية العاطفية، وغرس المعاني الإنسانية، وتنمية الشعور بها في الإنسان، وذلك بأن نضفي على أطفالنا الصغار هذه الروح ونغمرهم بها، فتتغذى بها نفوسهم وأرواحهم كما تتغذى أجسامهم وأشباحهم، وقد يتكلف الإنسان ذلك في بادئ الأمر، حتى تنتعش فيه بالاستمرار عاطفة الرحمة، وتصبح أصيلة فيه.

وقد نبَّه علماء التربية حديثًا على أهمية هذا العنصر في تربية الطفل وضرورته؛ كي ينشأ نشأةً صحيحة سليمة. وقد وُجد أن الابن الذي يعيش في ظروف يفقد فيها عطف الأب والأسرة فإنه يكون إنسانًا منحرفًا ميالًا إلى الإجرام، أو انعزاليًّا منطويًا على نفسه. هذا الطفل الذي يظن الواهم أنه لا يتأثر، هو أشدُّ تأثرًا من الكبير، إذ تنطبع في نفسه كل المعاملات التي تعامله بها تنطبع في صفحة نفسه، تلك الصفحة البيضاء. فإما أن تنقُش فيها دمغات سوداء وسحابات مظلمة، أو تزيد في إشراقها ونورها، فإذا سلكت الجانب الأول تجدُ الطفل قد تحسس الجفاء والغلظة ونما فيه الحقد على المجتمع والجفاوة حتى تتكون فيه غريزة العِداء ضد المجتمع، فيصبح إنسانًا مجرمًا.

ومن هنا اكتشفوا مخاطر عظيمة للاختلاط بين الجنسين وخروج المرأة من بيتها وإهمالها إياه، وإذا بهم يرون أن عدد الأطفال غير الشرعيين يزداد ازديادًا متفاقمًا نتيجة الاختلاط بين الجنسين، ففي فرنسا (٥) ملايين لقيط وفي إنكلترا (٤) ملايين لقيط، وهذا الجيل من اللقطاء يهدد المجتمع.

وقد حكى بعض العلماء الذين تخصصوا بعلم النفس في كامبردج أن هناك قسمًا خاصًّا بمشاكل المجتمع الإنكليزي في الدراسات العليا، وقد استطاع أن يحضر بعض المحاضرات في هذا القسم، وإذا به يُفاجأ بأن المشكلة التي يتداول القسم البحث فيها هي خروج المرأة من بيتها للعمل. كانت هذه المشكلة محور القلق والاهتمام والبحث من قبل العلماء الكبار، إذ ينتج عن ذلك فقدان الرعاية؛ والجيل الذي يفقد الرعاية يهدد المجتمع البريطاني بالانهيار والتفكك. وأيضًا يهدّد سلامة وطمأنينة الزوج على سلامة البيت، وهل الولد يأتي منه أو من غيره، أو على الأقل يُذهب عنصر السكينة.

ثم إن الأولاد عندما يرون الاختلاط فإن الابن يعيش في جو من الشك؛ لأنه يتصور أن أباه غير أبيه الذي يعيش بين ظهرانيه، وشر ما يعتري الابن في نشأته الأولى القلق النفسي؛ لأنه يسبب الشرود الذهني وغيره. وذلك أهم أسباب الأمراض العصبية، ولذلك تدل الإحصاءات الآن على تفاقم نسبة الأمراض العصبية وتصاعدها بسبب أنهم فقدوا هذه القيم الإنسانية.

ملامح فنية:

يمتاز هذا الحديث بالوجازة وتكثيف المعاني، إذ يتكون من مقطع واحد يبدأ بالأداة « مَنْ » التي تفتتح مفصلين متشابهين « لا يَرحم » « لا يُرحم »، فأحدهما سبب للثاني، وتكرارهما يفيد التوازن الموسيقي، ويقوّي الترابط السببي بينهما.

ومن المظاهر التكثيفية للنص حذف المفعول به بعد « لا يرحم » الذي يدل على سعة فاعلية هذه الرحمة في الأهل والأقارب وسائر المسلمين، إضافة إلى سائر الموجودات من كائنات متحركة وجمادات؛ لأن المحافظة على عناصر الكون من باب الرحمة.

ويبرز الترهيب جليًّا في « لا يُرْحَم »؛ إذ أُخفيت القوة الفاعلة؛ ليظل السامع مشغولًا بحدودها الواسعة جدًّا، ويبدو لنا أنه يُحرم من رحمة الخالق يوم القيامة، كما يتضمن الفعل حرمانه من رحمة المجتمع، فلا شك أن تُنتزع الرحمة من قلوبهم نحوه، وهكذا خسر الدنيا والآخرة.

إرشادات الحديث:

١ - إنَّ تَخَلُّقَ المسلمِ بالرحمة مع الخَلْقِ كلهم مِن مُقْتَضَيات الإيمان، لا ينفك عنها مسلم يرجو رحمة ربه.

٢ - إبطال أخلاق أهل الكبر والتجبّر الذين يرون العطف على الصغار وحملهم والحنو عليهم غضًّا من مقامهم، حتى فعلوا ذلك بأولادهم، من جهل الجاهلية التي كانوا فيها.

٣ - افتقار الإنسان إلى الإسلام في معرفة القيم والفضائل، وإلا ضاع في وديان الضلال مثل رؤساء الشرك وغيرهم.

٤ - شمول رحمة الإنسان الخلق كلهم، كما أفاده الحديث، وهو تحقيق لمجتمع التنعم بالرحمة، كأهل الجنة، وتحقيق لشعار بعثة النبي ﷺ « **رحمة للعالمين** ».

* * *
* *
*

الرفق في كل شيء

٤٩ عن عائشة - رضي اللَّه عنها - قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: « **إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إلا زَانَهُ. ولَا يُنْزَعُ مِن شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ** ».

[أخرجه مسلم وأبو داود][1]

* * *

المحتوى الفكري:

الرِّفْق: وضع الشيء في الموضع المناسب له على سبيل التلطف، بدون غلظة أو جفاء. وعلى ذلك فمن الرفق أن تستعمل الشدة حيث يكون الأمر مقتضيًا لها، ولكن لا يكون غليظًا بل متأثرًا بالرحمة أيضًا وواضعًا لها في موضعها المناسب، ولذا يقول زهير بن أبي سُلمى:

وَوَضْعُ النَّدى في موضعِ السَّيفِ بالعُلَى مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

أي وضع الشيء في موضعه المناسب دون إجحاف، وهذا المعنى يحتاج إليه الإنسان للتنفيذ العملي، والرفق هو وسيلة التنفيذ. أما الرحمة فليست عاطفة تُظهر المرء بمظهر العاجز في موقف الشدة والحزم، فالرحيم بولده قد يضربه وقد يشدد عليه أحيانًا؛ لأجل التربية والزجر عما يشين. قال الشاعر:

فَقَسا لِيَـزْدَجِروا ومَـنْ يَكُ حازمًا فَـلْيَـقْسُ أحيـانًا على مَـنْ يَـرْحَـمُ

هذا المعنى هو المعيار للأحكام كلها والتنفيذات العملية للشريعة، أي: الإحسان دون قسوة. والشريعة مع كونها قد جاءت بالرحمة التي ظهرت معانيها في جوانب الحياة كلها، فقد وضعت الشدة في موضعها المناسب، فجاءت العقوبات زاجرةً حاسمة، للقاتل: القتل تحت شعار ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة: ١٧٩] وكذلك للزاني البكر: ﴿ فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: ٢]. وللسارق عقاب يحقق الأمن ﴿ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨].

---

(١) مسلم بلفظه في البِرِّ والصِّلَةِ (فضل الرفق): ٨/ ٢٢، وأبو داود في الأدب: ٤/ ٢٥٥.

وهكذا كان من الرفق أن يُنظر إلى الرحمة لا على أساس أنها تُضعف الإنسان، وتبدد القوى الإيجابية، بل على أنها مقرونة بالحكمة، وهذا يؤدي إلى سجية الرفق، ولذلك يقول الحديث الصحيح: « **إِنَّ الرِّفقَ لا يكُونُ في شَيءٍ إلا زَانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِن شيءٍ إلا شَانَهُ...** ».

فإذا أردت مُطالبةَ مدين بدين لك عليه، فثمة فرق بين أن تطلب حقك بأسلوب جاف غليظ أو بأسلوب رفيق، فالعمل واحد ونهايته واحدة هي الوصول إلى الحق، ولكن ثمة بون بعيد بين الحالين، صاحب الرفق محبوب على الرغم من أنه يطالب ويأخذ، وذاك مذموم تمجه النفوس على الرغم من أنه يطالب بحقه. وهذا ما عبر عنه قوله ﷺ: « **إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه** ».

جمال التركيب:

يتكون الحديث من مقطعين متوازيين في تركيب وحداتهما اللغوية، متضادين في مضمونهما، ويحتضن المقطعين ويمهد لهما توكيدٌ يرسخ المعنى في الطرفين الإيجابي والسلبي، وذلك بوساطة الحرف « إنَّ ».

وقد جاء التركيب في **دائرة مغلقة** حيث النفي والاستثناء، مما أفاد الحصر الذي يدل على تأكيد الفكرة وترسيخها، بالإضافة إلى **الصيغة العامة وهي التضاد** الذي يؤكد الطرفين ويقوي ظهورهما، وعلى هذا التضاد **يتعارض** فعل « **يكون** » مع « **يُنزع** »، والامتدادان « في شيء » و « من شيء » وطرفا المقطعين « زانه » و « شانه » مع كونهما متوازيين صوتيًّا.

ويلحظ بناء « يكون » للمعلوم في حين بُنِي المضاد له « يُنْزَع » بصيغة المجهول، وهذا يُلْمِح إلى أن الرفق يدخل للنفس والقلب سهلًا هينًا محبوبًا، أما النزع فقد احتاج إلى تدخل البشر والعصيان، فثمة قوة تنزعه؛ إشارة إلى أن نزعه مخالف للفطرة.

ويلحظ احتواء النص على مفردات عامة، فالجمالية المتجلية في « زانه » و « شانه » إنسانية عامة. وكذلك الرفق، وهذه دعوة إلى الدين تتضمن الإنسانية، إذ لا يذكر الثواب في النص، بل يذكر الجمال والقبح، والحكمة في هذا الأسلوب هي رفع مستوى الإنسان.

جمال التصوير:

احتوى النص على صورتين تختلف حركتهما:

١ - **الرفق في المقطع الأول « لا يكون في شيء إلا زانه »**، وهو يصوِّر حركة ذهنية داخلية أشبه ما تكون بالحركة السكونية في مكان واحد؛ لتزرع فيه الجمال الباطني والخارجي، وذلك لأن مفهوم الزينة يتصل بجمال الشكل، فهذه الحركة تتجلى في الخارج.

٢ - وفي المقطع الثاني **صورة حركية عنيفة « يُنْزَعُ »**؛ إذ بُني الفعلُ للمجهول؛ ليشغل الذهن والبصر بالحركة نفسها، وهي حركة في اتجاه واحد، فحرف الجر « مِن » لبداية الغاية، ونتصور هذه الحركة الشديدة مخلفة وراءها مكانًا هامدًا يقبع فيه القبح « شانه »، بعد حركة صائبة لا تخطئ « إلا »، « **ولا ينزع من شيء إلا شانه** ».

إرشادات الحديث:

١ - إن الرفق والتلطف في الأمور سبب خير عظيم، يحصل به ما لا يحصل بالشدة والغلظة.

٢ - إن على المسلم أن يتحلى بهذه الصفة في كل أموره، فإنه يزينه ويجمله في أعين الناس، وعند اللَّه تعالى.

٣ - الغلظة في الجفاء تُلْحِقُ بالإنسان العيب عند الناس وعند اللَّه. لأن اللَّه تعالى لا يحب من الناس إلا الذي يكون حسن الأخلاق.

* * *
* *
*

الإحسان إلى كل شيء

٥٠ عن شَدَّاد بن أوس ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شيءٍ؛ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وَإِذا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَه وُلْيُرِحْ ذَبِيحَتَه ».

[أخرجه الخمسة إلا البخاري][1]

* * *

المحتوى الفكري:

الإحسان: من قولك: أحسن الشيء: إذا أتقنه، هذا هو المدلول العام لكلمة أحسن. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢]. وكلمة الإحسان تتضمَّن عدة معانٍ: ففيها معنى الإتقان، وفيها معنى الكمال، وفيها معنى الجمال، في أن يوجد عنصر إنساني إلى جانب إتقانه وكماله، فالإحسان مطلوب في كل شيء: في العلم والتعليم، في البيع والشراء، في القضاء والاقتضاء، لكن الحديث ذهب بمخيلتنا وارتقى بالآفاق الإنسانية إلى سماء فاضلة عالية جدًّا، إذ ضرب لنا أمثلةً تُوضِّح لنا هذا المقصد من أمور رُبَّما يَرَى الإنسان وربما يتوهم أنها أبعد ما تكون عن الإحسان الذي فرضه اللّه على المسلم أن يحققه في كل شيء، أو أن يوصله إلى كل شيء حتى الجمادات؛ لأنها تتصل بالحياة في آخر الأمر[2].

« فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَة.. »:

القتل: معناه قتل إنسان. والقتل: الذي يفعله المسلم: يقتل من استحق القتل؛ يقتل قاتلًا أو قاطع طريق اعتدى على أموال الناس وأرواحهم، يقتل عدوًّا حربيًّا.. يقتل وحشًا أو حيوانًا مؤذيًا.

هؤلاء الذين يقتلهم المسلم بالحق، قد يجعل استحقاقهم العقوبة القلب يقسو

(١) مسلم في الصيد (الأمر بإحسان الذبح والقتل..): ٦/ ٧٢، وأبو داود في الأضاحي: ٣/ ١٠٠، والترمذي في الدِّيَات: ٤/ ٢٣، والنسائي، رقم ٤٤٠٥، وابن ماجه، رقم ٣١٧٠.

(٢) إشارة إلى تفسير « على كل شيء » أن على بمعنى في، أو بمعنى إلى. انظر فيض القدير: ٢/ ٢٤٥.

عليهم فيفكر الإنسان بأن يكون قاسيًا، لكن الحديث يقول: لا يجوز لك أن تفارق القيم الإنسانية وإن كانت الحالة استثارة للعنف والغضب، فيجب أن تكون فضائلك أسمى من هذه النوازع وأقوى من تلك الأحقاد والأضغان، فهذا الذي نقتله بالحق يذهب إلى حيث يلاقي جزاءه، في هذه الحالة يوصينا الحديث أن نترفق ونُحْسِن، أي: أن نكون رحماء إنسانيين متحكمين بالنزوات التي تخرج الإنسان عن هذه المكانة.

ما الفائدة من إحداد الشفرة مثلًا؟ إن الفرق بين من أحدَّ الشَّفرة ومن لم يُحِدَّها ألمٌ لا يتجاوز الثانية أو الثانيتين، وكذلك هذا الذي استحق القتل ما الذي سيضره، أو ينفعه إنْ تَرَفَّقنا به، إن القيمة الحقيقية ترجع إليك؛ لتكون إنسانًا تحقق قول الرسول ﷺ: « **الراحمونَ يَرْحَمُهم الرحمن، ارحموا مَن في الأرض يَرْحَمْكم مَن في السماء** »[1].

يجب أن تقترن الرحمة بالحكمة، وما دامت هذه المخلوقات قد سُخِّرَت للإنسان فلا بأس من ذبحها، وليرافق ذلك الرحمة لئلا يزيد ألمها.

هذه معانٍ إنسانية، وههنا تتجلى لكم الفوارق الواضحة بين القيم الأخلاقية الإسلامية وبين القيم في غير هذه الشريعة.

الهندوس يستشعرون الرحمة، ولكنهم تطرفوا إلى الغلو حتى وصلوا إلى النقيض بأن صاروا جبناء، فعندهم لا يجوز قتل أي كائن حي سواء أكان عقربًا أم أفعى أم ذئبًا أم أسدًا وإن عدا عليك هذا الحيوان، بل قد جعلوها من جملة الآلهة المعبودة عندهم. هذه المخلوقات أصبحوا يعبدونها بشدة غلوهم، والنتيجة التي وصلوا إليها أنهم حرموا اللحم على أنفسهم، وأنهم غدوا من أشد خلق اللّٰه جُبنًا وخوفًا.

على أن هذه الرحمة العجيبة المزعومة بالحيوان لم تمنعهم إذا أمكنتهم القدرة أن يذبحوا من يأكل اللحم وخاصة لحم البقر، ولا تكاد تمر فترة لا يسمع العالم نبأ مذبحة شنيعة تشيب لِهَوْلِها الولدان يرتكبونها في حق المسلمين بزعم أنهم ذبحوا بقرة، أو حتى تحرشوا ببقرة..؟!!.

وهكذا شمل الحديث كل ما يحيط بالمسلم من إنسان وحيوان ونبات وجماد، وكل

---

(١) رواه الترمذي، رقم ١٩٢٤، في أبواب البر والصلة عن رسول اللّٰه ﷺ، باب ما جاء في رحمة المسلمين وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح، ورواه أحمد في المسند: ٢/ ١٦٠، وصححه الحاكم: ٤/ ١٥٩، ووافقه الذهبي.

ما يتوصل إليه أن يعامله بالإحسان، وأكد ذلك بما أوضح من الأمثلة، فكان بذلك « من الأحاديث الجامعة لقواعد الإسلام »[1].

جمال التركيب:

يتكون النص من خمسة مقاطع:

المقطع الأول: « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ على كُلِّ شَيْءٍ »:

يُلْحَظُ فيه صيغة العموم واضحةً في « كل شيء » إذ اشتمل التعبير على كل الموجودات من إنسان وحيوان ونبات وجماد، واستعمال فعل « كتب » الذي يومئ إلى التحضر في السلوك الإسلامي، وما دام كتبه فالعيون تبصره حسيًّا، والقلوب تقرّ به ذهنيًّا.

المقطع الثاني: « فإذا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَة »:

وفيه يفسر الإحسان حيث يفصل تكثيف الإحسان وكيفية تجليه في الحياة الدنيا. ونجد أنه بنى المقطع على الشرطية « إذا قتلتم فأحسنوا.. » أي: هو يقين قابل للحدوث؛ ويُلحظ التوازن الموسيقي بين « قتلتم والقتلة » وهو إلى ذلك يسهم في الدلالة، فقد اختار اسم الهيئة « القتلة » لنستحضر مشهد القتل لأي كائن، ونتخير طريقة القتل.

المقطع الثالث: « وإذا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ »:

وهو مثل المقطع السابق، قد بُني على الشرطية أي: هو يقين قابل للحدوث، وفيه التوازن الموسيقي « ذبحتم.. الذَّبح ». ويشكل هذا المقطع توازيًا مع المقطع السابق لتكرار « إذا، فأحسنوا » وتوازي « قتلتم » مع « ذبحتم » وترادفهما إذ هما من حقل معنوي واحد ووزن صرفي واحد.

المقطع الرابع: « وليُحدَّ أحدُكم شفرتَه » يشتبك بما سبق بالعطف ليزيد في التوضيح.

ونجده يبدأ بلام الأمر ليتوازى مع الأمرين السابقين. وفيه التشابه الصوتي بين « يحد أحدكم » مما يشير إلى تأكيد فعل الإحداد.

المقطع الخامس: « وليرح ذبيحته » يوازي المقطع السابق بصيغة الأمر.

ويختم النص بكلمة إسلامية « ذبيحته » التي تشكل تَضْمِينًا مع « ذبحتم » و « الذبح »،

---

(١) شرح مسلم للنووي: ١٣/ ١٠٧.

أما لفظ الراحة فإنه يتسم بملامح تكريم الحيوان والاجتهاد؛ لتخفيف آلامه من لحظة الذبح حتى زهوق الروح.

جمال التصوير:

لا نجد عبارات مجازية في هذا النص. ولكن عباراته تدعو إلى الخيال وتصور المشاهد، فأول ما يلفت النظر صورة غيبية هي كتابة الإحسان على كل شيء كتابة شملت المخلوقات جميعًا، مما يطلق الخيال لاستيعاب حجم الموجودات، وأن اللّه تعالى فرض توصيل الإحسان إليها كلِّها أو فيها كلها. ويأتي حرف الجر « على » ليؤكد علوية المصدر وهيمنة الخالق على مخلوقاته.

ثم تتوالى صور دنيوية حيث القتل المشتمل على الرحمة مما يبعث على تجنب قتل الأبرياء، أو الغلظة في قتل الجناة، أو تعذيب الحيوان، كما يذكرنا الحديث صورة الأعياد وذبح الذبائح فيها، والفرحة للفقراء وللجميع بالاستمتاع بها. وختم الحديث بإراحة الذبيحة مع حركات إحداد السكين؛ لتتقرر فريضة الإحسان في هذا الحال ومِن ثَمَّ في كل حال.

إرشادات الحديث:

١ - وجوب الإحسان عند أي عمل، بأدائه متقنًا، وعلى أجمل ما يكون؛ لقوله: « كَتَبَ » أي: فرض.

٢ - إن فرض الإحسان على المسلم يشمل إلزامه ذلك حتى مع أعدائه، ومع الحيوان الذي يؤذيه وقد يفتك به، فإذا قتله لم يعذبه، ولم يمثل بعدوه، بأن يقطع آذان القتيل أو أعضاءه، وإذا قتله لَحَظَ أخفّ تعذيب. ويشمل الإحسان إلى النبات لاحتياجه إلى النمو، والملائكة، بأن يفعل الحسنات، ويترك السيئات، ولا يأكلَ طعامًا له رائحة مؤذية كالبصل والثوم. والجِنَّ بأن ينويهم بالسلام على مؤمنيهم في الصلاة، وغير ذلك.

٣ - وجوب إراحة الحيوان عند ذبحه، وذلك بشحذ السكين جيدًا جدًّا، وإمرارها على عنق الحيوان بسرعة، والانتظار حتى يبرد قبل سلخه، وعدم جره إلى الذبح بعنف، وألا يكون جائعًا عطشًا عند الذبح.

٤ - إن فرض الإحسان شامل كل شيء؛ لأن الكائنات الجامدة جزء من الكون متصل بالإنسان.

رأس المال الحقيقي

٥١ عن عبد اللَّه بن عباس - رضي اللَّه عنهما - قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيْهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاس: الصِّحَّةُ والفَرَاغ** ».

[أخرجه البخاري والترمذي وابن ماجه][(١)]

* * *

المفردات:

النعمة: الحالة الحسنة أو المنفعة التي تُقدم للإنسان لينتفع بها.

الغَبْن: الخسارة في البيع، أي: يبيع بثمن بخس أو يشتري بثمن غالٍ جدًّا.

المحتوى الفكري:

يُحدِّثنا النبي ﷺ عن مسؤولية الإنسان عن نفسه وعن النعمة التي أعطاه اللَّه تعالى إياها، وقد حصر الحديث الكلام في مسألتين فقط: الصحة والفراغ، ورتَّب عليهما حكمًا هو أن كثيرًا من الناس مغبون فيهما، وأنه خاسر مضيع، وأنه مسؤول مسؤولية الظالم إزاء الصحة والفراغ!

لماذا خصَّص الحديث الصحة والفراغ بالذكر؟ إن الإنسان عندما يشبُّ يرى الصحة والفراغ مبذولين مما يجعله يتوهم أن هذا أمر متيسر دائم، فتتوهم أنه لن يأتيك شيء من المرض والضعف، وكذلك الفراغ تظن أنه لن يثقل بأشغالٍ وأعباء!.

فالموضوع يرجع إلى ضعف الشعور بالعواقب، مما يجعل الإنسان خاسرًا خسارة كبيرة عبَّر عنها الحديث بالغبن، وأشار إلى أن هذين الأمرين هما عماد الإنسان فالصحة هي السلاح الوحيد لإنجاز الأعمال، والفراغ هو الظرف الذي تستطيع الصحة أن تقوم فيه بما تريده، فإذا كان أمرهما كذلك فما مثلهما إلا كمثل رأس المال لصاحب التجارة، فإذا راقب التاجر أمواله فهو جدير بأن يربح، كذلك أمر الصحة والفراغ هما رأس مال الإنسان، لإعمار دنياه وآخرته فإن راعاهما واستفاد من كل صغيرة وكبيرة من هذه الصحة والوقت وصرفهما فيما ينفع، فهو عند ذلك رابح، وإذا أضاعهما أو بذلهما

(١) البخاري أول الرقاق: ٨/ ٨٨، والترمذي في أول الزهد (الصحة والفراغ): ٤/ ٥٥٠، وابن ماجه، رقم ٤١٧٠.

في شيء تافه فهو مغبون ومضيع للنفس وللمصير.

هذا المعنى الذي ألمح إليه الحديث النبوي قد عبَّر لنا عن مقصده الدقيق المعنوي باستعارة لطيفة بليغة، حين شبه لنا فيها الصحة والفراغ برأس مال التاجر؛ لأنه منطلقه الوحيد لما يأمل من غنًى ومجد وثراء، ثم حذف المشبَّه به وأقام مقامه أحد لوازمه وهو الغبن.

إن هذا الحديث يقرر لنا مسؤولية الإنسان عن أمرين هما في الواقع قوام حياة الإنسان وإن كان عامة الناس - إلا من رحم اللَّه - يفرطون فيهما، وقد جاءت الأحاديث النبوية تُفَصِّلُ هذا التوجيه النبوي للمحافظة على الصحة والوقت.

أما الصحة فكثيرة جدًّا الأحاديث التي تُعنى بها؛ لكي تتدفق في أجسام المسلمين دماء العافية والقوة والنشاط: « **المؤمن القوي خير وأحب إلى اللَّه من المؤمن الضعيف** »[١] حتى نجد النبي - عليه الصلاة والسلام - ينهى المؤمن عن مكابدة المشقة في العبادات نفسها؛ لكي لا يضعف بسبب العبادة، فقال النبي ﷺ لعبد اللَّه بن عمرو بن العاص: « **ألم أُخْبَر أنك تقومُ الليلَ وتصومُ النهار** »، فقال: بلى يا رسول اللَّه، فقال: « **إنك إن فعلتَ ذلك هجمتْ عينُك، ونفهتْ نفسُك**[٢]**، وإن لنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، وإن لزَوْرِكَ عليكَ حقًّا، فأَعْطِ كُلَّ ذي حقٍّ حقَّه فصم ونم و...** »[٣].

لم يسمح الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن تكون أعمال البر نفسها سببًا في إضعاف صحة المسلم.

أما الفراغ (أو الوقت والزمن) ففيه بقاء الإنسان، فهو رأس المال الأهم بالنسبة لهذا الكائن على البسيطة، فالمرء العاقل يحرص على وقته حرص الشحيح على ماله.

وهنا نجد أن الإسلام نبَّه على هذه المسألة، فليس مؤمنًا ولا من ذوي الفهم للإسلام أولئك الذين يضيعون أوقاتهم عبثًا في المقاهي أو غيرها من أماكن قتل الوقت!! لأنهم يستهترون بأنفسهم ووجودهم، كما يضرون في النتيجة بأمتهم كلها.

لقد قرَّر الحكماء قديمًا أن الواجبات أكثر من الأوقات، وإنه لمن الحماقة أن تجد أُناسًا يُجْرِمُون في حقِّ غيرهم فيتطفَّلون على أوقات غيرهم من ذوي الجد والدأب،

(١) سبق تخريجه ص٢٣٧.

(٢) هجمت عينك: غارت، ونفهت: أي ملَّت وتعبت.

(٣) رواه بنحوه البخاري، رقم ١٩٧٥، في الصوم (حق الجسم)، ومواضع أخرى... ومسلم، رقم ١١٥٩، في الصيام (النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به...).

فجدير بالإنسان أن يكون جادًّا، وقد جاءت الأحاديث تعلِّم المسلم كيف ينتفع من وقته وينظمه؟ فالقرآن والسنة يأمران بالسعي والعمل: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم: ١٧] أي: سبحوا اللَّه في هذه الأوقات التي تتغير من صباح إلى مساء، ولهذا أنيطت العبادات بهذه الأوقات مما يجعل الإنسان يتعود تنظيم الوقت.

ونجد بعد ذلك توجيهًا آخر مهمًّا، هو حث النبي – عليه الصلاة والسلام – أمته جميعًا على الاستيقاظ باكرًا، وكان من سنته أنه كان يكره تأخير صلاة العشاء وينام بعدها؛ ليستيقظ ويؤدي صلاة الفجر، فأما هؤلاء الذين يغطّون نومًا والشمس تضحو في قبة السماء، فإنهم قد حرموا خيرًا كثيرًا، قد جاء في الحديث: « **اللَّهم بارك لأمتي في بكورها** »[1].

ورأى النبي – عليه الصلاة والسلام – ابنته فاطمة نائمة بين الفجر وشروق الشمس فأيقظها وقال لها: « **قومي فاشهدي رزق ربك؛ فإن اللَّه يقسم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس** »[2] لأن من بكَّر في عمله فإنه سيظل حريصًا ويظل الجد طابعه طيلة اليوم.

ومما يُلحظ في هذه الناحية أنه عند وقت الفجر تحدث إشعاعات تبث الحيوية في نفوس الناس.

ويقرر القرآن أن تكرار الزمن والعهود له حكمة، وإنه لغبي حقًّا من تمر عليه أحداث الأيام ويرى تقلُّب الدول والعهود، وإذا به لا يعقل ولا يفهم السبب في ذلك. لذلك يسجِّل القرآن الإنكار على المعاندين الذين غفلوا عن الاعتبار بما يمر عليهم من الليل والنهار؛ لأنهم لو نظروا لرأوا أن وراء ذلك حكمًا جليلة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. وقال ﷻ: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٧].

والمنافق الذي يظهر تارة مع المسلمين وتارة مع الكفار إنسان غَبِيَ عليه الحق وضربت الغفلة على عقله وقلبه. فلا يفهم أبسط شيء تنطق به الأحداث، يقول النبي ﷺ: « **مَثَلُ المُنافِقِ**

(١) رواه أبو داود، رقم ٢٦٠٦، والترمذي، رقم ١٢١٢، وقال: حديث حسن، وابن ماجه، رقم ٢٢٣٦، وصححه ابن حبان، رقم ٤٧٥٤.

(٢) رواه بنحوه البيهقي في شعب الإيمان، رقم ٤٧٣٥، ٤/ ١٨١، وابن النجار كما في كنز العمال، رقم ٤٢٠٢٨، والديلمي، رقم ٨٤٦٣.

إذا مَرِضَ ثُمَّ عوفِيَ كَمَثَلِ البعيرِ عَقَلَه أهلُه ثم أَطْلَقُوه، فَلَمْ يَدْرِ لِمَ عَقَلَوْهُ، وَلَمْ يَدْرِ لِمَ أَطْلَقُوْهُ»[1].

فالأيام عبرة وعظة، والقرآن يلفت أنظار العالم: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام: ١١].

ملامح فنية:

يتبع الحديث أسلوب التشويق فقد ألمح إلى عدد القضايا بـ(التكثيف) « نعمتان » ثم أوضح خطورتهما فزاد شوقنا « مغبون فيهما كثير من الناس »، ثم جاء التفصيل: « الصحة والفراغ ».

ونلحظ في هذا النص أيضًا استخدام « الغبن » المعهود في البيع، على سبيل الاستعارة لتنقلب النعمة إلى الحيز العملي. وعبر بقوله: « كثير من الناس » ليدل على قلة من يعطي الأمر حقه ويفهم نعمتي الصحة والفراغ، كما هو حال الناس الكمّل المخلصين.

وقدم الصحة على الفراغ لأهميتها، إذ لا فائدة من الفراغ إذا ارتبط بالمرض، ولا يستمر وجود الإنسان من غير صحة، فكأن الاثنين متكاملان.

وبعد، **فإن ألفاظ الحديث سهلة قريبة المنال، وهو من السهل الممتنع**، وهو على وجازته يحذر من ضياع مؤهلات ضرورية في الحياة، ويزرع في المتلقين سلوكًا فكريًا قويمًا يثاب عليه يوم الجزاء.

إرشادات الحديث:

١ - إن صحة البدن واتساع وقت الإنسان أمران جوهريان جدًا في تقرير مستقبله، فهما من الإنسان بمنزلة رأس المال من التاجر، إن أحسن استخدامه ربح وفاز، وإن أهمل خاب وخسر.

٢ - الحثُّ على الإفادة الكاملة من طاقة البدن وفسحة الوقت في طاعة اللّه تعالى والتقرب إليه، وفعل الخيرات وما فيه نفع العباد وإعمارُ البلاد.

٣ - التحذير الشديد من غفلة كثير من الناس عن الإفادة من فرصة صحة البدن وفرصة وجود الفراغ، فتفنى أجسامهم دون فائدة فضلًا عما فيه من الضرر بها أو بغيرها فذلك خطر أعظم، وتضيع أوقاتهم بغير فائدة. وذلك خسران عليهم، فالوقت هو العمر، هو وجودك أيها الإنسان.

---

(١) رواه بنحوه البيهقي في شعب الإيمان، رقم ٩٤٤٦، ٩٩١٦.

هرم وشباب معًا!

٥٢ عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **يَهْرَمُ ابنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنه اثْنَتَانِ: الحِرْصُ عَلَى المَالِ، والحِرْصُ على العُمُرِ** ».

[أخرجه الشيخان][1]

* * *

المحتوى الفكري:

أمران في حياة الإنسان يسيران بطريقة عكسية مع سلم الزمن؛ ذلك أنه كلما قرب الإنسان من حافة القبر كلما كان أحرص على المال وأحرص على العمر، وكأنه يرجع في سِنِّهِ إلى الوراء؟ وفي رواية أخرى في صحيح البخاري: « **لا يزال قلبُ الكبير شابًّا على حُبِّ اثنتين: الحِرص وطول الأمل** ».

وقد عبر الحديث عن هذا الواقع النفسي العجيب بعبارة مصورة قوية تبرز هذا الواقع وتجليه: « **يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان** »!

والذي يَشِبُّ هو الكائن الحي، فهنا صَوَّرَ لنا الحرص على العمر والمال كأنهما طفلان لا يزالان في نمو، لا يعرفان الضعف إطلاقًا، وهذا هو سر التعبير بالفعل المضارع « يهرم... تَشِبُّ ».

إن الإنسان في الواقع يسير سيرًا حثيثًا إلى الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦]، لكنه في باطن النفس يخالف هذا الواقع، فهو حريص على الأموال والمال بشدة تتزايد كلما قربت الأموال والآمال من النفاد بنفاد أجل صاحبها.

وهنا استعان الحديث بالتقابل بين « يهرم.. وتشبّ » كي يصور الوضعية النفسية المتناقضة تصويرًا دقيقًا، فهناك الحرص وطول الأمل في كلمة تشب بما فيها من قوة وعنفوان يتزايد على مرِّ الوقت، مع أن تقدم الوقت يُدني الإنسان من فراق ماله وتركه

---

(١) البخاري في الرقاق (من بلغ ستين سنة): ٨/ ٨٩، ومسلم في الزكاة (كراهة الحرص على الدنيا): ٣/ ٩٩، والترمذي أوائل الزهد: ٤/ ٥٧٠، وفي صفة القيامة ٤/ ٦٣٦، وابن ماجه، رقم ٤٢٣٤. واللفظ لمسلم والترمذي.

ومن انقطاع آماله وأحلامه. وهذا التنبيه من النبي هادف يبين للعاقل بإيمانه القويّ ألّا يغترّ بشيء من هذه الأشياء، وألا يكون حريصًا؛ لأنه بذلك يكون إنسانًا متناقضًا لا يَقْتُرُ بماله عن أن ينفقه، ولا يَقْتُر بطول الأمل فيبطئ في أن يتوب إلى اللّٰه ويستغفره، بل يجب التعجيل ببذل المال، وأن يسرع بالتوبة إلى اللّٰه قبل أن يفوت الأوان.

جمال التركيب:

يتكون هذا النص من مقطعين:

المقطع الأول: « يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان »:

وهو تشويقي، لما يخص به وصف الشباب ويجعله لأمرين فقط، وعبر بالصيغة الفعلية المضارعة في مفصليه؛ ليفيد الاستمرار المتجدد.

ونجد بين الفعلين تقابلًا « يهرم.. تشب » ليدل على المسيرة العكسية من الهرم إلى الشباب وفي ذلك وعظ شديد وتخويف من فوات الوقت والفناء، وعبر بقوله: « ابن آدم » ليدل على أنه عام لكل الناس؛ لأن منشأه غريزة إنسانية عامة. ويأتي التقابل في الصيغة بين تذكير « يهرم » وتأنيث « تشب » ليفيد شدة معارضة الأمر لمسيرة الحياة.

المقطع الثاني: يتكون من مفصلين متوازيين: « الحرص على المال » و « الحرص على العمر »:

فتكررت كلمة « الحرص على » لتأكيد هذه الصفة وتمكّنها من الإنسان، ثم إن كثرة المال وطول العمر من حقل معنوي واحد، فهما ملذتان متكاملتان، يتوازن التعبير عنهما ويتوازى بسبب هذا الأسلوب.

جمال التصوير:

يقدم لنا التضاد الفكري في الطباق بين الشباب والهرم، صورتين متقابلتين، واحدة آخذة في الزهو والنضوج والكمال، والأخرى آخذة في الذبول والضآلة، فالحرص على مباهج الدنيا وطول العمر وكثرة المال في شباب دائم، بينما صاحبهما يهرم ويتقدم نحو الزوال. وتأتي عبارة « تشب منه اثنتان » لتصوِّر نموًّا بطيئًا لهاتين الصفتين، لكنه نمو يثير الذعر في النفوس وكأنه ثعبان يتحرك ببطء لا يشعر به أحد، حتى إذا وصل ابن آدم قمة عجزه ظهر كلٌّ من هذين الوصفين بمنتهى قوته، وهذا تعارض تصويري في غاية الترهيب.

وقد أخذ الحرص صفة آدمية وهي الشباب على سبيل الاستعارة المُشَخَّصَة، وأخذ هذا التشخيص المنسكب في الحرص مكانًا ناميًا في شتى أطراف الصورة كأغصان شجرة، في حين نجد الهرم صورة آيلة إلى التضاؤل، وكلاهما في حال استمرار وتجدد كما توحي صيغة المضارعة في الفعلين «يَهْرَمُ»، «تَشِبُّ».

إرشادات الحديث:

١ - إثارة انتباه المؤمن إلى حقيقةٍ في نفسه، كي لا يغتر بالأوهام، فيضيع عمره ومستقبله في الآخرة.

٢ - التحذير من الاغترار بالدنيا، والسعي لتسخيرها لخير الدين والآخرة.

٣ - التحذير من الاغترار بالأمل بالبقاء فيؤخر ما يجب عليه من توبة أو حق لربه أو لأحد من الخلق، فتفوت الفرص عليه، ويكون من الخاسرين النادمين.

٤ - الحض على المبادرة إلى العمل، واكتساب فرص الخير قبل فوات الأجل.

* * *
* *
*

التسامي بالميول

٥٣ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَلَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ ».

[أخرجه مسلم والترمذي][1]

* * *

المحتوى الفكري:

يعالج هذا الحديث غرائز جُبِلَت عليها النفس الإنسانية وفطر عليها الإنسان، تعوقه - إنْ لم تهذب - عن التسامي وعمل الخير، وهذه الغرائز والطبائع هي:

١ - حب التملُّك.

٢ - البطش والسيطرة.

٣ - العظمة والتعاظم...

فكيف عالج الحديث هذه الإشكالات وداوى تلك الأدواء والآفات؟

لقد عالجها الرسول ﷺ وداواها بحديثه المذكور، فعمد إلى الإيمان والعقيدة الدينية يغذيها بما علَّمه اللَّه من حقائق ترفع همة الإنسان إلى ما هو أعلى من مطالب الغريزة؛ كي يرتقي بغرائزه هذه إلى الكمال، فيكون الخير الذي يحضه عليه ربه هو المطمح والمطمع.

قال الحديث **أولًا: في غريزة الشح وحبِّ التملك: « ما نقصتْ صدقةٌ من مالٍ »:**

إن الخوف من نقصان المال يدفع إلى الضنِّ به وعدم بذله، والحديث هنا يقول إن الصدقة لا تسبب نقص المال، فلا تقلق على مَالِكَ، بل اطمئن وتصدق بما شئت، ولا ريب أن هذا الأمر يزيل عوامل البخل وأسباب الشح، ومن ذا يَضِنُّ بما يجلب له مَحْمَدَة الدنيا ومثوبة الآخرة ولا يُنْقِصُ مالَه ولا يخسره شيئًا، لن تجد أحدًا يضنُّ بذلك، لكن كيف يتحقق هذا مع أن المال يذهب فِعلًا ليد أخرى؟

---

(١) مسلم في البر والصلة: ٨/ ٢١، والترمذي في البر والصلة: ٤/ ٣٧٦، واللفظ لمسلم.

بعض الشُّرَّاح قالوا: إن الزكاة فرضٌ للفقراء في مال الأغنياء فهي دين للفقير على الغني، ودفع الإنسان ما عليه من الدين لا يقال إنه يُنقْص المال.

هذا الجواب يتناول جانبًا مهمًّا هو الزكاة المفروضة، ويبقى بذل كثير لم يشمله هذا الشرح؛ وذلك لأن قوله ﷺ في الحديث « صدقة » نكرة، وتنكير اللفظ الذي جاء في سياق النفي يفيد الشمول، فنص الحديث عام يشمل الزكاة الواجبة والصدقات الواجبة، والتطوع، فلا بد إذًا من معنًى جديد يضاف لما سبق، هذا المعنى الجديد نستطيع أن نقول: إن المغزى فيه أمر مؤثِّر قوي لكنه روحي، إذ يرى المتصدق الخير، ويرى البركة في الرزق والصحة ودفع المصائب. وهذه تعليلات تكلَّم عنها الشُّرَّاحُ ويشهد أثرها ونتائجها كل من سلك سبيل الخير وإسداء المعروف للناس، وكل من خفف عن الناس مصائبهم أو واساهم فيما ينزل بهم؛ والأحاديث في ذلك كثيرة، كقوله ﷺ: **« من فرَّج عن مؤمن كُربة من كرب الدنيا فرّج اللَّه عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على مُعْسِرٍ يسّر اللَّه عليه في الدنيا والآخرة... واللَّه في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه »**[1].

إلا أن هناك أناسًا لا يقبلون هذه التعليلات، وإنما يطلبون التعليل المادي؛ لسيطرة هذه الأفكار المادية عليهم، والحقيقة هي أن الأحكام في إسلامنا الحنيف تشتمل على المصالح الدينية والروحية وتحقق المصالح الدنيوية، وعسى أن يكون أهم تعليل مادي للحديث ما قرره علماء الاقتصاد من أن المال كلما كثر تداوله في المجتمع في البيع والمعاوضات وغيرهما زاد دخل المجتمع ورفه الشعب، فالصدقة وسيلة لإعطاء المال للمحتاجين، فالفقير يحصل على المال ليشتري به ما تمس إليه حاجته، فإذا اشترى وأنفق ما أتاه من المال، فإن المال يتحرك في المجتمع فيزداد الربح ويرتفع مستوى المعيشة، وهكذا تحقق الزكاة والصدقات أساسًا اقتصاديًّا فريدًا يحقق مستوًى مضمونًا من النشاط، يصون الأمة من الأزمات الخانقة.

أما إذا وضع المال في خزائن فليس له قيمة؛ لأنه ما دام محبوسًا - لا يحقق أي نفع لأحد مدة احتباسه- لا قيمة له، فالانتقال من يد ليد بقصد بيع أو أجرة أو صفقة

---

(١) رواه مسلم، رقم ٢٦٩٩، وأبو داود، رقم ١٤٥٥، ٤٩٤٦ والترمذي، رقم ٢٩٤٥، وابن ماجه، رقم ٢٢٥، ٢٤١٧، ٢٥٤٤.

مشروعة يزيد الربح، وكلما كانت دورة الليرة (العملة النقدية) أسرع كلما تحقق النفع أكثر، وكانت قيمة المال أكبر، وكان الرخاء أقرب تناولًا وتحققًا، إذًا فالصدقة في الواقع فيها زيادة ولا ينقص المال أبدًا؛ لأن المال يوضع في أيدٍ مستهلكة تزيد في حركة البيع والشراء[١].

بهذه الوسائل التي عبر عنها علماء الاقتصاد نستطيع أن نعلل هذا الحديث النبوي نفسه، ولكنا نعود لنقرر مرة أخرى أن الأصل هو البركة والخير اللذين يفيضهما اللَّه على المتصدق، وإن المؤمن الذي يبتغي - رضوان اللَّه - يستشعر بأنه فاز بثواب من اللَّه وسكينة في نفسه أعظم من أي نفع مادي نغريه به. فإن ما عند اللَّه خير، وما عند اللَّه هو الباقي: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦]. وذلك ربح عظيم وزيادة لا حدود لها، تُعَوِّضُ المتصدق عما أنفقه بما هو خير، فلا يجد أن المال قد نقص، بل إنه يزيد ولن ينقص، وبذلك تسامى الحديث بهذه الغريزة غريزة حب التملك ولم يَكبتها أو يمنعها، بل وجهها إلى الخير فجعلها تنطلق إلى وجوه خيِّرة بارَّة تحقق بها ذاتها، أما كبتها فيؤدي إلى عكس النتيجة كما هو مُشاهد وملموس.

الغريزة الثانية: البطش والسيطرة: وقد عالجها الحديث بقوله: « **ما زاد اللَّه عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا** »:

قد يظن الإنسان أن المرء إذا عفا عن عدوه يهون في نظر الناس، فالمرء يحبُّ العزة ويريد أن يكون أمام الناس قويًّا ذا هيبة، فالحديث يهدينا إلى أنه يجب ألا يكون ذلك بالبطش بالضعيف إذا وقع تحت يدنا، وإن كان مسيئًا إلينا، لكن هذا إنما هو بالنسبة إلى الحق الشخصي، أما حقوق اللَّه التي تتعلق بالمجتمع وأمنه كالسرقة والزنى ومنع الزكاة فلا يجوز للحاكم أن يعفو عنها، فاللَّه - تعالى - يزيد من يعفو عن الناس من حقه الشخصي عزة؛ لأن اللَّه - تعالى - يكسو هذا الشخص هيبةً ووقارًا فيحبه الناس؛ لأنه عفا مع قدرته على البطش، وكذلك العزة الحقيقية أن يكون الإنسان مالكًا لنفسه عند الغضب.

---

(١) انظر: تفصيل ذلك في كتابنا (المعاملات المصرفية والربوية وعلاجها في الإسلام). ونذكر بهذه المناسبة مدينة فيها بضع عشرات من الأغنياء لا تقل زكاة كل واحد منهم عن مائة مليون ليرة سورية، فلو طرح هذا المال المفروض في الأسواق بواسطة الفقراء ومستحقي الزكاة أكانت الناس تختنق من الأزمة الاقتصادية؟ ولكن الأغنياء أنفسهم يظلمون.

أما الاستجابة لدعوى الغرائز فيستطيعها كل إنسان، ولكن من استطاع أن يضبط غرائزه وغضبه فهذا هو العزيز القوي، ومثله يكون مهيبًا حقًّا؛ لأنه لا يغضب لنفسه؛ ولكنه يغضب وينتصر للحق. وقد كان – عليه الصلاة والسلام – إذا انتهكت حُرمات اللَّه يغضب لها ولا يغضب لنفسه؛ فإذا غضب لم يقف شيءٌ أمام غضبه، حتى يقيم الأمر في نصابه[1].

الغريزة الثالثة: الكبر والترفع: ويعالجها الحديث بقوله: « وما تواضع عبد للَّه إلا رفعه اللَّه »:

هذه معالجة للكبر والتعظم، وهو مركوز في كل نفس، ولا سيما في الشباب، ونحن نجد الكثير من الشباب يعنى بالمظاهر، كذلك يردد دائمًا **شعارات (الكرامة)** و (**الشخصية**)، حتى يدفعه التعاظم الكاذب والغرور الباطل إلى احتقار الناس والاستهتار بهم وبحقوقهم. فالحديث يحل هذه المشكلة إذ يبين لنا **طريق الرفعة** وعلو المكانة والسبيل الذي نسلكه لنفوزَ بالاحترام والتقدير، إن الذي يجب أن يكون سبيلًا لذلك هو **طريق التواضع** ولين الجانب، إن هذا التواضع يؤدي إلى رفعة الشخص عند الناس وعند اللَّه، أما التعاظم والتعالي فهو طريق المقت، صاحبه محتقر عند الناس، زَرِيٌّ في أعينهم، وكلما أمعن في التشدق والتعاظم؛ ليغطي ما يراه من استخفافهم، ازدادوا استخفافًا به واحتقارًا له، ثم إنه لا يكون له عند اللَّه قَدْرٌ ولا مكانة، كما في الحديث: « **شر الناس من أكرمه الناس مخافة شره** »[2].

فمن يتواضع للناس يحبه الناس، ولكن أي تواضع يعني الحديث؟

الحديث يفرق بين النفاق وبين التواضع فالمنافق هو من ساير هذا وذلك، أما التواضع فإنه مقصود لذات اللَّه. فهو يتواضع قاصدًا إرضاء اللَّه، فهو يغضب للَّه لأن امتثال أمر اللَّه يجعله يغضب للَّه فلا يتكبر بل يتواضع مع خلق اللَّه لا نفاقًا ولا رياء ولا مجاملة، بل لأن اللَّه أمره بالخلق الفاضل، فإذا جاءه إنسان فقير يطلب مساعدته ساعده، فهذا تواضع للَّه لا لمصلحة. ومن تواضع للَّه قَبِلَ اللَّه أعماله وتجاوز عن شوائبه، ويُنْصَبُ له مِنْبَرٌ من النور يوم القيامة؛ لبيان علو مكانته عند اللَّه – تعالى –.

---

(١) رواه بنحوه أحمد في المسند: ٦/ ١١٤، وأبو يعلى في المسند، رقم ٤٤٥٢، وابن أبي الدنيا في كتابه الصمت وآداب اللسان، رقم ٣١٩.

(٢) رواه بنحوه أحمد في المسند: ٦/ ١١١، وإسحاق بن راهويه في مسنده، رقم ١١٩٨.

وأخيرًا: هكذا عبّر الرسول ﷺ بهذه الأساليب التي تقع في نفس العاقل موقعًا عظيمًا، إذ سلك بالإنسان إلى الترقي مسلكًا تربويًا ناجحًا سما فيه بالميول التي طُبِعَ عليها الإنسان، كما أننا نتلمس من هذا الحديث الإيجاز البليغ في هذه الصيغ التي أتت على سبيل العموم والشمول؛ لتكون قواعد علمية تخاطب العقل والقلب والوجدان، خصوصًا في الختام: « ما تواضع أحدٌ للَّه إلا رفعه اللَّه »، إذ اختتم بلفظ الجلالة، فأضفى على الكلام جزالة، وألقى في القلب مهابة تثير التأثير وتبعث على الانقياد.

ملامح فنية:

نجد في هذا الحديث ثلاثة مقاطع تشتبك فيما بينها بوساطة العطف، وتُبْنَى في داخلها على أسلوب التضاد الذي يزيد الأمر توكيدًا ويوضِّحُ طرفي التضاد.

المقطع الأول: « ما نقصتْ صدقةٌ من مال »:

نجد أن النقصان يعارض الصدقة، فهي زيادة في المال، وزيادة في الثواب والدليل في الأولى مرئي مشاهد، والدليل في الثانية إخباري غيبي. وفيه تشخيص الصدقة بأنها ذات قدرة فاعلة، لكنها قدرة إيجابية فهي لا تنقص المال.

المقطع الثاني: « ما زاد اللَّه عبدًا بعفو إلا عزًّا »:

فيه حصر أفاد ائتلاف المعنى، فلا يتوقع العافي زيادة إلا في العز، وجاء فعل « زاد » معارضًا فعل « نقص » وموازيًا حالة نفيه « ما نقص ». ومن وظائفه الدلالية أيضًا دفع إيهام النقص عند العافي عن الناس، واختار الحديث لفظ « عبدًا » ليذكر بمعاني العبودية والتواضع للَّه والناس، فالإنسان عبدٌ للَّه، وهو مخلوق ضعيف في حاجة إلى إمداد ربه ومعبوده، فليتواضع إرضاء له.

وختم المقطع بتنكير « عزًّا » ليدل على فخامة هذا العز؛ لأن مصدره اللَّه ﷻ.

المقطع الثالث: « لا تَوَاضَعَ أحدٌ للَّه إلا رفعه اللَّه »:

نجد صورتين متضادتين، فالتواضع صورة آخذة بالهبوط والصغر، أما الرفع فصورة آخذة في العلو. ويأتي فيه التوازن الموسيقي بتكرار لفظ « اللَّه » لتأكيد رفع اللَّه للمتواضع، إذ كان في الإمكان الاكتفاء بالضمير، ولكن آثر البيان النبوي الإظهار لقوة دلالته وعمق تعبيره في هذا المقام. والملحوظ في هذا النص الوجازة، ونجد الأفعال في النص ماضية لتؤكد حتمية الفعل وسرعة حدوثه، كما نجد هذه الأسماء مُنَكَّرَةً: « صدقةٌ – مالٍ –

عبدًا - عزًّا » مما يشير إلى عدم تحديد هذه المذكورات؛ لأن العبرة في وجودها لا في تحديدها.

إرشادات الحديث:

١ - إن الصدقة لا تنقص المال؛ لأن اللَّه تعالى يبارك لصاحبه فيه ويعوض ما ذهب منه، أو يدفع عنه من المكروه بقدره أو أعظم، أو أن ثوابه في الآخرة يعوض نقصه في الدنيا. ولا مانع من اجتماع الأمرين.

٢ - إن من كان خلقه الصفح والعفو يكون له في النفوس إعزاز وتعظيم، أو أنه تعلو مرتبته في الآخرة.

٣ - إن المتواضع ابتغاء وجه اللَّه يرفعه اللَّه، ويُلْقِي في القلوب رفعته وإعلاء مقامه، وكذا في الآخرة ترتفع منزلته.

* * *
* *
*

الأمل وطوله

٥٤ عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وخَطَّ خَطًّا فِي الوَسَطِ خَارِجًا منه، وخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إلى هذا الذي في الوسط، وَمِنْ جَانِبِهِ الذي في الوَسَط، وقال: « **هذا الإنسانُ، وهذا أجلُهُ مُحِيطٌ به - أو قَدْ أَحَاطَ به - وَهَذا الذي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وهذه الخُطَطُ الصِّغَار الأَعراض، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هذا نَهَشَه هذا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هذا نَهَشَه هذا** ».

[أخرجه البخاري والترمذي وابن ماجه][1]

* * *

المفردات:

الأعراض: جمع عَرَض أي: ما يطرأ على الإنسان من مرض أو أحداث طارئة تأتي عليه.

وقد صوَّر الحديث الإنسان في النصف، والمربع: الأجل والعمر، والخط في الوسط: الأمل.

الخطوط الصغيرة: أعراض تمنعه من تحصيل أمله.

المحتوى الفكري:

قد حدثنا الحديث السابق (يهرم ابن آدم...) فاستعان على توضيح المعنى بالاستعارة وهنا فسر النبي - عليه الصلاة والسلام - هذا المعنى من وجه آخر فيه تحليل نفسي يوضح بأبلغ الوسائل هذا الواقعَ وهو بُعد أمل الإنسان، واستعان الحديث على هذا التحليل بالتوضيح بالرسم، فالنبي ﷺ بيَّن هذا المعنى بهذه الطريقة، حيث يعمد إلى الوسائل التطبيقية؛ لتوضيح المعاني توضيحًا مُفصَّلًا وهوما يُسمَّى في علم التربية الحديثة (**وسائل الإيضاح**)، أو ما يُسمَّى: (**تِقْنيَّات التعليم**).

---

(١) البخاري في مطلع الرقاق (الأمل وطوله): ٨/ ٨٩، والترمذي في صفة القيامة (باب ٢٢): ٤/ ٦٣٥، ٦٣٦، وابن ماجه في الزهد (الأمل والأجل) رقم ٤٢٣١.

من دون ذلك يتصوَّر المُتَلقِّي الفكرة المقصودة تصوُّرًا إجماليًا، فيه إبهامٌ وغموض، ومِن هنا جاءت فوائد مهمة للاستعارات والتشبيهات البلاغية وغيرها، لا ينبغي أن نفهم أنها جُعلت للفن فقط، بل جُعلت لتوضيح مقصدها بطريقة لا تستطيع اللغة العادية التعبير عنه؛ ولتؤثر في قلب المتلقي السامع أو القارئ.

وبهذا يكون النبي ﷺ أولَ وأعظمَ مُعلِّم تربوي في الكون، قد سن في التعليم مبادئ تجعل المُعَلِّمَ ناجحًا، فأساليب التشبيهات مثلًا تعتبر من وسائل الإيضاح في علم التربية، فإن المعلم يضرب لتلامذته مثالًا من الأمثلة، كي يستطيع أن يُفْهِمَ طُلَّابَه عن طريقه ما يريد، كذلك وسائل الإيضاح في التعليم، نجدها هنا في هذه الوسيلة، بل نجد في تعليم النبي ﷺ استعمالًا لوسيلةٍ أخرى هي أوضح ما يستعمله المعلم وهي **الوسائل التطبيقية العملية**.

ومن ذلك أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ يسأله عن الصلاة فقال له: « **أقم معنا هذين اليومين** »، فأمر بلالًا أن يؤذن الظهر في أول الوقت وصلى النبي - عليه الصلاة والسلام - ثم العصر وهكذا سائر الصلوات. وفي اليوم الثاني أخّر الصلاة إلى آخر وقتها، ثم قال له: الصلاة كما رأيت وما بين هذين الوقتين وقت[1]. فعشرُ صلواتٍ صلَّاها النبي ﷺ جعلت الرجل يتعلَّم كيفية الصلاة وأوقاتها وما يتصل بها.

وهكذا وجدنا النبي يخرج المسلم المثقف بسنته معلمًا ناجحًا يسلك الوسائل التربوية؛ لنشر نور العلم والهداية، وذلك ما درج عليه الصحابة وسلكه أسلافنا وتفننوا فيه.

بعد هذا لا يخفى علينا ما دَلَّ عليه الحديث، وهو أنه أراد مِنَّا ألا نغتر بطول الأمل، فأي عمل يخطر لنا فلا نؤخره. وأي عمل يتاح لنا فلا نتوانى عنه. فإذا كانت الآمال واسعة فيجب ألا نغترّ بطولها، والقرآن الكريم يحدِّثنا أن الانخداع بالآمال وأوهامها ليس من شأن المؤمن، بل المؤمن هو الذي يبادر إلى أعماله، ومن ذلك أن يقال للهالكين يوم القيامة: ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٤].

إن الواقع مُرٌّ، والآمال غرَّارة خدَّاعة، وقد لمس القرآن أوتار القلب، وجعل الإنسان يتحسس هذه النواحي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار: ٦]. فالأماني التي لا تستند لعمل واستجابة للّه باطلة وسخيفة، إذ توهم الإنسان أنه مهما فعل وارتكب من

(١) رواه بنحوه الترمذي، رقم ١٥٢، والنسائي: ١/ ٢٥٨.

الآثام فلا بد من أن يجد المفازة والنجاة، ولكنها ليست المفازة إنما هي المهلكة، التي تنتهي إلى سراب ﴿ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

جمال التركيب:

يتسم هذا الحديث بأنه من الفن القولي الشفوي الذي احتاج إلى وسائل فنية مختلفة كإشارة اليد أو الرأس أو الرسم أو غير هذا، ونلحظ تكرار اسم الإشارة « هذا » ست مرات، وورود « هذه » مرة واحدة. وكل واحد يفيد دلالة خاصَّة تختلف عن غيرها مما يوضحه الرسم.

يبدأ النص بقوله: « **هذا الإنسان** » على سبيل الحصر، وفي صيغة الاسمية للدلالة على كونه هدفًا سهلًا على الأقدار. ثم قال: « وهذا أجله يحيط به » فالمقطع هنا منوع بين الاسمية والفعلية مما يشي بحركة الأقدار واستمرار الإحاطة في كل أحوال الإنسان.

ثم قال: « **وهذا الذي هو خَارِجٌ أَمَلُه** » فقد أصبحت الكلمات تنقُل ما رُسِم، ونجد كلمة « أمله » التي تعارض « أجله » في المقطع السابق وتوازيه في التركيب الصوتي؛ لتوحي بمقاربة الأمل الأجل.

وينتهي النص بجمل شرطية: « **فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه...** » تفيد اليقين القابل للحدوث، ويظهر هنا التكرار الذي يحقق توازيًا تامًّا في التركيب. **ويختم النص بكلمة « هذا » في جملة « نهشه هذا »** حيث تبقى الأبصار منصبة في الرسم على الرمال تنقل الخيال والفكر إلى **النهش الذي لا بد منه أخيرًا**؛ ليتزوَّدَ الإنسان ويستعد له.

جمال التصوير:

يقصد هذا الحديث **توضيح أمر معنوي غامض مُبْهَم في الشعور**، يتحكم في تصرفات الإنسان وسلوكه، وهو طول الأمل، الذي كثيرًا ما نتجاوز بسببه الحد إلى الانحراف أو السقوط، فَبَيَّنَ لنا **بطريق الصورة** خطورة مجاوزة الحد في الانجراف مع الآمال وسراب الأوهام.

ونجد في الحديث إحاطة الأجل بالإنسان، وكأن الإنسان يتحرك ضمن دائرة، وهي حركة آخذة في الثبات لا تتغير من مكانها، لكنها تبعث على الترهيب، بحيث يغدو المرء داخلها سجينًا خاضعًا لسلطة علوية.

كما تتجلَّى **جمالية التجسيم** في هذا النص حيث عُرضت الموجودات في مربع وخطوط مختلفة.

وقد **استعان** الحديث لتبيان العلاقة بين سلطة القدر وأمل الإنسان **بالتخطيط على الرمال**، وهذا يدل على اهتمام بالغ بالتجسيم، والتخطيط صورة إشارية تترك فسحة للذهن لتملي الإيحاء النفسي الذي يقع خلف الخطوط، فالأمر لا يقتصر على الاهتمام بالشكل الخارجي المرئي، لأن الصورة الإشارية موظفة هنا لقضية كبرى في العقيدة، وفي السلوك.

وفي الحديث إيغال في المحسوس وذلك بتحريك المجسَّم، وكأن الأعراض أي الأحداث تلاحق الإنسان وتفني لحمه، مما يُعطي الخطوط مكانًا فسيحًا في التصوير يشرك الحس والخيال ويثير الرعب.

والتجسيم والصورة الإشارية الموضحة في هذا النص يسعيان إلى ما وراء المحسوس، وإذا كان هذا مطلوبًا من فن الرسم، فالأدب الذي هو فن تعبيري أولى بهذه الوظيفة الجمالية لخصوصية أداته اللغوية التي وجدنا البيان النبوي يملكها أعلى تملك في أدب بني الإنسان، وإبداعهم.

إرشادات الحديث:

١ - سبق النبي ﷺ لاستعمال وسائل الإيضاح، أو (تقنيات التعليم) وطرق التعليم والتربية العملية، وذلك بتعليم اللَّه إيَّاه.

٢ - بيان حقيقة الحياة ليكون المؤمن على وعي في مواجهتها، وتحمل نوائبها.

٣ - الحث على المبادرة للعمل وعدم الاغترار بالأمل فإن الأمل بعيد بعيد، والأجل قريب قريب.. أقرب منه بكثير بكثير...!

* * *
* *
*

الجدال... الضلال

٥٥ عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعدَ هُدًى كَانُوا عَليهِ إِلَّا أُوتُوا الجَدَلَ** ». **ثُمَّ تَلَا رسولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾** [الزخرف: ٥٨] ».

[أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه][1]

* * *

المفردات:

أصل الجدل: من الجَدَالة وهي الأرض الصلبة، سُمِّيَ الجَدَل بذلك؛ لأن كُلًّا من الخَصْمَيْنِ المُتَصَارِعَيْنِ المُتَجَادلين يريد أن يَرْمِيَ خصمه على هذه الأرض الصلبة. ثم أُطْلِقَ على المحاجة بالقول والمغالبة به.

المحتوى الفكري:

يُحَذِّرُنَا النَّبِيُّ ﷺ من هذا النوع من الغريزة الذي أُوْتِيْهِ الإنسان من حُبِّ المُحَاجة عن الرأي تعصبًا له بالمجادلة التي تقصد التغلب لا اتِّباع الحق، يَظُنُّ صاحبها أنه بها يعلو من حيث إنه يهبط، ولا شك أن هذا الجدل خطيرٌ جدًّا.

فأول مخاطره أنه يؤدي إلى قلب الحقائق وتزوير الوقائع، وذلك أمر مصيره للبوار، فمتى اعتقد شخص في واقعه النفسي الداخلي أن كل ما يخطر بباله حقّ وصواب، وكأنه أخذ على الحق عهدًا أن يدور معه حيثما دار، فإنه سَيَضِلُّ عن الحق؛ لأنه قد أعماه غروره بنفسه وتعصبه لباطله.

والخطر الثاني: أنه يغتر به بعض البُسطاء من الناس الذين تأخذهم لطافته وأحابيله في الجدل والإقناع فيكون سببًا في ضلال الناس. وإن أمة يكْثُرُ فيها مثل هؤلاء هي أمة سائرة في طريق الضلال والهلاك؛ لأنها تؤثر الهوى على الحق، والحق لا ينفعنا منه أن نعرفه فنغطيه، فضلًا عن أن نجهله ونضل عنه، بل ينفعنا أن نفهمه وندافع عنه، ولذلك جاءت

---

(١) الترمذي في التفسير (سورة الزخرف): ٥/ ٣٧٩ - ٦٧٨، وابن ماجه في مقدمة سننه، رقم ٤٨، وقال الترمذي: « هذا حديث حسن صحيح ».

زيادة في بعض الروايات تنبِّه على خطأ آخر هو الركون إلى ترك العمل، ففي رواية أخرى زيادة: « **إلا أوتوا الجدل وحرموا العمل** ».

فإن انشغال الإنسان بالجدل يجعله رجلًا نظريًّا يترك العمل ولا يبالي به. فهذا إنسان قد ركب متن الضلال؛ لأن حظَّه من الحق والخير الكلام والحديث عنه فقط، بعيدًا عن العمل بما يوجبه الحق، متبعًا لهواه، وهذا هو التاريخ يُحدِّثنا عن مصارع الأمم التي انهمكت في الجدال، فإذا بها تنشغل به عن جلائل الأمور، وقديمًا سلّم اليهود القدس؛ لأنهم اختلفوا في جواز القتال لصد العدو يوم السبت، وما جدل البيزنطيين عنا ببعيد، فقد أصبح مثلًا للأقوام جميعًا.

ملامح فنية:

يتكوَّن الحديث من مفردات دينية اجتماعية فكرية: (ضَلَّ - هُدًى - جَدَل) وهو على وجازته يحذر من أمر عظيم الأثر وهو الجدل الذي يقتل الفكر ويعطل العمل والحضارة.

ونلحظ في هذا الحديث قوله: « ما ضل » في حال الفعلية التي تعارض « هدًى » في حال الاسمية؛ وذلك لأن الضلال يحتاج إلى فاعلية وتَكَلُّفٍ من البشر، في حين يكون الهدى فطرة اللَّه التي فطر الناس عليها. وتعبير « ما ضل قوم » صورة تحملنا إلى الضياع المهلك في الصحارى، وتنقلنا عبر الزمن الماضي إلى القوم الهالكين الماضين.

أما تعبير « **هدًى كانوا عليه** » فإنه يلمح إلى هبوطهم، بعد استعلائهم بوساطة الهدى الذي أبرزهم إلى الوجود المرئي « كانوا عليه »، ولما فقدوا الهدى خارت قواهم، حتى إن الجدل يأتيهم من مصادر كثيرة تمليها الأهواء؛ لذلك آثر الحديث الفعل المبني للمجهول « أوتوا ».

وفي الحديث بعض الأصوات الشديدة المعبرة عن التحذير: كاللام المشددة بعد الضاد في « **ضلَّ** » **وتنكير** « **قوم** » حرف الميم شفوي قوي، وتنكير « هُدًى » ثم « إلا » مشددة اللام، ثم الوقوف الختامي عند كلمة « الجدل » بجيمها القوية ولامها الساكنة، كل هذا يسهم في إبراز التحذير والشدة في إبلاغ هذه القضية المصيرية.

إرشادات الحديث:

١ - إن الاشتغال بالجدال بما يزيد عن الحاجة لإظهار الحق خطر، يؤدي إلى شطط الفكر وضلال العقل.

٢ - إن الانهماك بالجدال على هذا الوجه المكروه يؤدي لضياع المقصود الأصلي وهو العمل؛ لذلك كان السلف الصالح يقتصرون على بيان حجتهم باختصار؛ ليشتغلوا بالعمل. وقد ساد في المسلمين في هذا العصر الاشتغال بالجدل، وتركوا الاهتمام الواجب بالعمل، وأدَّى ذلك إلى زيادة التفرُّق والشحناء.

٣ - إن الإكثار في الجدل مفسد للنية، موقع للعداوة والبغضاء. وهذا الحديث يشير إلى آفة استحكمت في المسلمين فقد كثر من أقوام الخوض في الجدل، لا يراعون أدب البحث العلمي، ولا أدب الاختلاف، حوَّلوا المناظرة إلى مهاترة، والمباحثة إلى مُسَابَّةٍ ومشاتمة، فإياك أيها المؤمن أن تحوم حولها، واجتنبها اجتناب السم القاتل والداء العضال.

* * *
* *
*

الكلمة... الخطر!!

٥٦ عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِيْ لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ. وإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِيْ بِهَا فِي جَهَنَّم ».

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي][1]

* * *

المحتوى الفكري:

هذا الحديث ينبهنا إلى أمور لا نُعِيرها اهتمامًا، ولا نظن لها خطورةً في نفع أو ضرر، وهي في غاية النفع أو غاية الضرر. ما أكثر ما تصدر عن الإنسان كلمة يقولها بلا مبالاة، وإذا بها تحقِّق النفع الجسيم، وما أكثر ما يطلقها كلمةً على عواهنها تنزل الضرر العظيم، وذلك ما درج عليه أكثر الناس؛ يطلقون لألسنتهم العِنان في الخير والشر، حتى وَقَرَ في أذهان العامة: « الكلام ما عليه ضريبة ».

ما أكثر ما يُذَكِّرُ المَرْءُ ذا سَعَةٍ ومال بِمُعْوِزٍ ذي فاقة، أو جهة تعملُ للبر، فتكون كلمة التذكير سببًا لإغاثة ذلك المُعْسِر، أو إعانة تلك الجهة الخيرية المهمة، وكانت الكلمة اليسيرة سببًا لثواب جزيل؛ لأن الدال على الخير كفاعله.

وربما فاه شاهد صدقٍ بكلمةِ حق لا يتوقع لها كبيرَ نفع، وإذا بها تكشف اللثام عن براءةِ مُتهم وإنصاف مظلوم، ونجاتهما من مَهْلَكَة.

وما أكثر ما يصدر من التَّقيِّ عباراتٌ إيمانيةٌ في أثناء كلامه تذكر بعضِ السامعين أو توقظ بعض الغافلين فيثوب لرشده ويرتدع عن غَيِّه.

وكيف نغفل عن كلمة الحق الأكبر شهادة التوحيد: « لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه » التي تدخل صاحبها الجنة، وتحرمه على النار.

كذلك كلمة الحق عند صاحب السلطة كم تتسع آثارها، وتشمل فوائدُها، إنها تعم

---

(١) البخاري في الرقاق (حفظ اللسان): ٨/ ١٠١، ومسلم في الزهد: ٨/ ٢٢٣، ٢٢٤، والترمذي في الزهد: ٤/ ٥٥٧، واللفظ للبخاري.

بخيرها الملايين من الناس، ينالهم الخير، ويرتفع عنهم الحيف، بكلمة حق، ربما لا يحفل بها إذا سمع عنها من لا يقدر الأمور بقيمتها الحقيقية.

تلك كلها نماذج لكلمات يسيرة معدودة أثمرت خيرًا كثيرًا، يرفع اللّٰه صاحبها في الجنة درجات كثيرة عالية.

وأما في الإثم والسوء فالحديث يحذرنا تحذيرًا شديدًا مما فشا في الناس من الاستهتار بما ينفقون من الكلام، بالرغم من خطورة ذلك الكلام، تأثرًا بغضب أو انفعال، أو انجرافًا مع خاطرة عابرة...

وها نحن نرى يوميًّا كلمة السوء تُشْعِل نارًا من الفتنة مضطرمة، تملأ الدنيا على الإنسان شقاء.

هذا رجل يدخل بيته متعبًا، فيجد أولاده في المنزل في هرج وصخب، وإذا به يثير النزاع شديدًا مع زوجته المسكينة، فيفسدُ تربية الأولاد بهذا الصنع القبيح. ثم أقبح منه أن يؤدي به تبرمه وانزعاجه من صخب الأولاد أن يقسم يمين الطلاق، بزعم أنها مقصرة في المحافظة على هدوء البيت، فيخرب بيته بيده، ويبوء بغضب اللّٰه.

وهذا رجل يطلق لسانه في الحديث عمَّا وقع ولم يقع، يكذب ويفتري، أو يسرف في بذل المواعيد دون تثبت في تمكنه من الوفاء بها، وأداء ما التزمه، يتوهم ألاّ بأس بذلك ولا حرج، مع أن فيه غاية الإثم والحرج، إذ يؤدي به ذلك أن يكتسب صفات النفاق، ويكون عاملًا في تبديد الثقة في المجتمع.

وهذا إنسان يستفزه الغضب فلا يجد ما يظهر به شجاعته إلا أقبح العدوان؛ أن يعتدي على أقدس الحرمات حرمة الدين، فيسب الدين؛ ليكون مثلًا في القحة وإساءة الأدب، وليخسر دنياه وأخراه.

وأشد فَلَتَات اللسان خطرًا وضررًا ذلك الذي يسوّغ لنفسه التهوين من القيم الدينية، حتى إنه يضل الناس ويصدهم عن ربهم، اغترارًا بمظاهر فارغة كاذبة تجتذبه لمجاراة ما تأتي به (الموضة) من أزياء فكرية... إنه بهذا أصبح مفسدًا مُضَلِّلًا، يقال له يوم القيامة، كما ورد في الحديث إنه يقال لمن يدعو إلى الضلال: املأ هذا الركن من أركان جهنم.

لقد شمل الحديث بكلماته المعدودة معاني واسعة يضيق نطاق حصرها، وقد نَبَّهَ

الحديث إلى أن هذه المعاني والأمور ترتكز دائرة فلكها على محور واحد، **هو إلقاء الكلمة على علاتها**، دون اهتمام ومبالاة بما يكون من نتائجها. فصحح الحديث هذا الخطأ الشائع ونَبَّهَ إلى خطره وضرره، علمًا أنه « ليس العبرة بألا تقصد.. » لكن العبرة بما يتضمن كلامك ويثمر.

ويقوي أسلوبُ الحديث تأثير هذه المعاني، فلا شك أن في ذكر الدرجات، والهوي في النار ما يثير تنبه المؤمن على أقوى ما يكون لينتفعَ بهذا التوجيه الحكيم، ثم يأتي في الحديث **التقابل بين القسمين المتضادين** ليؤكد هذا المعنى الذي قصده الحديث، حيث عظم وقع الثواب في النفس، كما عظم خطر العقاب؛ لتقابلهما في سياق واحد، فأعطى الكلام أثره النفسي العميق؛ ليدفع العاقل الرشيد إلى التفكُّرِ والتَّدَبُّرِ في كل ما يصدر عنه من القيل، فلا يمنعه من كلمة خير تَصَوُّرُهُ ضآلة أمرها، ولا يسهل له كلمة شر توهمه تفاهة خطرها أو أَلَّا خطر لها. بل هو التمسك بالخير ولو أقل قليل، والحذر الحذر من الشر ولو من النزر اليسير.

جمال التركيب:

يتكون الحديث من مقطعين طويلين جاءا على تضاد بين الخير والشر، لكنهما يتوازيان في بعض الوحدات اللغوية مما يُبرِز بشدةٍ التضادَّ بين الموقفين.

يبدأ المقطع الأول بحرف مشبه بالفعل: « **إن العبد ليتكلم** » يعطي الجملة التوكيد ويمهد لتنوع عناصرها « **من رضوان اللَّه لا يلقي لها بالًا** »، ثم نجد فيه التلاقي الصوتي بين « يتكلم » و « الكلمة ».

يتوازى المفصل الأول مع المفصل الأول من المقطع الثاني « إن العبد... »، ثم نجد التنوع بينهما: ففي الأول « من رضوان اللَّه » الذي يعارض « من سخط اللَّه »، ثم يعود التوازي من خلال « لا يلقي لها بالًا » ونعود إلى التنوع في « يرفعه اللَّه بها درجات » و « يهوي بها في جهنم » وهكذا التضاد بين الإعلاء والهوي.

وقد أسند الفعل في الرفع إلى اللَّه « يرفَعُه اللَّه »، في حين أسند الفعل في الهبوط إلى الإنسان « يهوي بها... »؛ ليدل على أن الشر مصدره الإنسان. ثم إن المثوبة غير محددة في النعيم الذي أومأ إليه بكلمة « درجات » التي تعارض جهنم.

وبعد، فهذا النص يشمل ألفاظًا مأنوسة وعبارات واضحة وجملًا متماسكة، تفي

بالمعاني الواضحة المؤثرة، وكانت ألفاظه من الحقل الديني « اللَّه، العبد، رضوان.. » يعهدها المثقف والعامي ممن اطلع على معطيات الإسلام.

جمال التصوير:

نحن إزاء مشهدين متعارضين يتسمان بالحركة:

المشهد الأول: نتصور فيه « **الكلمة** » الصالحة كائنًا محركًا ينقل العبد الفاضل إلى الأعلى غير المحدود في عالم النعيم في صورة صاعدة إلى العلو المقدس: « **يرفعه اللَّه بها درجات** ».

المشهد الآخر: نتصور فيه « **الكلمة** » السوء التي تغدو كائنًا مُجسَّمًا مُحرِّكًا ينقل العبد الفاسق إلى الأسفل غيرالمحدود « يهوي بها في جهنم »، في حركة سريعة كما يؤكد الفعل « يهوي »، مما يزيد في طاقة الكلمات المرعبة.

ويتميز هذان المشهدان بأنهما لا يعتمدان المجاز، بل يثيران الخيال بالاعتماد على صيغة المضارعة: « ليتكلم - لا يلقي - يرفعه - يهوي بها » لأن الكلمة الآن، وفي الاستقبال، ولأن جزاءهما في عوالم أخروية؛ لها طبيعتها المغايرة في الماهية والفاعلية.

إرشادات الحديث:

١ - التنبيه على أهمية الكلمة، وأن لا يَنْجَرَّ الإنسانُ مع خواطره وبَدَوَاته.

٢ - أَلَّا يُقَصِّرَ المؤمن أن يقول كلمة خير؛ لقلة شأنها في نظره، فربما رفعته درجات عالية في الجنة، لموقعها في الدين، أو لنفع عظيم تسبب عنها في الدنيا...

٣ - أَلَّا يتساهل المؤمن في ضبط لسانه فربما أودت به كلمة طائشة في خطر عظيم في الدنيا أو عذاب عظيم في الآخرة، ولذلك كان الإيمان ويقظة قلب المؤمن سياجًا حاميًا، وقد ثبت الحديث الشريف: « **من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت** »[1].

* * *
* *
*

---

(١) رواه البخاري، رقم ٦٠١٨، في الأدب (من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فلا يؤذ جاره) ومسلم، رقم ٤٧، في الإيمان (الحث على إكرام الجار والضيف).

المنافق شاة عائرة!

٥٧ عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: « **مَثَلُ المُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ العَائِرَةِ بَيْنَ الغَنَمَيْنِ، تَعِيرُ إلى هذِهِ مَرَّةً، وإلى هذهِ مَرَّةً** ».

[أخرجه مسلم والنسائي][1]

* * *

المفردات:

تعير: تذهب وتجيء لنيل وطرها. أو المترددة الحائرة لا تدري لأيهما تتبع. وقال الأبي: عارت الدابة إذا انفلتت وذهبت.

الغنمين: القطيعين من الغنم[2].

المحتوى الفكري:

يُصَوِّرُ لنا الحديث آفة نفسية خطيرة تفشّت في عصرنا هذا، ودرج الناس على تسميتها خطأً بالمجاملة إذ يتظاهر الإنسان لكل طائفة بما يوافقهم فكرة وسلوكًا، وما هي بالمجاملة وإنما هي النفاق بعينه.

يبين الحديث شأن هذا النوع من الناس الذي هو أكبر داء في الأمة، وقد رأينا في القرآن ما اقتضته هذه الطبيعة المنحرفة من تعدادٍ ووصفٍ مُطَوَّلٍ يكشفُ خباياها، في آيات كثيرة من سورة البقرة وغيرها كثير من القرآن.

وكذلك جاءت الأحاديث تفضح أيضًا هذا النوع من الناس، وَعْظًا لهم لكي يثوبوا إلى الحق، وزجرًا لغيرهم وتحذيرًا لكل مؤمنٍ من سلوك سبيلهم.

هذا الحديث يصوِّر لنا صورة هذا الفريق من الناس صورة فيها تَهَكُّم لاذع، أتى به في هذه الكلمة « **العَائِرَةِ بينَ الغَنَمَيْن** ».

---

(١) مسلم بلفظه في صفة المنافقين: ٨/ ١٢٥، والنسائي في الإيمان: ٨/ ١٠٨.

(٢) يرد هنا سؤال هو كيف جاز تثنية (غنم) وهي جمع والجمع لا يُثَنَّى؟ أجاب ابن يعيش في (المفصل) بأنه يجوز تثنية الجمع إذا كان المقصود جماعتين، ولما كان المقصود به هذا المعنى حيث أطلقت غنم بمعنى (قطيع) صح تثنية جمعها. وقد استشهد ابن يعيش بهذا الحديث نفسه لتثبيت رأيه.

وكلمة «العائِر»: في أصل اللغة تطلق على الناقة التي تنتقل من فريق جمال إلى فريق آخر لكي ينزو عليها الفحل، ثم أُطْلِقت على الغنم، فهذا الفريق من الناس شأنهم شأن هذه الناقة التي تنتقل من قطيع إلى قطيع لكي تحقق غرضًا خسيسًا من أغراضها، فالغريزة هي المُسَيِّرة لهذا الفريق من الناس الذين كانوا دائمًا خطرًا عظيمًا على المسلمين. يأتون إلى المسلمين يظهرون الإسلام والحماس للإسلام، ويأكلون خيرات أهل الإسلام، وإذا التقوا بالآخرين قالوا: إنما نحن معكم، ما فعل المنافق هذا الفعل الدنيء إلا تلبية لغرائزه في جمع المال ونيل الحُظْوة والمغنم عند هؤلاء وهؤلاء؛ لذلك شبهه الحديث بالشاة العائرة بين قطيعي الغنم، تدخل هذا القطيع ينزو عليها فحل منه، ثم تدخل ذاك القطيع لينزو عليها فحل منه.

لكن الإنسان الذي كرَّمه اللَّهُ بالعقل يجب عليه أَلَّا يكون مثل هذا الحيوان يغدو ويروح يُسَيِّرُهُ بطنه وشهوته، ولا ريب أن مثل هذا التصوير له وقعه في النفس؛ لأن هؤلاء المنافقين الذين يسمعون هذا الحديث سيشعرون بقبح صنيعهم أو خيبة سعيهم، إذ لم يجاوزا حدَّ تلك الأنثى الفاضحة المسكينة من الحيوان الأعجم، فهذا النفاق ليس مهارةً وقوةً، بل إن نقص الذكاء وضعف الشخصية وتفاهتها هو السبب في ذلك، وإن انحطاط مستوى الشخص باتباع هواه، وعبادة حبه لدنياه نزل به إلى درك هذه الشاة، وجعله يسلك ذلك السبيل!!.

ملامح فنية:

يتكون الحديث من مقطعين يترابطان برابط السببية، فالمقطع الأول يبعث على التشويق، ثم يأتي المقطع الثاني ليزيل العجب من اقتران المنافق بالشاة، في أسلوب تمثيلي بارع.

وثمة توازن يبدأ به النص «**مَثَل المنافق... مَثَل الشاة**» حيث الإضافة إلى الاسم، ثم يحصل تمدد لغوي يفيد استكمال عناصر التصوير والمعنى: «**العائرة بين الغنمين**» وكأن غرابة الجمع هنا توحي بغرابة استلاب الرجولة من المنافق ووسم سلوكه بالحيواني البهيمي، حيث يوضحه الحديث ويقول: «**تعير إلى هذه مرةً وإلى هذه مرةً**» حيث التوازي في النص؛ ليناسب صنع المنافق الذي يوزع نفسه في مجالين.

جمال التصوير:

يصوِّر الحديث حالة نفسية شاذة في الناس، معقدة في داخل النفس، تلك هي **حالة المنافق الذي يبطن الكفر**، ويظهر الإسلام. ليحصل على مغانم من المسلمين، فانتقل بنا من هذه الحالة الخفية المعنوية المعقدة إلى الطبيعة المحسوسة الواضحة، في صورة الشاة العائرة المترددة بين الغنمين القطيعين، لتنال وطرها من هذا ومن ذاك.

وقد انتزع التصوير في قوله « العائرة... تعير » من الشاة طباعها الغريزية التي تناسب المسلك الشهواني في صنيع المنافق، فالبهيمة منقادة إلى شهواتها طعامًا وشرابًا وجماعًا، فتندفع إلى تحصيل تلك الشهوات.

ونجد في **تثنية الجمع « غنمين » ما يؤكد الضياع** حيث التمزق بين الأعداد الهائلة، مما يجعل النص يزري بالمنافق كل الزراية ويخوف من النفاق جدَّ التخويف، ويضع عقابه العاجل بين يدي المنافق.

وقد **قوّى الحديث الصورة** فقدّم لهذا الحيوان الآدمي والحقيقي صورة متكررة: « **إلى هذه مرة وإلى هذه مرة** ». فالعين ترى الجموع، ويتخلل هذه الجموع **فراغ في المشهد تظهر فيه الشاة** منفردة بحركتها المتميزة. فهي لقطة قريبة يتركز عليها البصر، ويُرسِلُ إلى الوجدان معالمها النفسية الواسعة، العميقة الزجر.

إرشادات الحديث:

١ - خطر اتباع الإنسان شهواته وأهواءه ومطامعه؛ فإنها تؤدي به إلى فساد دينه، وأن يسلك طريق النفاق.

٢ - التحذير من المسايرة مما يسمى في عصرنا المجاملة أن تغمس صاحبها في النفاق، إذا كانت في غير حق.

٣ - ليس للمنافق مبدأ، فهو إنسان مريض القلب، ولاؤه تابع لمنافعه، فهو ينتقل تبعًا لمنافعه.

٤ - انحطاط نفسية المنافق، وإن تظاهر بالدعوى والدعاية، فقد انحطت به شهوة نفسه، حتى صار مثل تلك البهيمة في تبع الغريزة؛ لذلك مثله الحديث بالشاة العائرة. وقال اللّٰه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥].

المزاح والمداعبة

| ٥٨ | عن أنس بن مالك ﷺ أن رجلًا استحمل رسول اللّه ﷺ. فقال ﷺ: « **إِنِّي حَامِلُكَ عَلَى وَلَدِ النَّاقَةِ** » فقال: **يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ النَّاقَةِ؟. فقال رسول اللّه ﷺ:** « **وَهَلْ تَلِدُ الإِبِلَ إِلا النُّوقُ** ».

[أخرجه أبو داود والترمذي بلفظه][1]

* * *

المفردات:

اسْتَحْمَلَ: أي قال: يا رسول اللّه احملني على بعير، أي: جمل.

احْمِلْنِي: أعطني بعيرًا أي: جملًا يصلح للركوب.

المحتوى الفكري:

هذا الحديث يبرز لنا جانبًا في النفس وتربيتها الإسلامية، ويصحح ما وَقَرَ عند الكثيرين من مفهوم العَظَمَة والمركز العالي، إذ يتوهم الناس معناه أن يكون الشخص العظيم صاحب عُبُوسٍ وتقطيب، يستشيط غضبًا لأتفه سبب، هذه علامات خاطئة اتخذها الناس دليلًا على شرف الرتبة، لكن التربية الأخلاقية للنفس جعلت في المسلم طابع البساطة (لا السذاجة)، بل هي النفس البشرية التي لا تعقيد فيما تنطوي عليه جوانبها، بل هي منسجمة مع فطرة اللّه، تأخذ ساعةً للدعابة والمزاح، دون خروج عن قواعد الأدب والشريعة.

والنبي ﷺ يضرب لنا في هذا الحديث مثلًا عن الشخصية العظيمة بل العظمى التي تفسح للدعابة مجالًا مناسبًا، إلى جانب التحفظ اللائق بالرجل الجاد العاقل، فالرزانة ليست جمودًا، وعلو المكانة ليس بأن يكون الإنسان من صخر، وإنما معناه أن تكون النفس البشرية مستوفيةً للجوانب التي فُطِر عليها الإنسان. فالرسول ﷺ كان يبتسم لكن لا يضحك إلا قليلًا، وهذا دليل على شخصيته التي تعرف للمزاح حقه.

---

(١) أبو داود في الأدب (ما جاء في المزاح): ٤/ ٣٠٠، والترمذي في البر والصلة (المزاح): ٤/ ٣٥٧، وقال: « هذا حديث حسن صحيح غريب ».

فهذا القادم على النبي ﷺ من الأعراب السذج الذين يتبعون ظاهر اللفظ دون أن ينتبهوا إلى الكنايات، ومن هنا جاءت المداعبة لطيفة، قال الرجل: «احملني على بعير»، وأسلوبه هذا يظهر جَفْوَة الأعراب إذ يطلب من النبي ﷺ هذا الطلب دون تلطف، وهذه طبيعة الأعراب الجفاة، وقد كان الرسول ﷺ لا يرد سائلًا، وهذا الرجل يطلب جملًا له قيمته؛ يساوي سيارة في زماننا؛ لأنه سفينة الصحراء ومع هذا يأتي طلبه جافيًا.

وكان ﷺ يتلقى مثل هؤلاء بالسماحة والتجاوز؛ لكي يضرب للناس المثل الأعلى في حُسن الخُلُق والصفح عن الناس والتجاوز عن الحق الشخصي، كذلك نجد في الحديث في الصحيحين عن أنس بن مالك ﷺ قال: مَشَيتُ مع رسول اللَّه ﷺ وعليه بُرْدٌ - أي ثوب - نجرانيٌّ غليظ الحاشية. فأدركه أعرابي فجَبَذَهُ جَبْذَةً شديدة - أي جَذَبَ الثوب - حتى **نَظَرتُ إلى صفحة عُنق** رسول اللَّه ﷺ وقد أثَّر فيه - أي في عنقه - حاشية البرد من شِدَّةِ جَبْذته ثم قال - الأعرابي -: يا محمد؛ مُرْ لي من مال اللَّه الذي عندك، فالتفت إليه النَّبي ﷺ وضحك، ثم أمر له بعطاء» فما كان ليغضب لنفسه قط لكنه ﷺ يغضب إذا خولفت الشريعة، فإذا غضب لا يقوم له أحد حتى يقيم الأمر في نصابه.

وهذا الحديث الذي ندرسه مثل في الكرم والسخاء تضمنه واشتمل عليه؛ إذ نجد النبي يعطي عطاء سخيًّا ولا يرد سائله، ولو كان جافيًا، والحديث مثل أيضًا لتربية كافة الجوانب الفاضلة في النفس البشرية، بحيث لا تخرج عن الفطرة، فليس المؤمن هو المُتزَمت الجافي الغليظ الجانب، بل هو ساعة الجد جادٌّ، وساعة المزاح مُدَاعِب.

وقد ذكر العلماء مثل هذه المداعبة أمثلة كثيرة رويت عنه ﷺ منها أن امرأة عجوزًا جاءت إلى الرسول ﷺ فقالت له: ادعُ اللَّه أن يدخلني الجنة. فقال: « ... **إن الجنة لا يدخلها عجوز** » قال: فَوَلَّتْ وهي تبكي. فقال ﷺ: « **أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز. إن اللَّه - تعالى - يقول:** ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٧] » أخرجه الترمذي. ولذلك نجد أنه مع سنته الحسنة قد عرفنا الاعتدال في هذا الجانب حتى لا نكون هزليين؛ لأن الجانب الهزلي إذا تسلط على الإنسان فإنه يفقده عنصر تحمل المسؤولية وأدائها حقها، وكم من المستهترين مَنْ ضَيَّعَ على نفسه وأمته فرصًا عظيمة....

لذلك كان ﷺ معتدلًا وكان يمزح ولا يقول إلا حقًّا وإذا سُرَّ تَبَسَّم، كذلك على المسلم ألا يَخْلُدَ إلى الضحك الكثير؛ حتى لا يكون كالعوام الذين تأتي منهم تصرفات تخرج عن الشريعة في مزاحهم « **ولا تُكْثِرِ من الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب** »[1].

ملامح فنية:

نجد في طلب الأعرابي العطاء الكبير إلحاحًا وجفاءً وخشونة في التعبير، وقد جاء الجواب النبوي مقابل هذا الإلحاح « إني حاملك على ولد الناقة » ونَلْحَظ أنه استخدم الاسم « حاملك » دون الفعل ليدل على ثبات الأمر وتحقيقه. والإضافة إلى المخاطب ليدل على الاهتمام الشديد بالأعرابي، ويأتي استخدام التعبير بـ« ولد الناقة » يهزُّ سطحية الأعرابي إذ أوحى ذلك التعبير له أنه سيحصل على وليد صغير من البعير، ولذلك قال: « ما أصنع بولد الناقة؟ » جملة طلبية استفهامية تمتلئ بالحيرة والشك.

وكان الجواب استفهاميًّا يفيد النفي « وهل تلد الإبلَ إلا النُّوقُ؟ » ليكون رادعًا للأعرابي عن سذاجته، وتنبيهًا له إلى قضية مشاهدة يومية.

كما يقدم الحديث لنا صورة حيَّة عن سماحة النبي ﷺ ولطف مداعبته، في موقف قد يثير الغضب، لجفاء هذا الأعرابي في عرض طلبه عطاءً جزيلًا هو ناقة تصلح للركوب، فإذا بالنبي ﷺ يداعبه، وَيُعَوِّدُهُ حسن الانتباه بمزاح لا يجاوز الحق، ثم يعطيه ما طلبه.

إرشادات الحديث:

١ - تواضع نفسه الكريمة ﷺ حتى تحمل جفاء هذا الرجل، وأمثاله من الأعراب، وحتى صار يمازحه هنا، وهو فقير جاء يطلب مساعدة.

٢ - كرمه ﷺ، وعطاؤه الشيء الكثير لمن يطلب منه. وقد ثبت أنه « ما سئل شيئًا قطُّ فقال: لا »[2].

٣ - مشروعية المزاح والمداعبة، وأن ذلك لا ينقص من قدر صاحب المنزلة العالية الرفيعة، والمزاح يجدد النشاط، ويجلو صدأ القلب، فليعط المؤمن لنفسه حظها من مجلس مزاح، أو قراءة فكاهات.

---

(١) رواه الترمذي، رقم ٢٣٠٥، وأحمد في المسند: ٢/ ٣١٠.

(٢) رواه البخاري، رقم ٦٠٣٤، في الأدب (حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل)، ومسلم، رقم ٢٣١١، في الفضائل (ما سئل رسول اللّـه ﷺ شيئًا قط فقال: لا).

٤ - لا يكثر من المزاح، ولا يجاوز به الحدّ، وهو حدُّ الملح للطعام.

٥ - التزام الصدق في المزاح والمداعبة، فالصدق والحق من مستلزمات الإيمان؛ لأنه صدقٌ وحق، « وكان رسول اللّه ﷺ يَمْزَحُ ولا يقول إلا حقًّا »(١).

* * *
* *
*

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى: ٨/ ٢٢٤.

نتائج أحاديث النفس والتربية

هذه جملة من الأحاديث التي شرحناها في النفس والتربية: في القيم الأخلاقية، قد رأيتم رُقِيَّ هذه المُثُل وتهذيبها للنفس، ورأيتم من جانب آخر ما أبرزناه من نفوذها إلى جميع مجالات الحياة، وأنها ليست مُجْمَلَةً، يعروها الغموض، فيحار الإنسان في تطبيقها وتنفيذها، لكنها مفصَّلة غاية التفصيل والبيان. وإنك لو نظرتَ في نظرياتِ الأخلاقيين فما أنت واجدٌ عندهم إلا نظرياتٍ عامة، إذا أردتَ تطبيقها أو تنفيذها فإنك ستحار في تنفيذها، على عكس المُثُل الإسلامية؛ فإنها جاءت مفصَّلةً للجزئيات والكليات، كما أنها عُضِدَتْ بدعائم عملية؛ إذ جاءت الشريعة بتطبيقات عملية لها في المعاملات عامة، والأمور المالية خاصَّة؛ لأن المال حبيبٌ إلى النفس: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨]. ولكنَّ الشريعة مع أنها أقرَّت هذه الغريزة وشرعت ما يحقق هذه الرغبة ضمن حدود الاعتدال، شرعت **ضوابط لحفظ الأخلاق معها؛ ومن أهم ما شرعته:**

تحريم الغش والاحتكار، والغَبْنِ الفاحش، والبيوع التي تؤدي إلى النزاع، فقد « نهى رسول الله ﷺ عن بيع الغرر »[1] أي: الشيء المجهول أو المتردد؛ لأنك لا تدري حقيقته؛ لأنه يؤدي إلى النزاع، والشريعة تهدف إلى تقوية ترابط العقد الاجتماعي بين الناس، وإلى تقوية روابط الأخوة؛ لذلك لم تكن أصول التربية والأخلاق وفروعها مجرد نظريات؛ وإنما هي تطبيقات عملية؛ لأن هذه الأخلاقيات قد شرعت لها تشريعات محددة مضبوطة تكفل تنفيذ الحد الضروري، والحد المناسب؛ لكي يُسمَّى الإنسان إنسانًا. وثمة شيء آخر يخضع إلى الوجدان والعنصر الفردي الباطني، لا يمكن أن يُضبطَ بضابطٍ قانوني، وإنما يَرْجِع إلى عنصر الوجدان؛ إلى الرقي والكمال الذي يطمح إليه الإنسان، وقد فَوَّضت الشريعة ذلك لرقابة الضمير الحيّ وتقوى الله، وهكذا نجد أن **تعاليم الأخلاق النبوية قد جمعت بين ناحيتين:**

الناحية الأولى الواقعية: فحطمت القيد الزاعم بأن القضايا الأخلاقية ملائكية عليا لا يمكن تنفيذها.

---

(١) لفظه « نهى رسول الله ﷺ عن بيع الحصاة وعن بيع الغرر » أخرجه مسلم: ٥/ ٣. وبيع الحصاة نوع من بيع الغرر. وهو كل ما يخدع فيه أو يكون فيه جهالة.

الناحية الثانية: الجانب المثالي الذي يخضع للعنصر الشخصي، وهذا أمر تَرَكَتْ له الشريعة المجال لكي يتسابق فيه الأفراد. وهذا الجانب هو الذي يطلق عليه اسم الورع، وقد وجد في تاريخ المسلمين أبلغ وأرقى ما يتصوره الإنسان من المثالية:

هذا أبو حنيفة كان ذا مال يَتَّجر فيه، أرسل إلى وكيله كمية من الثياب (قطع قماش غير مخيطة ولكنها مقطوعة بشكل تكفي لستر البدن)، فكان فيها ثوبٌ أو اثنان فيهما عيب، وذكر له ذلك، فنسي الوكيل، وقد باع تلك الكمية وهي ألف ثوب، كما ذكر الكاتبون ونسي أن يبين ذلك عندما باع ذلك الثوب، وهكذا أصبح المال الذي هو ثمن الثوبين حرامًا. فيجب أن تُرد قيمة الثوب أو الثوبين، ولكن (اختلط المال ببعضه)، وأرسل الرجل فأخبر الإمام بذلك، فأرسل إليه يعاتبه، وأمره أن يتصدق بثمن الثياب كلها، ولم يتصدق بثمن الثوب أو الثوبين فقط؛ لأن المال الحلال قد اختلط بغيره.

وربما كان الحد الخلقي أن يتصدق بقيمة الثوب أو الثوبين، ولكن ورعه ارتقى به إلى أن هذا المال أصبح لا يُعرف فيه قيمة الثوب المعيب من قيمة الثوب غير المعيب، حتى لا يتصور في ذهنه أن هناك قطعة نقدية واحدة من ثمن هذا الثوب المعيب.

وأخبارهم في هذا الباب كثيرة جدًّا - رضي اللَّه عنهم -[1].

هذه الناحية ترجع إلى الوجدان، والأخلاق الإسلامية امتازت بأنها مضبوطة مرتكزة على دافع ثابت، لا يتزحزح ولو في حدِّها الأدنى، ذلكم هو الدين ورقابة اللَّه، فالمؤمن يحس أنه إذا أفلت من يد القانون ومن احتقار المجتمع، فإنه لا يستطيع أن يُفْلِتَ من رقابة اللَّه، بل بلغ الرقي بالمسلمين أن أصبحوا يتعشقون الكمال، ومن هنا نشأت عبادة اللَّه لأنه مستحق للعبادة. فإنه سبحانه اتصف بصفات كمالية لا نهاية ولا حدود لها، ومن اتصف بتلك الصفات جدير بالعبادة، جدير بالطاعة، فلا يعبدونه طمعًا في جنته أو خوفًا من ناره، بل يعبدونه لذاته « ما عبدناك خوفًا من نارك ولا طمعًا في جنتك، ولكن لأنك إله تستحق أن تُعبد ».

هذه القِيَمُ كَوَّنَتْ خيرَ أُمَّة أُخْرِجَت للناس، وكانت علاقة المسلم بالعالم علاقةً إنسانيةً لا يشوبها حب العظمة والكبرياء، أو الظلم والاستعباد، إنما تزينها المُثُل والفضائل الخُلُقية، وهذا هو منطلق الدعوة، ولذا دخل الناس أفواجًا في دين اللَّه، ولذلك نجد أنه

---

(١) قد جمعت فيها كتب: انظر منها مثلًا صفة الصفوة لابن الجوزي.

لما ضَعُفَتْ دولة الروم (روما الشرقية) وتسلطت عليها روما الغربية ثم جاءت الحروب الصليبية فإن الصليبين الكاثوليك أنزلوا البلاء بإخوانهم النصرانيين، وبلغ أمر العذاب أن كان رجال الدين المسيحي الشرقيون يشكون مُرَّ الشكوى من الغربيين، ويسجل التاريخ شكواهم المرة، ولكن كانت عناية الإسلام تلاحقهم إذ انحسرت هذه الهمجية عن هذه البلاد، وإذا بنا نرى النصارى تستقبل بلادهم جيوش السلطان محمد الفاتح، فيرحبون به، ويقول رجال الدين عندهم: « عمامة السلطان محمد الفاتح ولا تاج بابا روما.. »!!.

* * *
* *
*

في المجتمع

في المجتمع

بناء المجتمع أمرٌ جوهري حيوي لسعادة الفرد، وسيادته، بل وسلامته، وقد أقام الإسلام المجتمع على أساسين:

أولًا: **أساس الإنسانية**: الرباط بين جميع الناس، على مختلف أجناسهم وأديانهم، ومن ذلك آيات كثيرة في القرآن الكريم تشير إلى ذلك، اشتهر منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ ﴾ [النساء: ١].

ثانيًا: **أساس الإيمان**: فاجتماع الأمة المسلمة على الإيمان باللّه ربًّا واحدًا وبمُحَمَّدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا وبالقرآن إمامًا وبالإسلام دينًا هو أعظم قوة تربط المسلم إلى المسلم، فإن قضية الإيمان هذه توجب التآلف بينهم والتحابَّ، وقد أوجب اللّه تعالى ذلك على المسلم وفرضه فرضًا فقال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ ﴾ [الحجرات: ١٠]. فقد حصر اتصاف المؤمنين بوصفٍ واحدٍ لا يكونون على غيره، وهو الأخوة « **إنما المؤمنون** » أي ليس المؤمنون إلا « **إخوة** ».

ولم يكن رباط الأخوة بين المسلمين شعارًا جميلًا يتردد فقط، كما هو شأن المذاهب الوضعية، بل استتبع أحكامًا وأنظمة تحقق ترابط المجتمع إلزامًا، وهذا باب عظيم جدًّا يحتاج بسطه إلى كتب ومؤلفات، أشير إلى عناوين منها: الاعتناء بإقامة الأسرة – تعظيم حق الأبوين – تعظيم حق الرحم (القرابة) – تعظيم حق الجار – تعظيم حق المسلم – فرض الزكاة في المال – فرض زكاة الفطر – وجوب الأضحية – فرض النفقة للقريب الفقير (الأصول والفروع بالإجماع – ودائرة أوسع عند بعض الأئمة) – وجوب نصرة المسلم للمسلم – إفشاءُ السلام – عيادة المريض – اتباع الجنازة – إبرار المُقْسِم – إجابة الدعوة – تحريم التقاطع والتباغض – تحريم كل معاملة تؤدي إلى اختلاف المتعاملين – فرضية الجهاد – فرضية الوفاء بالعهود – فرضية المحافظة على أهل الذمة – وغير ذلك كثير.

وهذه أحاديث أصول في بعض الجوانب الأساسية.

العقد الاجتماعي

٥٩ عن النعمان بن بشير - رضي اللَّه عنهما - قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِم وتَرَاحُمِهِم وتَعَاطُفِهِم مَثَلُ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى** ».

[متفق عليه][1]

* * *

المحتوى الفكري:

الإيمان باللَّه يجعل الخلق يشعرون ويقرون بوحدتهم إزاء الخالق وافتقارهم إليه، ولهذا يدعو الإيمان إلى وحدة المؤمنين، فلا يتعالى أحد على أحد ولا يتجبّر، وليس الإيمان باللَّه ترفًا فكريًّا لا يتعلق بشؤون الحياة كما في كثير من المذاهب المنحرفة، بل الإيمان يتجلَّى في فاعلية اجتماعية؛ لأن اللَّه قد خلق الأرض وخلق فيها الإنسان، وكلّفه بالبحث عن سعادته وسعادة غيره في الحياة الدنيا والآخرة، ولا يكون هذا إلا بالعمل الطيب والإخلاص.

فالإيمان شيء يحتاج إلى برهان في السلوك اليومي حيث العبادة، ومن هنا يتضح كما في الحديث أن شرط الإيمان تعاضد المؤمنين ومساعدة بعضهم لبعض، في المواساة والصدقات والتضحيات، فالألم واحد، وليس من صفات المؤمن الأنانية والتفرد والتغلّب على رقاب الآخرين، هم جماعة ولكنهم كشخص واحد في تماسكهم. لذلك قال: « مثل الجسد »؛ لتأكيد الوحدة الحاصلة من تماسك الأعضاء، التي هي سر السهر والحُمَّى.

ملامح فنية:

سعى البيان النبوي لتوضيح قضية التكافل الاجتماعي بجمالياتٍ في العلاقات اللغوية، ومفردات تؤدي الغرض المنشود على أروع ما يكون، وتصوير حسي يثير كوامن المشاعر بتجسيده للمجرد وحركته.

---

(١) رواه البخاري في الأدب (باب رحمة البهائم) ومسلم في البر والصلة (باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم) رقم ٢٥٨٦.

فهناك ألفاظ من الحقل المعنوي للرحمة توالت على سبيل الإشباع « توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم » وهي على وزن واحد لتؤدّي نغمًا جميلًا فضلًا عن الإشارة بالوزن إلى التفاعل المتحرك والمشاركة الحيوية، والإشارة إلى طلب همة واحدة في هذه المناحي الخَيِّرة.

ومن معالم مناسبة الألفاظ للمضمون اقتران الشكوى بالسهر، واقتران العضو بالجسد والحمّى، ثم هنالك تكرار للفظ « الجسد » ويعني شدة التنبيه على وحدة المؤمنين، وكأن مفردة الحُمَّى السخينة مخزون عاطفي يُجلِّي للبصر حرارة المشاعر الأخوية في الإيمان، فيقتل برود الجفاء والتكبر، والانطواء على النفس.

أما التراكيب فتبدو جلية التماسك فصيغة « مَثَل.. مَثَل » المتكررة في الأحاديث النبوية تؤكد توافق طرفي التشبيه، ثم يجيء تركيب الشرط الذي يوضح المشبه به وعلاقته بالمشبه موغلًا في عنصر التصوير.

والذي تقدمه صورة هذا الحديث **مشهد ثابت في المقطع الأول** « ... **مثل الجسد** »، ثم يأتي **المشهد المتحرك الذي** أضفت عليه الاستعارات تشخيصًا بارعًا ينقل حركة بشرية، **فكلمة** « **اشتكى** » في صيغة الماضي توحي بتشخيص طرف أو جماعة من المؤمنين في حركة سريعة، وكذلك تأتي السرعة في تشخيص « تداعى » حيث المشاركة الوجدانية المُشخصة في دعوة الأعضاء لبعضها وحثها لبعضها من أجل إسعاف العضو المريض.

والحديث كما يؤكد العلم الطبي **يقدّم إعجازًا طبيًّا** حيث يشترك كل الجسد في الدفاع عن الموضع المصاب. وذلك في الوقت الذي قدم **أعضاء الجسد في صورة فريدة عجيبة في كلمة** « **تَدَاعَى** »، التي جعلت أعضاء الجسد شُخُوصًا متعاونةً مُتآزِرَة، يدعو كل واحد منهم الآخرين ويُهِيبُ به لمساعدة المصاب ومساندته. ثم نجد هذه الشخوص في الصورة التي رسمها الحديث تسعف المصاب إسعافًا عمليًّا، ليس بالنداء والصراخ فحسب، بل « **بالسهر والحُمَّى** » بالجواب العملي، الذي يحقق الواجب الإيماني.

* * *
* *
*

الإيمان محبـة

٦٠ عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: « **لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ** ».

[متفق عليه][1]

* * *

المحتوى الفكري:

يبين هذا الحديث علامة لازمة للإيمان لا تنفك عنه فيقول: « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** »، وقد أشار لما يوجب على المسلم هذه المحبة لكل مسلم، فعبَّر عنه بكلمة « أخيه »، فالمراد الأخوة في الإسلام، وليس أخوة النسب، وكذا فإن كلمة « أخ » تشمل كل المسلمين ذكورًا وإناثًا.

وقد جاء الحديث **بصيغة الحصر « لا يؤمن... حتى يحب »**، والمراد أنه ينقص إيمانه نقصًا عظيمًا إذا لم يتحقق بهذه الصفة، لا أنه ينتفي إيمانه، والحصر هنا إضافي ليس حقيقيًا، بل المراد التحذير من خطورة التفريط بهذا الواجب، وبيان غاية الاهتمام بهذه الخصلة فإن بها قوام أمة الإسلام، وبدونها يضيع المسلمون، وقد حصل لهم ذلك عياذًا بالله تعالى.

والنتيجة أن هذا الحديث يوجب عليك أن تضع إيمانك على الاختبار وفق هذا المعيار، وأن تظل تجاهد نفسك حتى تجردها من أنانيتها لتحب للمؤمن ما تحب لنفسك، بل « تحب للناس ما تحب لنفسك » كما ثبت الحديث[2].

ملامح فنية:

هذا الحديث على وجازته اللغوية يتضمن معاني سامية قدسية، فالألفاظ جامعة مُكثَّفة لقضايا متعددة، وقد بدأ الحديث بالمضارع الدال على التكرار والاستمرار؛ لأن

---

(١) البخاري في الإيمان: ١/ ٧، ومسلم: ١/ ٤٩، والترمذي في صفة القيامة: ٤/ ٦٦٧، والنسائي: ٨/ ١١٥.

(٢) من حديث طويل للترمذي: ٤/ ٥٥١. وابن ماجه: ص ١٤١٠ والمسند: ٢/ ٣١٠، وله طرق يقوى بها: انظر كتابنا دراسات تطبيقية في الحديث النبوي قسم المعاملات: ٢٨٨.

هذا الأمر متكرر مع كل مؤمن، أما تعبيرُهُ بـ « **أحدكم** » **فله وظيفة إضافية**، وتحضيض لكل مسلمٍ أن يقيس نفسه على ذلك. وتأتي الغاية « حتى » لتكون فاصلًا بين الإيمان والكفر، وسببًا للإيمان.

ونجد في النص **توازنًا صوتيًّا في تكرار** « **يحب** »، وإن كانت الأولى تشي بالإيثار والثانية بالأثرة، ثم هناك التعارض بين « أخيه » و « نفسه »، وهو تعارض يريد الحديث أن يذيبه بعاطفة المحبة، حتى تمتزج ذات المؤمن بأخيه، وقد وضع هذه القضية ضمن صيغة مؤكدة بالحصر، لوجود النفي « لا » و « حتى » التي تشبه « إلا »، والحديث وجيز العبارة سهل الألفاظ، ولكنه عميق المعاني له أبعاده الدينية والاجتماعية، إذ يربط بين الإيمان الذي هو عقيدة وبين التماسك الاجتماعي بالمحبة، وهي كلمة جامعة للتواصل العاطفي والتعاون المادي والدعم المعنوي.

* * *
* *
*

إلـزام الأسـرة

٦١ عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: قال لنا رسول اللَّه ﷺ: « **يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُم البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ للبصرِ وأَحْصَنُ للفرجِ، ومَنْ لم يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بالصَّوْمِ، فإنَّهُ لهُ وِجاءٌ** ».

[متفق عليه][(١)]

* * *

المحتوى الفكري:

يوجِّه النبي ﷺ الخطاب للمسلمين يحثهم على النكاح ويرغبهم فيه، **ويخص الشباب** بالخطاب؛ لأنهم يفيضون حيوية ويفوقون في القوة الشهوية، فيقول: « **يا معشر الشباب** » فيستعمل كلمة « معشر » إشارة إلى المعنى الإنساني والاجتماعي الذي يتصفون به، ولا يتأتى ذلك التلطف بأسلوب آخر مثل: (يا أيها الشباب)، وكأنما تشير كلمة معشر إلى التآلف والشعور بالمحبة في مجتمع متحاب وأن الإسلام التفت إلى الشباب التفاتة خاصة، وهو هنا يرشده لما يحصِّن به نفسه وهو الزواج « **مَنِ استطَاعَ مِنكم الباءَة** » أي النكاح؛ لكونه مالكًا النفقات اللازمة فليتزوج، « **ومن لم يستطع فعليه بالصوم** » وعبر بقوله « **عليه** » **ليفيد معنى الإكثار من الصوم**، أي فَلْيَلْزَمِ الصومَ. لذلك لم يقل: فليصم؛ لأنه يتحقق بصوم يوم أو يومين. أما « فعليه بالصوم » فإنه يفيد الإكثار؛ لأن « عليه » تدل على الملازمة.

ويبينُ الحديث **حكمة للزواج** مهمةً، فيقول: « **فإنه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج** »، وهذا ضمان للإنسان من مهلكات خطيرة يقع فيها مَنْ لم يغض بصره ويحصن فرجه. وجاء التعبير بهذه الصيغة للتفضيل « **أغضّ.. وأحصن** » لتدل على غاية أثر الزواج، وأنها بالغة أقصاها في غضِّ البصر وتحصين الفرج. أو أن الإيمان يغض من بصر الشاب ويحصنه، والزواج يغضه ويحصنه أكثر وأكثر.

(١) البخاري في النكاح (قول النبي ﷺ من استطاع...) ٧/ ٣، ومسلم أول النكاح: ٩/ ١٧١، بشرح النووي وأبو داود، رقم ٢٠٤٦، والترمذي، رقم ١٠٨١، والنسائي: ٦/ ٥٦.

ثم يرشد الحديث من لم يستطع مؤن الزواج بأن يكثر من الصيام ويلازمه؛ لأنه بالإكثار والملازمة للصوم تخف الشهوية وتملك الغريزة، ويشبهه بالوِجَاءِ هذا التشبيه البليغ: « فإنه له وجاء »، أي كالوجاء في منع اندفاع الشهوة. والوِجاء هو رضُّ العرق الواصل بين عضو الذكورة والخصيتين، فتذهب شهوة الإنسان وقدرته الزواجية. والمراد هنا شدة تخفيف الصوم للشهوة إذا أكثر منه الإنسان.

ملامح فنية:

يتصدر هذا الحديث **أسلوب مشوق**، في جملة النداء « **يا معشر الشباب** »، تتلوها ثلاث جمل تتوازى بالطول، اثنتان تتوازيان بالشرط الذي يفتتح كُلًّا منهما؛ وبتكرار افتتاح جواب الشرط « **فإنه** ». **وههنا جملتان تتقابلان بالإثبات والنفي** « **من استطاع** » و « **من لم يستطع** ». ثم ننظر ألفاظ الحديث، لنجد أن المفردتين « **الباءة** » و « **وجاء** » غريبتان في الاستعمال اللغوي، ولهذا دلالته الفنية التي تعمق المعنى المرجوّ؛ فإن حياة الزواج غير العزوبة، ولذة الزواج تختلف عن كل لذة.

وقد بدأ الحديث بنداء الشباب وهم عماد الأمة وحماتها، وهم رمز الجمال والقوة، وهذا النداء يأتي تشريفًا للمنادى، ثم ذكر القضية واستهلها بجملة شرطية تدل على استحثاث للهمم، بل إن التعبير « **منكم** » تنشيط للهمة والعمل في سبيل تكوين الأسرة. وجاء جوابُ الشرط فعل أمر تأكيدًا على أهمية القضية.

والمقطع التالي « **أغض للبصر، وأحصن للفرج** »: **يشتمل على عبارتين متوازيتين،** فكل منهما يبدأ باسم على وزن أفعل « **أغض للبصر، وأحصن للفرج** »، هذا التوازي يذكّر بوحدة فاعلية الزواج في تحصين البصر والفرج، حتى يغدو المؤمن غير متأثر بالمغريات في كل حالٍ، ويلحظ في هذا المقطع سبق البصر للفرج؛ لأن أول مراحل الزنى النظر المُحرَّم، فالبصر بوابة للفعل القبيح، وههنا تحذير شديد أفاده فن الحديث في ترتيب القضايا.

أما **المقطع الأخير** « **ومن لم يستطع فعليه بالصوم** »: فهو شرطي يتكون من مفصلين يضعان الحل الناجع للمعوز الذي لا يستطيع الزواج. ثم ختم بتشبيه بالغ الأثر، إذ شبه الصوم بالوجاء وهو قطع العرق الواصل بالخصيتين، وهو قاطع للشهوة، وقدم قوله: « له » للتذكير بأهمية الصوم وفاعليته في هذا الشأن.

الاختيـار

٦٢ عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « **تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِيْنِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّيْنِ تَرِبَتْ يَدَاكَ** ».

[متفق عليه][1]

* * *

المحتوى الفكري:

اختيار شريكة الحياة أو شريكها مظهر لطموحات الإنسان، ومقياس الفضل عنده، وقد أخبر هذا الحديث أن هذه الخصال الأربع تدور عليها رغبات الرجال في اختيار الزوجة، كل واحد يختار ذات صفة منها: ذات المال، أو ذات الحسب أي: المنزلة الاجتماعية العالية، أو ذات الجمال، أو ذات الدين. ثم يحل الحديث إشكال هذا الاختلاف فيقول: « **فاظفر بذات الدين** »، أي: إن اللائق بصاحب الدين والمروءة أن يبني اختيارهَ على الدين؛ لأن بالدين ضمان كل خير وسعادة، وما سواه عَرَضٌ زائل، بل قد يكون وبالًا على الطرف الآخر: الرجل أو المرأة. لذلك أكد الحديث الحث على اختيارها بهذا التعبير القوي « تربت يداك »! وظاهره أنه دعاء بالفقر، وهو مُشْكِلٌ بحسب الظاهر؟! لكن الحقيقة أن مراد الحديث التنبيه على أهمية الأمر والتحذير من المخالفة، لا حقيقة الدعاء. وهو كثير في كلام العرب.

ملامح فنية:

يبدأ هذا الحديث **بالتكثيف أي إجمال المعنى**، ثم يتبعه بالتفصيل، وذلك **للتشويق وإثارة الانتباه**، خصوصًا أنه ذكر الرقم أربعة مما يزيد التشوّق والتطلع.

وجاء النص بالمضارع الدال على استمرار العادة هنا. ثم تأتي جمالية التوازن الصوتي من خلال **تكرار اللام والهاء مع الألف « لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها »**.

أما ترتيب المفردات الأربع فيدل على معنًى عميق، وذلك أن المال يجلب كل شيء

---

(١) البخاري (الأكفاء في الدين): ٧/ ٦، ٧، ومسلم في الرضاع: ٩/ ٥١، ٥٢، بشرحه، وأبو داود، رقم ٢٠٤٧، والنسائي: ٦/ ٦٨.

من المغريات ولذلك قُدِّمَ ذكره، وهو أسلوب القرآن الكريم ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

ثم يأتي الحسب وهو يلي المال من حيث الظهور والاشتهار، ثم يأتي الجمال الحسي الذي يشتهر بين الناس، أما الدين فقد أُخر لربط النصيحة الأخيرة به، ولأن الدين بين العبد وربِّه ويحتاج إلى متابعة شديدةٍ للإحاطة به ومعرفته عند الفتاة.

والمقطع الأخير من الحديث صيغة أمر وشرط، دلالة على تأكيد القضية، والظفر هنا ربح وسلامة، وكأن المتزوج من متدينة ينتصر على المعاصي، وهذه المتدينة عبّر عنها « **بذات الدين** »؛ للدلالة على شدة لصوق الدين بها، وكأنه عضو منها، فهو أحسن علامة، والعبارة الأخيرة « تربت يداك » دعائية ظاهرًا، تدل على شدة الاهتمام بالقضية حقيقة، يعلو فيها الإيقاع النفسي، وجاء فيها ذكر « التراب » الذي هو معادل المغريات الأخرى؛ ليدل على زيادة الترغيب في ذات الدين، فإن تلك المغريات تراب من دونه.

* * *
* *
*

رجال آخر الزمان

٦٣ عن أبي هريرة وعبد اللّه بن عمر - رضي اللّه عنهم - قالا: قال رسول اللّه ﷺ: « يَكُوْنُ فِيْ آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْتِلُوْنَ الدُّنْيَا بالدِّيْنِ، يَلْبِسُوْنَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ، أَلْسِنَتُهُم أَحْلَى مِنَ العَسَلِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوْبُ الذِّئَابِ، يَقُولُ اللّٰهُ - تعالى -: أَبِي تَغْتَرُّون أَمْ عَلَيَّ تَجْتَرِئُون..؟ فَبِي حَلَفْتُ لَأَبْعَثَنَّ عَلَى أولئكَ فِتْنَةً تَذَرُ الحَلِيْمَ فِيْهِم حَيرَان ».

[أخرجه الترمذي][1]

* * *

المحتوى الفكري:

في هذا الحديث **ثلاثة أفكار**: الفكرة الأولى تعريف المؤمنين بالرياء الذي يحصل في آخر الزمان زمان اختلاط الحابل بالنابل وكثرة الغشاوة على القلوب، والفكرة الثانية هي التحذير من اتباع هؤلاء المُرَائينَ ومن ادعاءاتهم الكاذبة، أما الفكرة الثالثة فهي الوعيد الذي يصدر عن جناب الخالق - جلّ وعلا -.

هذه المقاييس هي في المقام الأول من الضروريات في المجتمع، إذ الرياء لا يقتصر خطره على الكذب والتظاهر، بل إن خطره ليمتد إلى أفراد المجتمع فيفصم عُرَاهُ، ويضعفه أمام العدو، والواضح من خلال التشبيه بحال الصيد أن وراء الرياء مكاسب مالية قد أفسدت القلوب حتى جعلت الدين أداة للصيد، بينما أنزل اللّه الدين وقاية من الخطر وسبيلًا للسعادة، لا تستغني عنه الحضارة الإنسانية، فاستغل الماكرون هذه الخصوصية لدين اللّه - تعالى - وقلبوها أداة صيد يتوصلون بها إلى أغراضهم الدنيوية..!!

والحديث يترفع بشأن المؤمن فلا يكتفي بصدق العاطفة والمشاعر الدينية والعبادات، بل لا بد للمؤمن من حنكة وحكمة، وإعمال عقل ورَويَّةٍ؛ ليميز الخبيث من الطيب، وينتهي الحديث بإبراز الضعف البشري فهؤلاء المخادعون ضعفاء إزاء انتقام اللّه العزيز

(١) في الزهد، باب رقم ٦٠، حديث ٢٤٠٦، ٢٤٠٧، وهو حديث حسن.

القهّار في الأرض، وهو العذاب العاجل، ناهيك عن العذاب الآجل يوم القيامة، فكل ما يفعلونه حمق وإخفاق، فإن انتقام اللّٰه بالمرصاد.

ملامح فنية:

أول ما يلحظ في الحديث **كثرة الأفعال** وتسخيرها لخدمة المعنى، فجاءت كسائر الألفاظ والتراكيب وِعاءً مناسبًا للمعنى، فنقرأ: « **يكون، يختلون، يلبسون، يقول، تغترون، تَجْتَرِئون، لأَبعثنّ، تذر** » وجميعها في الزمن المضارع؛ ليساعد هذا على استحضار المشهد وكأنه يحدث أمام العين بعد أن يُستحضر من غيب المستقبل، كما تساعد كثرة الأفعال على تبيان كثرة الحركة، وهي مناسبة لغليان الأمور في آخر الزمان.

وتتضح **معالم الطبيعة البسيطة** في هذا التصوير من خلال « الصيد » « **يختلون** » « **العسل** » « **الذئاب** » « **الضأن** ». والأخيران في حال تضاد لتمثيل الخير بالضأن والشر بالذئاب، ثم نلحظ السَّجْع في « بالدين » و « اللين ». يبرز التوازن بين جملتين على الصيغة الاسمية « ألسنتهم أحلى من العسل » و « قلوبهم قلوب الذئاب » وتكررت كلمة « قلوب » للدلالة على تأصّل هذه السمة فيهم، يسود التوازن نص الحديث كله وفي ختامه يعلو الإيقاع النفسي بذكر القسم وتوكيد الفعل « لأبعثن » وتنكير لفظة الفتنة الدال على خطرها الذي لا حدود له.

في هذا الحديث صور متعددة: فيه صورة حركية تجسّم فعل المرائين من خلال استعارة فعل الصيد « **يختلون الدنيا بالدين** » هذه **الاستعارة** تومئ إلى الطبع الحيواني لهؤلاء المخادعين الفاتكين.

وتتلو هذه الصورة **كنايةٌ** تستمد عناصرها من الطبيعة، فهؤلاء « **يلبسون جلود الضأن** »؛ لإخفاء قلوب الذئاب، كما يتظاهرون بالدين لإخفاء سرائر فاسدة، وهي صورة مروعة؛ لأنها تتسم بالمفاجأة والخوف.

ويتجسّم الكلام الطيب **في صورة ذوقية إذ يشبه بالعسل، أما صورة** « **قلوبهم قلوب ذئاب** » فهي ثابتة بفعل الصيغة الاسمية، وهي تقدم إنسانًا في داخله حيوان خطير « الذئاب »؛ يجسّم الطوية الفاسدة، وهي صور مخيفة تحذّر من خطر هؤلاء.

وفي ختام الحديث صورة تلك الفتنة الداهية « **فتنة تذر الحليم منهم حيران** »، فهي تهاجمهم ولا يجدون منها مخلصًا، حتى تحوّل لشدتها الحليم العاقل المتأمل منهم

فتجعله حائرًا، لا يدري ما يصنع، وحسبك بها محنة وبلية يرسلها اللَّه عليهم؛ ليكون ذلك درسًا رادعًا لكل عاقل أن يفكر بهذا الطريق الدنيء الوخيم العاقبة.

* * *
* *
*

المؤمن يُعِزُّ أمته

٦٤ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَه، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ ».

[أخرجه مسلم][1]

* * *

المحتوى الفكري:

صِدْقُ اليقين يُحَرِّكُ السلوك، ويثير الأفعال حسب يقين صاحبها، والآيات والأحاديث التي تأمر المسلم بالجهاد وتُحرِّضه عليه كثيرة لا تُحصى، ومَنِ الذي لا يريد عزة ما يؤمن أنه حق، وعزة من يؤمن معه بالحق. والجهاد إعلاء لهذا الحق، وإعزاز له، كما سبق الحديث الصحيح: « وذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَاد »، لذلك جعل الحديث ترك الجهاد وإهماله نذير خطر عظيم، هو « شعبة من نفاق »، لذلك فإن العزم على الجهاد واجب على المسلم، فإذا كانت الحرب وجب على من يُدْعَى إليه، بل يجب على كل قادر على القتال من رجل وامرأة وصغير وكبير إذا اقتضت الحرب ذلك.

وهكذا يربط الحديث مشاعر المؤمن بإعزاز دينه وأمته.

ملامح فنية:

يتكون هذا الحديث من ثلاثة مفاصل (جُمل) مترابطة، ترابط الشرط بجوابه:

الأول: « مَنْ مَاتَ ولم يَغْز ».

والثاني: « لم يُحَدِّث به نفسه ».

والثالث: النتيجة « مات على شُعبةٍ من نِفَاق ».

ويتضمن الحديث أربعة أفعال: « مات، يغزُ، يحدِّثْ، ماتَ » للدلالة على حركة الجهاد وفاعليتها في الأمة، وقد كان الجواب بمثل فعل الشرط « مات » زيادة في التوكيد والجزاء من جنس العمل، مع ما في التكرار من جمالية صوتية.

---

(١) مسلم في الإمارة ١٣/ ٥٦ بشرحه، وأبو داود في الجهاد، رقم ٢٥٠٢، والنسائي: ٦/ ٨.

وثمة ترتيب في حركة الجهاد، فهي حركة حسية ظاهرة في الغزو « يغز »، وحركة ذهنية في طيات النفس « يحدث نفسه »، فتدرّج من الصعب إلى السهل، ثم ختم الحديث بتجسيم لفعل النفاق إذ جُسِّمَ في شعبة وهي جسمٌ مرئي، بل إن الشعبة هي فرع من شجرة النفاق التي يحذر الحديث من خطرها العظيم، ويفيدنا حرف الجر « على » زيادة في فضيحته وحتمية مصيره.

ثم جاءت الكلمة الأخيرة « نفاق » في حال تنكير لتفيد خطورته خطورةً فوق الوصف.

* * *
* *
*

حرمة الدماء

٦٥ عن عبد اللّه بن مسعود ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: « **أَوَّلُ مَا يُقْضَى بينَ النَّاسِ يومَ القِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ** ».

[متفق عليه][1]

* * *

المحتوى الفكري:

يخبر النبي ﷺ عن أمر عظيم هو أول ما يُقْضَى فيه بين الناس يوم القيامة، ويوم القيامة يوم عظيم، والقضاء فيه بين الناس أمر عظيم، وأول هذا القضاء أعظم الأمور خطرًا، إذًا فلا أعظم حرمة من حرمة الدم؛ لأنه إنما يبدأ بالأهم.

ونصوص القرآن والسنة متضافرة على غاية خطورة الدماء، حتى جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ: « **لا يزالُ المؤمنُ في فُسْحَةٍ من دينه ما لم يُصِبْ دمًا حرامًا** » أخرجه البخاري.

وثبت في أحاديث أشراط الساعة حدوث الاستخفاف بالقتل: حتى لا يدري القاتل فيما قَتل، ولا المقتول فيما قُتل[2].

وهذا تذكير لكل مسؤول في العالم، وكل من بيده قدرة أن يعالج بكل حزم احترام الدماء وصيانة الأرواح.

ملامح فنية:

يتكون هذا الحديث من جملة اسمية واحدة استغنى فيها البيان النبوي عن وسائل التوكيد للدلالة على أنه أمر مفروغ منه، واستخدم الجملة الاسمية لثبات هذا الأمر عند اللّه ﷻ.

وتشتمل هذه الجملة الاسمية على مضارع مبني للمجهول « **أول ما يُقْضَى** »، عبر به

---

(١) البخاري في أول الديات: ٩/ ٢، ٣ ومسلم في القسامة: ١١/ ١٦٦، ١٦٧ بشرحه.

(٢) من ذلك ما أخرجه مسلم، رقم ٢٩٠٨، قوله ﷺ: « لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس زمانٌ لا يدري القاتل في أيِّ شيءٍ قتل، ولا يدري المقتول على أي شيءٍ قُتِل ».

الحديث لإلقاء الرهبة من ذلك اليوم العظيم في القلب، وعبَّر بكلمة « الناس » لتشمل جميع الأديان وجميع الخليقة؛ وذلك لعظم أمر الدم.

وقد ختم الحديث بكلمة « الدماء » في صيغة الكثرة؛ ليزرعَ الهول في نفوس المُتَلَقِّين من جريمة القتل، وهكذا يبلغ الحديث الغاية القصوى في شدة التحذير من هذه الجريمة، بعد أن يصوِّر باللون الأحمر العنف الشديد والهلاك، فيؤثر في الباصرة والبصيرة معًا.

* * *
* *
*

تأليف القلوب بالإيمان والجهاد

خطبة النبي الكريم في الأنصار في توزيع غنائم حنين

مناسبة الخطبة:

بعد أن تمت النعمة بفتح مكة ودانت الجزيرة للإسلام، أعلنت هوازن وثقيف ومن والاهما الاستمرار على شركها وحربها للمسلمين، واعتصمت في معاقلها بين الجبال، وصمَّمت على حرب ضروس: حرب فناء أو موت، وأحضروا معهم النساء والذراري والأموال أيضًا حتى لا يجبنوا في الحرب ولا يَفِرُّوا.

ولما توجَّه المسلمون على قتالهم وكانوا في عدد كبير (اثني عشر ألفًا) حتى قالوا: « لَنْ نُغْلَب اليومَ من قِلَّة »، وبينما هم نازلون وادي حُنَين في الصباح في غبش الليل انهال عليهم القوم من مخابئهم المحيطة بالوادي رميًا بالسهام، وكانوا رماة مَهَرة، وهاجموا المسلمين على حين غرة هجومًا كثيفًا جدًّا، حتى أدت الدهشة إلى تخلخل الجيش، حتى لم يبقَ مع النبي الكريم إلا عدد قليل جدًّا من أصحابه « بضعة عشر نفرًا ». فنزل عن بَغْلَتِهِ ووقف في بطن وادي حُنَين، يعلن بأعلى صوته نداءه التاريخي:

أنـــا الـــنـبـــيُّ لا كَـــذب　　　أنـــا ابـــنُ عـــبـــد المطلـــب

أي: إني نبي صادق، وعدني اللَّه بالنصر، فلا أفر أبدًا.

وأمر بنداء الصحابة فئة فئة، فثابوا إلى النبي ﷺ والتفوا حوله، وأنزل اللَّه سكينته ونصره، وفاز المسلمون بغنائم كثيرة جدًّا، وكان للأنصار في ذلك اليوم موقف محمود.

ولحظ النبي الكريم الحاجة لتأليف القلوب، وجمعِ شمل الداخلين في الإسلام، فأعطى الناس وأجزل العطاء لزعماء القبائل حديثةِ العهد بالإسلام، ولم يعط الأنصار إلا شيئًا قليلًا، لنفرٍ منهم محاويج، فَوَجِدَ الأنصار، وانتقدوا ذلك؛ لأنهم ما فتئوا يقاتلون هؤلاء، ثم ترد الغنائم عليهم، فقالوا: « واللَّه إن هذا لَهُوَ العجب، إنَّ سيوفَنَا تقطُرُ من دماءِ قريش، وإنَّ غنائمنا تُرَدُّ عليهم... ».

فأرسل النبي في طلب الأنصار فورًا، فجمعهم في قبة كبيرة ولم يدع معهم أحدًا، وألقى فيهم هذه الخطبة:

نص الخطبة

٦٦ حَمِدَ النبيُّ ﷺ اللَّهَ تعالى، وأثنى عليه بالذي هو لَهُ أَهْلٌ، ثم قال: « يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ: مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عنكم، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكم؟

أَلَمْ آتِكُمْ ضُلاّلًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ، وَعَالَةً فأغناكُمُ اللَّه؟ وأعداءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بين قلوبكم؟ » قالوا: بلى، اللَّه ورسولُهُ أَمَنُّ وأَفْضَلُ. قال:

« أَلَا تُجِيبُونَنِيْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؟ » قالوا: وبماذا نُجِيبُك يا رسولَ اللَّه؟ للَّه ولرسوله المَنُّ والفضل. قال ﷺ: أما واللَّهِ لو شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، ومَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وطَرِيدًا فآوَيْنَاكَ، وعَائِلًا فأغنَيناك.

أَوَجِدْتُم في أَنْفُسِكم يا مَعْشَرَ الأنصارِ في لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنيا تَأَلَّفْتُ بِهَا قومًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إلى إسلامِكم، أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا معشرَ الأنصارِ أَنْ يذهبَ النَّاسُ بالشَّاةِ والبعيرِ. وتَرْجِعُونَ برسولِ اللَّهِ فِي رِحَالِكُم؟

فَوَ الذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لولا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امرَأً من الأنصارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأنصارِ.

(الأنصارُ شِعارٌ، والنَّاسُ دِثَار)[1]. اللهم ارْحَمِ الأنصار، وأبناءَ الأنصارِ وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ ».

قال أبو سعيد الخدري ﷺ راوي الحديث: فَبَكى القومُ حتى أَخْضَلُوا لِحاهُم. وقالوا: رضينا برسول اللَّه قِسْمًا وحَظًّا. ثم انصرفَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، وتَفَرَّقْنا[2].

* * *

المفردات:

معشر: كل طائفة من الناس اشتركوا في صفة من الصفات.

جِدَة: يقال وَجِدَ عليه بفتح الجيم وكسرها، يجِد ويجُد، وجْدًا وجِدَةً، ومَوْجِدَة: غضب.

---

(١) الجملة زيادة من الصحيحين.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (غزوة الطائف): ٥/ ١٥٧ - ١٦٠، ومسلم في الزكاة (إعطاء المؤلفة..): ٣/ ١٠٨، ١٠٩، وابن هشام في السيرة النبوية وأحمد في المسند، رقم ١١٣٢٢. واللفظ المذكور للمسند.

عَالَة: فقراء.

لُعَاعَة: اللعاعة بضم اللام تطلق في الأصل على نبات ناعم في أول ما ينبت: يقال: خرجنا نتلعى: أي نأخذ اللعاعة. ومنه « ما بقي في الإناء إلا لعاعة » والمعنى بقية يسيرة.

رِحَالِكم: جمع رَحْل. وهو المكان الذي يسكنه الإنسان، أو يتخذه لشأنه.

شِعْبًا: الشعب انفراج بين جبلين، والطريق أيضًا. وهو المراد هنا.

شِعَار: الشعار ما ولي جسد الإنسان، دون ما سواه من الثياب.

دِثَار: الثوب الذي يكون فوق الشِّعار.

أخضلوا: بَلَّلوا.

المحتوى الفكري:

هذه الخطبة تمثل لنا البداهة والعفوية في البيان النبوي في أجلى مظاهرها، وفي موقف حرج غاية الحرج، هو ما وجده الأنصار - رضي اللَّه عنهم - في نفوسهم من التأثُّر العميق بسبب توزيع الغنائم. وما الغنائم مهما كثرت أمام هذه النفوس الكبيرة التي عاشت حياتها كلها سنين طوالًا تضحية مثالية، ابتغاء المثوبة والمكافأة الإلهية، لكن الغنائم قد تعبر عن معنى أكبر من ثمنها المادي، هو تقدير المحارب، والشهادة له بحسن البلاء في ساحات الوغى؛ لذلك قال من قال من الأنصار: « إِنَّ سُيوفَنَا تَقْطُرُ من دماءِ قُريش، وإن غنائمنا تُرَدُّ عليهم ».

فأخذ النبي الكريم زمام المبادرة وجمع الأنصار وحدهم فورًا تحت سقف واحد، لم يسمح لغيرهم بالدخول، وههنا نجد القوة في مواجهة الموقف وفي إتاحة الفرصة لهم ليقولوا كل ما في أنفسهم، ولا يشعروا بالحرج أبدًا أن يسمعهم أحد ليس منهم.

وقد وجه الخطاب لهم في صميم الموضوع مباشرة، وابتدرهم بالسؤال عما قالوه، **وافتتح بهذا النداء المعبر « يا معشر الأنصار »** إنه نداء يذكرهم بتاريخ مناصرتهم الطويل الذي ضربوا فيه المثل للعالم في التضحية والإيثار على النفس، ويشير إلى مركزهم المعنوي الحبيب إلى قلب نبيهم الذي عاشوا معه ولأجله، يضحون لأجله، ويبذلون النفس والنفيس لدعوته. وهكذا جاء النداء لافتتاح العتاب مع الأحباب.

إن الإنسان قد يتكلَّم في حال انفعاله بما لا يرضاه لنفسه ولكمالها وعليائها، ومن هنا

جاء العتاب مع هؤلاء الأحباب يستنطقهم ههنا الكلمات التي قالوها، لقد وقف كل منهم الآن أمام نفسه، فتوقفوا ولم يتكلموا بما قالوه من قبل، لكن أخبره بذلك أهل العلم الذين لم يشاركوا في التلفظ بهذه المقالة فأجابوه امتثالًا لسؤاله، كما في رواية صحيحة: « **فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول اللَّه فلم يقولوا شيئًا، وأما أناسٌ منا حديثةٌ أسنانهم فقالوا: يغفر اللَّه لرسول اللَّه ﷺ، يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم** ».

هنا انتقل الحوار الخطابي إلى تذكير الأنصار بما أكرمهم اللَّه به بفضل نَبِيِّه، وما فازوا به من خيرات تتضاءل أمامها كل ثروات الدنيا، هكذا **بالاستفهام التقريري**: « **ألم آتكم ضُلَّالًا فهداكُمُ اللَّه، وعالة فأغناكُمُ اللَّه..** » إنها خيرات ونعم دينية، ودنيوية، وكان **الجواب صريحًا**: « **بلى، اللَّهُ ورسولُهُ أَمَنُّ وأفضَل** ». بل إنهم كَرَّروا ذلك مع كل جملة، كما في صحيح البخاري: « كلما قال شيئًا قالوا: اللَّه ورسوله أمن ». لكن قد تبقى في النفس اعتباراتٌ للنصرة والجهاد مع النبي، فلم يتركها النبي الكريم، بل راح يستثيرها، وإذا لم يتكلموا هم بها، فَلْيَذْكُرْها هو لهم بأقوى أسلوب وتوكيد: « **أما واللَّه لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم: أتيتنا مُكَذَّبًا فصدَّقْناك، ومخذولًا فنصرناك... إلخ...** ».

هكذا هو يقول ويلقنهم الحجة، وهم يقولون: « **للَّه ولرسوله المَنُّ والفضلُ..** ».

وهنا وقد تهيأت المناسبة يقول لهم: « **أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعَاعَةٍ من الدنيا تألَّفْتُ بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم** ».

إن الإسلام هو المقصود الأول والأخير عندهم، وهو محياهم ومماتهم.

ألا ما أعظم الفرق، وما أشد البون بين إنسان يُوكَلُ لإسلامه، وإنسان يُتَأَلَّفُ على الإسلام.

هنا يُصَعِّدُ الخطابُ إثارة العاطفة والتذكير بما غفل عنه هؤلاء من الغُنم الذي لا يعادله شيء: « **ألا ترضون يا معشرَ الأنصار أن يذهبَ الناس بالشاةِ والبَعِير وترجعوا برسول اللَّه في رحالكم** » وأي شيء يُلْتَفَتُ إليه بعد هذا الغنم والربح...؟

هنا يختم ببيان فضل الأنصار وتقديره لهم ومحبته إياهم، حيث يعلن أنه لولا الهجرة لكان منهم، هكذا إعلانًا قويًّا مؤكدًا بالقسم: « **فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرَأً من الأنصار** ». ويعلن أنه يختار طريقهم ويسير معهم دون غيرهم، ثم يعلن هذا المثل في **القرب والمحبة** والتكريم « **الأنصار شِعار، والناس دثار** ». فالأنصار هم

أقرب شيء إليه كما أن الشعار يلصق على اللابس، وغيرهم يأتون من ورائهم، ومن بعدهم، « الناس دثار ». ثم أخيرًا هذا الدعاء الذي بلغ غاية التكريم والتأثير: « **اللَّهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار** ».

هذا الخطاب الذي صدر فور البديهة، وعفو الخاطر توصل بأقصر طريق وأوجز كلام إلى حل مشكل كبير، وغسل قلوب محبة تَعَكَّرَ صَفْوُها بسبب ما توهمته من تفضيل حقيقي لأقوام ليسوا بتلك المنزلة، لما أعطي أولئك من مال الغنائم.

لقد لمس الخطاب مشاعر القلوب وهَزَّ أوتارها بقوة ولطف ومودة ومحبة، واستعمل الألفاظ القريبة، والخطاب بالعنوان المؤثر، فكرر نداء « يا معشر الأنصار »؛ لما له من تأثير وإلهاب لحماس النصرة، وعاطفة الإيثار التي صارت لازمة لهذا العنوان « **الأنصار** »، كما أنه استعمل الاستفهامات التقريرية المكونة من استفهام إنكار داخل على النفي « **ألم آتكم ضلالًا... ألم... ألم.. »**، واستفهام التعجب في قوله: « **أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم** »، ثم نلاحظ اختيار اللفظ المعبر الموحي في التعبير عن السبب للمشكلة وهو الغنائم، حيث عبر عنها بلفظ يوحي مبناه قبل معناه عن تفاهة هذا السبب باستعمال لفظ « **لُعَاعَة** »؛ لينتقل بعد هذا إلى تذكيرهم بالفوز العظيم الذي غفلوا عنه بسبب المنافسة على توزيع الغنائم، فيخاطبهم بأسلوب الاستفهام: « **ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهبَ الناس بالشاةِ والبعيرِ وترجعوا برسول اللَّه إلى رحالكم** ». وأي عاقل بل أي إنسان في الدنيا يطرق هذا القول سمعه فلا يطير فرحًا وسرورًا بما سوف يرجع به إلى أهله وبيته، من شرف مرافقة النبي الكريم وكسب جواره وصحبته، وهكذا يتوالى تصعيد إثارة العاطفة الإيمانية وعاطفة المحبة التي وصلت بل تجاوزت حد التضحية وفاقت درجة الفداء، حتى كانت آخر العبارات في الخطاب الكريم: « **الأنصار شعار والناس دثار. اللَّهم ارحم الأنصارَ، وأبناءَ الأنصار، وأبناءَ أبناءِ الأنصار** ». فجاءت بالغة أقصى غاية التأثير، حتى إن الإنسان لا يملك نفسه من شدة التأثر كما لم يملك أولئك الأبرار دموعهم من شدة التأثر، فقد أقبلوا كما صرحت الروايات وقد اخضلَّتْ لِحَاهُم بفيضٍ مِدْرَارٍ من دموعهم.

ملامح فنية:

أول ما يطرق السمع في هذه الخطبة وفي سائر خطب النبي ﷺ أنه يَسْتَهِلُّهَا

بحمد اللَّه - تعالى - والثناء عليه، وهذا أسلوب جليل ناجح في تبيان التواضع للَّه وموضوعية الموقف، وخلاص العمل للَّه وتوجيه القلوب إليه؛ لِتُصْغِيَ بكل قوتها لما يلقى عليها.

ثم تبدأ **الخطبة** بعد حمد اللَّه تعالى **بالنداء** « **يا معشرَ الأنصارِ** » وهو نداء يدل على توددٍ واستجلابٍ للقلوب وعناية بالمخاطب، خصوصًا أنَّه يذكِّرُهم بصنيع لهم مشرف هو نصرة الدين الحنيف، وأردف باستفهام يتضمن التعجب من غضبهم، بل إن المفردتين « **قالة، جدة** » من الغرابة ما يوحي باستبعاد الغضب عنهم، وأما الضمائر اللغوية فهي مفرد متكلم وجماعة: « بلغتني، علي، عنكم، وجدتموها، أنفسكم » هذه الضمائر تدل على عنايته بالمواجهة واستجلاء الحقيقة.

وفي **المقطع الثاني** « **أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فهداكُم اللَّه، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُم اللَّه...** » إظهارٌ لنعمة الإيمان ونِعم الغنى والعِزّ والتآلف التي مَنَّ اللَّه بها عليهم عن طريق الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام -، وتوالي الاستفهام في المقطع يعني نقطة التحول في النص وعلوّ الإيقاع النفسي، وهذا الاستفهام يفيد الثبوت، وكلمة « ضُلَّالًا » بأصواتها الشديدة تشير إلى عنف الكفر وقسوته، ويفيد اقتران الهدى بالغنى استكمال عناصر السعادة في الدارين: الدنيا والآخرة، ثم أطلق شاهدًا واقعيًّا يبين عن طريق الاستفهام إذ كانوا قبل الإسلام يتحاربون فصاروا مع الإسلام يتحابُّون... وكان الجواب منهم شاملًا لفضل اللَّه وفضل نبيه - عليه الصلاة والسلام - « اللَّه ورسوله أَمَنُّ وأفضل » هكذا في صيغة الاسمية التي تفيد الثبات.

وفي **المقطع الثالث** سؤال يدل على طلب « **ألا تجيبونني يا معشر الأنصار** » مناديًا إياهم مرة ثانية زيادة في إكرامهم وبيان شأنهم العظيم في الدعوة، وكان جوابهم هذه المرة سؤالًا عن ماهية الإجابة ما داموا قد أقروا بالفعل « بماذا نجيبك.. »، ثم أردفوا بتكرار العبارة السابقة « للَّه ولرسوله المن والفضل » دلالة على ثبات قلوبهم على الشعور بالامتنان.

هنا كان جوابه ﷺ مشفوعًا بصيغ التأكيد الذي يحتاجه الموقف لإزالة الحرارة النفسية الطارئة، فقد ذكر أداة الاستفتاح « أما » وقرنها بالقسم « واللَّه » ثم جاء أسلوب الشرط الذي يفي بشدة اليقين، كما أن التماثل الصوتي: « فلصدقتم وصدقتم » يؤكد أن الصدق في هذا القول لو قالوه هو أعلى مستوى الصدق عند العامة والخاصة.

عند هذا يتكلم بلسانهم: « **أتيتنا مُكَذَّبًا فصدَّقناك...** » جاء بأسلوب التضاد بين التكذيب والتصديق، والخذلان والنصر، والطرد والإيواء، والحاجة والإغناء، كل هذا ليؤكد أنهم على منهج قويم وفق ما أمر به اللَّه الذي هداهم بعد ضلالة، وأغناهم بعد فقر، وألف بينهم بعد تفرقة، فأسلوب التضاد برهان يقوي عنصر الإقناع وإبراز فضلهم الكثير، مما يوسع صدورهم ويجعلهم يترفعون عن هذه الغنائم.

وهنا يسألهم سؤال العارف أتضيق صدوركم من إعطائي غيركم لتأليف قلوبهم وقلوبكم معي من غير عطاء مادي، بل بالبذل والإيثار. وتأتي هنا كلمة « لُعَاعَة » التي تبرز في المقطع لغرابتها اللغوية إذ تدل على القليل، ولتسهم في إبراز غرابة الموقف.

ونجد غاية الطمأنينة في تعبير « ووكلتكم » الذي يُسْنَدُ إلى الرسول ﷺ، ثم عبَّر بالرضا « ألا ترضون » مشيرًا إلى الطابع الحيواني للطمع بذكر الشاة والبعير، أما التعبير الأخير في هذا المقطع « وترجعوا برسول اللَّه في رحالكم » فهو غاية الإشعار بالطمأنينة، وهو رجوع وثبات بخلاف الذهاب، وأي كائن بشري أشرف من النبي ﷺ يكون مكسبهم الذي يرجعون به.

وفي **المقطع الأخير** قَسَمٌ شديدٌ زيادةٌ في التوكيد « **فوالذي نفس محمد بيده** » وفيه تواضع إزاء الخالق ومعنى الإخلاص للدعوة، ثم نجد حبَّه الشديد مؤكدًا بأسلوب الشرط فإنه يرفع شأنهم وماهية عملهم الدعوي: « **لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْبًا وسلكتِ الأنصار شِعْبًا لَسَلَكْتُ شعب الأنصار** ». ويردفه بشرط آخر يؤكد حبَّه لصحبتهم فهم الرفقاء المختارون له، خاصة أنه **يكرر الألفاظ: سلك، سلكت، شعبًا، شعب**، بل إن هذا المقطع الأخير يشتمل على كلمة « **الأنصار** » سبع مرات، زيادة في تشريفهم. وتكرار اللفظ على اللسان تحبّب وود عميق، كما نجد في هذا المقطع صورة مستمدة من البيئة العربية فهم أقرب الناس إلى قلبه كما أن الشعار ثوب لصيق بالجسد والدثار ثوب خارجي، ثم يختم الحديث بألفاظ طلبية دعائية شمولية: أبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، وهكذا حازت هذه الخطبة مع قصرها على ميزتين عظيمتين في الأدب: **الإقناع والإمتاع**: أما **الإقناع** فهو ظاهر في هذا التغير السريع للأنصار واعتذارهم البالغ المُبلَّل بالدمع الغزير. وأما **الإمتاع** الفني فظهرت دلالته في

توظيف العبارات لإظهار الجمال الفني والتأثير لاحتواء الموقف. وفي الحق إن هذه الخطبة: **فريدة في لغات العالم**، وإنها كما قال مولانا الداعية المجدد أبو الحسن علي الحسني الندوي **لَمِنْ دلائل نبوته ﷺ**[1].

* * *
* *
*

(١) في لقاء مع فضيلته في الجزائر في ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر اطلع على شرحي لهذه الخطبة فقال: إني أحسن ست لغات عالمية، لا أعرف فيها مثل هذه الخطبة، وإنها لمن دلائل نبوته ﷺ.

الكون والموت والحياة

[٦٧] عن عائشة - رضي اللَّه عنها - أنها قالت: خَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بالنَّاسِ فَأَطَالَ القِيَامَ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ ثُمَّ قَامَ فَأَطَالَ القِيَامَ - وهُوَ دونَ القِيامِ الأولِ - ثمَّ ركعَ فأطالَ الرُّكوعَ - وهُوَ دونَ الرُّكوعِ الأولِ - ثُمَّ سَجَدَ فَأَطَالَ السُّجودَ، ثُمَّ فَعَلَ فِي الرَّكْعَةِ الأخرى مِثْلَ ما فعلَ في الرَّكْعَةِ الأُولى. ثُمَّ انصرفَ وقد تَجَلَّتِ الشمسُ فَخَطَبَ النَّاسَ فَحَمِدَ اللَّهَ وأثنَى عليه، ثمَّ قالَ:

« إنَّ الشَّمْسَ والقمرَ آيتانِ مِنْ آياتِ اللَّهِ لا يَخْسِفَانِ لِمَوتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإذَا رأيتُم ذلكَ فادعُوا اللَّهَ وَكَبِّرُوا، وصلُّوا، وتصدَّقُوا ».

ثم قال: « يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، واللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أو تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، واللَّهِ لو تَعْلَمُونَ ما أعلمُ لَضَحِكْتُمْ قليلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ».

[متفق عليه][1]

* * *

مناسبة الخطبة:

توفي إبراهيم ابن النبي ﷺ، وهو آخرُ ولدٍ له، وقد سبق موت أولاده الذكور من قبل، فحزنَ لموته حزنًا شديدًا، وصادف أنْ خَسَفتِ الشَّمسُ في ذلك اليوم، فقال الناس: « خَسَفَت الشَّمْسُ لموتِ إبراهيم! ». فأمر النبي الكريم أن يجتمع الناس في المسجد، فصلَّى بهم ركعتين سُنة الخسوف، ثم خطب يُصحِّح مفاهيم أصحابه عن الكون والموت والحياة، لم يشغله ما نزل به من الحزن العظيم عن الأمانة على هذه الحقائق، التي خلَّد التاريخ أثر التوجيه لفهمها في النهضة العلمية الضخمة التي حقَّقها المسلمون، ونهض بها العالم.

المحتوى الفكري:

حَدَثٌ كونيٌّ يقع بين فترة وأخرى، يوقع الهيبة في القلوب؛ لتغير حال الشمس

---

(١) البخاري (الصدقة في الكسوف): ٢/ ٣٤ ومسلم (صلاة الكسوف): ٣/ ٢٧.

أو القمر، أو نقصان ضوئهما، وفي ظلِّ جهل العَالَمِ بحقيقة هذا الأمر كانت تُخْتَرَعُ له تفسيراتٌ عجيبة، ويُتوقع من ورائهما توقعات يدفع إليها التخرّص، ما أكثر ما كان هذا التخرص سببًا لبلاء عظيم من نشوب قتال بين دولتين أو غير ذلك.

في هذا الوضع العام جاء **خسوف الشمس يوم مصيبة** تجعل الدنيا تُظْلِم في عين النبي ﷺ ومعه أصحابه كذلك لمحبتهم، ومحبة الأمل المرجو ابنه إبراهيم. وانطلقت الألسنة على البداهة تقول: « خسفت الشمس لموت إبراهيم ».

لكن النبي ﷺ الأمين على الوحي وعلى علم الحقيقة، لا يساير هذه المقولة التي فيها مواساة لحزنه العظيم، وتدعيم لعظمته في النفوس، كما هو شأن زعماء الأرض، بل يستشعر قبل هذا كله ومن دون هذا كله يستشعر الحقيقةَ العلمية التي أطلعه اللَّه عليها، فدعا الناس إلى المسجد وصلَّى بهم صلاة خاشعة طويلة، ثم خطب كلمات مختصرات معدودات، وضع الأمر في نصابه وأعلن للعالم « **إن الشمسَ والقمر آيتان من آيات اللَّه، لا يَخْسِفان لموتِ أحدٍ ولا لِحياته** ».

إن الشمس القمر علامتان ودليلان على اللَّه الذي سخرهما وقهرهما، وسيرهما بحسبان دقيق يدل على علم خالقهما وقدرته وعظمته، ليس لتغير ضوئهما هذا علاقة بموت أحد أو بحياته، لقد ذهب عصر الخرافة في فهم الكون وتفسير ظواهره، ونقل النبي ﷺ العالم إلى عصر العلم وبرهان نوره؛ ليكون هذا الموقف من دلائل نبوته ﷺ وشواهد رسالته.

وقد بيَّن ﷺ سِرَّ اللَّه وحكمته في إجراء هذا الخسوف فقال كما في روايةٍ عند البخاري وغيره: « **ولكن اللَّه تعالى يُخَوِّفُ بهما عبادهُ** »، وقد خَفِيَ على بعض السطحيين في هذا العصر فاستشكل بأن للخسوف والكسوف أسبابًا معلومة، فما علاقة ذلك بالتخويف؟

إن هذا الاستشكال ناشئ عن السطحية في فهم القضايا، والخلط في الحقائق المهمة. إن حقيقة أي حدث لها وجهان: كيفية حدوثه، والسِّرُّ أو الحكمة في حدوثه. وكيفية حدوث الأمور الكونية نبحث عنها في العلم المتخصص بها، أما السِّرُّ والحكمة، ولماذا حدث هذا الأمر، فعلم حقيقته عند صانعه ﷻ. فأنت تعلم كيف يدق منبه الساعة، لكن إذا دقَّ في وقته تنهض للأمر الذي ضبطته لأجله، ولو قال لك قائل هذا حدث بكيفية كذا، لماذا تلبس ثيابك؟! لماذا تتأهب...؟! لو قال لك هذا قائل لكان من القول سُخفًا

وهجْرًا، فما أحراك أن تفوض علم حكمة اللَّه في كونه لذاته ولما تتعلمه من نبيه ﷺ.

لقد بلَّغ النبي ﷺ في هذا الموقف رسالة ربِّه، وهي ذات طابع علمي كوني، وطابع تشريعي.

أما في **الطابع العلمي** فقد أبطل الخرافة، وصحَّح فهم حوادث الكون.

وأما في **الطابع التشريعي** فقد أعلم أمته ما ينبغي في هذا الوقت المهيب، وذلك أن يكثروا من أنواع العبادات « **فادعوا اللَّه وكبِّروا، وصلُّوا، وتصدَّقوا** »، فإن العاقل إذا رأى هذا التغير يتعظ ويبادر لما يوجبه عليه، وهو الإكثار من العبادة ومن عمل الخير.

وهنا يحذر النبي ﷺ أمته أشد التحذير من فاحشة الزنى « **واللَّه ما من أحد أغير من اللَّه أن يزني عبده أو تزني أمته** » إنها توجب الغضب العظيم، والانتقام العظيم من اللَّه، وإن ما غاب عنَّا من غيب اللَّه ومعرفة جلاله كثير جدًّا، يجب أن نكون على ذكر لها؛ لذلك يسوق النبي ﷺ هذه القضية مؤكدة غاية التأكيد كسابقتها « **واللَّه لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا** ».

ملامح فنية:

استهل النبي ﷺ خطبته بحمد اللَّه والثناء عليه على سُنته الشريفة في خطاباته يذكر بنعمة اللَّه تعالى ويشير إلى الإخلاص له سبحانه. ثم تدخل الخطبة الموضوع مباشرة، **وتبدأ بهذه الجملة الاسمية المؤكدة « إنَّ الشَّمْسَ والقمرَ آيتَان مِن آياتِ اللَّهِ »**، وجاء التوكيد مناسبًا لإبطال الظن الذي شاع أن الشمس قد خُسِفَتْ بسبب موت إبراهيم ابن النبي ﷺ، وجاءت إضافتهما إلى اللَّه تشير إلى أنهما مسخرتان له؛ لزيادة تقرير الفكرة السابقة وتعميقها في النفس، **في الوقت نفسه** الذي يبرز فيها التوازن الموسيقي في « آيتان » « يخسفان »، وتقديم الموت؛ لأنه أعظم أثرًا في النفس، ولأن الظنون تكثر مع الألم.

ولا يترك النبي ﷺ الموقف مترددًا فيما ينبغي أن يفعله الناس فيه، بل يقدم الحل بهذه الجملة: « **فإذا رأيتم ذلك فادعوا اللَّه وكبِّروا وصلُّوا وتصدَّقوا** ». فشمل أنواع العبادات القلبية بالدعاء والتكبير وهو تعظيم للَّه والقولية فيهما، والبدنية بالصلاة والمالية بالصدقة؛ وذلك لمناسبة إعلان العبودية في مقام ظهور الهيبة لجلال الربوبية، ولما جعل اللَّه للعبادات من أثر في مقاومة البلاء.

وفي مقابل ذلك يحذر النبي ﷺ من أثر المعصية في نزول البلاء، ويخص الزنى بالذكر لغاية فظاعته في تخريب القيم الإيمانية والإنسانية، وفي إفساد المجتمع وتدميره؛ لذلك يقول: « **يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، واللَّه ما من أحد أغير من اللَّه أن يزني عبدُهُ أو تزني أَمَتُهُ** ». فهو يفتتح بالنداء لاجتذاب الانتباه، والقسم باللَّه تعالى لزيادة التأكيد وإثارة الخوف من غيرة اللَّه أي انتقامه العظيم. وتكرر النداء والقسم في المقطع الأخير الذي هو الثاني بعد السابق مما يحقق التوازن الصوتي، وجاء التضاد (أي المقابلة)، في « **لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا** »؛ ليزيد قوة التأثير في تصور الغيب المهيب المخيف الذي أطلع اللَّه عليه نبيه ﷺ، وَقَوَّى ذلك أسلوب **الشرط والإبهام** « **لو تعلمون ما أعلم** »؛ ليضاعف تصور هذا الهول الذي في عالم الغيب.

* * *
* *
*

عقاب الكبرياء

٦٨ عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « **بَيْنَمَا رُجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ، تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ إِلَى يَومِ القِيامَةِ** ».

[متفق عليه](١)

* * *

المحتوى الفكري:

يشتمل هذا الحديث الشريف على صورة من صور العقاب الدنيوي لمعصية الكبرياء التي هي آفة تُحِلُّ بالإنسان غضب اللَّه ومقته؛ لأنه منازعة من العبد لربِّه في هذه الصفة التي هي من صفات الرَّبِّ ﷻ، وذلك يؤدي به إلى الهلاك في آخرته كما أنه ينفي عنه الشعور بالاطمئنان والرضا، ويُحل عليه الاضطراب والتعقيد النفسي في دنياه، وهو أول معصية وقعت، ارتكبها إبليس وتكبر أن يسجد لآدم.

هذا الحديث لَقْطَةٌ سريعة لمصير إنسان متكبر، يغتر بالقشور والمظاهر، قشور الثوب الحسن والمباهاة به « الحُلَّة »، وتسريحة الشعر وتقليد مخترعاتها، وإذا به وهو يتبختر بهذه المظاهر ينزل به العقاب « **خسف اللَّه به** » انشقت الأرض تحته فغاص بها، « **فهو يتجلجل** (يغوصُ) **إلى يوم القيامة** ».

ملامح فنية:

نحن بإزاء حديث نبوي يحتوي على قصة وجيزة في حجمها، بالغة في تأثيرها وأبعادها الدينية. بطل هذه القصة واحد، شخصيته ثابتة لا تتحول عن الطابع السلبي المريض « **الكبر** »، أما ملامح هذا البطل فقد اتضحت في النص على صغر حجمه، **فالملامح الجسدية** في أنه يمشي في حلة، وأنه قد مشط شعره ورتَّبه مما يدل على عنايته بتسريح الشعر مبالغة في إظهار الجمال، **أما الملامح النفسية** فتتجلى في أنه « **تعجبه نفسه** »، والإطار الاجتماعي ظاهر في اقتناء الحلة الدالة على الزمن القديم، وهي ستر كامل يتألف من ثوبين: الإزار والرداء.

---

(١) البخاري في اللباس، باب من جر ثوبه من الخُيَلاء، رقم ٢٤٥٢، ومسلم في اللباس، باب تحريم التبختر، رقم ٢٠٨٨.

وإذا نظرنا في جزئيات الحديث نجد جمالياتٍ تُسهم في رسم هذه الشخصية الباغية، فاستخدام المضارع « **يمشي، تعجبه** » يدل على استمراره على هذه العادة الذميمة، وحرف الجر الظرفي « في » يُوهم ويخيّل لنا أن البطل مُحَاط بهذه الحلة، حتى كأنها كل شيء، ومنها يستمد أنفاسه وهي لم توصف للدلالة على أنها حلة عجيبة الجمال، واختيار الجملة الاسمية في « **مُرَجِّل جُمَّتَه** » يدل على ثبات واستعداد سابق على إظهار الكبرياء.

والقصة على إيجازها تصور باستعمال الفعل المضارع نَمَطًا دائمًا في مِشْيَة هذا الرجل الغَنِي المتكبر، وقد كسر قلوب الفُقراء.

وبينا نحن نتخيَّل هذا المتكبر جاءت **المفاجأة**: « **إذ خَسَفَ اللَّه به** »، مفاجأة مخيفة تحطم العادة، إنه الخسف، الحركة العنيفة، التي تذكِّرنا بالخسف الذي كان من عقاب الكفرة والمجرمين ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]. إنها لواقعة فذّة، ربما تكون حدثت مرة واحدة، وربما أكثر من مرة عبر التاريخ الطويل، لكن عدسة التصوير النبوي تحفظها للناس وتقدمها لهم، مستكملة الصورة في عمق الحفرة في حركة شاقولية متجهة إلى الأسفل، الدال على الرذائل والشيطان، وهي **صورة صوتية** « **يتجلجل** » فيها احتكاك الجسد بالأرض في الحفرة التي يظل هذا المتكبر يغوص فيها في عالم غيبي إلى أن تقوم الساعة.

* * *
* *
*

شمول الرحمة

٦٩ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيهِ العَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا، فنَزَلَ فيها، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ؛ يأكلُ الثَّرى مِنَ العَطَشِ. فقالَ الرَّجلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الكَلْبَ مِنَ العَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ البِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، حتى رَقِيَ، فَسَقَى الكَلْبَ. فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ ». قالوا: يا رسولَ اللَّهِ: وإِنَّ لَنَا فِي هَذِه البَهَائمِ لأَجْرًا؟ قال: « فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ ».

[متفق عليه][1]

* * *

المقصد من القصة:

هذا الحديث استخدم فن القصة في توضيح قيمة خُلُقية بعيدة عن عناية الناس، وهي الرحمة بالحيوانات والبهائم كبيرها وصغيرها، فمهد لها بقصة هذا الرجل، وهو إنسان قد أثَّرَتْ فيه الأخلاقُ الفاضلة، واستجاشت قلبه عوامل الرحمة، فاستجاب استجابة خالصة لا مجال للرياء فيها، وليس للغرض الشخصي مطمحٌ وراءها، ذلك أنه كان يمشي بطريق بعيد عن المدن والناس، وقد عطش كثيرًا، فوجد بئرًا فنزل إليها بنفسه وشرب، ثم خرج، ولا شك أنه في هذا النزول والصعود قد تعب كثيرًا، وإذا المفاجأة تجعله يرى فور خروجه كلبًا يأكلُ الثرى من شدة عطشه؛ لأن في التراب رطوبةً تخفف من حرارة العطش. وهذا معناه أن هذا الكلب المسكين قد بلغ منه العطش مبلغًا عظيمًا...

هنا قال الرجل حين رأى هذا المشهد: « **لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني** » ولم يكن معه إناء، فنزل البئر ونزع خفه - وهو الحذاء الذي يستر الكعبين - وملأه ماء وأمسك الخف بفيه، حتى صعد البئر، وهنا تظهر حذاقته وإنسانيته بما فيها من تواضع وما فيها من رحمة، حقًّا إنه رجل قد بلغت به الرحمة الإنسانية مبلغًا عظيمًا، حتى فعل ذلك كله بمحض الإخلاص والرحمة والشفقة، ولم يطلب على عمله مَطْمَعًا

(١) البخاري في الأدب « رحمة الناس والبهائم »: ٨/ ٩، ١٠، ومسلم: ٧/ ٤٤ وأبو داود في الجهاد: ٣/ ٢٤.

من أجر أو شكر أحدٍ من الناس، أو سُمْعَة عندهم، فأثنى اللَّه عليه بأن ذكره بين الملائكة وأعلى شأنه، وهذا جزاء عظيم جدًّا يقابل اللَّه تعالى به هذا العمل الذي لا تشوبه شائبة من حبِّ سمعة أو رياءٍ؛ لذلك استحق هذا الرجل التشريف: فشكر اللَّه له فغفر له ذنوبه لإسدائه الجميل لحيوان أعجم.

هنا وصلت القصة إلى غاية التأثير الذي يقصد من سياقها، إذ إنَّ السامعين تشوقوا لمعرفة هذا الفضل، هل هو خاص لهذا الرجل فقط أو هو عام لكل من فعل جميلًا لهذه الحيوانات. فانطلقوا يسألون: « **وإن لنا في البهائم لأجرًا؟** »، يعني هل هذا خاص بهذا الرجل أم إنه يشمل غيره من الناس؟ وهذا يعني أن الرغبة بهذا العمل الخير الأخلاقي التي أراد إثارتها النبي ﷺ قد تحقَّقت، فما تمالكوا أنفسهم حتى سألوه: « وإنَّ لنا في البَهائِم لأجرًا؟ ».

والبهائم: كُلُّ مَا يَدُبُّ على أربع، لكن الحديث عمم ووسع، حيث بَيَّنَ أن هذا المعنى وهذه الفضيلة لهذا العنصر الإنساني ليس خاصًّا بذلك الإنسان، بل ليس خاصًّا بهذا الحيوان أو بالبهائم، ولكنه فضلٌ وثوابٌ يُعْطَى لكل إنسان يسدي معروفًا إلى كل كائن حي على وجه هذه البسيطة.

« **في كل كبدٍ رطبة** »: أي في كل كائنٍ حي؛ لأن وجودَ الكبدِ الرطبةِ علامةٌ على الحياة. والكلام على تقدير محذوف أي: « **في كل ذات كبدٍ..** » وثبت ذلك في البخاري. والكَبِدُ أولُ ما يتأثر بالعطش؛ لذلك خصص هذا العضو بالذكر؛ لكونه معروفًا عند العرب بالتحسس بالألم فيه، ولأنه يتأثر بالعطش، فإذًا ليس ذكر الكبد للتقييد، وإنما هذا من باب الكناية أطلق اللازم وأراد الملزوم، فالكَبِدُ لازمٌ من لَوازمِ الحياة. وههنا نجد أن هذه الجملة على إيجازها قد تضمَّنت فنونًا من البلاغة:

١ - التعميم.

٢ - الإيجاز في قوله: « كل كبدٍ »، أي: كل ذي كبد.

٣ - الكناية؛ لأنه أراد كل كائن حي فعبر بـ « كل كبد »؛ لأن الكبد من لوازم الحياة، كأنه يقول: في كل كائن حي تُحْسِنُ إليه أجر كبير من اللَّه.

وههنا نجد أن الإنسان قد عاش في ظِلِّ هذا التوجيه الأخلاقي الإسلامي في جو كله خير، وأنَّ المؤمن المُتَخَلِّق بالإخلاق الإسلامية قد أصبح نافعًا وخيرًا للمخلوقات

جميعًا، وهو يتلمس منابع الخير في الكائنات الحية، وهذا المعنى به تقوم الحياة، وبه تتحقق السعادة، إذ يحس الإنسان بالرحمة، ويحس بمعنى الحنو والشفقة، وهذا من أهم وألزم المعاني لاستقامة حياة الناس.

الشخصيات:

يبدو البطل وحيدًا من أول الحديث إلى آخره. فهو الشخصية الأساسية التي تدور حولها الأحداث، أما الكلب فهو كائن منفعل في حين يظل الرجل فاعلًا.

وهذا البطل إيجابي تملأ قلبه الرحمة، إذ يحاور نفسه في حديث داخلي « مونولوج » حدد رأفته تجاه الحيوان، وإحساسه بالكائنات، وتظهر رحمته البالغة وتواضعه في مَلْئِهِ خُفّه وإمساكه بفمه ثم سقي الكلب، وذلك يبرز لنا صورةً حسية واقعية تعبِّر عن رحمةٍ ورأفةٍ عميقة في قلب هذا الرجل، هذه **الرحمة تستمطر عليه شكر اللَّه** وإكرامه بالمغفرة، فتأتي في خاتمة حدث القصة بشارة جليلة « **فَشَكَرَ اللَّهُ له فغفر له** ».

هنا ينقلنا الحديث إلى **حوار جماعي** مع النبي ﷺ؛ استثارته القصة « **قالوا: يا رسولَ اللَّه، وإن لنا في البهائم لأجرًا؟** » قال: « **فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ** ».

المكـان:

يتضح من الحديث أن المكان صحراوي، فالمشي واشتداد العطش من مستلزمات السفر القديم، وهو مكان عام يوْمِئ النص إليه إيماءً، ثم يذكر البئر، وهو مكان عام في الصحراء يقصده المسافرون. وتتضح ملامح هذا المكان من خلال الكلب الذي يأكل الثرى، فهو إذًا مكان تألفه الحيوانات.

هذه الأمكنة بجفافها وصعوبة العيش فيها تعبر عن الامتحان الدنيوي ومشقته.

الزمـان:

الزمن الخارجي لهذه الأقصوصة هو الزمن الماضي، ولم يلتفت الحديث للتحديد الدقيق للزمن، فالمطلوب هو استخلاص العبرة والتأسي بالمكارم.

أما الزمن الداخلي فهو بسيط؛ لأنه يؤطر موقفًا واحدًا من حياة هذا الرجل، والمشهد صغير الزمن؛ النزول والشرب وسقي الكلب، ولكنه دعوة كبيرة إلى الرحمة في معاملة الحيوانات، بله الناس الذين كرمهم المولى.

* * *

الشكْرَان والكُفْرَان

قصة الأبرص والأقرع والأعمى

٧٠ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « إنَّ ثَلاثةً فِي بَنِي إسرائيلَ أَبْرَصَ وأَقْرَعَ وأَعْمَى، فأرَادَ اللَّهُ أنْ يَبْتَلِيَهُم، فبَعَثَ إليهم مَلَكًا، فأَتَى الأبرَصَ فقال: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إليك؟ قال: لَوْنٌ حَسَنٌ وجِلْدٌ حَسَنٌ، ويذهبُ عني الذي قد قَذِرَني الناسُ. قال: فمَسَحَه، فذهبَ عنه قَذَرُه، وأُعْطِيَ لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا، قال: فأيُّ المالِ أَحَبُّ إليك؟ قال: الإبل، فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاء، فقال: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا ».

قال: « فأتى الأقرعَ فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليكَ؟ قال: شَعرٌ حَسَنٌ، ويذهبُ عَنِّي هذا الذي قد قَذِرَني الناسُ. قال: فمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ، وأُعْطِيَ شَعرًا حَسَنًا. قال: فأيُّ المالِ أحبُّ إليكَ؟ قال: « البقر » فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا، فقال: « بَارَكَ اللَّهُ لك فيها ».

قال: « فأتى الأعمى فقال: أَيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟ قال: أن يَرُدَّ اللَّهُ إليَّ بَصَرِي، فأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ، قال: فمَسَحَه، فردَّ اللَّهُ إليه بَصَرَهُ، قال: فأيُّ المالِ أَحَبُّ إليكَ؟ قال: الغنم، فأُعطِيَ شاةً والدًا. فأُنْتِجَ هَذَان ووَلَّد هذا. قال: فكَان لِهَذَا وَادٍ من الإِبلِ! ولِهَذَا وَادٍ من البَقَر! ولهذا وادٍ من الغَنَم!

ثُمَّ إنه أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِه وهيئتِه، فقال: رَجُلٌ مِسْكينٌ، قد انقطعتْ بي الحِبالُ في سَفَرِي، فلا بلاغَ لي اليومَ إِلَّا باللَّهِ ثم بك، أسألُكَ بالذي أعْطَاكَ اللونَ الحسنَ والجِلْدَ الحَسنَ والمالَ بعيرًا أَتَبَلَّغُ عليه في سفري. فقال: الحقوقُ كثيرة. فقال له: كأنِّي أَعْرِفُكَ، ألم تكن أبرص يَقْذُرُكَ الناسُ، فقيرًا، فأعطاك اللَّه!!؟ فقال: إنما وَرِثْتُ هذا المالَ كابِرًا عن كابرٍ. فقال: إنْ كنتَ كاذبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إلى ما كُنْتَ ».

قَالَ: « وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِه فَقَالَ لَه مِثْل ما قَالَ لهذا، وردَّ عليه مثل ما ردَّ على هذا، فقال: إن كُنْتَ كاذبًا فصَيَّرَك اللَّهُ إلى مَا كُنتَ ».

قال: وأتى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وهَيئَته، فقال: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وابنُ سَبيلٍ انقطعتْ بِي الحِبالُ فِي سَفَرِي، فلا بلاغَ لي اليوم إلا باللَّهِ ثم بك، أَسْأَلكَ بالذي ردَّ عليك بَصَرَكَ شاةً أَتَبَلَّغُ بها في سفري، فقال: قد كنتُ أعمى فَرَدَّ اللَّهُ إليَّ بَصَرِي، وفقيرًا فقد أغناني، فخُذْ مَا شِئتَ، ودَعْ ما شئتَ، فو اللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ اليومَ شيئًا أَخَذْتَهُ للَّهِ، فقال: أَمْسِكْ مالك، فإنما ابْتُلِيتُم، فقد رُضِيَ عنكَ، وسُخِط على صَاحِبَيْك ».

[متفق عليه][1]

* * *

المفردات:

الناقة العُشَراء: بضم العين وفتح الشين والمد: هي الحامل القريبة الولادة.

أنتج، وفي رواية « فَنَتَّجَ » معناه: تولى نتاجها، والناتج للناقة، كالقابلة للمرأة.

وَلَّدَ هذا: بتشديد اللام، أي: تولى توليدها، وهو بمعنى أنتج في الناقة، فالمولد والناتج والقابلة بمعنى، لكن هذا للحيوان، وذاك لغيره.

انقطعت بي الحبال: هو بالحاء المهملة والباء الموحدة، أي الأسباب.

لا أجهدك: معناه لا أشق عليك في ردِّ شيءٍ تأخذه أو تطلبه من مالي.

المحتوى الفكري:

إنها قصة القدر الإلهي السابق، قصة النفس البشرية القلقة الحائرة بين الشكر والجحود.

وعرض القصة يبدو في الحكاية والحوار.

أما الحوار فقد أتى موجزًا دَالًّا مصورًا يُمَثِّلُ العقدة. وأما الحكاية فكانت تصويرًا للتحول السريع الخارق، الذي يمثل المفاجأة في نوع من الحل المؤقت.

وتتشابه المشاهد الثلاثة للأبطال في الجزء الأول من القصة، بل تتماثل في إحساس كل بطل نقصه البشري الظاهر وتلهفه على البرء منه؛ لما في نفسه من عقدة سيئة، هي اعتقاده أن الناس يقذرونه، وهذا ما يهيج الشعور بالحقارة، وربما الحقد

(١) البخاري في الأنبياء باب (ما ذكر عن بني إسرائيل): ٤/ ١٧١، ومسلم أول كتاب الزهد: ٨/ ٢١٣، ٢١٤، واللفظ لمسلم. وجملة « وفقيرًا فقد أغناني » من رواية أخرى.

والحسد للأبرياء، فإذا انضم إلى ذلك الفقر كان الغاية وزيادة الشدة.

والمشهد التالي يصور الوديان الثلاثة تعج بالأموال من إبل ترعى، وبقر يخور، وغنم يملأ بثغائه سماء الوادي.

لكن تمام النعم هنا هو بدء الاختبار؛ لذلك يشعر القارئ باللهفة إلى ما يعقب كل نوع من أنواع البلاء ثم الإنعام.

أما المشاهد التالية فهي تعكس الصورة الماضية للأبطال الثلاثة، كأنها مرآة لهم في الماضي تظهر أمام أعينهم، يعرضها رجل مِسكين مَؤوفٌ - كما كانوا هم - ويذكر كل واحد منهم ما كان يألم له بالأمس من مرض وبؤسٍ؛ ليكون ذلك تسجيلًا عليه، وتنبيهًا له إلى التحول الخارق الذي انقلب به معافىً سعيدًا؛ لعله يعرف فضل اللَّه ويشكر نعمته، فيرأفُ بخلقه.

وهنا تتغاير الفِطَرُ، ولا تتماثل النتائج لعدم اشتراك النفوس في استعدادها لمعاني الخير من الصدق والشكر والوفاء، بل هنا يظهر السِّرُّ الخفي للحكمة العلية: « **فَمِنْهُم شَقِيٌّ وسَعِيد** ».

وتعتمد المشاهد على الحوار الحادِّ المصور للجَحْدِ البالغ من الشقي المحروم، والصدق البالغ من السعيد المُوَفَّق.

وتترك القصة في أنفسنا خيالًا صافيًا نسبح فيه خائفين، نتقلب على الضراعة، نسأل اللَّه العافية من البلاء، والثبات عند البلاء، وشكر النعمة بصادق الوفاء.

بناء الشخصيات:

١ - **الأبرص والأقرع والأعمى: يمثلون الشعور البشري بالنقص** والألم الوجداني للنازلة، واللهفة المكنونة للنجاة، ثم يمثل الأبرص والأقرع خلق الجحد والنكران، ويمثل الأعمى خلق الصدق والشكران والرحمة.

ووقوع الجحود من اثنين على الوجه الذي سلف، ووقوع الشكر من واحد، كان أقل منهما خطرًا يساير النظرة التي عبَّر عنها قول الحق سبحانه: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]، وقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص: ٢٤].

٢ - **المَلَكُ الذي يظهر بمظهرين كما ظهر الأبطال** الآخرون في مظهرين في مظهرين: أولهما حال السلامة والعافية عند السؤال والعرض في القِسْمِ الأول من القصة، وثانيهما

حال الظهور أمام كل منهم بصورة ما كان عليه من حاجة وفقر.

تحليل شخصيات القصة:

ينبع السرد عن إيجابية الأعمى وسلبية كل من الأبرص والأقرع، فهما يطلبان أمورًا ليست بذات أهمية قُصوى، فهما مرتبطان بالجمال الشكلي والمتطلبات الكمالية، في حين يطلب الأعمى ما هو ضروري، إنه يطلب البصر الذي ينقذه من العجز.

هذه اللمحة تدلنا على حقية الأعمى بالنجاح في الابتلاء الإلهي؛ لأن الخيرية متأصلة فيه، فهو رجل أنيس يطلب الغنم وهي آنس البهائم، في حين يطلب الآخران البقر والإبل، وكأنهما يطمعان في الربح الوفير.

شخصية **الأبرص والأقرع تتوازيان من حيث الأهلية** للشر والانقلاب إلى الشر، ثم الكذب في ادعاء توارث المال من الأجداد، والتعالي والكبرياء في عبارة « **إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر** ».

ثم إن تذكير المَلَك لكل من الأبرص والأقرع بماضيهما جعلهما ينفران من تذكر حال النقص مما يزيدهما تكبرًا، وكأن التذكير أراد سلبهم من مظاهر الجمال في الشكل ومظاهر القوة في المال.

أما الملامح الجسدية فثمة **صفات مُنَفِّرَة** واضحة، هي التي **تسير الأحداث**، فالنقص في الخِلْقَةِ في البرص والقَرَع يتخذ بعدًا كماليًّا، أما نقص العمى فيتخذ بعدًا ضروريًّا.

المكـان:

في المشهد الأول حيث الحوار بين الملك والأبرص لا نتصور المكان إلا بقعة ضيقة تجمع شخصين، ثم تتسع الأمكنة، فنتصوَّرُ مكانًا يحتوي الناقة الحامل القريبة الولادة « العشراء » التي تلد فيكثر الإبل « **وادٍ من الإبل** » مما يلفت النظر إلى سعة المكان الذي يحوي العدد الكبير. وكذا الأمر بالنسبة لواد من البقر وواد من الغنم.

وثمة أمكنة يسردها استعطاف المَلَك الذي يتحدث بلسان رجل فقير، فقد نقل المشهد من الحوار إلى الجبال والفيافي الواسعة حيث يخشى الضياع والعطش. وضياعُها يحتاج إلى أمن المعطي، وعطشها يحتاج إلى إسقاء المعطي، فهنا عبارات تستدر العاطفة بقدر ما تبين غلظ قلبي الأبرص والأقرع وبُخلهما.

الزمـان:

إن الزمان الخارجي للقصة يتضِح من مستهلها، فقد دارت الأحداث في بني إسرائيل فهي قصة واقعية ليست خيالية. ويشعر القارئ **بتنوع الزمن الداخلي**، وما دام المحاور مَلكًا فيتصور الدارس أن الزمن ليس بطويل في محاورة الرجال الثلاثة، فلا نلمس زمنًا طويلًا في الانتقال من الأبرص إلى الأقرع إلى الأعمى، فكأن « ثم » جاءت للترتيب لا للتراخي، وقد دلَّت **الفاء التعقيبية على سرعة الحدث** « **فَمَسَحَه فَذَهَبَ عنه..** » هذه السرعة الزمنية تناسب طبيعة الملك والقدرة الغيبية بأمر اللَّه.

ثم **يطول الزمن لسنوات** حتى تلد الإبل والبقر والغنم، ثم **تحصل استرجاعات** زمنية رائعة يبلورها الحوار حين يُذَكِّر المَلَكُ الأقرعَ والأبرصَ بالنعمة، ثم يعودُ بنا الزمن إلى أجيالٍ ماضية مزعومة قبل زمان اللقاء في قولهم: « **إِنَّمَا وَرِثْتُ هذا المالَ كابرًا عن كابر** ».

أما الأعمى فيعود إلى زمن اللقاء بالملك، ويقرُّ بنعمة الخالق عليه، فيستمر رضا اللَّه عليه إلى يوم القيامة، كما يستمر السخط على الأقرع والأبرص إلى يوم القيامة ما لم يتوبا.

الحـوار:

يبدأ الحوار ثنائيًّا بين طرفين: المَلَك وكل واحد من هؤلاء الثلاثة لوحده، وقد غلب الحوار على مساحة كبيرة من النص، فَبَيَّنَ دخيلة هؤلاء في تطور الأحداث.

بدأ الحوار بالسؤال عن أهم مشكلة يعانيها كل منهم، ثم يكون الجواب سريعًا دالًّا على لهفة المسؤول، إذ حذف المبتدأ من قوله: « **لونٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ..** ». ثم بادره بسؤال آخر يوضح الضرورة المالية التي تعين على الاستمرار في الحياة، وكأن الجواب كلمة واحدة حذف فيها المبتدأ « الإبل ».

أما دعاء الملك: « **بارك اللَّه لك فيها** » فيؤكد الإمداد بعد ذكر الإيجاد، وبهذا التبريك محافظة على الشيء ونماء له.

وفي **تكرار السؤال** مع كل من الأقرع والأعمى « **أيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إليكَ؟** » إشارة إلى أن القوة الغيبية لا تتأثر بتغير الأحوال، وبيان الترغيب الشديد.

قول الملك: « رجلٌ مسكين.. » يظهر الاسترحام في حذف المبتدأ، وحذف الضمير ليؤكد ضالة الطالب المُعْوز أمام الغني.

كلام الملك أطول من كلام الأبرص؛ ليبين أن الحاجة تفتق اللسان، والبخل ينزع إلى الترفع عن إطالة الكلام مع الفقراء.

ثم يعلو صوت الحاجة بقوله: « **فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك** » وهذا القول يتسم بلغة دينية، إذ يقدم ذكر الله، ثم ذكر الأبرص لتذكيره بالنعمة الربانية التي تناساها.

وقد أراد الأبرص أن يوهم السائل بأن قضيته لا تحتاج إلى توكيد، فلم يقدم وسائل توكيد، وإنما قال: « **الحقوق كثيرة** ». فما كان من الملك إلا أن أوهم الأبرص بأنه يتشكك برؤيته قبل هذا اللقاء، فاستخدم الأداة « **كأن** » ثم الشرط أي اليقين القابل للاحتمال والوقوع « **إن كنت كاذبًا فَصَيَّرَكَ الله إلى ما كنت** » هذا التعبير يفيد غمزًا للأبرص وتعريضًا به ينال كبرياءه، ويشير لكشف تزييفه.

ويكرر الحوار مع الأعمى بذكر السؤال والاسترحام، لكن جوابه يأتي على عكس صاحبيه، فيعترف بماضيه المؤلم ويؤكد الإقرار بالنعمة الربانية.

ويتضح كرم الأعمى في قوله: « **خذ ما شئت ودع ما شئت** » إنه إطلاق يعبر عن تواضع ووفاء أمام كرم الله ﷻ عليه.

ثم يؤكد الملك له أنه نجح في الابتلاء فقال: « **إنما ابتُلِيتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك** ». فكان ختام الحوار جميلًا معبرًا في مشهد الأعمى، إذ يتلقى أعظم البشارة لأنه؛ ﷺ، ودرسًا بليغًا زاجرًا في كفر النعمة وجحودها « **وسخط على صاحبيك** ».

* * *
* *
*

في الخـتـام..

الحض على الدعاء

٧١ عن عُبَادة بن الصَّامِت ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « مَا عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يدعُو اللَّهَ تعالى بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتاهُ اللَّهُ إِيَّاها، أو صَرَفَ عنه مِنَ السُّوءِ مِثْلَها، مَا لَم يَدْعُ بإِثْمٍ أو قَطِيْعَةِ رَحِم ».

[أخرجه الترمذي][1]

* * *

٧٢ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « ثَلَاثُ دَعَواتٍ مُسْتَجَاباتٍ لا شك فيهن: دَعْوَةُ المَظْلُومِ، ودَعْوَةُ المُسَافِرِ، ودَعْوَةُ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ ».

[أخرجه أبو داود والترمذي][2]

* * *
* *
*

(١) في الدعوات (انتظار الفرج...): ٥/ ٥٦٦، ٥٦٧. وقال: « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ».
(٢) الترمذي في البر والصلة (ما جاء في دعوة الوالدين): ٤/ ٣١٤، وأبو داود في الصلاة (الدعاء بظهر الغيب): ٢/ ٨٩.

من أدعية النبي ﷺ

٧٣ « اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وبكَ آمنتُ، وعَلَيكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبكِ خَاصَمْتُ. اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِله إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي. أنتَ الحَيُّ الذي لَا يَمُوتُ، والجِنُّ والإِنْسُ يَمُوتُون ».

[متفق عليه][1]

* * *

٧٤ « اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِن عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وتَلُمُّ بِهَا شَعثِي، وتُصْلِحُ بها غَائبي، وتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وتُزَكي بها عَملي، وتُلْهِمُنِي بها رُشْدِي، وَتَرُدُّ بها أُلْفَتِي، وتَعْصِمُنِي بها مِن كُلِّ سوء ».

« اللهُمَّ أَعْطِنِي إِيمَانًا وَيَقِينًا ليس بعده كُفر، ورَحْمَةً أَنَالُ بها شرفَ كَرَامَتِكَ في الدنيا والآخرة ».

« اللهُمَّ إني أَسْأَلُكَ الفَوزَ فِي العَطَاءِ، ونُزُلَ الشُّهَداءِ، وَعَيْشَ السُّعَدَاءِ، والنَّصْرَ عَلَى الأَعْدَاءِ ».

« اللهُمَّ اجعل لِي نُورًا فِي قَبْرِي، ونورًا في قلبي، ونورًا مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، ونورًا من خَلْفِي، ونورًا عَنْ يَمِينِي ونُورًا عَنْ شِمَالِي، ونُورًا مِنْ فَوقِي، ونورًا من تحتي، ونورًا فِي سَمْعِي، ونُورًا فِي بَصَرِي، ونُورًا فِي شَعْرِي، ونُورًا في بَشَرِي، ونورًا في لحمي، ونورًا في دَمِي، ونُورًا في عِظَامِي، اللهم أَعْظِم لي نُورًا، وأَعْطِنِي نُورًا واجْعَلْ لِي نُورًا ».

« سُبْحَانَ الَّذِي تَعَطَّفَ العِزَّ وقال بِهِ، سُبْحَانَ الذي لَبِسَ المجدَ وتكرَّم به، سُبْحَانَ الذي لا ينبغي التسبيحُ إلَّا له، سُبحان ذِي الفَضْلِ والنِّعم، سُبْحَانَ ذِي المَجْدِ والكَرَمِ، سُبْحَانَ ذِي الجَلَالِ والإِكْرَام ».

[أخرجه الترمذي][2]

---

(١) البخاري مختصرًا في التوحيد (قول اللّـه تعالى: وهو العزيز الحكيم): ٩/ ١١٦، ومسلم بلفظه في الذكر والدعاء (التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل): ٨/ ٨٠.

(٢) في الدعوات (باب منه، رقم٣٠): ٥/ ٤٨٢ - ٤٨٤، والحديث طويل بأكثر من هذا أصله في الصحيحين.

شعثي: ما تفرق وتشتت. وتصلح بها غائبي: باطني، بكمال الإيمان والأخلاق الحسنة. تزكي عملي: تزيده وتنميه. تعطف العز: اتصف به. قال به: وصف به نفسه. لبس المجد: اتصف به.

معالم البيان النبوي

تنظير عام لفنون الجمال البيانية
في الحديث النبوي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد للَّه رب العالمين، وأفضل الصلاة والسلام على أفصح ناطق بالضاد بين بني الإنسان، وآله وصحبه ما تتابع المَلَوَان، وسالكي سبيله بإحسان.

أما بعد:

فإن من الحق الواجب على كل مثقف له ذوق في الجمال أو تَعَلُّقٌ به أن يُعْنَى بدراسة الجانب الجمالي في أدب الحديث النبوي، وبلاغة هذا الحديث، فهو البيان الذي بَزَّ كل بيان بشري، في براعة أساليبه وإبداعها، وفي صحة معانيه وأغراضه وعظمة موقعها، وهو البيان الذي عمل في تكوين شخصيات الصحابة، وحولها من بُدائية البداوة والجاهلية، لقيادة الحضارة والمدنية، وإن هذا الأثر - الذي ليس لبيان بعد القرآن سوى بيان أفصح ناطق بالضاد عليه أفضل الصلاة والسلام - ليس قاصرًا على الصحابة والرعيل الأوائل من أمة الإسلام، بل إنه ليمتلك القدرة على هذه الصياغة في هذه الأعصر وما بعدها لمن يمعن فيه، ويتأمل جوانب الجمال الأدبي، والإبداع الفني في هذا البيان الفريد في البيان الإنساني.

وقد يبدو مُستغْرَبًا لدى بعضٍ ذي ثقافةٍ عصريةٍ بحتة، بل بعض كبارٍ منهم أن يطالعهم عنوان يشير إلى دراسة أدبية معاصرة للحديث النبوي، فضلًا عن عنوان يُشيد بجمال الفن النبوي البياني...! هذا أمر واقع عرفناه ولمسناه، وعرفنا أسبابه ودوافعه، إن ذلك ليس إلا ترجمة لتحجم الفكر في نطاق ضيق من المادية، حجب العقل عن فهم ماهية الحديث النبوي، بل جعل هذا العقل ينسى التاريخ الضخم الذي صنعه البيان النبوي كشرح للقرآن الكريم. في بناء الإنسان، وفي بناء العلم، وفي بناء الحضارة والمدنية. وإن عقلًا ضاق عن فهم حقيقة الحديث النبوي ومقومات جماله وإبداع حكمه، ونسي هذا التاريخ الضخم لفي أمسِّ الحاجة إلى أن تُقَدّم له دراسة تصدر عن موضوعية وعن اختصاص في علم هذا الحديث، وعن دُرْبَةٍ ومقدرةٍ في دراسة نصوصه، دراسةً فكريةً وأدبية. كما أن المثقفين عامة في أمسِّ الحاجة لمثل هذه الدراسة، التي تزيدهم معرفة بالنبي ﷺ وتزيد إيمانهم بصدق نبوته. ومَنِ الذي لا يعتريه الشعورُ العميق بصدق هذا النبي محمد ﷺ ولا يغمره الحب له لدى سماع حديثه وقراءته، لما اتصف به من جمال وحلاوة في مبانيه ومعانيه، وفي ألفاظه ومراميه.

من هنا كانت الحاجة ماسة إلى هذا اللون المتميز المحلق من البيان، فقدمنا البحث الأول (في ظلال الحديث النبوي)، وهو دراسة لنصوص من الأحاديث تبرز جماليات الفكرة، والتوجيه الاجتماعي، وإرشادات الحديث التي تبني الإنسان، كما تُفَصِّل دراستنا تلك جماليات بناء النص الحديثي في ترابطه، واختيار ألفاظه وحسن وقع مفرداته وتراكيبه، فهو حكمة بالغة في معانيه، وحكمة بالغة في ألفاظه ومبانيه، وهو روعة في انسجام مفرداته وجمله، وحسن موقعه في الآذان وقوة أثره في قلب الإنسان.

على أن هذه الدراسة التفصيلية لا بد أن تُسْتكمَل بدراسة شاملة عامة، تُلْقِي الضوء على أسرار البلاغة، وروعة البيان في حديث النبي - عليه الصلاة والسلام -، وتقدم لدارسها تصوُّرًا عامًّا لجملة فن البيان النبوي. وهو لعمر الحق مطلب عزيز لم يوف حقَّه فيما علمناه على النحو الذي قدمناه، إنما وجدت دراسات مُقْتَضَبَةٌ، لا تبلغ ما حققته هذه الدراسة، وإن كنا لا ندعي أنا توصلنا إلى أن نوفي هذا البحث حقه، وأنَّى لقدرة البشر أن تحيط خبرًا بمنحة هي خصوصية اختصَّ اللّٰه تعالى بها نبيه دون سائر البشر، وإنما نقدم باقات تعطي إلماعة للطالب، وتنير سبيل التأدب الجمالي، وتفتح أبواب الإبداع للراغب.

وحسبك بهذا البيان جمالًا وكمالًا إشادة الحق - تبارك وتعالى - به، وامتنانه على نبيه بإعطائه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

فقد سمَّى الحديثَ النبويَّ حِكمةً، كما بيَّنه أئمة العلم بتفسير القرآن، فَدلَّ على غاية جماله وغاية كماله.

وقد تحدَّث النَّبي ﷺ نفسُه عن هذه المنَّة الإلهية، إظهارًا للنعمة وبيانًا لها، في أحاديث كثيرة، تَأَمَّلْ منها هذا الحديث: « أوتِيتُ فَواتِحَ الكَلِم، وخَواتِمهُ، وجَوَامِعَه... »[1].

كذلك الصحابة الكرام - وما منهم إلا وهو في الفصاحة بحر زاخر ونجم زاهر - يشهدون للبيان النبوي بتلك المنزلة السامية الرفيعة في الجمال والكمال، وعمق التأثير في القلوب[2].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٢/ ١٧٢، ٢١٢.

(٢) وقد جمع منها جملة جيدة فضيلة أستاذنا الشيخ عبد اللّٰه سراج الدين في كتابه « سيدنا محمد رسول اللّٰه ﷺ » ص: ٥٧ - ٦٣، وانظر نبذة منها في مطلع دراستنا (في ظلال الحديث النبوي).

وتتالت شهادات أئمة اللغة والبلاغة والأدب بذلك لهذا الحديث النبوي، لعلَّ في جملة مختصرة منها ضوءًا مفيدًا في هذه الإلماعة، هي كلمة عَلَّامة الأدب وناقد الشعر إمام نحاة البصرة: يونس بن حبيب: « **ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول اللَّه ﷺ** »[1].

ولكي تكون الدراسة على اختصارها جامعة شاملة **قسمناها إلى خمسة فصول:**

الفصل الأول: ظواهر الجمال الأدبية في فن الحديث النبوي.

الفصل الثاني: أبنية الحديث النبوي.

الفصل الثالث: خصائص الإبداع الأدبي في فن الحديث النبوي.

الفصل الرابع: المحتوى الفكري العام في الحديث النبوي.

الفصل الخامس: العوامل المؤثرة في فن الحديث النبوي.

وباللَّه تعالى التوفيق، وله الحمد والشكر والثناء الحسن الجميل.

❊ ❊ ❊
❊ ❊
❊

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ: ٢/ ١٩، وانظر للاستزادة كتابنا السابق.

الفَصْلُ الأوَّلُ

ظواهر الجمال الأدبي في فنِّ الحديث النبوي

إذا تقصينا ملحوظاتنا الأولى، وإدراكاتنا المباشرة لدى سماع الحديث النبوي يُقرأ علينا، أو حين النظر فيه نتلوه مكتوبًا، فإننا نجد أنفسنا أمام **بيان متميز، له مقوماته الخاصة، التي يستقل بها في مجموعه عن كلام الأدباء والفصحاء والعلماء والحكماء**، وإن كان في جزئياته قد نجد له شبيهًا في كلام صفوة منهم، مثل خيار الصحابة كالخلفاء الراشدين الأربعة، وغيرهم من فصحاء الصحابة، وفصحاء العلماء وكبار العارفين.

ومن أهم هذه الظواهر الأدبية للحديث النبوي، **الظواهر الآتية:**

١ قصر الأحاديث:

وقد تحدَّث النبي ﷺ نفسه عن قصر أحاديثه، أنها موهبة من اللَّه فقال: « **واخْتُصِرَ** – أي الكلام – **لي اختصارًا** ».

كذلك حدث عنها الصحابة – رضي اللَّه عنهم – كما في الحديث الصحيح عن عائشة – رضي اللَّه عنها – قالت: « كان ﷺ يحدث حديثًا لَوْ عَدَّهُ العَادُّ لأحصاه ». [متفق عليه][1].

ولحظ كبار الأدباء النقاد ذلك، كما رأينا عند الجاحظ، إذ وصف البيان النبوي بأنه استبعد التطويل.

فأغلب الأحاديث تقع في سطرين أو ثلاثة أو أربعة، بل منها ما يقع في جملة واحدة، ويُلْحَظُ أن ذلك كثير في بيان أساسيات الإسلام، أو الإرشاد إلى مفصل الحياة، مثل حديث: « **الدين النصيحة** »[2]، وحديث: « **الحياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمان** »[3].

---

(١) البخاري: ٤/ ١٩٠، ومسلم: ٨/ ٢٢٩.

(٢) البخاري معلقًا في الإيمان: ١/ ١٦، ومسلم في الإيمان أيضًا: ١/ ٥٣، ٥٤.

(٣) البخاري: ١/ ٧، ومسلم: ١/ ٤٦.

وحديث الرجل: قال: يا رسول اللّه أوصني. قال: « **قُلْ آمَنْتُ باللَّهِ فَاسْتَقِمْ** »[١].
وحديث: « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** »[٢].

على أن هذا لا يمنع أن تكون بعض الأحاديث طويلة، مثل خطبته في حجة الوداع، وغيرها من المواقف التي تحتاج لتطويل، ومثل أحاديث القصص[٣]. وإن كانت هذه المطولات من الأحاديث قصيرة بالنسبة إلى مطوّلات الأدباء، كالمعلقات وغيرها.

وبهذا القِصَر في الأحاديث توافرت سمة الإيجاز - التي سنتحدث عنها -، وسلم الحديثُ النبوي وابتعد عن عيوب التطويل، مثل التكلف الذي ينشأ من تقليب الفكرة وشقشقة اللسان معها، والتصنُّع والتحايل، وكلها صفات نزَّه اللَّهُ رسولَه عنها. ومثل تشتيت الذهن نتيجة الشقشقة للكلام، وهو مُخِلٌّ بمقصود الدعوة والإبلاغ اللذَيْن هما محور مقاصد البيان النبوي.

على أن قِصر الأحاديث لا يعني الإخلال بالمحتوى الفكري والغرض الموضوعي للحديث، أو سلوك سبيل الغموض والإلغاز، بل إنا نجد فيه إعطاء المعنى حقه، مع البعد عن الغموض والإلغاز، كما هو ظاهر الأمثلة التي أوردناها. بل نجد مساحة تأثير العبارة النبوية الموجزة واسعة في النفس، وهذا الامتداد في المساحة ناتج عن التذوق الجمالي للإيجاز الواضح البعيد عن التعقيد والغموض.

٢ النَّفَس الهادئ:

لم يكن النبي ﷺ يسرد كلامه سردًا متتابعًا، يجعل السامع يجري وراء الكلام، ويُكِدُّ ذهنه لإدراك معانيه، بل كان الكلام النبوي يُلْقَى بالتأني؛ ليتمكن الفكر من استيعابه، وكأنه يوقع على النفس إيقاعًا، وفي هذا قالت عائشة - رضي اللّه عنها -: « ما كان

---

(١) مسلم: في الإيمان، رقم ٦٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه في كتاب العلم: ١/ ٨١، وضعفه ابن الصلاح في علوم الحديث: ص٢٦٥، لكن للحديث طرقًا تقويه، قال الإمام المزي: « روي من طرق تبلغ درجة الحسن » قال السندي: « رأيت له نحو خمسين طريقًا ». حاشية السندي على ابن ماجه: ١/ ٩٩، والمقاصد الحسنة للسخاوي: ص٢٧٥، ٢٧٦، والحديث في التحقيق متواتر، بلغ رواته من الصحابة تسعة عشر صحابيًا. كما في نظم المتناثر للكتاني: ص٢٥ - ٢٧.

(٣) وقد جمع الإمام الطبراني الأحاديث المطولة في جزء صغير سماه « الأحاديث الطوال » أخرجها بأسانيده.

رسول اللَّه ﷺ يَسْرُدُ كَسَرْدِكمُ هذا، ولكنه كان يتكلَّم بكلام بيِّنٍ فَصْلٍ، يحفَظُه مَن جلس إليه » [أخرجه الترمذي في الشمائل وأصله في البخاري][1].

وهذا الهدوء يدل على الثقة بالنفس، والسيطرة على جوانب الفكرة وأبعادها وقيمتها الإنسانية، والتعبير الفني الجميل الذي يحملها.

على أنا كذلك لا نجد في أداء الحديث الانفعال الذي يقلل تأثير العقل، كما يقلله في الشعر والأدب، بل نجد اعتدالًا وتوازنًا مع مقتضيات الموقف، وأهم ما يبرز ذلك الأحاديث ذات الجمل القصيرة؛ مثل حديث أبي مالك الأشعري ﷺ أنه ﷺ قال: « **الطُّهور شطر الإيمان، والحمدُ للَّه تملأ الميزان، وسبحان اللَّه والحمد للَّه تملآن – أو تملأ – ما بين السموات والأرض، والصلاةُ نورٌ، والصدقةُ برهانٌ، والصبرُ ضياءٌ، والقرآنُ حجةٌ لك أو عليك. كل الناس يغدو؛ فبائعٌ نفسَه فَمُعْتِقُها، أو مُوبِقُها** ». [أخرجه مسلم][2].

فالتناغم بين الجمل يدعونا إلى الهدوء في قراءة النص، والسرد المتلاحق يُفْقِد هذا الجمال، إذ مع كل وقفة يُختم مَشْهدُ تصويرٍ رائع؛ ليُشَكِّلَ الحديثُ لوحة جميلة.

كذلك لما أراد بعض الأنصار أن يشرط في بيع أَمَة شرطًا فاسدًا، ولم يتركه مع التنبيه عليه، توهمًا أن تأكيد الشرط يجعله مقبولًا، صعد ﷺ المنبر، وخطب في المسألة فقال: « **أما بعدُ: فما بالُ رجالٍ يشترطون شروطًا ليست في كتاب اللَّه؟! ما كان مِن شرطٍ ليس في كتابِ اللَّه فهو باطلٌ، وإن كان مائةَ شرط، قضاء اللَّهِ أحقّ، وشرطُ اللَّهِ أَوْثَق، وإنما الوَلاءُ لمن أعتَق** » [متفق عليه][3].

فقد جاء الوقف آخر كل جملة يفيد الحتم والجزم والشدة؛ لأن الموقفَ موقفُ إبطالٍ لشرطٍ مخالف لشرع اللَّه « **ليس في كتاب اللَّه** »، وتصحيح لوهم فاسد يتوهم صاحبه أن تأكيد الشرط الفاسد يجعله صحيحًا، فجاء نص الحديث موافقًا مَفْصِلَ البلاغة؛ إذْ قال: « **فهو باطل وإن كان مائة شرط** »، أي: وإن أكده مائة مرة، كما فسّرته الرواية الأخرى، فهو مع غضبه ﷺ وانفعاله، لم يجاوز الحقيقة ولا قيدَ شعرة، الحقيقة المقررة في الدنيا أن الباطل لا يصير حقًّا، مهما حاول أهل الباطل وكرروا أو أكدوا...!!.

---

(١) الشمائل: ٢/ ٨ بشرح القاري والمناوي، والبخاري: ٤/ ١٩٠.

(٢) أول كتاب الطهارة (فضل الوضوء): ١/ ١٤٠، والترمذي في الدعوات: ٥/ ٥٠١، والنسائي في الزكاة: ٥/ ٨، وابن ماجه، رقم ٢٨٠.

(٣) البخاري بلفظه البيوع (باب إذا اشترط شروطًا في البيع لا تحل): ٣/ ٧٣، ومسلم في العتق: ٤/ ٢١٤.

٣ إعادة الكلام وتكراره:

إن للتكرار وظائف فنية وفكرية في غاية الأهمية: وأول ما يبدو منها التنغيم الموسيقي بتكرار الأصوات، وثانيها في دلالة الكلام، بتعميق الفكرة المقصودة في نفس المتلقي، ثم التوكيد الذي يفيد لفت أنظار المتلقي لأهمية القضية.

لذلك كان النبي ﷺ كثيرًا ما يعيد الكلام، كما قال أنس ﷺ: « كان رسول اللَّه ﷺ يُعيدُ الكلمة ثلاثًا لِتُعْقَلَ عنه » [أخرجه البخاري][1].

وهذا منه مراعاة لأهمية ما يقول؛ لأنه يُبَلِّغُ رسالةَ اللَّه تعالى، فهو يرسمها في قلب السامع لتحفظ عنه، وليثبت قاعدة دينية تؤثر في السلوك، وهذا يفيد أيضًا ثبوت نقل الأحاديث بألفاظها، خلافًا لما يثيره بعض المتوهمين.

ومن ذلك أن يكرر الكلمة أو الجملة، لا على وجه الإعادة للحفظ، بل لكون النص مقصودًا كذلك، فتحقق الكلمة المؤكدة بالتوكيد اللفظي الأهداف التي ذكرناها.

ومن أمثلة ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: « **أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وبيدي لواء الحمد ولا فَخْرَ، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرضُ ولا فَخْر** ». [أخرجه الترمذي][2].

وأخرج الترمذي أيضًا عن عبد اللَّه بن عباس - رضي اللَّه عنهما - قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « ... **ألا وأنا حبيبُ اللَّه ولا فَخْر، وأنا حاملُ لواءِ الحمد يومَ القيامةِ ولا فخرَ، وأنا أولُ شافع، وأولُ مشفَّعٍ يومَ القيامة ولا فخرَ، وأنا أولُ من يُحرِّكُ حِلَقَ الجنة فيَفتحُ اللَّه لي فيدخِلُنيها ومعيَ فقراءُ المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرمُ الأولين والآخرين ولا فخر** »[3].

هذه اللازمة الموسيقية « ولا فخر » بمنزلة الدليل في الفيافي يرشدك إلى طريق يظلل كل فقرة بتواضعه ﷺ.

---

(١) في العلم: ١/ ٢٦، والترمذي في الشمائل: ٢/ ٩.

(٢) في المناقب الباب الأول: ٥/ ٥٨٧، رقم ٣٦١٥، وقال: حسن صحيح.

(٣) الموضع السابق.

ومثل حديثه المشهور لحنظلةَ ﷺ لما قال حنظلة: « نافق حنظلة » وعلل ذلك بقوله: « يا رسولَ اللَّه، نكونُ عندكَ تُذَكِّرُنا بالنار والجنة، كأنا رَأْيُ عين، فإذا خَرَجْنا من عندك عافَسْنا الأزواجَ والأولاد والضيعات ونسينا كثيرًا »!.

فقال رسول اللَّه ﷺ: « **والذي نفسي بِيَدِهِ إن لو تدومون على ما تكونون عندي وَفِي الذكرِ لَصَافَحَتْكُمُ الملائكة على فُرُشِكُم وفي طُرُقِكُم. ولكن يا حنظلة ساعة وساعة – ثلاث مرات** » [أخرجه مسلم][1].

ومن أروع ذلك الحديث الصحيح المشهور المتفق عليه[2] عن أبي بَكرَةَ نُفَيع ابن الحارث قال: كنا عند رسول اللَّه ﷺ فقال: « **ألا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكبائر** »؟ ثلاثًا، **الإشراكُ باللَّه، وعقوقُ الوالدين، وشهادةُ الزور أو قول الزور. وكان رسول اللَّه ﷺ مُتَّكِئًا فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: لَيْتَهُ سَكَتَ** ».

إن هذا ليفوق في التهويل والوعظ أي شرح لهول شهادة الزور وقول الزور، مهما طال، حتى إنّ الصَّحابة أشفقوا على النبي ﷺ.

ومثل ذلك خطبته الكبرى في العالم عام حجة الوداع، فقد اختتم كل فقرة منها بهذه الجملة « **ألا هل بَلَّغْتُ، اللَّهم فاشْهَدْ** »[3].

فقد أعاد هذه اللازمة « **ألا هل بلغت، اللَّهم فاشهدْ** »، وكررها آخر كل فقرة؛ لأنها تلخيص لحياته ﷺ، التي كانت كلها بلاغًا وإبلاغًا، وبهذا الإشهاد حَمَّلَ الصحابة مسؤولية الإبلاغ عنه، ذلك الإبلاغ الذي نهض به الصحابة – رضي اللَّه عنهم –، وكان به تغيير العالم[4].

٤ سهولة ألفاظ الحديث وتآلفها، وبُعدها عن التكلُّف والتعقيد:

الكلمة في الأدب وسيلة وغاية! وسيلة؛ لأن المراد بها توصيل الفكرة والمعنى

---

(١) في التوبة (فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة..): ٨/ ٩٤، ٩٥، اختصرنا من مطلعه حواره حنظلة مع أبي بكر الصديق – رضي اللـه عنهما –، ومعنى عافسنا: خالطنا.

(٢) البخاري في الشهادات (باب ما قيل في شهادة الزور): ٣/ ١٧١، ومسلم في الإيمان (باب بيان الكبائر وأكبرها): ١/ ٦٤، واللفظ لمسلم.

(٣) انظر نص الخطبة مطولًا في صحيح مسلم في كتاب الحج (صفة حجة النبّي ﷺ): ٤/ ٤١، والبخاري مفرّقًا على أبواب متعددة.

(٤) علم الحديث والدراسات الأدبية من تأليفنا: ص١٥٣.

إلى المتلقي، وغاية في نظر الأدب؛ لأنها تحمل شحنة العاطفة المؤثرة، فتكون لذلك مقصودة لذاتها، يختارها الأديب بعناية ودقة.

وألفاظ الأحاديث النبوية تحقق المقصدين معًا: التوصيل للفكرة بسهولة ويسر، والتأثير الفني كذلك، وقد جاءت سهلة مأنوسة، متآلفة مترابطة، بعيدة عن التكلف والتعقيد، وكان ذلك نابعًا من شمائله الشريفة ﷺ، فقد كان يكره الإِغرابَ، ويكره التكلفَ، ويكره فضولَ القول؛ ولذلك قَلّما خفي معنًى من معانيه، أو احتاج دارس أحاديثه لكثرة الرجوع إلى المعاجم، إذا كان ذا معرفة جيدة باللغة العربية. وهذا الحديث يدل على ما ذكرنا أبلغ دلالة، وهو الحديث المتفق عليه[1]: « **بُنِيَ الإِسلامُ على خمس: شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان** ». فالحديث مع خطورة موضوعه وأنه يبين أركان الإِسلام إلى جانب ما فيه من لطائف البلاغة والبيان واضح الألفاظ، سهل الفهم. حتى يمكن لنا أن نقول: إن هذا الحديث، **وعامة الأحاديث النبوية قد جاءت من السهل الممتنع**. وإننا نجد الكلمة في الحديث مستقرة في مكانها، غير قلقة ولا مستجلبة، بل هي مرتبطة بالفكرة وبجاراتها، وانظر أي حديث شئت، كل الأحاديث يمكن إيرادُها هنا في هذا المقام لتؤكد القضية التي نقررها، فقد أُوتيَ ﷺ الهيمنة على خزائن اللغة ومفرداتها، فلا يأتيه التكلف ولا الاستكراه من أي جانب من الجوانب.

ولذلك: « لم تسقط له كلمة، ولا بارت له حُجَّة، ولم يسمع الناس بكلام قطُّ أعمَّ نفعًا، ولا أصدقَ لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ » كما قال إمام البيان الجاحظ.

غير أنا قد يستشكل علينا من لم يتمعن مقاصد الكلام، وغاية المرام بالألفاظ التي شرحها العلماء في كتب خاصة، هي المعروفة بكتب (**غريب الحديث**)، والتي يبلغ بعضها خمس مجلدات.

والجواب: أن مقياس الغرابة ليس هو فهم المبتعدين عن اللغة، إنما هو السامعون، وكان الصحابة يفهمون القسم الأعظم، والجانب الأكبر من الحديث، وقد يخفى على

---

(١) البخاري أول الإيمان: ١/ ٧، ومسلم (بيان أركان الإسلام) رقم ٢١.

بعضهم بعضُ ألفاظه فيسأل عنه، فيتلقى الجواب والشرح، ويكون القصدُ إفادةَ السامع الكلمةَ، أو إيثارَها لفضلِ موقعها وإفادتها في مكانها ما لم يُفِدْهُ غيرها، على أن استعمال مثل هذا اللفظ نلاحظ منه انتقاءً للفظ يوحي بمعناه، وَيَشِي منه بالمُرَام، مِن جَرْسه ووَقْعِه في الآذان، وموقعه بين الكلام.

والحقيقة أن ما ورد من الغريب في الحديث لم يكن وحشيًّا، بل كان المراد منه تحقيق الملاءَمَةِ بين تأثير الكلمة المطلوب والظروف التي تقال فيها لتحقيق ملاءمة الدال والمدلول وانسجامهما.

وهكذا كما قال العقاد[1]: « فليس أقرب من هذا الأسلوب في إبلاغ الغرض منه. لا كلفة ولا غموض ولا إغراب، وقِلّةُ الغريب - بل ندرته - في كلام النبي أجدر الأمور بالملاحظة في إقامة المثل والنماذج لأساليب البلاغة العربية، محمد العربي القرشي الناشئ في بني سعد، العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبيلة نائية في أطراف الجزيرة، لم يكن في كلامه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه إلى مراجعة، وسر ذلك أنه يريد أن يبلِّغَ أو يريد أن يصل إلى سامعه، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزًا من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب، ومن ذلك ما رُوِيَ عنه ﷺ أنه كان يعيد الكلمة ثلاثًا لتعقل عنه، وأنه كان يبغض التكلف والاغترار بالبلاغة كما قال: « **إنَّ اللَّهَ تعالى يُبْغِضُ البليغَ مِنَ الرِّجالِ، الذي يَتَخَلَّلُ بِلِسانه تخَلُّل الباقِرَةِ بلسانها** »[2].

٥ تلاؤم النص ومستوى المتلقي (التكيف مع الموقف):

أو: مخاطبة كل إنسان مع مراعاة مقتضى الحال:

وذلك بأن تكون المخاطبة في غاية الملاءمة للمعنى المطلوب، وتقديم المعنى المناسب أيضًا للغرض الذي سِيْقَ لأجله الكلام، ويكون كذلك وصف فعله وحاله متكافئًا مع الأمر الذي يأمر به أو النهي الذي يزجر عنه. وربما اختار لكلامه حالة خاصة من أحواله؛ ليربط المستمع ويؤثر فيه، فلا يمنع أن يتكيف القائل مع المستوى الفكري والعاطفي للمخاطب، إذ يأتيه ﷺ الكبير والصغير والمرأة والأعرابي والراضي

---

(١) في كتابه عبقرية محمد: ٨٢.

(٢) أخرجه أبو داود عن ابن مسعود في الأدب (ما جاء في التشدّق) رقم ٥٠٠٥، والترمذي في الأدب (ما جاء في الفصاحة والبيان). وعن عبد اللّـه بن عَمْرٍو في الموضع نفسه، رقم ٢٨٥٧. وهو حديث صحيح.

والغاضب، فيخاطب كلًّا بما يُلائِمهُ، كما أنه في الوقت نفسه يراعي حقَّ الموضوع والفكرة، وتوصيلَها إلى الجميع.

وهذا الذي ذكرناه يترجم المقصد الذي عرَّفوا به البلاغة، حين قالوا: « هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ».

ومن أمثلة ذلك الحديث الصحيح الذي ثبت في الصحيحين[1] في بِرِّ الوَالدَيْن، حينَ سأَلَ بعضُ الصحابة: **مَنْ أحقُّ الناسِ بِحُسْنِ صَحَابَتي يا رسول اللَّه؟ قال: « أمُّك ». قال: ثم مَن؟ قال: « أمُّك ». قال: ثم مَن؟ قال: « ثم أمُّك ». قال: ثم من؟ قال: « ثم أبوك »**.

فقد كرر **الحديث** الوصاية بالأم ثانيةً وثالثة ثم في الرابعة قال: « **ثم أبوك** ». وهذا في غاية البلاغة؛ لأن الأم آكد حقًّا من الأب، وذلك يحتاج للتأكيد، كما أن حاجتها إلى حسن الصحبة وجميل العشرة، وبذل المعروف أشد من الأب، فإن الأب أقوى من الأم، وله في الأرض مُرَاغَمٌ كثيرٌ وسعة. فضلًا عن أن حاجة الابن لأمه تضعف عندما يكبر، بينما لا تضعف حاجته لأبيه بسبب الكِبر، وهذا من دواعي النسيان أو التقصير معها دون الأب، فجاء الحديث بهذا التكرار والاهتمام والتأكيد ليقع في غاية المناسبة لمقتضى حال السائل، بل حال كل إنسان، في كل زمان وكل مكان.

ومن الأمثلة المهمة في ذلك خطبته الكبرى إلى العالم في حجة الوداع، كما سبق أنه كرر فيها كثيرًا قوله: « **ألا هل بلغت، اللَّهم فاشهد** »، وجعلها لازمة يختم بها كل فقرة من فقرات الخطبة.

الغريب:

وربما أغرب الرسول في اللفظ يستعمله، وإن كان ذلك قليلًا؛ لأن الذي يخاطبه قد آثر أنْ يستعملَ الغريب في كلامه، أو ربما كان ذلك طبعًا للرجل: رُوِيَ أن رجلًا سأل النبي ﷺ: أيُدالِك الرجل امرأته؟ فأجابه: « **إذا كان مُلْفَجًا** ».

فلما استعمل السائل اللفظ الغريب (يُدالِكُ) أي: يماطل، أجابه بنحو طريقته، وقال إذا كان مُلْفَجًا: بصيغة اسم المفعول، وهو المحتاج المغلوب الفقير الذي أثقله الدين[2].

---

(١) البخاري في الأدب (من أحق الناس بحسن الصُّحْبة): ٨/ ٢، ومسلم في أول البر والصِّلَة (بر الوالدين): ٨/ ٢ أيضًا.

(٢) النهاية في غريب الحديث: مادة (دلك).

وعلى ذلك يمكن أن نعد مجلدات غريب الحديث معاجم متميزة لأفصح لسان عربي ناطق بالضاد، وذلك لغزارة مادتها ودقتها، وحسن بيان المعاني وبسطها، وجلاء بعض الفوائد البلاغية أحيانًا. وقد عوّل مؤلفو المعاجم على كتب الغريب، وأثبتوا محتواها، كما هو ملحوظ في لسان العرب، وتاج العروس مثلًا.

ثم كان جُلُّ اهتمام القدامى جمعَ الغريب وشرحه، من غير اعتناء باستقصاء دلائله الفنية إلا قليلًا، ففيه فوائد قيمة، يجب أن نُشيدَ بها، ويبقى المجال فسيحًا في دراسة هذه الدلائل، في مفرداتها ومواضعها، وفي منهجها الأدبي العام، الذي نقدم وَمْضَةً عنه هنا.

وكانت الأحاديث من هذا الجانب علاجًا نفسيًّا للصحابة، وهي علاج لنفوسنا من بعدهم. والطب النبوي ناجح قوي تذوب أمام طاقته الوساوسُ والهواجس، فقد روى لنا ربيعة بن كعب الأسلمي ﷺ قال: كنت مع النبي ﷺ أوافيه بِوَضوئه وبحاجته، فقال لي: « **سَلْنِي** »، قلت: فإني أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: « **أَوَ غير ذلك** »، قلت: هو ذاك، قال: « **فأعِنّي على نفسك بكثرة السجود** »[١].

ونلحظ هنا التبسط مع الصحابي، كان ﷺ يطلب منه غير رغبته المحددة، ثم يكون تكيف مع طبيعة السائل، فيطلب العون منه، ليفي بوعده، أليس في هذا تلاحم مع الناس وأسلوب تفكيرهم وبعث الأمل في نفوسهم، والصحابي يخاطب قائدًا، لم يطلب القائد منه طواعيةً لذاته، بل طلب طواعيةً للخالق في كثرة الصلاة.

ولم يكن ﷺ ينفر أصحابه عنه تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وذلك للمحافظة على صفاء القلوب وتماسك الصفوف وشدة التآلف، فترى كثيرًا من الأحاديث تتضمن كلمة « قوم أو أقوام »؛ لتدل على أناس أو أشخاص من غير ذكر أسمائهم سترًا لهم، مثل: « **ما بال أقوام يرفعون بأبصارهم إلى السماء في الصلاة** »، فاشتد قوله في ذلك حتى قال: « **لَيَنْتَهُنَّ عن ذلك أو لتُخْطَفَنَّ أبصارُهم** »[٢].

وللحديث روايات متعددة ربما دلَّت على تكرار الحادثة، ويغلب أن يكون الفاعلون

---

(١) أخرجه مسلم (باب فضل السجود): ٢/ ٥٢.

(٢) مسلم في الصلاة (النهي عن رفع البصر...): ٢/ ٩، وأبو داود في الصلاة (النظر في الصلاة): ١/ ٢٤٠، وله شاهد عند مسلم عن أبي هريرة وعند البخاري عن أنس.

بين المستمعين، وأن تقع عيونه على عيونهم في أثناء الخطاب، ولكن يدفع عنهم الخجل، فالتهذيب يتطلب السكوت عن أسمائهم تأليفًا لقلوبهم، إذ المهم توصيل هذا التحذير، وليس لتعيين الأفراد أهمية.

كما سكت في حديث آخر عن أولئك الذين تشبهوا بالرهبان، كما في حديث عائشة - رضي اللَّه عنها - أنه صنع شيئًا، تَرَخَّصَ فيه، فتنزّه قوم عنه، فبلغ ذلك رسولَ اللَّه ﷺ، فخطب، فحمد اللَّه، وأثنى عليه، ثم قال: « **ما بالُ أقوامٍ يتنزهون عن الشيء أصنعه؛ فواللَّه إني لأعلمهم باللَّه وأشدّهم له خشية** »[1].

وقد نمّ هذا المنهج على حلمه العظيم وسماحة خلقه، إذ بهذا التساؤل والاستغراب يفرغ الغضب الشديد.

ومن هذا المنهج سكوته عن أسماء المنافقين؛ لكيلا يقول الكفار: محمد يقتل أصحابه، فيخسر دعوته في استجلاب القلوب.

القَسَم:

قد يستعمل النبيُّ ﷺ القَسَم؛ لتأكيد القول، وترسيخه في النفس، والأحاديثُ في ذلك كثيرة، ومن ذلك هذا الحديث الذي يعالج فيه صنيع المنافقين الذين لا يحضرون مجالس المسلمين، ولا يشهدون معهم صلاة الجماعة، كما أخرجه الشيخان[2] عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال:

« **والذي نفسي بيده لقد هممتُ أنْ آمرَ بحطبٍ فَيُحْتَطب، ثم آمرَ بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمرَ رجلًا فيؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرّق عليهم بيوتهم.**

والذي نفسي بيده لو يعلمُ أحدُهُم أنه يجدُ عَرْقًا سَمينًا أَوْ مَرماتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ العِشاء ».

فاستعمل صيغة القسم لتأكيد التهديد؛ حتى يرغمهم على التخلي عن هذه الظاهرة الخبيثة، التي تجعلهم محسوبين على الإسلام، وما هم من مجتمع الإسلام في شيء.

ونلحظ هنا أن القَسَمَ لا يأتي في الحديث كله إلا قَسَمًا باللَّه تعالى، وذلك امتثالًا لحكم الشرع الذي يحرّم على الناس القسمَ بغير اللَّه تعالى.

---

(١) متفق عليه، في الأدب للبخاري والفضائل لمسلم.

(٢) البخاري في الأذان (وجوب الجماعة): ١/ ١٢٧، ومسلم في المساجد (فضل صلاة الجماعة): ٢/ ٤٤٩.

لكنْ نلحظُ في صيغة القسم في الأحاديث كثرةَ استعمال هذا اللفظ: « والذي نفسي بيده » أو « والذي نفس محمد بيده » كما وقع في قصة أسامة بن زيد لما شفع في المخزومية التي سرقت، فرفض ﷺ شفاعته، وأطلقها كلمة مدوّية في العالم تقرر المساواة بين الجميع أمام القانون، بتأكيد غايةٍ، في الرهبة والقوة: « **والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لَقَطَعْتُ يدها** »[1].

وقد دوّى صدى هذا القسم في العالم فقررت الدنيا كلها مساواة الجميع أمام القانون.

كما يستعمل الاسم المتعارف « اللَّه » كما في هذا الحديث: « **واللَّه ما الدنيا في الآخرة إلا مثلُ ما يجعلُ أحدُكم أصبعَهُ هذه في اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِع** » أخرجه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه[2].

فالحديث يقصد إلى إزاحة غشاوة الغفلة عن الآخرة لما اعتاده الإِنسان من نعيم الدنيا، فبيَّن غاية ضآلتها إلى جانب نعيم الآخرة، وأكد هذا البيان بالقسم؛ لتزدادَ الفكرة رسوخًا وعمقًا، ويتمَّ إقبالُ السامع على المطلوب منه، ثم استعمل الحديث أسلوب الإيضاح وهو الإِشارة بالأصبع وهي السبّابة كما صرَّح في صحيح مسلم، ومراده بذلك أن نعيم الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة في المقدار كذلك، أو ما الدنيا في قِصَرِ مُدَّتِها وفناء لذاتها بالنسبة للآخرة في دوام نعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى سائر البحر. ثم عبر بقوله: « **فلينظر بم يرجع** » ووضعه موضع قوله: « **فلا يرجع بشيء** » لقصد التصوير الذي يجعل السامع مستحضرًا لتلك الحالة بأن يستحضر صورتها شاهدة لديه.

وثمة عبارات أخرى للقسم، مثل: « لا ومقلب القلوب »، « ورب الكعبة »، وكان الصحابة يدركون الفرق بين أحجام هذه الصِّيغ في درجة القوة. وهذا أبو سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: « كان رسول اللَّه ﷺ إذا اجتهد في اليمين قال: « **لا والذي نفس أبي القاسم بيده** »[3]. فكانت ألفاظه متفاوتة القوة، بحسب تفاوت المثيرات والدوافع الواقعية والموضوعية، لكل شيء حجمه الذي يتلاءم معه.

---

(١) متفق عليه البخاري في الحدود (كراهية الشفاعة في الحد إذا رُفع..): ٨/ ١٦٠، ومسلم في الحدود أيضًا، رقم ١٦٨٨.

(٢) المسند: ٤/ ٢٣٠، ومسلم بلفظه في صفة الجنة (فناء الدنيا..) ص٢١٩٣، والترمذي في الزهد، رقم ٢٣٢٢، وابن ماجه في الزهد أيضًا، رقم ٤١٠٨.

(٣) رواه أبو داود، رقم ٣٢٦٤، وأحمد في المسند: ٣/ ٤٨.

وقد يستعمل الرسول الكلمة القاسية اللاذعة، تحمل الإنكار الشديد، والتوبيخ الرادع، فقد جاءه أحد ولاته، وفي يده ما زعم أنه هدية أهديت إليه، ورأى أنها من حقه، فبيّن له النبي حكم اللّه في هذه ومثلها، في أسلوب فيه الوخزة الناقدة، والإشارة الموجعة:

روى البخاري بسنده[1] قال: استعمل رسولُ اللّه ﷺ رجلًا على صدقات بني سُلَيم يدعى ابن اللتبية – وهي أُمُّه، بضم اللام وسكون التاء أو فتحها، واسمه عبد اللّه – فلما جاء حسابه، قال: هذا مالكم وهذا هدية، فقال رسول اللّه ﷺ: « **فهلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقًا** » ثم خطبنا فحمد اللّه وأثنى عليه، ثم قال: « **أما بعد فإني أَسْتَعْمِلُ الرجلَ منكم على العمل مما ولّاني اللّه، فيأتي، فيقول: هذا مالكم، وهذا هدية أهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته، واللّه لا يأخذُ أحد منكم شيئًا بغير حقه إلا لقي اللّهَ يحملهُ يوم القيامة، فلا أعرِفَن أحدًا منكم لقي اللّه يحمل بعيرًا له رُغاء، أو بقرة لها خُوار أو شاة تيعر، ثم رفع يديه حتى رُؤي بياض إبطه، يقول: اللّهم، هل بلغت، بصرعيني، وسمع أذني** ».

هكذا التكيف مع موقف رفض الرشوة، هي وخزة فردية تبعها تعميم من غير إعادة الاسم، فلكل حادثة مستوًى من الكلام، ويُلحظ التعنيف بالتساؤل عن إمكان القعود في البيت لتمطر عليه الهدايا، وتعبير « **إن كنت صادقًا** »، تعريض موجع بهذا الشخص يُشعل الأسف في دخيلته مما يجعله يبيع مباهج الدنيا للخلاص من وخزة هذه العبارة.

وتعبيره « **في بيت أبيه** » استفزاز للطاقة الوجدانية، فالاتكالي قعيد البيت حمل ثقيل على أبيه، والعمل شرف وموازاة لحركة الكون الدائبة، وتعبير « **أمّه** » مهانة بالمرتشي، إذْ يعتمد على عمل والدته أو عطاياها، وكأنه عاجز أو عجوز، ثم إنه يُنَفِّرُ القلبَ من الميل إلى الرشوة؛ لأنه يسلبه الرجولة، ويجعله في مصافِّ قواعد البيت من العجائز ومستواهن الفكري وعملهن السطحي.

كان القسم الأول من الحديث تعزيرًا فرديًّا بين النبيِّ الأكرم والعامل، ثم كان القسم الثاني تعزيرًا غيابيًّا، ولهذا جاء التعميم مساعدًا على بسط عقوبة المرتشي، إذ فقد الرجولة بالإيماء لدى القسم الأول، ثم فقد في القسم الثاني خصوصيته البشرية؛ لأن الحيوان

(١) إرشاد الساري شرح صحيح البخاري: ١٠/ ٢٩٤، ٢٩٥، والحديث متفق عليه وهذا اللفظ للبخاري في آخر كتاب ترك الحِيَل.

وسائر المخلوقات مُسخَّرٌ للسيادة البشرية، ثم هبطت المستويات، وصار الحيوان هو الذي يركب الإنسان بل استحضرت الصفة الحيوانية المؤكدة لطبعه: رغاء، خوار، يُعار، فهذه تجهز كل طاقتها الحيوانية، لنلمح في المشهد الأخروي صورةً صوتيةً مخيفةً، تضاف إلى عذاب الضغط إلى الأسفل المسبب للانحناء، فهذه تعلق بالعنق، فبدلًا من الخلاص من الطبائع الحيوانية لدى لقاء الخالق، يذهب إليه بطَوْق من الحيوانات، وكأنها تشير إلى أن رقبته كبرت ثم كبرت من أكل المال الحرام.

٦ الاستعانة بالحركة ووسائل الإيضاح:

وذلك ما يسمى عند العصريين: (**الوسائل الإيمائية**).

وهي حركة بدنية تلائم المعاني الملقاة، وتساعد على زيادة القوة في تأثير الأسلوب.

وقد يترافق قولهُ ﷺ للحديث مع حَركاتٍ منه، تلائم المراد غاية الملاءمة، وتنسجمُ مع الموقف، معبرةً عن المعنى، مستحضرة الصورة أمام العين؛ لتزيد أسلوبه تأثيرًا وعمقًا.

وفي حديث أم معبد: أنه ﷺ: « ... إذا صَمَتَ فعليهِ الوَقَار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، حلو المنطق، كلامه فَصْلٌ لا نَزْرَ ولا هَذْر، كأنّ مَنْطِقَه خَرَزاتِ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ »(١).

وكان هند بن أبي هالة وصَّافًا للرسول مُجيدًا، وقد وصفه وصفًا جامعًا، يؤكد فيه أن وسائل الإيضاح الإيمائية كانت تجسم المعنى إشارة باليد وغيرها إذ يقول: « كان رسول اللَّه ﷺ متواصلَ الأحزان، دائمَ الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام، ويختتمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم، فَصْلًا، لا فُضولَ فيه ولا تقصير » ثم قال: « يشير بكفّه كلها، وإذا تعجَّب قَلَبها، وإذا حدَّث اتصل بها، فضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى »(٢).

---

(١) أخرجه الحاكم وصحَّحه وصاحب الغيلانيات وابن عبد البر وابن شاهين والطبراني وغيرهم، كما في شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني. انظر كتاب سيدنا محمد رسول اللّـه ﷺ لأستاذنا الشيخ عبد اللّـه سراج الدين: ١٨.

(٢) الترمذي في الشمائل، والحديث مشهور جدًّا.

فاليد تمتلك الفكرة وتساندها في الإبراز، وتجعلها مُشاهَدَةً، وكأنَّ الفكرة أصبحت يدًا، وهكذا ترى أن التعجب استقدم تجسيمًا بتقلب اليد لأمر غير معهود، كأنه قلب المفاهيم والموازين، فقُلبت اليد، ويختم المشهد بضرب الراحة اليمنى لباطن إبهام اليسرى.

وقد تنبه لها المنظرون العصريون في الفن اليوم فقالوا: « الفِكْرُ يدرب اليد، كما أن اليد تدرب الفكر، وتفكير الفنان موجود عند أطراف أصابعه، بل في أصابعه، وبهذا تصبح للأيدي قدرة شاعرية وفصاحة »[1].

وهذا كثير في الحديث النبوي مثل قوله ﷺ: « **مَن عَالَ جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو، وضمَّ أصابعه** » [أخرجه مسلم والترمذي]. وعند الترمذي: « **أنا وهو كهاتين** » **وأشار بأُصْبعَيْهِ**[2].

وجاءت الأقوال مع الأفعال إذْ لا يُكتفى بحركةٍ ذاتيةٍ لليد، بل تتحرك اليد، وتحرك الأشياء والوجوه والكائنات والقلوب عندما تبسط المعنى، فيُمسك بمنكب الصحابي، ويُمسك بلسانه – عليه الصلاة والسلام –، أو يضع يده في جيبه، أو يشير بها إلى كائن ما، أو يمسكُ حيوانًا، أو يضرب شجرة، وهذا كله يدعم الفن التشبيهي لِيَغْدُوَ الكلام محاكاة واضحة ذات قيمة تأثيرية.

وذلك مثل حديث أنس أن رسول اللّٰه ﷺ مرّ على شجرة يابسة، فضربها بعصاه، فتناثر الورق، فقال: « **إن الحمد للّٰه وسبحان اللّٰه ولا إله إلا اللّٰه، واللّٰه أكبر، تُساقط ذنوب العبد كما يتساقط ورق هذه الشجرة** »[3].

فالشجرة جعلت الصورة الفنية عملية مرئية، وقد استحضرت الطرف الأعلى في التشبيه، وقدَّمته على المشبه، فأفادت وضوحًا بعد وضوح وتأثيرًا بعد تأثير.

ومعلوم أنه ﷺ كان هادئ الطبع يجلس متمكِّنًا، وهذا يؤكد أن الكلام يخرج بروية من غير تمحل، إلا أن الجلسة الهادئة تتغير عند تأكيد معنًى جليل وقضية تستثير الغضب

---

(١) انظر كتاب بحث في علم الجمال لجان برتيليمي: ص ١٩٧، ١٩٨.

(٢) كلاهما في البر والصلة: مسلم (فضل الإحسان إلى البنات) رقم ٢٦٣١، والترمذي (النفقة على البنات) رقم ١٩١٧.

(٣) الترمذي في الدعوات، وقال: هذا حديث غريب وأشار لضعفه (باب رقم ١٠١) رقم ٣٥٢٧، لكن له شواهد.

والحمية على الدين، فبعد أن كان مضطجعًا اعتدل كما سبق الحديث؛ لِيُحَذِّرَ من شهادة الزور التي ظل يرددها حتى قالوا: « ليته سكت » ففي هذا المقام حركة، وفي غيره هدوء وهذا طبيعي؛ لأنه ﷺ هو الصادق المصدوق، فكان ينسجم جدًّا مع فحوى ما يقول، وخصوصًا في مواقف الوعظ؛ حرصًا على أمته.

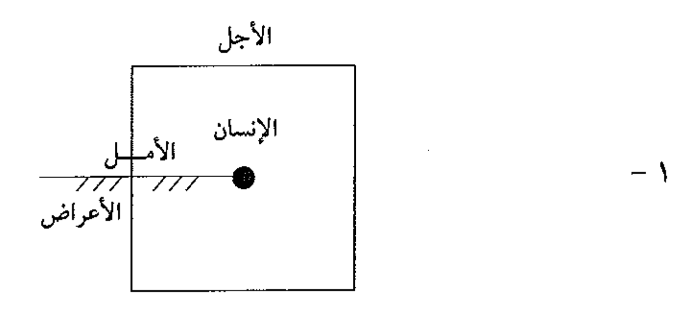
وقد استعان - عليه الصلاة والسلام - بالرسم على الرمال؛ ليوضح للصحابة مفهوم الأمل والأجل، كما استعان بوسائل الإيضاح ومن أمثلة ذلك:

١ - حديث البخاري والترمذي[1] عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ خطّ خطًّا مربعًا، وخطّ خطًّا في الوسط خارجًا منه، وخطّ خططًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، فقال: « **هذا الإنسان وهذا أجله محيطًا به - أو قد أحاط به - وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخُطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا** ».

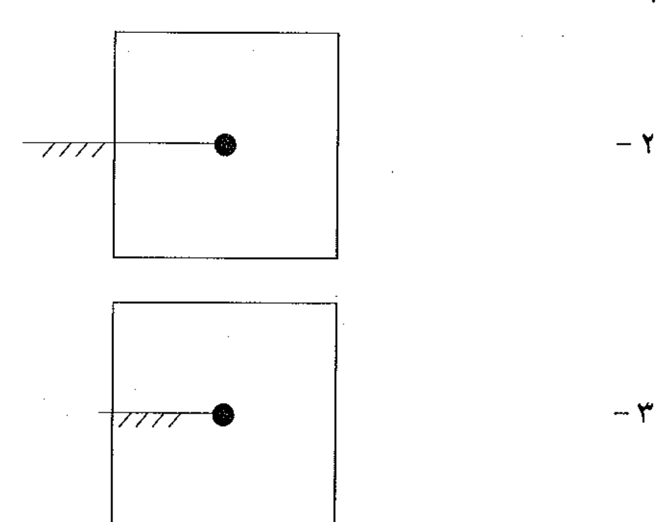
وهكذا كان الرسم تجليًا حسيًّا ووسيلة تربوية تعبر عن أن الذهن النبوي الشريف قد انتهى من تأليف هذه الخطوط، فهي منقوشة في الذهن، وها هنا دلَّ هذا الإخراج الحسي - على أعلى درجات التملُّكِ للفكرة وجزئياتها - على جلالة هذه الفكرة المصيرية، وفي هذا الرسم قدمت الحركة اليدوية تجسيم المجرد أي إخراجه من الذهنيات إلى العالم الحسي، وقدمت هذا الحسي قريبًا من الأبصار، بكل ما يمتاز به من حركة.

وهذا التصوير يمكن أن يرسم بعدة أشكال، **نختار منها ما يأتي:**

١ -



(١) البخاري في الرقاق (الأمل وطوله): ٨/ ٨٩، والترمذي في الزهد، رقم ٢٤٥٤ (باب ٢٢)، ٤/ ٦٣٥، ٦٣٦.



وبالتأمل في هذه الصور وتطبيق النص عليها نجد الرسم الأول هو المعتمد، والأكثر مطابقة للوصف الذي ذكره لنا الصحابي في رواية الحديث.

وهذا الحديث يقصد إلى أمر غامض مبهم في الشعور يتحكم في تصرف الإنسان وسلوكه وربما تجاوز الحد بسببه إلى الانحراف أو السقوط، وذلك هو الأمل العريض الذي يراود النفس الإنسانية، فصورت لنا الصورة الإيضاحية خطورة مجاوزة الحد في الانجراف مع الآمال وسراب الأوهام، فلا نؤخر عمل اليوم إلى الغد، ولا تقعد بنا الأماني إلى الظن بأن نحصل على شيء دنيوي أو ديني بلا عمل ولا وسائل، فيكون ذلك سبب الضياع والخسران.

٢ - عن سهل بن سعد قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « **أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرّج بينهما** »(١).

٣ - عن أبي موسى الأشعري أن رسول اللّٰه ﷺ قال: « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، ثم شبَّك بين أصابعه** »(٢).

٤ - عن بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِيِّ قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « **هل تدرون ما مَثَلُ هذه وهذه** »؟ ورمى بحصاتين. قالوا: اللّٰه ورسوله أعلم. قال: « **هذا الأمل، وهذا الأجل** »(٣).

---

(١) البخاري في الأدب (باب فضل من يعول.. يتيمًا): ٨/ ٩.
(٢) البخاري في الأدب (تعاون المؤمنين): ٨/ ١٢، ومسلم في البر والصِّلة (تراحم المؤمنين) رقم ٢٥٨٥.
(٣) الترمذي في الأمثال (ما جاء مثل ابن آدم..) رقم ٢٨٧٤.

٥ - وعن بُرَيْدَةَ أيضًا أن رجلًا سأل رسول اللّه ﷺ عن وقت الصلاة؟ فقال له: « **صلِّ معنا هذين اليومين** »، فلما زالت الشمس أمر بلالًا فأذن، ثم أمره فأقام الظهر.. (إلى آخر الحديث. وحاصله أنه صلى في اليوم الأول في أول الوقت وفي اليوم الثاني في آخر الوقت الذي ليس فيه كراهة) ثم قال: « **أين السائل عن وقت الصلاة** »؟ فقال الرجل: أنا يا رسول اللّه، فقال: « **وقت صلاتكم بين ما رأيتم** »[1].

٧ التشويق والإثارة:

التشويق وإثارة انتباه المتلقي واهتمامه بما يُلْقَى إليه جمال فني عظيم الأهمية، يتوقف على حسن استعماله كمال نجاح الأدب، ويفتقر إليه الداعية أي افتقار.

وفي الحديث النبوي الشريف نجد قمة عالية من فنون التشويق والإثارة، تجلو عظمة النبي ﷺ، التي لا تقتصر على توصيل الفكر الواضح الجلي الصحيح، بل تسمو إلى علياء الإثارة، إثارة المتلقي وتعاطفه مع النص، واصطباغه به، امتثالًا لأمره، واجتنابًا لزجره، أي إنها تتجلى في تبنّي المُتلقِّي: السامع والقارئ لمضمون النص وغرضه، حتى يبدو مبدعًا آخر للنص.

وقد كثرت فنون التشويق وأساليبه في البيان النبوي كثرةً تَعِزُّ على الإحصاء في المطولات، فإن له ﷺ في كل موقف فنًّا وأسلوبًا، كما أن له في كل مقام مقالًا، **فنكتفي بهذه النماذج نوضحها في هذه العُجالة الموجزة:**

١ - التساؤل:

كثيرة هي الأحاديث التي يستهلها النبي ﷺ بالتساؤل، يوقظ به الأذهان، لما يريد توصيله إليها، ومن ذلك قوله ﷺ: « **أتدرونَ ما المُفْلِس** »؟ قالوا: المفلسُ فينا مَنْ لا دِرْهَمَ لَه ولا متاع، فقال: « **إن المفلسَ من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفك دمَ هذا، وضربَ هذا. فيعطى هذا مِن حَسَناتِه، وهذا من حسناته، فإنْ فَنِيتْ حسناتُه قبل أن يُقْضَى ما عليه أُخِذَ من خطايَاهُم فطُرِحَتْ عليه، ثم طُرِحَ في النار** » [رواه مسلم والترمذي][2].

(١) أخرجه مسلم: ٢/ ١٠٦، والترمذي: ١/ ١٨٦، وابن ماجه: ١/ ٢١٩.

(٢) مسلم في البر والصلة (تحريم الظلم): ٨/ ١٨، ١٩، والترمذي في صفة القيامة (من شأن الحساب: ٢٠، رقم ٢٤٢٠).

وعن عبد اللَّه بن عمر - رضي اللَّه عنهما - قال رسول اللَّه ﷺ: « **إن مِنَ الشجرِ شجرةً لا يسقطُ ورقُها، وإنها مَثَلُ المسلم، فحدِّثوني ما هي؟** ». فوقعَ الناس في شجَرِ البوادي. قال عبد اللَّه: « ووقع في نفسي أنها النخلة. فاسْتحييتُ ». ثم قالوا: حَدِّثنا ما هي يا رسول اللَّه؟ قال: « **هي النخلة** » [متفق عليه][1].

والصحابة على علم عام بمعنى الصُّرَعة: البطل الصنديد الذي يصرع الأبطال، كما تدل صيغة المبالغة على وزن (فُعَلة)، لذلك يُفاجَؤون لدى سؤاله عن معناها وهم قوم حرب، كما روى ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ: « **ما تَعُدّون الصُّرَعَة فيكم** »؟ قالوا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: « **لا، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب** » [أخرجه مسلم][2].

انظر كيف أبدل التساؤلُ قضيةَ التشبيه وأضمرها، فالذي يتسم بالحلم صُرَعة، يشبه المقاتل بالانتصار على النفس، وكأنما نفى الحديث المعنى الحسي لينتقل إلى معنى وجداني وصراع داخلي في دخيلة الإنسان.

٢ - المنهج الحواري:

من المعهود أن كل كلام حوارٌ، كما تدل النظرية النقدية؛ والحوار هو النهج العام للحديث النبوي؛ لأنه يحاور الصحابة، ويشهد تفاعلهم مع بيّنات الدين الإسلامي القويم، فهو أحق كلام بشري بصفة الحوار، فضلًا عما يثيره الحديث أحيانًا كثيرة من الحوار المتجاذب.

وهذا النهج يقلب الحديث حوارًا بين شخصين أو أكثر حيث يغدو الحوار فكرًا يتطور مع أحداث الحوار، ويَعْرِضُ منها المعنى المراد بوساطة أشخاص الحوار، وهذا أقرب وأقوى لإقناع المتلقي من غير معاندة.

والأمثلة على هذا كثيرة مثل حديث: **مَنْ أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: « أمك »، قال: ثم من؟ قال: « أمك »، قال: ثم مَن؟ قال: « أمك »، قال: ثم من؟ قال: « ثم أبوك »** [متفق عليه][3].

---

(١) البخاري في أوائل كتاب العلم: ١/ ١٨، ومسلم في صفة القيامة: ٨/ ١٣٧.

(٢) مسلم في البر والصلة (فضل مَن يملك نفسه عند الغضب) رقم ٢٦٠٨، وأبو داود في الأدب (مَن كظم غيظًا) رقم ٤٧٧٩.

(٣) البخاري أول الأدب: ٨/ ٢، ومسلم أول البر والصلة: ٨/ ٢.

ومثل حواره ﷺ المشهور مع صاحبه معاذ بن جبل ﷺ؛ قال معاذ: قلت: يا رسول اللَّه، أخبِرْني بعملٍ يُدْخِلُنِي الجنةَ ويُباعِدُنِي من النار. قال: « **لقدْ سألْتَني عن عظيم، وإنه لَيَسِيرٌ على مَن يسَّرهُ اللَّهُ عليه، تعبُدُ اللَّهَ ولا تُشْرِكُ به شيئًا، وَتُقيمُ الصلاةِ، وتُؤْتِي الزكاةَ، وتصومُ رمضانَ، وتَحُجُّ البَيْتَ** ».

ثم قال: « **ألا أَدُلُّكَ على أبوابِ الخير؟: الصومُ جُنَّةٌ، والصدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئةَ كما يُطْفِئُ الماءُ النارَ، وصلاةُ الرجلِ مِنْ جَوْفِ الليل** »، ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ حتى بلغ: ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾.

ثم قال: « **ألاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمرِ كُلِّه، وعَمودِه وذِرْوَةِ سَنامه؟** ».

قلت: بلى يا رسولَ اللَّه.

قال: « **رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعمودُه الصلاةُ، وذِرْوَةُ سنامِه الجهاد** ».

ثم قال: « **ألاَ أُخْبِرُكَ بِمِلاَكِ ذلك كلِّه؟** ». قلت: بلى يا نَبيَّ اللَّه.

فأخَذَ بِلِسانه، وقال: « **كُفَّ عليكَ هذا!** ».

قُلْتُ: يا نَبيَّ اللَّه، وإنا لَمُؤَاخَذُونَ بما نَتَكَلَّمُ به؟!.

فقال: « **ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا مُعاذُ! وهل يَكُبُّ الناس في النارِ على وُجوهِهِمْ - أو قال على مَنَاخِرِهم - إلا حَصائِدُ أَلْسِنَتِهم؟** » [رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد][(١)].

ويتنوع الحوار في البيان النبوي كثيرًا، فهناك حوار مع فرد آخر، وحوار المرء مع نفسه (كالصحابي مع نفسه مثلًا) وحوار جماعي، وحواره ﷺ مع جمع الحاضرين...

ومن أطرف الحوار حديث أبي هريرة ﷺ المتفق عليه عن النبي ﷺ قال: « **تحاجَّتِ النار والجنة؛ فقالت النار: أوثِرْتُ بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: فمالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقَطُهم وعَجَزُهم!. فقال اللَّه للجنة: أنتِ رحمتي أرحمُ بكِ مَن أشاءُ**

---

(١) الترمذي في الإيمان (ما جاء في حرمة الصلاة): ٥/ ١١، ١٢، وابن ماجه في الفتن (كف اللسان في الفتنة): ٢/ ١٣١٤، ١٣١٥، والمسند: ٥/ ٢٣١ - ٢٣٧، قال الترمذي: « حسن صحيح ».

قوله: الصوم جُنّة، أي: وقاية. والمراد: الحضّ على الصوم الفرض والنفل. الذروة: أعلى الشيء، والسنام أعلى الجمل، وفيه بيان لأهمية الجهاد القصوى، مِلاَك: بكسر الميم وفتحها: قِوامُ الشيء ونظامه، وما يُعتمد عليه فيه. النهاية مادة (ملك): ٤/ ٣٥٨.

من عبادي. وقال للنار: أنتِ عذابي أُعَذِّب بكِ مَن أشاءُ مِن عبادي، ولكلّ واحدة منكم مِلْؤُها.. »[١].

وأروع ما ثبت في الحوار في الدنيا حواره ﷺ التاريخي الضخم في خُطَبِهِ في حَجة الوداع على جموع الحجاج البالغ عددهم عشرين ومائة ألف، قرر فيها الحرمات العُظْمَى، معتمدًا على الحوار الذي يستثير أعظم هيبة لأعظم حرمة مستقرة في نفوسهم، كما في الصحيحين[٢] عن أبي بَكْرَةَ نُفَيع بن الحارث ﷺ قال: « خطبنا النبي ﷺ يومَ النحر، قال: « أتَدْرُونَ أيُّ يومٍ هذا؟ » قلنا: اللّٰه ورسولُه أعلم. فسكَتَ حتى ظَنَنَّا أنه سيُسَمِّيه بغيرِ اسْمه. قال: « أليسَ يومَ النَّحرْ؟ ». قلنا: بلى.

قال: « أيُّ شهرٍ هذا؟ » قلنا: اللّٰهُ ورسولهُ أعلم. فسكتَ حتى ظننا أنه سَيُسَمِّيه بغيرِ اسْمه. قال: « أليس ذو الحَجّة؟ » قلنا: بلى. قال: « أي بلد هذا؟ » قلنا: اللّٰه ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: « ألَيْسَتْ بالبلدةِ الحرام؟ » قلنا: بلى، قال: « فإن دماءَكُم وأموالَكُم [وأعْراضَكم] عليكُم حرامٌ كَحُرْمَةِ يومِكم هذا، في شهرِكُم هذا، في بلدكم هذا، إلى يومِ تَلْقَوْنَ ربكم، ألا هلْ بَلَّغْتُ؟ » قالوا: نعم. قال: « اللَّهمَّ اشْهَدْ.

فَلْيُبَلِّغِ الشاهدُ الغائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعى من سامع، فلا تَرْجِعوا بعدي كفّارًا يضربُ بعضُكُم رِقابَ بعض ».

٣ - الإغراب في اللفظ:

وهو استعمال لفظ غريب أي: قليل الاستعمال، بعيد عن فهم السامع، وذلك لكي يوقظَ الذهنَ بغرابة اللفظ إلى التأمل في الغرض المطلوب، وحُسْنِ تفهمه، أو إثارة الشعور والانفعال بنغمه وموسيقاه.

ومن أمثلة ذلك البالغة غاية القوة قوله ﷺ للأنصار لما عتبوا في قسمة غنائم حنين وإعطاء قريش، فقالوا: « يغفر اللّٰه لرسول اللّٰه، يعطي قريشًا وإن سيوفَنا تقطرُ من

---

(١) البخاري في التفسير (سورة ق): ٦/ ١٣٨، ومسلم في الجنة (باب النار يدخلها الجبارون..): ٨/ ١٥١، وقوله عن الجنة: « ضعفاء الناس وسَقَطُهم وعَجَزُهم » أي: المتواضعون البعيدون عن حب الظهور، وأصحابُ القلوب السليمة والنوايا الصافية والتواضع.

(٢) البخاري في الحج (باب الخطبة بمنى): ٢/ ١٧٦، ومسلم في القسامة (باب تغليظ تحريم الدماء): ٥/ ١٠٧، ١٠٨.

دمائهم؟ ». فقال لهم ﷺ في خطبته: « **أَوَجِدْتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعة من الدنيا تَألَّفْتُ بها قومًا ليسلموا وَوَكَلْتُكمْ إلى إسلامكم؟!!** » [متفق عليه، وأخرجه ابن هشام في السيرة وأحمد][(١)].

واللُّعَاعَة: نبات ناعم في أول ما ينبت. فاستعمله ﷺ في هذا الموقف مع غرابته بحسن اختياره اللفظَ المعبر الموحي عن المشكلة، وهي الغنائم، فاختار اللفظ الذي يوحي مبناه قبل معناه بتفاهة هذا السبب، فأتى بهذا اللفظ « **لُعاعة من الدنيا** ».

وقد تقع الغرابة لاستعمال اللفظ في معنى جديد على سبيل المجاز أو الاستعارة أو الكناية مَثَلًا، مثل حديث الصُّرَعة وحديث المفلس السابقَيْن، وغير ذلك مما يأتي تفصيله في بحث ميزات وخصائص الإبداع الأدبي إن شاء اللّه تعالى.

٤ - العدول عن مقتضى الظاهر:

ويندرج هذا تحت ما يُسمى في عصرنا الحديث بـ « **الانزياح** ». وإن كان الانزياح أوسع، وفائدة أساليب العدول أنها تهز نفس المتلقي لما يفاجأ به أن الكلام انصرف عما يتوقعه أو يألفه من التعبير أو الأسلوب إلى أمر آخر، فيزداد انتباهه لهذا الجديد، فيتلقاه بتشوق ومزيد من القبول.

ويدخل تحت ذلك فنون كثيرة، مثل الإضمار في موضع الإظهار، أو العكس: الإظهار في موضع الإضمار، والالتفات، واستعمال الماضي موضع المضارع أو عكسه، وتقديم ما حقه التأخير، وغير ذلك[(٢)]، نكتفي ببعض الأمثلة لهذا الخروج من مقتضى ظاهر الكلام:

عن كعب بن عُجْرَةَ أن رسول اللّه ﷺ قال له في آخر وصيته له: « **يا كعبَ بنَ عجرةَ: إِنَّه لا يربو لَحْمٌ نَبَتَ مِن سُحْتٍ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى به** »[(٣)].

استعمل ضمير الشأن « إنه » موضع الاسم الظاهر « لحم »، لإثارة تطلع النفس،

---

(١) البخاري في المغازي (باب غزوة الطائف): ٥/ ١٥٨، ١٥٩، ومواضع أخرى ومسلم في الزكاة (المؤلفة قلوبهم): ٣/ ١٠٥ - ١٠٧، والسيرة النبوية: ٤/ ١٤٦، والمسند بلفظه، رقم ١١٣٢٢.

(٢) الانزياح أعمّ من مصطلح العدول، يكاد يشمل الانزياح كل تفنن في التعبير. وليت كُتَّابنا المجددين أعادوا لمصطلح العدول النشاط بوضعه موضع الانزياح، وتجديد المراد منه.

(٣) رواه الترمذي في الصلاة (ما ذكر في فضل الصلاة) رقم ٦١٤، وقال: حسن غريب، والدارمي في الرقائق (في أكل السحت): ٢/ ٣١٨، ورواه البيهقي.

وطلبها إزالة الإبهام، فيأتيها البيان متشوقة إليه، فيتمكن من النفس مزيد تمكن، ويؤثر فيها زيادة تأثير، وضاعف ذلك أسلوب القصر الذي أفادته (لا) النافية، والاستثناء « **إلا كانت النار..** ».

وعن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **سَلُوا اللَّهَ تعالى مِن فَضْلِهِ، فإنَّ اللَّه تعالى يُحبُّ أَنْ يُسْأَلَ، وأفضلُ العبادة انتظار الفرج** »[1].

أعاد لفظ الجلالة مرة ثانية، ولم يقل « فإنه يحب.. » وذلك لتربية المهابة في قلب المتلقي، باستحضار عظمة اللَّه - تعالى -، وأنه الغني الجواد الرحيم بعباده، فيتوجه إليه بالسؤال والدعاء بإلحاحٍ وتضرّع، كما أنه عدل عن الظاهر فلم يقل: « يحب أن تسألوه »، بل قال: « يحب أنْ يسأل »؛ ليقررها قاعدة عامة في معاملة الرَّبِّ تعالى عباده جميعًا، وذلك أقوى في الحض، ثم اشتبكت الجملة الثانية بالأولى بحرف الفاء لتقع موقع العلة من قوله: « سلوا اللَّه »، وذلك يفيد تأكيد الحث على طلب الدعاء.

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا سجد قال: « **اللَّهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت. سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره، تبارك اللَّه أحسن الخالقين** » [أخرجه مسلم][2].

شرع بالمناجاة بأسلوب الخطاب، « لكَ، بكَ، لك »، ثم التفت إلى الغائب بوساطة اسم الموصول « سجد وجهي للذي خلقه.. »، وعبّر بالوجه وهو أشرف شيء لزيادة الخضوع، ثم ذكر آياتٍ من عظمة الخالق في خلق الوجه والجوارح التي فيه، مما يقرره بدهشة علم الطب الآن، ليختم بأحسن ختام: « تبارك اللَّه أحسن الخالقين ».

وعن عائشة - رضي اللَّه عنها - قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: « **مَن عمَّر أرضًا ليست لأحد فهو أحقُّ بها** » [أخرجه البخاري][3].

عبَّر بالماضي مع أن الحكم ليس خاصًّا بمن فعل ذلك قبل صدور الحديث، بل هو مستمر إلى يوم القيامة، فجاءت صيغة الماضي مخالفة لمقتضى الظاهر أن يصاغ الكلام

---

(١) الترمذي في الدعوات (باب ١١٦ في انتظار الفرج..) رقم ٣٥٧١.

(٢) مسلم في الصلاة (الدعاء في صلاة الليل..): ٢/ ١٨٥، ١٨٦، وأبو داود (ما يستفتح به الصلاة): ١/ ٢٠١، والنسائي: ٢/ ٢٢٦.

(٣) البخاري في المزارعة (من أحيا أرضًا مواتًا): ٣/ ١٠٦.

عليه، والسر في ذلك تأكيد حصول جواب الشرط، من تحقق الملك، كما هنا، أو تأكيد حصول الثواب في مقام الترغيب أو العقاب في الترهيب، تصويرًا له بصورة الواقع. ومثل هذا وعكسه كثير في أحاديث النبي ﷺ.

* * *
* *
*

الفَصْلُ الثَّانِي
أبنية الحديث النبوي

يقصد من بناء النص العمليات اللغوية التي تربط أواصر النص، وتقدمه قطعة واحدة، فيما يُدعى بالوحدة العضوية، ويرمي إلى الآفاق الفنية التي سعى إليها النص من خلال المفردات والتراكيب والمقاطع، مما يعد ملمحًا جماليًّا واضحًا؛ لأنه ينطلق من النص نفسه، ثم يحدد إيحاءات الكلمات والجمل المُؤلِّفة للنص.

وللحديث النبوي في البناء فنون كثيرة، على مدى واسع، **نعرض لوجازات من مهماتها في هذه المناسبة:**

١ التوازن:

ومعناه اتحاد وزن المفردات، أو الجمل، أو تقاربه، مثل ما سبق في حديث « اللبنة » (ص٣٠، ٣٢) « فأحسنه وأجمله » كلاهما على وزن واحد، ولعل نظرة متعجلة قد تسم التوازن بالشكلية، وتصنّع الزخرفة الظاهرية لتناغم الكلام، ولكن الحقيقة التي تنجلي من النظرة المتعمقة، ومن خصوصية البيان النبوي تؤكد أن التوازن موصول بالمبنى والمعنى؛ لأنه يعطي نص الحديث نغمًا يجذب إليه القلب ويشعره بالارتياح، كما يساعد على رصانة الفكر ووضوح المعنى، وتقويته.

ومن شواهد ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ: « **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم خُلُقًا** »[1].

إن الحديث يشي بالهدوء من أوله، حيث يمهد للتوازن بانتفاء وسائل التأكيد، ثم تأتي كلمة أكمل على وزن أحسن، للدلالة على مطابقة الحال بين الكمال والحسن، ويعضد التوازن تزيين صوتي، وتتكرر كلمة « خُلُقًا » لتكون وسيلة تنبيه على السلوك الإيماني، إن الخبر من جنس المبتدأ في « خياركم خياركم » وهو توازن يفي بتحتيم القضية والتركيز على الخير.

وقد يتحقق التوازن بالتكرار الذي يفيد وحدة الحال في الطرفين، نقرأ مثلًا الحديث

(١) الترمذي في الرضاع: ٣/ ٤٦٦، وأبو داود في السنة: ٤/ ٢٢٠، وراجع: دراستنا في ظلال الحديث: ص٢١٤.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: « **ما نقصت صدقة من مال، وما زاد اللَّه عبدًا بعفو إلا عزًّا، ولا تواضع أحد للَّه إلا رفعه اللَّه** »[١].

نلمس في هذا الحديث حضور التضاد بين النقصان والزيادة والتواضع والرفع، وهو تضاد يذكر بميزان الحق عند المؤمن السوي، ثم ترد لفظة الجلالة « اللَّه » ثلاث مرات، ولعل هذا يذكرنا بأهمية الذكر دون الإضمار عند البلاغيين من أن الذكر يدل على تلذذ باسم الحبيب المذكور، ونرى سببًا آخر في هذا التوازن وهو استبعاد تحقق الرفع والعزة عن طريق البشر، وحصر هذه المكرمة بعطاء الخالق.

فالوزن الواحد يحقق شيئًا من التوازن الموسيقي الذي يدل على رصانة الفكر ووضوحه، فالمتكرر أوضح من المتنوع وفقًا لما يتطلب السياق، ويشير إلى تفكير منظم وعدل في الجانب النفسي.

ومن هذه الشواهد ما رواه النعمان بن بشير قال رسول اللَّه ﷺ: « **مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى** »[٢].

أول مظاهر التوازن هنا تكرار كلمة « مَثَل » بوابة التصوير، وفائدة تكرارها تحتيم المثل وشدة الترابط بين طرفي الصورة: المجتمع والجسد، أما الكلمات المتوالية: « **توادهم وتراحمهم وتعاطفهم** » فهي على وزن واحد، يشكل توازنًا، ويؤكد طلب الإسلام من المسلم الاستمرار في مظاهر الرحمة المتنوعة في شكلها المتوحدة في مراميها، كما أن حروف هذه الكلمات مختلفة في شكلها متوحدة في بنائها الصرفي.

ونذكر الحديث عن أبي هريرة قال رجل: يا رسول اللَّه أي الصدقة أفضل؟ قال: « **أن تصدق وأنت صحيح حريص، تأمل الغنى، وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان** »[٣].

يبرز التوازن في صحيح وحريص وكلاهما على وزن واحد، ودلالة هذا التزامن القوي بين الصحة والحرص مما يفيد العطاء الأسمى في الصدقة، إذًا تطلب الفاعلية

---

(١) مسلم في البر والصلة: ٨/ ٢١، والترمذي: ٤/ ٣٧٦، وراجع: ص٢٧٠.

(٢) متفق عليه، البخاري في الأدب ومسلم في البر والصلة. راجع: ص٢٩٦، ٢٩٧.

(٣) البخاري في الزكاة: ٢/ ١١٠، ومسلم: ٣/ ٩٣، والنسائي: ٥/ ٥١ وراجع: كتابنا السابق: ص١٧١، ١٧٢.

ذاتها في الصحة والحرص ولذلك.. يتوازن اللفظان، وليس الأمر مجرد زركشة شكلية، وكذلك الأمر في الجملتين المتقابلتين: « **تأمل الغنى وتخشى الفقر** »، التوازن واضح في المستوى النحوي، فالجملتان بفعل مضارع ومفعول به، وهذا يعني أنه على قدر ما يكره الفقر يحب الغنى، إن العبارة المكونة من جملتين تأتي سَلِسَةً هادئة من غير أساليب عطف؛ لوضع المتلقي في الصورة الحركية مباشرة، ولتأكيد أن المبدع واثق من نفسه ومن القضية المعالجة.

ومن شواهد إسهام الجوانب النحوية في التوازن ما جاء في الحديث المروي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: « **الكبر بَطَرُ الحق وغمط الناس** »[1]، وذلك لأن المفصلين « بطر الحق وغمط الناس » في حال الإضافة وحروفهما متساوية، فثمة وحدة فكرية تجمع بين الطرفين، فقساوة القلب خصلة واحدة في شتى مجالات الحياة تعبر عن الكبرياء.

٢ التوازي:

التوازي والتوازن من الظواهر البارزة في الحديث النبوي، كما أنهما قرينان قَلَّما ينفصلان عن بعضهما، وقلّ أن ينفك بناء النص في البيان النبوي عنهما، مع غاية السلاسة والبعد عن التكلف.

ولا عجب من هذا التلازم؛ فالتوازي في بناء النص لون فني من ألوان التوازن، ويتميز عنه بأن التوازي هو توافق الجمل في التركيب من حيث المستوى النحوي وعدد الكلمات، (أو بعبارة مبسطة: توافق الجمل في المساحة، ولا شك أن لهذا أثره في التوازن: الذي هو تناغم النص بعضه مع بعض.

والتوازي: لون فني يتولد من الفكر المنظم والواضح، ويُنْتِج تأثيرًا قويًّا في إقناع المتلقي بحسن الفكرة، من خلال حسن التقسيم للعبارات الدالة عليها.

كذلك يُومِئ التوازي إلى النظام في الإسلام ذلك النظام المعهود في العبادات جميعها، فهو إذًا يبعث على الإقناع وتبيان تمكن المبدع من قضيته، ويبعث على الإمتاع؛ لأنه يسهم في موسيقا النص، فيضع المتلقي في نطاق الحق والجمال.

---

(١) مسلم في الإيمان: ١/ ٦٥، وأبو داود في اللباس: ٤/ ٥٩، والترمذي في البر والصلة: ٤/ ٣٦١، وابن ماجه في المقدمة (٥٩).

وذلك كما في الحديث عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال رسول اللَّه ﷺ: **« أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر »**(١).

فالمقاطع المفصِّلة للتكثيف أربع جمل شرطية، جاء الشرط فيها قابلًا للتحقيق بوساطة « إذا » وذلك إيغال في التخويف من هذه الخصال، وهذا التوافق يؤكد الثقة بالنتيجة في كل حالة مذكورة، وكان الإيجاب دون النفي مما أسهم في إبراز هذا التوازي.

وروت عائشة - رضي اللَّه عنها - أن رسول اللَّه ﷺ قال: **« إن الرفق لا يكون في شيء إلا زَانَه، ولا ينزع من شيء إلا شانه »**(٢).

فالتوازي واضح بين قسمي النص والرفق هو البوابة إلى المقطعين، فنرى أن الفعلين: « **لا يكون... ولا ينزع** » في حال تضادّ في مضمونهما، وهما متوازيان في النحوية، ثم تأتي عبارة: « في شيء » ثم « من شيء » و « إلا » متكررة، وزانه وشانه متوازيان تركيبًا ونحوًا متعارضان مضمونًا، ثم إن التوازي بارز في تكرار الأسلوب الدائري حيث النفي والاستثناء « لا.. إلا » وهو يفيد التوكيد، وهكذا نجد أن التوازي ليس زينة موسيقية فحسب، بل هو في هذا النص يفيد أن فاعلية الوجود والنزع للرفق واحدة، وهذا يقوِّي عُنْصُرَي الترغيب والترهيب في المسلم.

وكما وجدنا أن النفي يؤكد الثبات في النزع والوجود كذلك نجد الكلمة تقوم بفاعلية متجلية بالتوازي في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: **« إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان اللَّه لا يُلقي لها بالًا يرفعه اللَّه بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سَخَط اللَّه لا يُلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم »**(٣).

فالكلمات المتضادة بين المقطعين هي: رضوان - سخط - يرفعه - يهوي - درجات - جهنم، وذكر الفاعل في المقطع الأول؛ لأن الخير من اللَّه والشر من الإنسان،

---

(١) البخاري في الإيمان: ١/ ١٢، ومسلم: ١/ ٥٦، والترمذي: ٥/ ١٩، والنسائي: ٨/ ١١٦، وراجع: دراستنا في ظلال الحديث: ص٢٢٧، ٢٢٨.

(٢) مسلم في البر والصلة: ٨/ ٢٢، وأبو داود في الأدب: ٤/ ٢٥٥.

(٣) البخاري في الرقاق: ٨/ ١٠١، ومسلم في الزهد: ٨/ ٢٢٣، ٢٢٤، والترمذي في الزهد: ٤/ ٥٥٧، وراجع: في ظلال الحديث: ص٢٨١، ٢٨٢.

وسائر الكلمات متكررة في تركيبٍ قدَّم لنا توازيًا بين حالتي الخير والشر؛ ليكون الترغيب بحجم الترهيب.

ومثله في التوازي حديث شدَّاد بن أوس قال رسول اللَّه ﷺ: « **إن اللَّه كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحدَّ أَحَدُكم شَفْرَته وليُرِحْ ذبيحته** »[1].

يبدأ النص بالتوكيد استبعادًا لاحتمال أن اللَّه لا يراعي هذه الأمور الدقيقة، وهو كلام عام، ثم يبدأ التفصيل في ثلاثة مقاطع، جاء اثنان متوازيان بصيغة الشرط وتكرار صيغة فعلتم: « قتلتم و... ذبحتم »، وتكرار فعل « أحسنوا »، والمقطع الثالث متوازٍ بين مفصليه؛ فهما بصيغة الأمر والمفعولية « يُحِد شفرَته - يُرِح ذبيحته »، هذه الفنون المنظمة تعبر عن الحضِّ على النظام في الشعائر والعبادات، كما تعبر عن وضوح الفكرة في ذهن المبدع عليه أفضل الصلاة والسلام، وحرصه على التوصيل والإفهام، وتفاعل المتلقي مع النص.

٣ الافتتاح والتنوُّع:

هذه ظاهرة فنية أثرها الموسيقي واضح؛ لأن تكرار الكلمات الافتتاحية يسهم في بناء إيقاع النص، ووراء كل افتتاحية منظومة لغوية مختلفة.

ويبدو أن التكرار بالافتتاحية لون من التوكيد والسيطرة على مجامع القلب ومواطن اليقظة، إذًا فالافتتاحية والتنوع تقسيم فكري في بناء النص يبيّن مدى عناية المبدع بالمتلقي وتفهمه وتفاعله، ويثير تشوق المتلقي وتفاعله مع النص.

ونضرب مثالًا بحديث أبي ذرٍّ ﷺ عن النبي ﷺ فيما روى عن ربه: « **يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا. يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم.**

يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم..... » إلى نهاية الحديث[2].

---

(١) مسلم في الصيد: ٦/ ٧٢، وأبو داود في الأضاحي: ٣/ ١٠٠، والترمذي في الديات: ٤/ ٢٣، والنسائي، رقم ٤٤٠٥، وابن ماجه، رقم ٣١٧٠، وراجع: في ظلال الحديث: ص٢٥٧، ٢٥٨.

(٢) مسلم في البر والصلة: ٨/ ١٧، والترمذي في صفة القيامة، رقم ٢٤٩٥، وراجع: في ظلال الحديث: ص٧٦ - ٧٨.

وترد كلمة يا عبادي عشر مرات، فثمة عشر افتتاحيات تأتي بعد كل منها تنويعات، مما يجعل إثارة العاطفة بهذا النداء « يا عبادي » مختلفًا من مكان لآخر، تبعًا لسياق التنويع، وليس أفصح عن الرحمة من هذا النداء المتكرر الذي يبيّن افتقار عباد اللّه إلى اللّه.

ومن هذا الحديث عن عدي بن حاتم: « **يا عديّ هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها، قال: فإن طالت حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا اللّه، قلت - فيما بيني وبين نفسي -: أين دعار طيء الذين قد سعروا البلاد، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه [من ذهب أو فضة] يطلب من يقبله فلا يجد أحدًا يقبله منه...** »[(١)].

فعبارة « إن طالت بك حياة » كانت تثير التشويق عند الصحابي الكريم فيتلهف إلى معرفة جديدة، وهي تشد انتباهه إلى جلالة القضية؛ لأنه فهم من المرة الأولى أنه سيلتقي بأخبار غريبة، وقد صدقت النبوءة:

٤ البناء التوالدي:

إنه شَكْلٌ يجلِّي تدفق الفكرة وتماسك العبارات المُجسِّدة لها؛ فكل مقطع يرتبط بالمقطع التالي بالتسلسل أو ما نسميه بالتوالد، أي كل مقطع يَلِدُ مقطعًا آخر. وقد يكون التوالد عن طريق التساؤل الذي يصعد الحوار والحدث، كما في حديث أبي موسى الأشعري قال رسول اللّه ﷺ: « **على كل مسلم صدقة** » قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال: « **يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق** » قيل: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: « **يعين ذا الحاجة الملهوف** » قيل له: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: « **يأمر بالمعروف أو الخير** » قيل: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: « **يُمسك عن الشر فإنها صدقة** »[(٢)].

وهكذا وجدنا التوالد والتصعيد من دفع الصدقة إلى العمل إلى إعانة الملهوف إلى الأمر بالمعروف إلى الإمساك عن الشر، مما جعلنا أمام نص متماسك الجزئيات.

٥ البناء التعارضي:

وهو بناء قائم على علاقة التَّضادِّ بين المفردات. وتتسع دائرة هذا التضاد حتى تقسم

---

(١) البخاري في الزكاة: ٢/ ١٠٩ وراجع: في ظلال الحديث: ص٩٥ - ٩٧.

(٢) البخاري في الزكاة: ٢/ ١١٥، ومسلم بلفظه: ٣/ ٨٣ وراجع: في ظلال الحديث: ص١٧٧ - ١٧٩.

النص إلى عالمين وتجعل الشخصيات مصيرين متعارضين، وتقدم تبعًا لهذا حركات متضادة بين السرعة والبطء، وألوانًا متضادة بين الأسود والأبيض والكريه والمريح، ومسافات متضادة بين الطول والقِصَر، وهناك العمق والسطح، وما هذه الظاهرة إلا تجلٍّ صريحٍ صادقٍ لثنائية الخير والشر التي جاء بها الدين الإسلامي الذي ذكر الجنة والنار، والملائكة والشياطين والأبرار والفجار وغير هذا.

نقرأ مثلًا النص الشريف مما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ: « **بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا** »[1].

فالتعارض واضح بين المؤمن والكافر وبين الإصباح والإمساء، وثمة تعارضات خفية مومأ إليها، بين الأعمال الخيرة والفتن، وبين البيع والعرض الذي يمثّل الشراء، بل إن المبادرة حركة مضادة لسكون الموت المتوقع بعد الفتن، وهي حركة مضادة لقوة الفتن، والطرف الأخير من التضاد يشير بالنبوءة إلى عصرنا الذي ألّه فيه الجهلة والماكرون المال، حتى باعوا دينهم بثمن بخس، ولعل المال هو القوة الشيطانية الكبرى في عصرنا.

ومن النص السابق وغيره يتجلّى أن التضادّ ظاهرة فنية مبنية على فكر ديني وأنها شاملة لمستوى الفكر العقائدي وقضايا الإيمان وشاملة للعبادات والأخلاق والسلوك الشخصي، مثل الحديث الذي رواه أبو مالك الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ: « **الطهور شطرُ الإيمان، والحمد للّه تملأ الميزان، وسبحان اللّه والحمد للّه تملآن - أو تملأ - ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها** »[2].

نجد الميزان الذي توحي كفتاه بالتضاد بين الثواب والعقاب: الحسنات والسيئات، أما تضاد السموات والأرض فهو يؤكد الإحاطة بالموجودات لإطلاق الخيال ليحيط بالثواب العميم والأجر الوفير، ثم يأتي القرآن الكريم الذي يكون حجة للمؤمن وحجة على الكافر، هكذا بوجازة من خلال أحرف الجر اللام وعلى، ثم تكون الانطلاقة

(١) مسلم في الإيمان: ١/ ٧٦، والترمذي في الفتن: ٤/ ٤٨٧، وراجع: دراستنا في ظلال الحديث: ص١٠٤، ١٠٥.
(٢) أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه. راجع: في ظلال الحديث: ص١٤٣ - ١٤٥.

بالغُدُوِّ الذي يمثّل الحركة في الحياة وامتحانها، فيبرز التضاد بين أعتق وأوبق، والطرف الأول يذكرنا بحرية العبد والطرف الثاني يذكرنا بالعبودية وذلّها، فنخلص إلى أن الإسلام خلاص من عبادة البشر ومن عبادة النفس وأهوائها، فالإسلام حرية ورقي وتحضُّر.

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر** »[1] فقد تم التقابل بين الهرم والشباب؛ زيادة في الترهيب من الفناء بعد الحرص، وهو تقابل مستفاد من حياة الإنسان بدايتها ونهايتها.

٦ البناء الدائري المغلق:

وهو لون من ترابط النص، يمسك أوله بآخره، فيختتم الحديث بما بدأ به، وكأنه دائرة انتهت بما به بدأت. وذلك يدل على تشابك النص واشتداد الأواصر بين مقاطعه، وذلك يسم النص بالتماسك و (الوحدة العضوية)، وكل نصوص الحديث مترابطة الأجزاء، وهذا لون من ترابط نصوصه وتشابكها.

والأمثلة لهذا البناء الدائري المغلق كثيرة، منها حديث: « **إنّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجلٍ بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنةٍ...** » قال: « **فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين** »[2].

فقد ارتبط الحديث ببعضه ارتباطًا وثيقًا، واشتبك آخره بأوله، فآخر كلمة فيه « النبيين » تلتقي بكلمة الافتتاح « الأنبياء »، مما يحقق غاية التشابك بين جمل الحديث ومقاطعه.

ومن أمثلة ذلك حديث: « **مثلُ ما بعثني اللَّه به من الهدى والعلم كمثل الغيثِ الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت....** » فذكر أصناف الأرض ثم قال: « **فذلك مثل من فقه في دين اللَّه ونفعه ما بعثني اللَّه به فَعَلِمَ وعَلَّم، ومثل مَنْ لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى اللَّه الذي أرسلت به** »[3].

فقد جاء الحديث على أسلوب التكثيف (الإجمال) ثم تفصيله، وشرح ما يقابل

---

(١) متفق عليه. راجع: في ظلال الحديث: ص٢٦٤.

(٢) متفق عليه. راجع: في ظلال الحديث: ص٣٢ - ٣٤.

(٣) متفق عليه. راجع: في ظلال الحديث: ص٢٥ - ٢٨.

أنواع الأرض من أنواع الناس واختتم بعبارة: « **هُدى اللَّهِ الذي أرسلت به** »، فاشتبك آخر النص بأوله « **مثل ما بعثني اللَّه به من الهدى والعلم** » بهذا الالتقاء، التقاء آخر النص بما افتتح به، على طريقة البناء الدائري المغلق.

٧ التصعيد:

التصعيد هو ربط الجزئيات والتنقل بينها على سبيل التدرج. وهو منطق وجداني يتجسَّد في النسج اللغوي الفني ويدعى بـ« ترديد الحبك » ويمثل الطاقة الدافقة خلافًا لما يرى بعض الدارسين، ويتحقق في عمليتي التصعيد إلى الأعلى أو إلى الأسفل، ومن الكبير إلى الصغير ومن القوي إلى الضعيف أو بالعكس، وفي عملية التشابك، حيث لا يشعر القارئ بسرعة التتابع والانقياد للمُسَلَّمَات.

والتصعيد يفيد قوة الهيمنة على القارئ؛ لأن التصعيد يمثل وحدة موضوعية بين جزئيات النص، ويمثل منطق النفس إلى النفس.

كحديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: « **والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم** »[(١)]. وهذا يفيد: لا تدخلون الجنة إلا بإفشاء السلام.

فقد أفاد التصعيد زيادة لهفة المتلقي ومتابعته لسرد النص، وأفاد أيضًا ترابط جزئيات العبادات في الإسلام وتكاملها، فبرز هذا الترابط في تشكيل فني متماسك يشجع على الاهتمام بشتى أنواع السلوك الإسلامي.

والمثال السابق وحدة عضوية مُتجسِّدة في التشابك، حيث يشتبك دخول الجنة بإفشاء السلام برابط الإيمان والمحبة.

ومن التشابك قوله - عليه الصلاة والسلام -: « **من أحيا سنة من سنتي قد أميتت فقد أحبَّني، ومن أحبني كان معي** »[(٢)] فإحياء السنة يشتبك بالمعية بوساطة المحبة، وهذا النهج الفكري يلبس لبوسًا موسيقيًّا إذ تتردد ألفاظ بعينها لتشكل إيقاعًا، فضلًا عن فضيلة الربط بين مستويين.

---

(١) مسلم في الإيمان (لا يدخل الجنة إلا المؤمنون): ١/ ٥٣. قوله: « ولا تؤمنوا » بحذف النون للتخفيف.

(٢) الترمذي في العلم (الأخذ بالسنة) رقم ٢٦٨٠، وقال: « حسن غريب ».

كذلك النص النبوي: « **إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خُلِقَ من النار، وإنما تُطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ** »[١].

فهذا النهج يُحيل النص إلى دوائر متصلةٍ؛ كل دائرة تؤدي إلى الأخرى باتصالهما من الأطراف، وفي هذا النص إيحاء بمساوئ الغضب الذي يُودِي بالإنسان في نار جهنم من بطش وغيره، والنار حمراء كالدماء التي تصعد إلى الوجه، ثم كانت عودة إلى العالم المحسوس حيث تُطفأُ النارُ بالماء، فههنا تداخل الصور، فالتعبير يوجد ثنائيات: الغضب - الشيطان، الشيطان - النار، الحِلْم - الماء، فالاستخلاص يكشف جماليات متعددة، والوضوء عملية رياضية تبرد العروق وتضاف إلى ما يُذْكر اليوم في علم النفس من إشغال الجسد بحركة جديدة للقضاء على الغضب وغيره من الانفعالات الشديدة.

ومن التصعيد إلى الأعلى: « **إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فَغَسَلَ وجهه خرج منه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء -، وإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء - فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مَشَتْها رجلاه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء - حتى يخرج نقيًّا من الذنوب** »[٢].

وهذا التدرج يفيد الترغيب في متابعة فرائض الوضوء وسُننه، وفي التدرج تكرُّمٌ بالغفران المتسلسل الذي يصور المسلم في حال نقاء نفساني وجسدي كُلِّيَّين.

ومن التصعيد إلى الأسفل، أو التدرج ما جاء في حديث علامات الساعة: « **لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان، فتكون السنةُ كالشهر، والشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كالضرمة من النار** »[٣].

إنه تسارع قوي يسرع فيه عنصر الزمان ويختصر الموجودات، حتى يعلو فتصير السنة كاشتعال النار، والعنصر الأخير تذكير وإيحاء بالخطايا وعقوبتها في نار جهنم مما يعني

---

(١) أبو داود في الأدب (ما يقال عند الغضب) رقم ٤٧٨٤ والمسند: ٤/ ٢٢٦. ورمز السيوطي لحسنه في الجامع الصغير رقم ٢٠٨٠.

(٢) مسلم في الطهارة: ١/ ١٤٨، ١٤٩. والموطأ: ١/ ٣٢. والترمذي في أوائل الطهارة.

(٣) الترمذي في الزهد (تقارب الزمن وقِصَرُ الأمل): ٤/ ٥٦٧، وأصله في الصحيحين.

تهويلًا من فوات الزمان، كما يلحظ في هذا النص التكرار الدال على التشابك « كالشهر ويكون الشهر كالجمعة » مما يوحي بأن الشهر يفقد ماهيته الزمنية المعهودة، وهذا يروّع القلوب، ويدعو إلى التفكر.

ومن التصعيد إلى الأسفل: « **إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول، ومثل المُهَجِّر كمثل الذي يهدي بقرة، ثم كبشًا، ثم دجاجة، ثم بيضة؛ فإذا خرج الإمام طووا صحفهم يستمعون الذكر** »[1].

وهذا ترغيب في الإسراع إلى صلاة الجمعة والتبكير في الذهاب حيث تسلسلُ المقامات من متصدق بالبقرة إلى المتصدق بالبيضة، إنه بذل جسدي يجسِّم في عبادة مالية، والأخير هنا أقل المصلين حظًّا من رضوان اللَّه.

كذلك النص: « **يرد الناسُ النار، ثم يصدرون عنها بأعمالهم، فأولهم كلمح البصر، ثم كالريح، ثم كَحُضْرِ الفرس، ثم كالراكب، ثم كَشَدِّ الرَّجُلِ، ثم كمشيه** »[2].

٨ التكثيف المتبوع بالتبسيط:

أو كما يُعَبِّرُ القُدامى: **الإجمال والتفصيل:**

وذلك أن هذا التكثيف يثير التأمل في الذهن لفهم أمر كبير واسع، أشارت إليه اللفظة أو العبارة المُكَثَّفَة، التي تحيط بالمعنى قبل الكلام الذي يبسط المعاني، فيتوجه المتلقي لفهمها على سعتها وكمالها، فيأتيه التبسيط وقد تهيأ له، فيتقبله مزيد قبول، ويرسخ فيه مزيد رسوخ؛ لذلك كثر هذا اللون في البيان النبوي، ومن أهم ذلك الأحاديث المصدرة بالعدد وهي كثيرة جدًّا، نذكر أمثلة منها:

فمن ذلك الحديث المشهور في الصحيحين[3] وغيرهما: « **آيةُ المنافِقِ ثلاث: إذا حدَّثَ كذب، وإذا وعَد أخْلَف، وإذا اؤتمن خان** ».

فتوقع النغمة الجميلة من الجملة الأولى، فالثانية؛ لوجود العدد في مُستهلِّ الحديث.

---

(١) البخاري في الجمعة (فضل الجمعة)، ومسلم: ٣/ ٧، ٨.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني والحاكم على شرط مسلم، انظر الترغيب والترهيب للمنذري: ٤/ ٤٢٩. وحضر الفرس عدوه وسرعته، وشدُّ الرجل: فوق المشي.

(٣) البخاري في الإيمان: ١/ ١٢، ومسلم: ١/ ٥٦.

فالذهن يقفز من الأول إلى الثاني إلى الثالث، ولن يزيد.

ومن أمثلة ذلك حديث جابر بن عبد اللَّه - رضي اللَّه عنهما - أن النبي ﷺ قال: « **أُعْطِيتُ خَمْسًا لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي: نُصِرتُ بالرُّعْبِ مَسِيرةَ شهرٍ. وَجُعِلَتْ لي الأرضُ مَسْجِدًا وطَهورًا، فأيُّما رَجُلٍ مِن أُمَّتِي أدرَكَتْه الصلاةُ فليصلِّ، وأُحِلَّتْ لي الغنائمُ، ولم تَحِلَّ لأحد قبلي، وأُعطيتُ الشفاعةَ، وكان النبيُّ يُبْعَثُ إلى قومه خاصَّة وبُعِثتُ إلى الناس عامة** » [متفق عليه][1].

وأخرجا[2] عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **اجتنبوا السبع الموبقات: الشركُ باللَّه، والسِّحرُ، وقتلُ النفس التي حرَّم اللَّه إلا بالحق، وأكلُ الربا، وأكلُ مالِ اليتيم، والتولِّي يوم الزحف، وقذف المُحْصَنَاتِ المؤمنات الغافلات** »[3].

وكذلك حديث أنس عن النبي ﷺ: « .. **ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان اللَّهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، ومن أحبَّ عبدًا لا يحبه إلا للَّه، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه اللَّه كما يكره أن يُلقى في النار** » [متفق عليه][4].

فلا شك أن القارئ يتأهَّبُ منتظرًا ختام المصائر الثلاثة، فهذا التوقع والانتظار من دلائل تشابك النص مما يستحوذ على ذهن المتلقي ويعمق الفكرة عنده.

ومنه حديث ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ: « **لا حسدَ إلا في اثنتين: رجل آتاه اللَّه مالًا فسلَّطه على هلَكَته في الحق، ورجل آتاه اللَّه الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها** » [متفق عليه][5].

والشواهد على هذه الظاهرة الفنية كثيرة جدًّا، وهي تُنْبِئُ عن امتلاكٍ لناصيةِ المحتوى الفكري ووضوحه، وحرص النبي الكريم ﷺ على التعليم والإقناع والتفاعل مع النص وترجمته إلى عمل خير، وليس يقتصر الأمر على مجرد التوصيل كما هي الحال عند الكثير من أرباب الفكر.

---

(١) البخاري أول باب التيمم: ١/ ٧٠، ومسلم في المساجد: ٢/ ٦٣، ٦٤.

(٢) البخاري في الوصايا: ٤/ ١٠، ومسلم في الإيمان (أكبر الكبائر): ١/ ٦٤.

(٣) الموبقات: المهلكات. التولي يوم الزحف: الفرار من مواجهة الكفار في الحرب، وقذف المحصنات: اتهام العفيفات بالزنى، الغافلات: البريئات من الزنى البعيدات عن الريبة.

(٤) البخاري: ١/ ٨، ومسلم: ١/ ٤٨ وراجع: دراستنا في ظلال الحديث: ص٤٣، ٤٤.

(٥) البخاري في العلم: ١/ ٢١، ٢٢، ومسلم في فضائل القرآن: ٢/ ٢٠١، ٢٠٢، وابن ماجه في الزهد، رقم ٤٢٠٨، وراجع: دراستنا في ظلال الحديث: ص٢٤٣، ٢٤٤.

ومن أمثلة التكثيف المتبوع بالتبسيط الحديث المعروف: « **المسلم أخو المسلم: لا يَظْلِمُه، ولا يَخْذُلُه، ولا يَكْذِبُه ولا يحقره. التقوى ههنا – ويشير إلى صدره ثلاث مرات – بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله، وعرضه** »[١].

فقد جاء هذا الفن في هذا الحديث في موضعين: في قوله « **المسلم أخو المسلم** » ثم أتبعه بالتفصيل لمعنى الأخوة وبسطه: « **لا يظلمه، ولا يخذُله..** ». ثم جاء الإجمال أو التكثيف في قوله: « **كل المسلم على المسلم حرام** » وأتبعه بالتفصيل بما يشمل كل الجوانب. النفس: دمُه ويتبع ذلك أطرافه، وضربه، ومالُه، وعرضه، أي سُمْعَتُهُ، فلا يغتابه، ولا ينال منه. وأدخل هذا التفسير والتبسيط المعنى المقصود في أعماق النفس، وزادها وعيًا للمقصود ورغبة في الامتثال.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « **والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، واللهِ لا يؤمن! » قيل: مَن يا رسولَ الله؟ قال: « الذي لا يأمن جارُه بوائقه** » [متفق عليه][٢].

وقد جمع هذا الحديث على وجازته فنون القسم، والتكرار، والإجمال ثم التفصيل، وإثارة الحوار، فأوقع بذلك في القلب غاية الهيبة والرعب من إيذاء الجار، وتوصيل الشر إليه، الذي عبّر عنه بقوله: « بوائقه ».

وبعد، فالأمثلة وفيرة جدًّا على جمالية بناء النص، ومن الطبيعي ألا يخلو حديث من جمالية بناء، حيث التكثيف والتفصيل، والبناء القصصي والحوار وغير هذا مما ذكرنا من غير استفاضة ومما لم نذكره نحيل القارئ الكريم إلى دراستنا « في ظلال الحديث » التي أثبتت من خلال الشاهد والبرهان اشتمال الحديث النبوي على ألوان رائعة من جمالية البناء وألوان من التصوير البياني، مما يؤكِّد سمو البلاغة النبوية وعنايتها بالأسلوب الجميل؛ لتوصيل الفكرة والسعي نحو تأثر المتلقي.

* * *
* *
*

---

(١) مسلم في البر والصلة (باب تحريم ظلم المسلم..) رقم ٢٥٦٤. والترمذي، رقم ١٩٢٧، ومنه جملة « ولا يكذبه ».

(٢) البخاري في الأدب (إثم مَن لا يأمن جاره بوائقه): ٨/ ١٠. ومسلم في الإيمان (بيان تحريم إيذاء الجار) رقم ٤٦.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

ميزات الفن الأدبي في الحديث النبوي

لا ريب أن يحصل بعض التشابه الفني بين الفن البلاغي والبياني النبوي وبين كلام كبار الشعراء والبلغاء، لكن الفن النبوي أكثر بروزًا وعمقًا من حيث الكيفُ، وأكثر ورودًا من حيث الكَمُّ، فضلًا عن استمرار فاعليته على مدى العصور.

هذه الميزات والخصائص الفنية لفتت نظر بعض العلماء من المتقنين لفنون الأدب متقدمين ومتأخرين، فحدتْ بهم إلى الإقرار بأن الحديث النبوي معجز لصبغته الدينية وعلو فنِّهِ، وإن لم يقع التحدي به كما وقع في القرآن الكريم.

لكن الصحيح الذي عليه الجمهور وإطباق العلماء أن الحديث النبوي ليس معجزًا، واستشهدوا لهذا بدلالة الواقع الملموس، فإننا نجد تشابهًا في الأساليب التعبيرية بين الحديث النبوي وبين كلام كبار الصحابة الذين أطالوا ملازمة النَّبي ﷺ والتلقِّي من معينه الأدبي الشريف، حتى إن من لم يعلم أنه من كلام الصحابي يظنه حديثًا نبويًّا، هذا نحو ما نجده من روائع وفرائد أدبية اتصف بها كلام أبي بكر الصديق وخطبه. وكذلك الإمام علي بن أبي طالب وغيرهما - رضي اللّه عنهما -، وإن كان هذا التشابه قليلًا، لكنه كاف لإضعاف فكرة الإعجاز.

ومع أننا نرى أن الحديث النبوي غير معجز، فإنه اشتمل على خصائص من الفصاحة والبيان والعلاقات اللغوية التي ترفع من مستواه، فهي إذًا خصوصية نبوية ذات صبغة دينية، إنه من البشر ولكنّ كلامه يمتاز عن كلامهم، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ ﴾ [النساء: ١١٣]، فهل مِن شرف أعلى من هذا يناله بشر، ويدل على هذا أيضًا الحديث المشهور: « **أعطيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارًا** »[(١)] هذا الحديث بكل طرقه جاء بصيغة الماضي المبني للمجهول مما يعني أن النبي ﷺ يتلقَّى رعاية ربانية خاصَّة تجلت في علو بلاغته وليس الأمر إبداعًا بشريًّا.

---

(١) أخرجه أبو يعلى والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر، وأخرجه الدارقطني عن ابن عباس.

وسندرس هنا ما يتيسَّر من خصائص الفن النبوي، مكتفين بالإشارة والوجازة؛ لنفسح المجال لمعرفة أوسع، وشرح تطبيقي لهذه الخصائص في القسم الأول كتابنا: « في ظلال الحديث النبوي ».

١ سمة الإبلاغ والهداية العامة:

لقد توصَّل الأستاذ المفكر الإسلامي والأديب الكبير عباس محمود العقاد إلى أن سمة الإبلاغ هي التي تُميِّز البلاغة النبوية، وقد كشف اللِّثام عن هذه الميزة في بحث موجز مفيد تحت عنوان « محمد البليغ »، قال فيه:

« اللهم هل بلغت »:

هذه اللازمة التي ردَّدَها النبي في أطول خُطَبه الأخيرة وهي خطبة الوداع، وهي لازمة عظيمة الدلالة في مقامها؛ لأنها لخَّصت حياة كاملة في كلمات معدودات، فما كانت حياة النبي كلها، بعملها وقولها، وحركتها وسكونها، إلا حياة تبليغ وبلاغ، وما كان لها من فاصلة خاتمة أبلغ من قوله ﷺ وهو يجود بنفسه: « جلال ربي الرفيع فقد بلغت ».

ولصدق هذه الدلالة نرى أن السمة الغالبة على أسلوب النبي في كلامه المحفوظ بين أيدينا هي سمة الإبلاغ قبل كل سمة أخرى، بل هي السمة الجامعة التي لا سمة غيرها؛ لأنها أصل شامل لِمَا تفرَّق مِن سمات هي بمثابة الفروع.

وكلام النبي المحفوظ بين أيدينا، إما معاهدات ورسائل كتبت في حينها، وإما خطب وأدعية، ووصايا وأجوبة عن أسئلة... والإبلاغ هو السمة المشتركة في أفانين هذا الكلام جميعًا، حتى ما جرى منه مجرى القصص أو مجرى الأوامر إلى المرؤوسين أو مجرى الدعاء الذي يلقنه المسلم ليدعو اللَّه على مثاله.

ونحن إذ نؤيد ما ذهب إليه الأستاذ العقاد، ونسلم به، نرى أن الأرجح في الاستدلال لهذه السمة وهذه التسمية وهذا التأصيل لسمات البلاغة النبوية هو الاستدلال بالقرآن الكريم، وقد جاء صريحًا جليًّا مؤكدًا بقوة وذلك في قوله تعالى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال عزَّ شأنه مخاطبًا نبيه: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ﴾ [الشورى: ٤٨]، وغير ذلك من نصوص القرآن الكثيرة التي توضح المهمة الشريفة في نشر التعاليم الإلهية.

ويمكن أن نربط بين البلاغ والبلاغة، فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن تمتّع النبي الكريم بوسائل فنية عالية تُمكِّنه من توصيل الكلمة جامعة بين الحقيقة - البلاغ، وبين الجمال - البلاغة، حيث اجتماع العقل والقلب، قال - تبارك وتعالى -: ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣].

كذلك نضيف إلى كلام الأستاذ العقاد عنصرًا حيويًّا هامًّا، وهو خلود الرسالة الإسلامية وعمومها لجميع الناس في جميع الأزمنة والأمكنة، ومهمة الهداية الشاملة التي وضع نواتها القوية وأُسَّها المتين في الجزيرة منطلق النور الخالد، وقد تمَّ وضع النواة بإحكام قبل أن يلحق النبي الكريم ﷺ بالرفيق الأعلى، وهذا العنصر الديني الهام أعطى الأدب النبوي صفة الموضوعية البعيدة عن الرؤية الذاتية، فهو يختلف عن كثير من الأدب الإنساني، يختلف في معالجته للأمور وفي خطابه الإنساني العام، فإنه لا يفتأ يخاطب الجماعة كما يخاطب الفرد، فالإبلاغ سمة دينية، والأدب النبوي صار تبعًا لهذا أدبًا جماعيًّا، وليس يغلق على ذاته، فإنه الأدب الجماهيري الحق على مرِّ العصور، والأدب المعاصر الملتزم في كل العصور.

وقد أشعَّتْ سمة الإبلاغ مع مقصد الهداية العامة في ثنايا الحديث النبوي: مضمونه الفكري وشكله الفني، وأثرت في عملية انتقاء مفرداته وصياغته وتراكيبه، حتى جاء بطابعه المتميز بما اتصف من سمات عامة وملامح فنية راقية، فإن الكلمة لا تقال لأجل القول، بل هي مُحرِّك خير يُحَرِّكُ كوامن الخير في المكنون البشري، وهي كلمة تحدد أهم المصائر الإنسانية: البداية، الحركة الدنيوية، الفناء، الحياة الأخروية السرمدية، وليس في الوجود ولا في المنظومة الفكرية أهم من هذه القضايا.

٢ العفوية والبداهة في إلقاء الحديث:

لقد تسامى فَنُّ الحديث على التكلُّف. وتنزَّه عن التصنُّع المقيت، إذ يخرج كلام الحديث بسهولة، وهذا يكون خلافًا لكثير من الأدباء الذين يعصرون أدمغتهم عصرًا، ويعتملون في إخراج الفكرة، ولم يكن البيان النبوي يتحيَّل على ذهن القارئ أو السامع، ولا يتكلَّف لشحذ انتباه المُتلقِّي بأساليب التوائية، بل كان عفو البديهة، سريع الحضور، مع احتفاظه على العمق والبعد عن الصفاقة، والدليل الأكبر على هذا هو اللقاء المباشر بالصحابة - رضي اللَّه عنهم -، فليس ثمة تأليف سابق، كما يجري عند الشعراء الذين

دُعوا باسم عبيد الشعر مثل: زهير، إذ راحوا ينقِّحون الكلام، ويبدِّلونه، ويهذِّبون لفظه من تقديم وتأخير وحذف بما يشبه مسودات شعراء اليوم؛ لكي يستقيم مع الوجهة الفضلى من الفن، ومع ذلك تجد في إبداعهم استكراهًا وزللًا واضطرابًا، بحيث لا يوافق الإبداعُ الموقفَ، وتجد تشكيلًا فنيًّا مطوَّلًا في مكان التكثيف، وتبدو العبارات ممطوطة، وتجد التكثيف إلى درجة الإلغاز في مكان انبساط النفس مما ينقص من جوانب الفكرة.

أما في الحديث النبوي فتجد انصياع التركيب اللغوي للفكرة، إذ لا تُعْمِي الصورة دلالة المعنى، ولا يأتي الكلام جافًّا مُسْرِفًا في تقريره، وكان إذا بدأ استقطب القلوب، وإذا انتهى أبرز الحجة وأمتع الوجدان وأشركه في تلذذ التصوير، اقرأ مثلًا الحديث الشريف: « **أَدُّوا حق المجالس: اذكروا اللَّه كثيرًا وأَرْشِدوا السبيل، وغُضُّوا الأبصار** »[1]. ففي الحديث بداهة وهدوء، ومع هذا تختزن كل جملة المعاني الجمَّة، وتؤمئ إلى أحداث كثيرة، وقد قال الرافعي: « كان أفصح العرب لا يتكلَّف القول، ولا يقصد إلى تزيينه، ولا يبغي إليه وسيلة الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده، فلا يعرض له في ذلك سقط ولا استكراه ولا تستزله الفجاءة[2].

وليس هذا قول مبالغة، بل هو الحقيقة، ويمكن أن يتسلح المرء باللغة السليمة ومَفَاتِح الفن؛ ليدرك هذا العلو في فن الحديث، كما أن معظم الأحاديث كانت نتيجة سؤال أو استفسار أو حادثة طارئة، وهذا يبعد وَهْم التكلُّف، وهذه كتب السُّنَّة عامَّة، والكتب الخاصة في أسباب ورود الحديث فيها الآلاف، لا يخرج شيء منها عَمَّا وصفناه، ولا ينزل عن قدر ما عرفناه.

٣ الإحاطة بلغات القبائل ومخاطبة كل قوم بلغتهم:

بل إنه يفوقهم فيها، فقد أوتي الرسول ﷺ كما قال الإمام القاضي عياض السبتي: (علم ألسنة العرب، يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغاتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه عن شرح كلامه، وتفسير قوله، من تأمل حديثه وسِيَرَهُ عَلِمَ ذلك وتحققه.

وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد، ككلامه مع ذي المِشْعار

---

(١) الطبراني في المعجم الكبير: ٥/ ٣٤٢، رقم ٥٤٥٨.

(٢) البلاغة النبوية للرافعي: ص٣٦٢، وانظر: ٣١٢، ٣١٣. آخر كتابه إعجاز القرآن.

الهَمْداني، وطَهْفَةَ النهدي، وقُطَن بن حارثة العليمي، والأشعث بن قيس، ووائل بن حجر الكندي، وغيرهم من أقيال [١] حضرموت، وملوك اليمن.

وانظر كتابه إلى هَمدان: « إن لكم فِراعها وَوِهاطها وعَزازها، تأكلون علافها، وترعون عَفَاءها، لنا من دِفْئِهم وصِرامهم ما سلّموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثِّلْبُ، والناب، والفصيل، والفارض الداجن، والكبش الحَوَرِي، وعليهم فيها الصالغ والقارِح »[٢].

وكقوله لعطية السعدي: « فإن اليد العليا هي المنطية، واليد السفلى هي المنطاة » قال عطية: فكلمنا بلغتنا[٣]. أي: في الإنطاء بمعنى الإعطاء.

وإنما كان هذا خصوصية؛ لأنه لا يتأتي لأحد إلا عن تعليم أو تلقين وأخذ من أحياء العرب حتى يفلي لغاتهم، ومعلوم قطعًا أن الرسول لم يفعل ذلك، ولا توافر له إطلاقًا، بل إن العرب كانوا لا يستطيعون التحول عن لهجة قبيلتهم، ولحن لغتهم، كما أوضح في حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف، فليس ثمة إلا أن تكون هذه خصوصية توفيقًا وإلهامًا من اللّه تعالى، كما قال له: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء: ١١٣]. وقد تعجب الصحابة من إحاطته ﷺ بلغات القبائل العربية، وهذا يعني أنه لا يمكن للقدرة البشرية هذه الإحاطة، فهذه المعرفة الشاملة باللغة التي لم تخطئ تؤكد النبوة، وتعد مظهرًا من مظاهرها.

ويشهد لهذا قول الإمام الشافعي وهو إمام في اللغة عِلمًا وسليقة حتى إنه يحتجُّ به في اللغة: « لسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلم أنه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي ».

---

(١) أقيال: ملوك وأمراء.

(٢) الفراع: ما ارتفع من الأرض، والعزاز: ما خشن وصلب من الأرض، عفاءها: هو الذي ليس لأحد فيه ملك ولا أثر. دفئهم: المراد هنا الأنعام، سميت دفئًا؛ لأنها يتخذ من أوبارها وأصوافها وأشعارها ما يستدفأ به من الملابس وغيرها. الصرام: النخيل أو الثمار؛ لأنها تصرم، أي: تقطع. الثلب: الهرم من ذكور الإبل. الناب: الهرمة من إناث الإبل. الفارض: المسن من الإبل والبقر. الداجن: الذي ألف البيوت. الحوري: كبش جلده أحمر. والمعنى أن هذه لا تؤخذ منهم في الزكاة إما لنفاستها كالحوري أو خساستها كالهرم. والصالغ: ما دخل السنة السادسة من البقر والغنم، والقارح: ما دخل في السنة الخامسة من الخيل.

(٣) أخرجه الحاكم والبيهقي وصحَّحه. وهو في الصحيحين من حديث حكيم بن حزام بلغة قريش: البخاري في الزكاة (لا صدقة إلا عن ظهر غِنى): ٢/ ١٢، ومسلم في الزكاة (بيان أن اليد العليا خير..) رقم ١٠٣٥.

ولم يكن النبي ﷺ بهذا الاستعمال للغريب أو للغات القبائل ينحو نحو التعالي والتفاخر، بل كان استعمال ذلك نوعًا من التواصل، ولونًا من ألوان الدعوة؛ لأن المخاطب يشعر بالأنس لدى استخدام لغته، كما يشعر أحدنا ببهجة وقد خوطب بلغة عربية في بلد غير عربي.

٤ الموضوعية في صياغة الكلام وتوجيهه، وتجريده عن الأشخاص:

تلعب المناسبة التي هي سبب إطلاق العِنان للبلاغة دورًا كبيرًا في القول، ونجدها ظاهرة في كلام الفصحاء واضحة المعالم، لا يستطيع أن ينفك عن التأثر بها والتقيد بقيدها، ولا أن يخرج عن أسرها، وذلك يجعل الأدب في كثير من الأحيان قاصرًا على نخبة تكاد تكون منفصلة عن المجتمع، وتجعله صيغة فردية تستعصي على الفهم.

أما الأحاديث فمع أنها في الأعم الأغلب جاءت عفوية كما ذكرنا لسبب سؤال أو حادثة أو نحو ذلك، فإنك تجدها متحررة من أسر العامل الشخصي في المناسبة، بل من عوامل البيئة كلها، والإنسان ابن بيئته لا يستطيع أن ينفك عنها.

وتجد الانطلاق من أسر المناسبة إلى الموضوعية المجردة والمتحررة عن قيد الزمان والمكان عامًّا في الأحاديث النبوية، حتى في الأمور المهمة، التي يعزُّ على البيان هذا التجرد في الموضوعية فيها، وهذا أمر محتم؛ لأن الحديث النبوي يحمل للعالم رسالة سماوية، ليس فيها المبدع - وهو النبي ﷺ - إلا مبلغًا: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾.

هذه الهجرة، التي اعتبرها الصحابة والمسلمون أعظم أحداث السيرة وتاريخ الإسلام قد دخل موكبها إنسان لقصد شخصي هو الزواج، فماذا كان المنطق النبوي، لقد جاء الحديث في هذا الصدد بعيدًا عن هذا الشخص، وهو الحديث المشهور: « **إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى** ». [متفق عليه][1].

وفي الحديث الصحيح عن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ سمع عمر وهو يحلف بأبيه، فقال: « **إن اللّٰه ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف باللّٰه أو ليصمت** »[2].

فلم يخاطب عمر بن الخطاب وحده بهذا النهي والإنكار، بل قال: (ينهاكم) خطابًا

---

(١) البخاري في أول صحيحه، ومسلم في الإمارة، رقم ١٩٠٧.

(٢) البخاري أول الإيمان: ٨/ ١٣٢، ومسلم في الإيمان (النهي عن الحلف بغير اللّٰه) رقم ١٦٤٦.

الهَمْداني، وطَهْفَةَ النهدي، وقُطَن بن حارثة العليمي، والأشعث بن قيس، ووائل بن حجر الكندي، وغيرهم من أقيال [١] حضرموت، وملوك اليمن.

وانظر كتابه إلى هَمدان: « إن لكم فِراعها وَوِهاطها وعَزازها، تأكلون علافها، وترعون عَفَاءها، لنا من دِفْئهم وصِرامهم ما سلّموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثِّلْبُ، والناب، والفصيل، والفارض الداجن، والكبش الحَوَرِي، وعليهم فيها الصالغ والقارِح »[٢].

وكقوله لعطية السعدي: « فإن اليد العليا هي المنطية، واليد السفلى هي المنطاة » قال عطية: فكلمنا بلغتنا[٣]. أي: في الإنطاء بمعنى الإعطاء.

وإنما كان هذا خصوصية؛ لأنه لا يتأتي لأحد إلا عن تعليم أو تلقين وأخذ من أحياء العرب حتى يفلي لغاتهم، ومعلوم قطعًا أن الرسول لم يفعل ذلك، ولا توافر له إطلاقًا، بل إن العرب كانوا لا يستطيعون التحول عن لهجة قبيلتهم، ولحن لغتهم، كما أوضح في حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف، فليس ثمة إلا أن تكون هذه خصوصية توفيقًا وإلهامًا من اللّه تعالى، كما قال له: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء: ١١٣]. وقد تعجب الصحابة من إحاطته ﷺ بلغات القبائل العربية، وهذا يعني أنه لا يمكن للقدرة البشرية هذه الإحاطة، فهذه المعرفة الشاملة باللغة التي لم تخطئ تؤكد النبوة، وتعد مظهرًا من مظاهرها.

ويشهد لهذا قول الإمام الشافعي وهو إمام في اللغة عِلمًا وسليقة حتى إنه يحتجُّ به في اللغة: « لسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلم أنه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي ».

---

(١) أقيال: ملوك وأمراء.

(٢) الفراع: ما ارتفع من الأرض، والعزاز: ما خشن وصلب من الأرض، عفاءها: هو الذي ليس لأحد فيه ملك ولا أثر. دفئهم: المراد هنا الأنعام، سميت دفئًا؛ لأنها يتخذ من أوبارها وأصوافها وأشعارها ما يستدفأ به من الملابس وغيرها. الصرام: النخيل أو الثمار؛ لأنها تصرم، أي: تقطع. الثلب: الهرم من ذكور الإبل. الناب: الهرمة من إناث الإبل. الفارض: المسن من الإبل والبقر. الداجن: الذي ألف البيوت. الحوري: كبش جلده أحمر. والمعنى أن هذه لا تؤخذ منهم في الزكاة إما لنفاستها كالحوري أو خساستها كالهرم. والصالغ: ما دخل السنة السادسة من البقر والغنم، والقارح: ما دخل في السنة الخامسة من الخيل.

(٣) أخرجه الحاكم والبيهقي وصحَّحه. وهو في الصحيحين من حديث حكيم بن حزام بلغة قريش: البخاري في الزكاة (لا صدقة إلا عن ظهر غِنى): ٢/ ١٢، ومسلم في الزكاة (بيان أن اليد العليا خير..) رقم ١٠٣٥.

ولم يكن النبي ﷺ بهذا الاستعمال للغريب أو للغات القبائل ينحو نحو التعالي والتفاخر، بل كان استعمال ذلك نوعًا من التواصل، ولونًا من ألوان الدعوة؛ لأن المخاطب يشعر بالأنس لدى استخدام لغته، كما يشعر أحدنا ببهجة وقد خوطب بلغة عربية في بلد غير عربي.

٤ الموضوعية في صياغة الكلام وتوجيهه، وتجريده عن الأشخاص:

تلعب المناسبة التي هي سبب إطلاق العِنان للبلاغة دورًا كبيرًا في القول، ونجدها ظاهرة في كلام الفصحاء واضحة المعالم، لا يستطيع أن ينفك عن التأثر بها والتقيد بقيدها، ولا أن يخرج عن أسرها، وذلك يجعل الأدب في كثير من الأحيان قاصرًا على نخبة تكاد تكون منفصلة عن المجتمع، وتجعله صيغة فردية تستعصي على الفهم.

أما الأحاديث فمع أنها في الأعم الأغلب جاءت عفوية كما ذكرنا لسبب سؤال أو حادثة أو نحو ذلك، فإنك تجدها متحررة من أسر العامل الشخصي في المناسبة، بل من عوامل البيئة كلها، والإنسان ابن بيئته لا يستطيع أن ينفك عنها.

وتجد الانطلاق من أسر المناسبة إلى الموضوعية المجردة والمتحررة عن قيد الزمان والمكان عامًّا في الأحاديث النبوية، حتى في الأمور المهمة، التي يعزُّ على البيان هذا التجرد في الموضوعية فيها، وهذا أمر محتم؛ لأن الحديث النبوي يحمل للعالم رسالة سماوية، ليس فيها المبدع - وهو النبي ﷺ - إلا مبلغًا: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾.

هذه الهجرة، التي اعتبرها الصحابة والمسلمون أعظم أحداث السيرة وتاريخ الإسلام قد دخل موكبها إنسان لقصد شخصي هو الزواج، فماذا كان المنطق النبوي، لقد جاء الحديث في هذا الصدد بعيدًا عن هذا الشخص، وهو الحديث المشهور: « **إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى** ». [متفق عليه][(١)].

وفي الحديث الصحيح عن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ سمع عمر وهو يحلف بأبيه، فقال: « **إن اللّه ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف باللّه أو ليصمت** »[(٢)].

فلم يخاطب عمر بن الخطاب وحده بهذا النهي والإنكار، بل قال: (ينهاكم) خطابًا

---

(١) البخاري في أول صحيحه، ومسلم في الإمارة، رقم ١٩٠٧.

(٢) البخاري أول الإيمان: ٨/ ١٣٢، ومسلم في الإيمان (النهي عن الحلف بغير اللّـه) رقم ١٦٤٦.

للجميع أي: أيتها الأمة، وهذا لأن المقصود هو الإبلاغ، كما قدمنا، فضلًا عما ينبئ عنه هذا الأسلوب من خلقه العظيم الكريم الذي هو قدوة للمعلمين المربين، ينبغي أن يقتدوا به ويأتسوا بطريقته.

على أنه قد يرد الحديث خطابًا موجهًا لشخص بعينه في مسألة ما تخصه، وذلك لغرض تربوي لا يتم على الكمال إلا بمخاطبة الشخص بنفسه، وهذا يعتبر من الإبلاغ الذي تكلمنا عنه، ومن ذلك حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص، وكان عبد اللَّه قد شدد على نفسه في العبادة، فنهاه النبي ووجهه: قال عبد اللَّه: قال لي رسول اللَّه ﷺ: « **ألم أخبر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل؟ قلت: بلى يا رسول اللَّه، قال: فلا تفعل، صُم وأفطر، وقُم ونَم، فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزورك عليك حقًّا** »[١].

٥ وضع مفردات وتراكيب جديدة:

فقد وقع في المحاورات النبوية والمحاضرات والخطب عبارات احتلَّ بها مرتبة لا يقاس بها غيره، وحاز سبقًا لا يقدر قدره، « مما لم يسبقه إليه عربي، ولم يشاركه فيه عجمي. ولم يُدَّعَ لأحد، ولا ادَّعَاه أحد. مما صار مستعملًا، ومثلًا سائرًا »[٢].

والأمثلة في ذلك كثيرة نكتفي بنبذة يسيرة طلبًا للاختصار، من ذلك:

١ - « **لا يُلْدَغ المؤمنُ من جُحْرٍ واحدٍ مرتين** »[٣].

٢ - « **الآن حمي الوطيس** »[٤].

٣ - « **بُعِثْتُ في نَفَسِ السَّاعة** »[٥].

---

(١) متفق عليه؛ البخاري في الصوم (حق الجسم في الصوم) وما بعد: ٣/ ٣٩، ٤٠؛ ومسلم (النهي عن صوم الدهر) رقم ١١٥٩.

(٢) التمهيد والأمثلة من الشفا للقاضي عياض: ١/ ١٩٣ - ١٩٥، والبيان والتبيين للجاحظ: ٢/ ١٦، ١٧.

(٣) متفق عليه؛ البخاري في الأدب: ٨/ ٣٨، ومسلم في الزهد (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد..) رقم ٢٩٩٨. والحديث مشهور بدون لفظ « واحد ». لكنه في المصادر كما أثبتناه. وهو جزء من حديث طويل.

(٤) أخرجه مسلم في الجهاد في ضمن حديث طويل في قصة الهجوم في حنين، رقم ١٧٧٥، وأحمد كذلك: ١/ ٢٠٧، كلاهما بلفظ « هذا حين حمي الوطيس ».

(٥) أخرجه الترمذي في الفتن (باب قول النبي ﷺ بعثت أنا والساعة..) رقم ٢٢١٤. وله شاهد في الصحيحين.

٤ - « رُوَيْدَكَ سَوْقَكَ بالقوارير »[١].

٥ - « لا تكونوا إمَّعَة، تقولون: إن أحسنَ الناس أحسنَّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وَطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا »[٢].

٦ - « ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »[٣].

٦ تكامل المحتوى الفكري والتركيب والتصوير:

هذه عناصر ثلاثة بارزة في الحديث النبوي في حال انسجام تام، بل حال عدل ووئام، فلا يطغى المضمون على الشكل حتى يغدو الكلام جافًّا، ولا يطغى الشكل على المضمون، حتى تغدو الصور والتراكيب فارغة، لا تلبث أن تنطفئ، كما في كثير من الأدب.

وهذا التكامل متوافر في كل الأحاديث كما تلمسه في النصوص المدروسة في هذا الكتاب:

إن التفوق في كل واحدة من هذه لا يكون إلا للقلائل، ولم يَعُدْ مستساغًا اليوم لدى الدارس الأدبي تصوير جميل في وصف كأس أو طير أو زهرة، فإن لشرف المقاصد أثر عميق، فجاءت المقاصد الدينية مع التركيب والصور لتعطي الحديث طابع الخلود. فإذا اجتمعت في كلام وتوافقت وتكاملت رأيت من نتيجة ذلك كما يقول الرافعي[٤]:

« نسقًا في البلاغة قلَّما يتهيأ مثول أغراضه، وتساوق معانيه لبليغ من البلغاء، إذ يجمع الخالص من سر اللغة، ومن البيان، ومن الحكمة بعضها إلى بعض.

أما اللغة: فهي لغة الواضع بالفطرة القوية المستحكمة، والمتصرف معها بالإحاطة والاستيعاب، وأما البيان: فبيان أفصح الناس نشأة، وأقواهم مذهبًا، وأبلغهم من الذكاء

(١) متفق عليه؛ البخاري في الأدب (ما يجوز في الشعر..) بلفظ: « رويدك يا أَنْجَشة.. »: ٨/ ٣٥، ٣٦، ومسلم في الفضائل (رحمة النبي ﷺ للنساء..) وفيه: « رويدًا سوقك.. » رقم ٢٣٢٣.

وأنجشة: الرجل الذي كان يحدو بالإبل، فأسرعت كثيرًا.

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة (الإحسان والعفو) رقم ٢٠٠٧، وحسنه.

(٣) متفق عليه؛ البخاري في الأدب (الحذر من الغضب): ٨/ ٢٨، ومسلم في البر والصلة (فضل من يملك نفسه عند الغضب) رقم ٢٦٠٩.

(٤) إعجاز القرآن: ص٣٦٠ وما بعد.

والإلهام، وأما الحكمة: فتلك حكمة النبوة، وتبصير الوحي، وتأديب اللَّه، وأمر في الإنسان فوق الإنسانية.

وما قط عرفنا بليغًا سلمت له جهات الصنعة في كلامه - من اللغة والبيان والحكمة - على أتمِّها، بحيث لم يزغ عن قصد الطريقة، ولا تَحَيَّفَتْهُ إحدى هذه الثلاث، بإدخال الضيم على أختيها في كلامه، واستبانة أثرها فيه، وغلبتها عليه ».

وهاهم أولاء الذين قدموا أفكارًا مريضة ووساوس سقطوا في مزبلة التاريخ، وإن زخرفوا أقاويلهم بصورة وتعابير أنيقة، يشهد التأمل الموضوعي أنها تأثرت في كثير من المواضع، بسخف الفكرة، ولم تغنِ عنهم زخارفهم، ولا الهَالة التي اصطنعت لهم، كما أن الذين قدموا حكمة في قالب جاف نفروا المتلقين؛ لأنهم أهملوا الركن الأدبي الذي يخاطب الوجدان، وبقي للفن الحديثي النبوي ألقه المتميِّز عبر العصور.

وقد أطال الرافعي في هذه الناحية، والإشادة بها مما يوقع في روع القارئ أنها منشأ خصائص البلاغة النبوية، لكننا نرى المقصد الذي بدأنا به، وهو الإبلاغ والهداية العامة الشاملة هو الأصل الذي سُبِكت البلاغة النبوية في قوالبها لتحقيقه، وإنما اجتماع جهات الصنعة خصوصية من خصوصيات البلاغة النبوية، وإن كانت ستُفضي بالبحث إلى نتائج، فستُفضي بنا إلى الإبداع في وضع المفردات واستعمال التراكيب الجديدة، وإبداع الصور البيانية الجديدة التي اتسمت باستمرار تأثيرها لصدق قائلها، ووضوح فكرته، ولأهمية المضمون الذي يرمي إليه وجلالته، وإلى جوامع الكلم التي حان الوقت للبحث فيها.

٧ جوامع الكلم:

وهي خصوصية مشهورة جدًّا، تحدَّثت الأحاديث عن إعطاء اللَّه إياها لنبيّه في أحاديث كثيرة مستفيضة.

ومعنى جوامع الكلم: هو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه، وكثرت معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونَزِهَ عن التكلُّف، كما قال الجاحظ.

والإيجاز أبرز سمات البلاغة العربية، حتى عَرَّفَ بعض كبار العلماء البلاغة فقال: البلاغة الإيجاز.

وكان الإيجاز والإقلال من الكلام هو الطابع العام للحديث النبوي، كما سبق أنه يحدث بحديث لو عَدَّه العادّ لأحصاه، ولكن ذلك إنما كان عن كراهية للتكلف، ويشهد لذلك أن تنظر إلى نصوص الحديث النبوي، إذ يغلب عليها القِصَر، لكن من غير حيف على الفكرة، وإن كان ثمة إطناب فإنه يعني التفصيل الممتع والمقنع معًا؛ يشهد لذلك قول الجاحظ:

« والذي تجود به القريحة وتعطيه النفس سهوًا رهوًا مع قلة لفظه وعدد هجائه أحمد أمرًا، وأحسن موقعًا من القلوب، وأنفع للمستمعين من كثير خرج بالكد والعلاج.. »[١].

والدليل الواضح والشاهد القاطع قول النبي ﷺ: « **نُصِرتُ بالرُّعبِ، وأُعْطِيتُ جَوامِعَ الكَلِم** »[٢]، وهي الألفاظ القليلة المحتوية على المعاني الكثيرة.

وقد ثبتت الأحاديث في كراهة الإكثار من الكلام، وذم المبالغة والتكلف فيه، ومن ذلك: « **ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقًا، الموطئون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون، ألا أخبركم بأبغضكم إليَّ وأبعدكِمْ مِنِّي مجالس يوم القيامة الثرثارون، والمتفيهقون** »[٣].

وحكمة ذلك أن كثرة الكلام مدعاة إلى الخطل، وكثير من معاصي اللسان والفكر.

وكان من سنته ﷺ في الجمعة قِصَرُ الخطبة وإطالة الصلاة. لكن ليس معنى هذا أنه لم يطل الخطبة أبدًا، أو الخطاب، كلا بل إننا نجد له الخُطَب الطِوال في المناسبات المقتضية للطول، كالمواسم، مثل: موسم الحج وخطبته المعروفة.

وإن هذا التناسب بين الفكرة والشكل الأدبي هو غاية علم الأسلوب، ولا نجد إبداعًا بشريًّا يبلغ منزلة التشكيل اللغوي في الحديث النبوي، فإنه خبر النفس البشرية، وأحاط بالمواقف، بلا زيادة ولا تقصير.

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ١٧.

(٢) متفق عليه؛ البخاري: ٤/ ٥٤، ومسلم بلفظه في أول المساجد، رقم ٥٢٣.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: ١٠/ ١٩٤، والترمذي بنحوه في البر والصلة (معاني الأخلاق..) رقم ٢٠١٩. والمتفيهقون: الذين يتوسعون في الكلام ويفتحون به أفواههم.

وقال أبو سعيد الخدري: صلَّى بنا رسول اللَّه ﷺ يومًا صلاة العصر بنهار، ثم قام خطيبًا، فلم يدع شيئًا يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حفظه مَن حَفِظَه، ونسيه مَنْ نسيه، وكان فيما قال: « **إن الدنيا خضرة حلوة، وإن اللَّه مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون؟ ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء...** » وذكر أبو سعيد حديثًا طويلًا، ثم قال: وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقي من النهار شيء؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: « **ألا إنه لم يبقَ من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه** »[١].

فهذه خطبة طويلة استمرت من بعد صلاة العصر إلى قُبَيل غروب الشمس، لكنها ليست من باب الإطناب، والتشدق والتكلف، بل نجد بالتأمل في الفقرات التي ذكروها منها أنها تسير على النفس المعهود في الإيجاز للحديث النبوي، لكن المقام استدعى طول الكلام لكثرة المعاني، وتفنن وجوه الأمر الذي يريد الحديث عنه، فكثر اللفظ والكلام فيها، لكن حذفَ الفضول منه غاية الحذف. لا سيما أن المضمون أمور دينية، تهمُّ كل مستمع وكل قارئ وجاء في أسلوب يدفع الملل والكلل.

ونسرد فيما يلي جملة من أمثلة هذا الفن وتلكم الخصوصية من انتقاء إمام من أئمة البلغاء هو أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني في كتابه « زهر الآداب »، مع ديباجته القيمة التي مهَّد بها لتلك الاختيارات. لكن نقتصر من اختياراته من جوامع الكلم على ما اشتهرت صحته رومًا لانشراح القارئ واطمئنانه، وتحصيناً من الشك والوسواس بأن نُوهِم أنَّا ننتحل أو نتكلف - حاشا للَّه -.

قال أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني[٢]:

« رجعت إلى ما قطعتُ مما هو أحق وأولى، وأجلُّ وأعلى، وهو كلام رسول اللَّه ﷺ: الكريم البحر، الذي هو النهاية في البيان، والغاية في البرهان، المشتمل على جوامع الكلم، وبدائع الحكم، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: « **أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، واسترضعتُ في سعد بنِ بكر** »[٣]، وليس بعض كلامه بأولى من بعض

(١) أخرجه الترمذي في الفتن (ما أخبر به النبي ﷺ أصحابه) رقم ٢١٩٢، وقال: « حسن صحيح ». وانظر أصله في مسلم، رقم ٢٧٤٢.

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب: ١/ ٢٣.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى: ١/ ١١٣، وابن إسحاق كما في البداية والنهاية لابن كثير: ٢/ ٢٥٧، وانظر نحوه فيما سبق.

بالاختيار، ولا أحق بالتقديم والإيثار، ولكني أورد ما تيسر منه في أول هذا الكتاب استفتاحًا، وتيمُّنًا بذلك واستنجاحًا.

وهذه شذور من قوله ﷺ الصريح الفصيح، العزيز الوجيز، المتضمن بقليل من المباني كثير المعاني:

قوله ﷺ:

- **« المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يَدٌ على من سواهم »[1].**
- **« مَطْلُ الغني ظلم »[2].**
- **« يدُ اللَّه مع الجماعة »[3].**
- **« الحياء شعبة من الإيمان »[4].**
- **« ما قلّ وكفى خير مما كَثُر وألهى »[5].**
- **« كل مُيَسَّرٌ لما خُلِق له »[6].**
- **« دع ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُك »[7].**
- **« الناسُ كإبل مائة لا تجدُ فيها راحلة »[8].**
- **« الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقُهوا »[9].**

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (باب في السرية) رقم ٢٧٢١، والديات ٤٥٣٠، والنسائي بلفظ « المؤمنون.. » في القسامة: ٨/ ٢٤، وابن ماجه: ٢٦٨٢، ٢٦٨٤.

(٢) متفق عليه؛ البخاري في الاستقراض (مطل الغني ظلم): ٣/ ١١٨، ومسلم في المساقاة « تحريم مطل الغني.. » رقم ١٥٦٤.

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن (لزوم الجماعة) رقم ٢١٩٧، ٢١٩٨، والشهاب للقضاعي. في مسنده، رقم ٢٣٩. وله شواهد كما في آخر فيض القدير.

(٤) متفق عليه؛ البخاري في الإيمان (أمور الإيمان): ١/ ٧، ومسلم (بيان عدد شعب الإيمان) رقم ٣٥.

(٥) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي: ٢/ ٤٤٤، ٤٤٥ من المستدرك، وأخرجه أحمد والطبراني في الكبير وأبو يعلى، انظر مجمع الزوائد: ١٠/ ٢٥٥، ومسند أبي يعلى، رقم ٤٧٨٨.

(٦) متفق عليه؛ البخاري في التوحيد (ولقد يسرنا..): ٩/ ١٥٩، ومسلم في القدر، رقم ٢٦٤٩.

(٧) أخرجه النسائي في الأشربة (الحث على ترك الشبهات): ٨/ ٣٢٧، الحاكم في المستدرك: ٢/ ١٣، وصححه ووافقه الذهبي.

(٨) متفق عليه؛ البخاري في الرقاق (رفع الأمانة): ٨/ ١٠٤، ومسلم آخر فضائل الصحابة، رقم ٢٥٤٧، كلاهما بنحوه؛ ومن لفظه: « .. لا تكاد تجد.. ».

(٩) متفق عليه؛ البخاري في الأنبياء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم ﴾ [الحجرات: ١٣]: ٤/ ١٧٨، ومسلم بنحوه في فضائل الصحابة (خيار الناس) رقم ٢٦٣٨.

- « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا »[١].
- « أصحابي كالنجوم بأيِّهم اقتديتم اهتديتم »[٢].
- « المُتَشَبِّعُ بما لم يُعْطَ كلابس ثَوْبَي زور »[٣].
- « المرأة كالضلع، إن رُمْتَ قوامَها كسرتها، وإن دارَيتها استمتعتَ بها »[٤].
- « اليد العُليا خير من اليد السُّفلى »[٥].
- « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا »[٦].
- « النَّدمُ تَوْبَةٌ »[٧].

ولعل النظرة السطحية المغرضة المنحرفة تستكثر الاعتناء بجوامع الكلم، وترى أنه فَضْلَةُ فكر، وتَرَفٌ ذهني، ورصف كلامي!!

لكن الحقيقة أنه ينبغي على الداعية الحض على الانشغال بهذه الجوامع النبوية؛ لأنها خير وسيلة لسد ثغرة أمام الناس، خصوصًا العوام الذين ينشغلون بأقوال منحرفة عن الدين والإنسانية والشيم الرفيعة، بل تزري بالرجولة بما يُسمع من هنا وهناك، إننا نضع هذه الجوامع صخرة يتحطم عليها القول الهزيل بما يحمله من فكر ضعيف، يضر بعزة هذه الأمة التي أنيطت بها مهمة إبلاغ الحق وعمارة الأرض.

ومن روائع هذا الفن الأحاديث التي قيل: إنها تجمع أمور الإسلام، وعليها قام أساس

---

(١) متفق عليه في ضمن حديث: البخاري وفي آخره « وشبك أصابعه » في المساجد (تشبيك الأصابع..): ١/ ٩٩، ومسلم في البر والصلة (تراحم المؤمنين) رقم ٢٥٨٥.

(٢) رواه البيهقي وأسنده الديلمي، ورواه الدارمي وابن عدي، انظر كشف الخفاء: ١/ ١٤٧، وإتحاف السادة المتقين: ٢/ ٢٢٣. والمراد علماؤهم، والله أعلم.

(٣) متفق عليه في ضمن حديث: البخاري في النكاح (المتشبع بما لم ينل): ٧/ ٣٥، ومسلم في اللباس والزينة (النهي عن التزوير..) رقم ٢١٢٩، ٢١٣٠، ولابس ثوبي زور: الذي يلبس كمًّا تحت كم ثوبه يوهم أنه لابس ثوبين، وهو واحد أو نحو ذلك.

(٤) كذا أورده وهو متفق عليه بنحوه: البخاري في النكاح (العشرة مع النساء)٧٢٠، ص٢٦، ومسلم في الرضاع (الوصية بالنساء) رقم ٤٦٨.

(٥) متفق عليه؛ البخاري في الزكاة (لا صدقة إلا عن ظهر غنى): ٢/ ١١٥، ومسلم في الزكاة، رقم ١٠٣٥.

(٦) متفق عليه؛ البخاري في المظالم (أعن أخاك..): ٣/ ١٢٨، ومسلم في الإكراه (يمين الرجل..) رقم ٦٩٥٢.

(٧) أخرجه ابن ماجه في الزهد (ذكر التوبة) رقم ٤٢٥٢، والحاكم في المستدرك: ٤/ ٢٤٣، وصحَّحه ووافقه الذهبي وابن حبان: ٢/ ٦ من كتاب الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان.

الجمع للأربعين حديثًا التي استتمها الإمام النووي، وعرفت بالأربعين حديثًا النووية، وثمة مجموعات أخرى كثيرة أربعونات وغيرها، لكن اشتهرت الأربعون النووية أكثر من غيرها وكثرت شروحها حتى لا تحصى.

ومن أروعها الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، وقيل في كل واحد منها إنه نصف الإسلام أو ثلث الإسلام، وهي هذه الأحاديث الثلاثة:

حديث عمر بن الخطاب ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه** »[١].

قال الشافعي فيما رُوِيَ عنه: « إنه يدخل فيه نصف العلم ».

وقال المحدث الحافظ حمزة الكناني: سمعت أهل العلم يقولون: هذا الحديث ثلث الإسلام.

والثلث الثاني: ما رواه النعمان بن بشير ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « **إن الحلال بين وإن الحرام بين. وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه** »[٢].

هذا حديث قصير يشتمل على حقائق خطيرة. وتدريب للنفس واقعي، ومعالجة الجريمة حتى لا تقع.

قال: **والثلث الثالث**: ما رواه مالك عن ابن شهاب عن علي بن حسين أن رسول الله ﷺ قال: « **مِنْ حُسنِ إسلامِ المرء تركُه ما لا يعنيه** »[٣].

ونكتفي بهذا القدر الموجز المختصر في هذا الفن الجليل، ونختتم بهذه الكلمة القيمة للعلامة الرافعي التي تزيد جلاء منزلة جوامع الكلم في أدبنا العربي، بل الأدب العالمي:

---

(١) متفق عليه. كما سبق.

(٢) متفق عليه؛ البخاري في الإيمان: ١/١٦. ومسلم، رقم ١٥٩٩.

(٣) كذا أخرجه من طريق مالك: ص٦٥٠، وقد أخرجه الترمذي من حديث علي بن حسين عن النبي ﷺ في الزهد (باب ١١) رقم ٢٣١٨، وعن أبي هريرة ٢٣١٧.

قال الرافعي: « وهذا الضرب من الكلام الجامع هو الذي يمتاز البليغ في كل أمة بالكلمة الواحدة من مثله، أو الكلمتين، أو الكلمات القليلة، ولو ذهبت تحصيه في العربية ما رأيته إلا معدودًا، على حين أن خطباءها وشعراءها وكُتَّابَها وأدباءها لا يأخذهم العد، على حين أن هذا الكلام الجامع هو الذي لا يأخذه العد في بلاغة الرسول الكريم ﷺ وفرق هنا - لا بد من ذكره - نميز به بين النبي ﷺ وسائر فصحاء العرب وبلغائهم، ممن أصابوا حظًّا من مثل هذه الكلمات، أو عُرِفوا بالبيان والتقدم في هذه اللغة الشاعرة. فإن هؤلاء وإن هذَّبوا الكلام وحذقوه، وبالغوا في إحكامه وتجويده، كما يقول الرافعي: « إلا أن ذلك قد كان منهم عن نظر متقدم، ورويّةٍ مقصودة.. ».

بيد أن رسول اللَّه ﷺ كان أفصح العرب، على أنه لا يتكلف القول، ولا يقصد إلى تزيينه...، ولا تَسْتَزِلُّه الفجأة وما يبده من أغراض الكلام[1] عن الأسلوب الرائع، وعن النمط الغريب والطريقة المحكمة، بحيث لا يجد النظر إلى كلامه طريقًا يتصفح منه صاعدًا أو منحدرًا.

« ثم أنت لا تعرف إلا المعاني التي هي إلهام النبوة، ونتاج الحكمة، وغاية العقل وما إلى ذلك مما يخرج به الكلام وليس فوقه مقدار إنساني من البلاغة والتسديد وبراعة القصد »[2].

وما أحسن قول العقاد[3]: « إلا أن الإبلاغ أقوى الإبلاغ في كلام النبي هو اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات، وقد يبسطها الشارحون في مجلدات ».

ومن أمثلة ذلك في العلم بالتبعات، قوله ﷺ: « **أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ، ثم الصالحون، ثم الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ** »[4].

فالمزايا الإنسانية واجبات وأعباء، وليست بالمتع والأزياء، وعلم الإنسان بالخير والشر يفرض عليه الفرائض التي يبتلى بها، ولا يهنئه بالراحة التي يصبو إليها، وهو

---

(١) أي: ما يقتضيه المقام من القول بالبداهة، وما تستلزمه المفاجآت الكثيرة من أغراض الكلام التي تحتاج إلى تحضير الكلام وإعداده سابقًا.

(٢) انظر فصل البلاغة النبوية: ص٣١٣، ٣١٤. (٣) في عبقرية محمد: ص٨٨، ٨٩ بتصرف يسير جدًّا.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الفتن (الصبر على البلاء) رقم ٤٠٢٤، والترمذي في الزهد (الصبر على البلاء)، ضمن حديث رقم ٢٤٠٠، وصححه.

محسوب عليه. وكذلك ذكاؤه محسوب عليه. وأمثال هذه الأحاديث في أصول السياسة والأخلاق والاجتماع مما لا يتناوله الإحصاء في هذا المقام.

كان محمد ﷺ فصيح اللغة، فصيح اللسان، فصيح الأداء، وكان بليغًا مبلغًا، على أسلس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية، وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين، بل قدوة المرسلين.

٨ عصرية أسلوب الحديث لكافة الأزمان:

كم من الأدباء الكبار من احتلَّ في عصره القمة، وصارت إليه عِمَادة الأدب والقدوة، لكنه عَفَّى على أدبه الزمن لتغيُّر الذوق أو الاعتبارات أو غير ذلك من عوامل، لكن بلاغة الرسول المبلغ مدى الزمن والعصور، قد تجاوزت حدود الزمان والعصر؛ لأنه جاء بهداية عامة لكل الناس في كل زمان ومكان.

وفي هذا يقول الرافعي[1]: « ولذا ترى كلامه ﷺ يخرج من حدود الزمان ، فكل عصر واجد فيه ما يقال له، وهو بذلك نبوة لا تنقضي، وهو حي بالحياة ذاتها، وكأنما هو لون على وجه منها، كما ترى البياض مثلًا هو اللون على وجه طائفة من الجنس البشري ».

ويقول العقاد[2]: « ولمن شاء أن يحسب أسلوب النبي - كتابة وخطابًا - أسلوبًا عصريًّا يقتدي به المُعَاصِرون في زماننا هذا وفي كل زمان؛ لأن الأسلوب الذي يخرج من الفطرة المستقيمة، هو أسلوب عصري في جميع العصور ».

هذه العصرية مُتجلِّية في جانبي المحتوى الفكري والشكل الفني.

أما **المحتوى الفكري** فيشتمل على عقائد وتشريعات وسلوك وأخلاق ومواعظ، كلها في أرفع مستوى، بل إن الفكر الديني الإسلامي هو المرآة الحقيقية التي ينبغي أن يُقاسَ بها كل فكر؛ ذلك لأن الفكر الديني الإسلامي مصدره هو الخالق ﷻ، ولا يوجد نظرية في أي زمان استطاعت أن تعلو أو تضاهي ما جاء به الإسلام مما يرفع من الطبع الإنساني، إن الشرط الإنساني لا يتحقق كما بَيَّنَتِ الظروفُ التاريخية على مرِّ الأيام لا يتحقق إلا بالإسلام ملاذ الحق والحقيقة.

وأما **الشكل الفني**، فقد امتاز في الحديث النبوي في تراكيبه وصوره وأشكاله الكلية

---

(١) وحي القلم: ٣/ ١٧.

(٢) عبقرية محمد: ص٨٦، ٨٧.

بجمالٍ حقيقي، ولكن هذا الجمال لا يخبو في عصر ما، بل يحتاج إلى ثقافة كل عصر لكشفه، إذ لا نجد ملمحًا فنيًّا في الحديث النبوي عاد إلى الكلام التقريري العادي، ولا نجد تقليدًا، بل نجد ابتكارًا يحتاج إلى جهد ودربة ومطالعة؛ لنتأكد ونؤكد للآخرين أن هذا الدين الحق قد لبس أجمل الثياب على أجمل مضمون؛ ليحقق السعادة للبشرية.

٩ التناغم (الموسيقا):

قد يستغرب كثيرون هذه الفقرة؛ لأنَّا أمام فن نثري، طابعه السهولة واليسر والعفوية، فأين الموسيقا؟

لكن الحقيقة أنه لا يمكن فصل الفن القولي عن الموسيقا؛ ذلك لأن التشكيل اللغوي عبارة عن أصوات مجتمعة، والموسيقا أصوات جمالية، كما أن نغم الكلام يجب أن يعبر عن الحالة النفسية في الأدب.

وقد امتاز الحديث النبوي بموسيقا ظاهرة، هي إيقاع السجعة المتكررة، وبموسيقاه الداخلية في تركيب أصوات الكلمات والحروف والحركات، وبإسهام الكلمة في نسق موسيقي رائع مُمْتِع، لقد أجاد الرافعي في ذكره موسيقا النسق القرآني، فأكد إسهام الحركات والحروف وترتيب الكلمات في تشكيل النغم الموسيقي المناسب للمقام، في حين لم يتطرق لهذا الأمر في دراسته الأدبية للحديث النبوي.

الموسيقا والسجع:

ولا بد أن نبين هنا أن الحديث فن نثري، وما يجي فيه من موسيقا سجعية أحيانًا لا تهبط به من مستوى علو الفن، كما يرى بعض النقاد في النثر، والحق أن السجعة فاصلة فكرية في الحديث، قبل أن تكون فاصلة موسيقية، وهي لم ترد في كل الحديث، بل في بعض قليل منه نسبيًّا، وهي ممجوجة عمليًّا كما يؤكد الاستقراء الكامل للحديث، كما هي ممجوجة شرعًا بالنص الصريح؛ لدلالتها على تكلُّف الكهان، ففي الحديث الصحيح المتفق عليه أنه لما قضى النبي ﷺ على جماعة بِدِيَةِ جنينٍ أُسْقط باعتداء امرأة منهم على الحامل، قام بعضهم، وهو حَمَلُ بن النابغة الهُذَلِي فقال: يا رسول اللَّه، كيف يغرم من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهلّ، فمثلُ ذلك يُطَلّ. فقال رسول اللَّه ﷺ: « **إنما هذا من إخوان الكهان** » من أجل سجعه الذي سجع[1].

---

(١) البخاري في الديات: ٩/ ١١، ومسلم في القسامة: ٣/ ١٣٠٩.

أي: لإرادته أن يدفعَ الحجةَ الثابتة بالتكلُّف اللغوي، وهذا ما يشبه الذي ورد عن السوفسطائيين الذين يناهضون الحقائق بالتلاعب بالألفاظ.

قال الجاحظ[(١)]: « وكأن الذي كره الأسجاع بعينها، وإذا كانت دون الشعر في التكلُّف والصنعة أن كهان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم، وكانوا يدَّعون الكهانة، وأن مع كل واحد منهم رئيًّا من الجِن... كانوا يحكمون ويلفظون بالأسجاع، فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية، ولبقيتها فيها، وفي صدور كثير منهم، فلما زالت العلة زال التحريم ».

إلا أننا بخلاف رأي الجاحظ نرى أن المسألة ترجع إلى أصل عام، هو التكلف الذي مقته الإسلام، وأيضًا محاولة إدحاض الحق بأسلوب السجع وتنسيق الكلام الذي اتبعه هذا القائل وفي هذا التكلف طغيان الشكل على المضمون مما يتنافى مع الهدف السامي للحديث.

أما إذا سلم السجع من ذلك كله فهو زِينة وحِلية في الكلام، لا يأباه فن الحديث النبوي، بل يقبله ويقول به، وفي الأحاديث كثير من السجع جاء عفوًا لم يُتَكَلَّف له، ولا هو مُصْطَنَعٌ. ومن أمثلة ذلك:

١ - دعاؤه - عليه الصلاة والسلام -: « **اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع، أعوذ بك من هؤلاء الأربع** »[(٢)]، وهذا دعاء مطلوب من كل مؤمن، وفيه تنساب الموسيقا؛ لتناسب الروح الجماعية، وتوحد الأفراد في هدف واحد، اجتمعت عليه الجمل كلها، هو الحرمان من نفع أهم الأمور للإنسان.

٢ - دعاؤه ﷺ في تعويذ الحسن والحسين - رضوان اللَّه عنهما -: « **أعيذكما بكلمات اللَّه التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة** »[(٣)].

٣ - حديث عائشة - رضي اللَّه عنها - في هذه الخطبة التي خطبها إنكارًا على قوم شرطوا في البيع شرطًا غير شرعي، فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: « **ما بال أقوامٍ يشترطون**

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٣٨٧، ٣٨٨.

(٢) الترمذي في الدعوات (باب ٦٩): ٥/ ٥١٩، والنسائي في الاستعاذة: ٨/ ٢٦٣، ٢٦٤، وصحَّحه الترمذي.

(٣) البخاري في الأنبياء ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]: ٤/ ١٤٧، والترمذي في الطب بلفظ « أعيذكما.. »، (باب ١٨) رقم ٢٠٦١، وأبو داود في السنة (باب في القرآن) رقم ٤٧٣٧.

شروطًا ليست في كتاب اللَّه، ما كان من شرط ليس في كتاب اللَّه فهو باطل، وإن كان مائة شرط، قضاءُ اللَّه أحقُّ، وشرطُ اللَّهِ أوثق، وإنما الولاء لمن أعتق »[١].

ونلحظ في هذا النص توالي حروفٍ قويةٍ أفادت التحذير الشديد من مخالفة أمر اللَّه: فالراء والطاء يتكرران مع الكلمات « شرط، يشترطون »، كما أن السجعة تنتهي بروي القاف بالقلقلة، وهو من الحروف الشديدة التي تناسب هنا هول الأمر والترهيب، خصوصًا في الوقوف عند القاف وتسكينها.

٤ – ومن السجع قوله ﷺ: « **إنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عليكم عُقُوقَ الأُمَّهاتِ، وَوَأْدَ البنات، ومنعًا وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرةَ السُّؤَال، وإضاعَةَ المال** »[٢].

وقد قال العقاد في السجع: « ومذهبه في هذه الحلية اللطيفة مذهبه في كل حلية تليق بالرجل، فحولة في القول، وفحولة في الزينة، فسجعه ﷺ كحلية الذهب... ولا مزيد »[٣].

وثمة أحاديث جاء فيها السجع محققًا توازنًا صوتيًا وهندسيًّا يشبه الزخرف مع خُلُوِّه من عيب التكلف، إذ لو حُوِّل الكلام عن وجهه لفقد الجمال، ومن هذا اللون في الحديث الشريف: « **جار الدار أحق بدار الجار** »[٤] فالحديث يقدم قاعدة فقهية ومع هذا تمتع بروعة فنية مزجت العلم بالفن، ووحدة الزخرف هنا، الجار والدار، وكان التوازن أن تحيط (جار والجار) بطرفي الحديث، كأنهما جناحا طير، والقلب واحد « دار، الدار »، وما كان معرفة صار نكرة، وما كان نكرة صار معرفة، وتكرار الجوار تأكيد لعلة الحكم، ووجود الدار في الوسط؛ لأنها محل النزاع في الواقع، وهذا مما يدل على بعد هذه الموسيقا عن التكلف والافتعال، وعلى ارتباطها الوشيج بالفكرة.

ومن هذا الباب أيضًا، هذا الحديث: « **كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان اللَّه وبحمده، سبحان اللَّه العظيم** »[٥]. فبالإضافة

---

(١) متفق عليه؛ البخاري في البيوع (إذا اشترط شروطًا..): ٣/ ٧٣، ومسلم بلفظه في العتق: ص١١٤٢.

(٢) متفق عليه؛ البخاري في الأدب (عقوق الأمهات): ٨/ ٤، ومسلم في الأقضية، (النهي عن كثرة المسائل): ص١٣٤١.

(٣) عبقرية محمد: ص٨٤.

(٤) أبو داود، رقم ٣٥١٧، بلفظ « بدار الجار أو الأرض ». والترمذي، رقم ١٣٦٨، وصححه بلفظ: « أحق بالدار ».

(٥) متفق عليه؛ البخاري في آخر صحيحه، ومسلم: ٨/ ٧٠.

إلى ترنيم النون ذات الغنة بعد مد الألف، ففي تكررها وتشكيلها الفاصلة الداخلية والخارجية مما يُشبع النغم، ثمة تجاوب صوتي بين الألف والنون وبين الياء والميم، وهما – الميم والنون – من مخرج واحد، وقد جاءت الميم بمنزلة قفلة موسيقية كما هو معروف في الموشحات، كذلك نجد الكلمات « **خفيفتان، ثقيلتان، حبيبتان** » على وزن واحد (فعيلتان)، ونرى المدود مناسبة لجو الذكر الهامس الهادئ حيث صفاء النفس.

الموسيقا عامة في الحديث كله:

على أننا نحذر من الخطأ العظيم؛ أن يظن ظانّ أن الموسيقا في الحديث النبوي قاصرة على السجعة، ذلك توهم يسبق للوهم لاقتران الموسيقا بالسجع أو الشعر، لكن البيان النبوي اختصَّ من بين نثر البشر كلهم بنغم عجيب خاص به، يدركه المتأمل المتذوق من غير عسر، في كل تراكيب الأحاديث، وذلك لحسن تلاؤم أصوات الحروف والكلمات المُتَخَيَّرةِ للتعبير عن المراد:

هذا مثل حديث: « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى،...** » فالتجاوب المتناغم بين كلماته وجمله واضح جلي، من أوله إلى آخره.

كذلك حديث: « **بُنِيَ الإسلامُ على خمس...** » اقرأه وتأمل، تجد الموسيقا واضحة جلية.

وهكذا وصيته ﷺ لمعاذ بن جبل: « **اتق اللَّه حيثما كنت، وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخَالِقِ الناسَ بِخُلُقٍ حسن** »[1].

وهكذا سائر الحديث يمتاز بالنغم الموسيقي الداخلي، المتجانس مع المعنى، والذي يسهم في الوصول إلى أعماق المتلقي والتأثير فيه.

ونكتفي بهذا القدر في بيان الظواهر الأدبية في الحديث النبوي وجلاء خصائصه الفنية، وإن كان لا يفي جزءًا من حقِّه، فلا ضير أن نصف النجم في سَراه، وإن لم نستقر في ذُرَاه، وما شهدنا إلا بما علمنا، وإن قَصَّر القلم بنا عمَّا أردنا، ونقول ما قال الجاحظ[2]: « ولعل بعض من لم يتسع في العلم، ولم يعرف مقادير الكلام، يظن أنا تكلفنا من الامتداح

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي في البروالصلة (ما جاء في معاشرة الناس) رقم ١٩٨٧ من حديث أبي ذر، ومن حديث معاذ بن جبل وقال: « حديث حسن صحيح ».

(٢) البيان والتبيين: ٢/ ١٩.

والتشريف ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده، ولا يبلغه قدره، كلا والذي حَرَّم التزيد على العلماء، وقبَّح التكلف عند الحكماء، وبهرج[1] الكذابين عند الفقهاء، ما يظن هذا إلا من ضلَّ سعيه».

وختامًا لهذا البحث فإن القول ما قاله السبط الشهيد الحسين - رضي الله عنه - وأرضاه:

«لن يؤدي القائل - وإن أطنب - في صفة الرسول ﷺ من جميع جزءًا».

* * *
* *
*

(١) بهرج: أي زَيَّفَ وأَسْقَطَ.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

المحتوى الفكري العام في الحديث النبوي

طبيعي أن يشتمل كل عمل أدبي على شكل ومضمون، وينضم تحت جناح الشكل كل الأساليب الفنية من تصوير وتركيب لتقديم الفكرة، أما المضمون فهو الأفكار التي يسعى الأديب إلى نفثِها في روح المجتمع، ويقصد بالمحتوى هنا المضمون المعنوي من وجهة نظر خاصَّة، أي بتوجيه من رؤية الأديب في الحياة، وإن كانت المواضيع متوافرة في كل أدب، فالمحتوى يعني توظيف الموضوع لرأي خاص.

حاز النص الجمالي في الحديث النبوي طاقةً فنيةً لا ينضب معينها، ولا يخبو مع الزمن، ولا يخفت ضياؤها، وقد التقى الفن الجمالي في الحديث مع أفضل ما يُطْلَب اليوم في التنظير الأدبي، من روعة تصويره وغليان تعبيره، وإيمائه وموسيقاه، وأسلوبه القصصي، فأفاد حرارة القول في كل عصر.

ولكن ثمة **خصوصية اختص بها الحديث النبوي**، وهي المحتوى الفكري الذي يختلف عما لهجت به ألسنة الأدباء، ولا بد أن نقرر هنا أن الحديث نثر وإن السمة النثرية لم تمنع من المخزون الأدبي، والثراء الفني، الذي نعهده في أعماق الأشعار، فالنثرية في الفن الحديثي لا تعني اللغة العلمية الجافَّة. ثم إن الحديث النبوي عِلمٌ نظري وجداني يناسبه التفكير بصور، خلافًا للمواد العلمية التجريبية، ولذلك كان التحكم بالثوب الفني لإخراج الأفكار مناسبًا في البيان النبوي، ما دام المحتوى يخاطب العقل والمشاعر معًا، ويمكن أن نقول: إن الحديث النبوي هو قول رفيع المستوى نطق به الصادق الأمين المصدوق، يختلف بصدقه عن نهج الأدباء، فقد كان صدقه صدقًا حقيقيًّا؛ لا صدقًا أدبيًّا أو فنيًّا، كما يقولون في عالم الشعر والأدب.

المقاصد الأدبية

إن الذاتية غالبًا ما تميز الأدب، فلا بد أن تتضخم الذات - وربما تتورم بشكل مرضي - ليرى الأديبُ العالَمَ من خلال ذاته؛ لذلك قيل: كان شعرنا العربي غنائيًّا أي: مرتبطًا بالذات. فكثر فيه الغزل بأنواعه لإشباع رغبات حسية ونفسية، وكان الشاعر يهجو

لينال من خصم أو يشينه ليسد من ثغرات نقص في دخيلته، أو لحب التسلية بأعراض الآخرين.

وكان الشاعر العربي يفتخر فخرًا قبليًّا إلى جانب الفخر الذاتي؛ لشعوره بانتمائه فردًا إلى هذه القبيلة، وكان يمدح ليحصل على هبات وأعطيات يتمتع بها.

١ المرأة بين الحديث والأدب:

ويعد الغزل أكبر رصيد شعري عرفه تاريخ أدبنا العربي، بل ثمة شعراء نبغوا واشتهروا بالغزل، حتى غدا صنعةً عُرِفوا بها، أمثال: عمر بن أبي ربيعة والعَرْجِي وجميل بثينة وابن الرومي، وجعل المتغزلون قلوبهم فراشات تحوم كل يوم حول امرأة جديدة، فاليوم تنكسف الشمس لفراق واحدة، وغدًا يكون الحب لغيرها، وتشرق الشمس بحضورها.

ولا يقتصر هذا على أدبنا، بل الأمر إنساني عام، وقد كثر شعر المرأة خصوصًا في المدرسة الرومانسية، وكانت له أعلامه من حيث الغزل النزيه الروحاني والغزل الفاحش الماجن، وامتهنت المرأة بذلك أيما امتهان في الغزل، إذ أضحت دمية ملونة يتسلَّى بها الشاعر كالطفل، كما فُرِّغت من داخلها من المشاعر الإنسانية، وقصد المشاركة الحياتية؛ لتكون جهاز استقبال.

أما في الحديث النبوي فالأمر مختلف، وهذا بدهي إذ لا شك أن تختلف حِكمةُ الخالق في المرأة عن نظرة مخلوقه إليها، وما الحديث النبوي إلا تفسير حكمة الخالق، فالرسالة المحمدية جاءت لتحقيق الأوامر الإلهية، جاءت لتصل الأرض بالسماء، فتدعو إلى الهداية الإنسانية عامة، ولتنشر النور، ولتزيل الظلمات، وتبددها من مسيرة الإنسان، وهذا يخلص الحديث من طابع غرزي قائم في الأدب، فالحديث النبوي ينظر إلى المرأة في كليتها شكلًا ومضمونًا؛ لكي يعيد لها مكانتها السامية، وينظر إليها بتجرد عن طابع الانفعال الشخصي؛ لأن الرسول ﷺ لا يريد تحقيق هدف شخصي، كما أنه يقصد عموم النساء لا امرأةً واحدة يتقوقع الأديب عندها.

لقد نطق الحديث النبوي قبل كل دعوات تحرر المرأة بسموها، فقرر وحدة جنسها الإنساني مع الرجل كما في الحديث: « **النساء شقائق الرجال** »[1].

---

(١) الترمذي في الطهارة (باب فيمن يستيقظ): ١/ ١٨٩، ١٩٠ عن عائشة، وورد عن غيرها فتقوَّى. انظر مجمع الزوائد: ١/ ٢٦٧ - ٢٦٩، وتعليق أحمد شاكر على الترمذي.

وأشار إلى رقة المرأة وحاجتها إلى التلطف كما في الحديث: « **رفقًا بالقوارير** »[١] فشبهتها الكناية اللطيفة بوعاء زجاجي للدلالة على غاية الرفق بها ورهافة التعامل معها، بل كان من أواخر وصاياه في خطبة الوداع: « **استوصوا بالنساء خيرًا** »[٢].

وقرَّر الحديث حقوقها وواجباتها، فعرفت ما لها وما عليها، فتجدها وارثة زوجة وأختًا، وخالة وعمَّة وجدَّة وغير هذا، فأبواب المواريث في الحديث تشريف عظيم للمرأة بعد ما كانت حقوقها مهضومة - بل كانت هي بذاتها تورث كالمتاع - في الجاهلية، كما هُضِمَتْ في الأمم السابقة، والأمم الحاضرة بدعوى باطلة هي الاختلاف الجسدي، أو التمدن المكذوب.

وأناط الفنُّ الحديثي بها مسؤولية عظمى، وهي رعاية البيت؛ لأن الأسرة الجيدة هي الوحدة المكونة للمجتمع الناجح الفاضل، فكانت المرأة هي الصانعة الأولى للمجتمع، كما يقول الحديث: « **والمرأة راعية في بيت زوجها، ومسؤولة عن رعيتها** »[٣].

ولاحظ فن الحديث النبوي ما فطرت عليه من الحِشْمَة والخَفَر، فأبعدها عن أجواء الإثارة الجنسية، صونًا لكرامتها وشرفها، مُراعيًا ما غُرِسَتْ عليه من الفطرة الإنسانية في الميل الشديد إليها، فوضع حدود اللقاء بين الرجل والمرأة، ولذلك نَبَذَ نموذج « الكاسيات العاريات »؛ صيانة للطرفين معًا، ودفعًا للفساد، ولتكون المرأة صادقة مع نفسها ومع المجتمع، فلا تلبس الثوب المغري، وهي تدعي لنفسها أو لغيرها أنها محتشمة، فالحديث يخلصها من التناقض ويوحد الظاهر مع الباطن لدى المرأة.

وقد كسا النبي الكريم ﷺ أسامة بن زيد ﷺ قُبْطية[٤]، فكساها امرأته، فقال لأسامة: « **أخاف أن تصف حجم عظامها** ». فقد دلَّ التعبير بظلاله على سمو وتهذيب في الحديث عن مفاتن المرأة، وبين تأثير الثوب الرقيق إذا لبسته.

---

(١) هكذا اشتهر الحديث وهو في المسند: ٣/ ١١٨، ولفظه في الصحيحين: « يا أنجشة رويدك رفقًا بالقوارير » البخاري في الأدب (باب المعاريض..): ٨/ ٤٦، ومسلم في الفضائل (رحمة النبي ﷺ): ٧/ ٧٨ - ٧٩. وثبت «القوارير » في كل رواياته.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) من حديث متفق عليه؛ البخاري في أول الأحكام: ٩/ ٦١، ومسلم في الإمارة (فضيلة الإمام العادل) رقم ١٨٢٩.

(٤) القبطية بضم القاف ثياب تصنع في مصر. نسبة إلى القبط، وجاءت في الحديث بالضم لتميزها عن غير الثياب مما ينسب إلى القبط، والحديث أخرجه أحمد في المسند: ٥/ ٢٠٥، والبيهقي في السنن الكبرى: ٢/ ٢٣٤.

قال الشريف الرَّضِي في شرح الحديث: « وهذه استعارة، والمراد أن القُبْطِيَّة برقتها تلتصقُ بالجسم، فتبين حجم الثديين والرادفتين، وما يشتد من لحم العضدين والفخذين، فيعرف الناظر إليها مقادير هذه الأعضاء... فجعلها ﷺ لهذه الحال كالواصفة لما خلفها، والمخبرة عما استتر بها، وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى، وإلى هذا الغرض رمى عمر بن الخطاب في قوله: « إياكم ولبس القباطي، فإنها إلَّا تَشِفّ تصف » فكان رسول الله ﷺ أبا عذر هذا المعنى، ومن تبعه فإنما سلك نهجه وطلع فجه »[١].

قال الرافعي في التعليق على هذا الشرح: « وهذا كلام حسن، ولكن في عبارة الحديث سرًّا هو من معجزات البلاغة النبوية لم يهتدِ إليه الشريف على أنه حقيقة الفن في هذه الكلمة بخلاصتها، ولا نظن أن بليغًا من بلغاء العالم يتأتى لمثله، فإنه ﷺ لم يقل: أخاف أن تصف حجم أعضائها، بل قال: حجم عظامها، مع أن المراد لحم الأعضاء في حجمه وتكوينه، وذلك منتهى السمو بالأدب، إذ ذكر « أعضاء » المرأة في هذا السياق، وبهذا المعرض، هو في الأدب الكامل أشبه بالرفث، ولفظة « الأعضاء » تحت الثوب الرقيق الأبيض تنبيه إلى صور ذهنية كثيرة هي التي عددها الشريف الرضي في شرحه، وهي تومئ إلى صورة أخرى من ورائها، فتنزه النبي ﷺ عن كل ذلك وضرب الحجاب اللغوي على هذه المعاني السافرة. وجاء بكلمة « العظام »؛ لأنها اللفظة الطبيعية المُبَرَّأة عن كل نزعة، ولا تقبل أن تلتوي، ولا تثير معنًى، ولا تحمل غرضًا، إذ تكون في الحي والميت، بل هي بهذا أخص، وفي الجميل والقبيح، بل هي هنا أليق، وفي الشاب والهرم، بل هي في هذا أوضح، والأعضاء لا تقوم إلا بالعظام، فالمجاز على ما ترى، والحقيقة هي ما علمت »[٢].

وهكذا نرى أن لفظة العظام تثير معنى الموت، وتومئ إلى مظاهر الفناء، فتنفي الإيحاء بالشهوة، وجاء التنفير الذي أفقد الأنوثة لغاية خلقية.

وقد ربط الحديث النبوي الأعمال الجيدة بالمعاملة الحسنة تجاه المرأة، بل جعل قمة الخيرية في التودد لها، كما في الحديث الشريف: « **خِيارُكُم خِيَارُكم لأهْلِه** »[٣].

---

(١) المجازات النبوية: ص١٦٦، وأبو عذر أي السابق إلى هذا المعنى.

(٢) وحي القلم: ٣/ ٣٣، وانظر المقال النفيس الذي عقده للفن الحديثي: ص٣ - ٣٠.

(٣) الترمذي في الرضاع، رقم ١١٦٢، وقال: « حسن صحيح » وأبو داود في السنة، رقم ٤٦٨٢، وفي بعض الروايات زيادة « وأنا خيركم لأهلي ».

وجعل من نفسه القدوة والأسوة الحسنة، فكانت حياته خير تعبير عن الرحمة في تحقيق قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، ونرى في الحديث تأكيد دناءة الذي يظلم النساء زوجة أو أختًا أو أُمًّا أو غير هذا، فهو يوصم باللؤم، وما هذا التحذير إلا لرفع شأنها وإعطائها حقها الذي فرضه اللَّه، بل جعل التقرب من الزوجة تقرُّبًا من اللَّه، وصرَّح في أحاديث كثيرة أن الصدقة تكون للمرأة الزوجة والعيال، حتى اللقمة في الفم، كما كان الجماع غفرانًا للذنوب، وما هذا إلا لشدِّ الروابط وتمكين العلاقة والمساواة.

٢ ثُنائية الخير والشر أو المدح والذم:

يجب أن نقرر أوَّلًا أن مقولة الخير والشر ثابتة المعايير في فن الحديث، غير خاضعة للتقلب النفسي أو متغيرات المجتمع، وارتبطت هذه المقولة في الأدب بالمدح والذم، وكان الأديب يمدح ويذم لغرض دنيوي أو شخصي، فجاء الحديث النبوي بالجديد النافع مطفئًا نار النُّعَرات في الذَّمِّ؛ لأن ما يَذُمُّه هو قبيح في نظر الجميع، إذ انطلق من مقاصد الرسالة السماوية والتعاليم الدينية.

فما يُمدح في الحديث وما يذم مُتَعَلِّق بالجمال المطلق والقبح المطلق، فالمؤمن جميل والكافر قبيح، والأشياء التي تنضوي تحت هذين كثيرة، ويكون هذا وفق تعاليم الدين وخلافًا لما نجد عند الأدباء، إذ مَنْ يُمْدَحْ يمكن أن يُهجَى، ويكون هذا نتيجة للظروف الاقتصادية والتقلبات العاطفية والسياسية، فيصبح نتاج الأديب سجلًا آنيًّا خاضعًا للنقض في مكان آخر وزمان آخر، في حين ترى المعايير ثابتة في الحديث، إذ تقدم فكرًا راسخًا يقوّم التفكير الإنساني، وينير له الدرب السوي، فكل ما يُمْدَحُ في الحديث هو خير، وكل ما يُذَمّ هو شر، ولا زيادة على هذه الثنائية، ولا تقلب ولا ذبذبة بين الطرفين، والأمثلة هي كل الأحاديث، ولا بأس أن نستشهد بالحديث الشريف: « **إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة، وبئست الفاطمة** »[1].

فالحديث يحذر مما سيقع فيه الناس من الحرص على الرئاسات، وما يترتَّب على ذلك من الخطر العظيم، والمسؤولية الجسيمة بعد تنعم تافهٍ يسيرٍ في الدنيا « فنعم المرضعة » أي: في الدنيا لما تؤدي إليه من المنافع واللذات العاجلة، و « بئست

(١) البخاري في الأحكام (باب ما يكره من الحرص على الإمارة): ٩/ ٦٣.

الفاطمة » أي: عند الانفصال عنها بموت أو عزل، أو ما سوى ذلك، فتنقطع تلك اللذات والمنافع وتبقى الحسرة والمسؤولية، وقد ضرب الحديثُ المرضعةَ مثلًا للإمارة الموصلة صاحبها إلى المنافع العاجلة، والفاطمة وهي التي انقطع لبنها مثلًا لمفارقته عنها بالعزل أو الموت، والقصد ذم الحرص عليها وكراهة طلبها.

وقال القاضي عياض: « شبّه الولاية بالمرضعة، وانقطاعَها بموت أو عزل بالفاطمة، أي: نعمت المرضعة الولاية، فإنها تدر عليك المنافع واللذات العاجلة، وبئست الفاطمة المَنِيَّة، فإنها تقطع عنك تلك اللذائذ والمنافع، وتبقى عليك الحسرة والتَّبِعَة، فلا ينبغي لعاقل أن يلم بلذة تتبعها حسرات، وألحقت التاء في « بئست » دون « نعم » والحكم فيها إذا كان فاعلهما مؤنثًا جواز الإلحاق وتركه، فوقع التفنن في هذا الحديث بحسب ذلك ».

وقال في شرح المصابيح: « شبه على سبيل الاستعارة ما يحصل من نفع الولاية حالة ملابستها بالرضاع، وشبّه بالفطام انقطاع ذلك عنها، عند الانفصال عنها، فالاستعارة في المرضعة والفاطمة تبعية، فإن قلت: هل من فائدة لطيفة في ترك التاء من فعل المدح، وإثباتها مع الذم؟ أجيب بأن إرضاعها أحبُّ حَالَتَيها للنفس، وفطامُها أشقها، والتأنيث أخفض حالتي الفعل، فاستعملَ حالة التذكير مع الحالة المحبوبة التي هي أشرف حالتي الولاية، واستعمل حالة التأنيث مع الحالة الشاقة على النفس، وهي حالةُ الفطام عن الولاية؛ لمكان المناسبة في المحلين ».

وفي شرح المشكاة: « إنما لم يُلْحِقِ التاء بِنِعْمَ؛ لأن المرضعة مستعارة للإمارة، وهي وإن كانت مؤنثة لكن تأنيثها غير حقيقي وألحقها ببئست نظرًا إلى كون الإمارة حينئذ ذاهبة، وفيه أن ما يناله الأمير من البأساء والضراء أشد مما يناله من النعماء، فعلى العاقل أن لا يلم بلذة تتبعها حسرات ».

التضاد والتقابل:

ويؤدي بنا هذا الحديث إلى أسلوب الأحاديث في التقابل بين الجملتين، وسهولة ألفاظه، وقلة عددها مع عظمة المعنى وسعة المدلول ومساحته النفسية، كما نلحظ قوة الحسم في اختتام الجملتين بالتاء المربوطة، التي تُلْفَظُ هاءً عند السكت، في المرضعة والفاطمة، مما يساعد في تقوية أداء الفكرة وصورة التحذير المطلوب.

وقد لجأ فنُّ الحديث لتجسيم معنى الحرص المؤذي واللذة المنقطعة إلى مشهد المرأة المرضع، ونلحظ في مشهد المرضع ما يوحي بوجود طفل غرير، ولهذا شدة في التحذير، إذ يكون الحريص على الرئاسات كالطفل في سذاجته، بل في طبيعته النامية النباتية تقريبًا والخالية من التفكير، ففي التعبير تحذير وشفقة في آن معًا، إذ يريد البيان النبوي أن يُخَلِّص الإنسان من الأخطاء ومن المرحلة الطفولية في التفكير.

وقد أبرز الحديث النبوي ثنائية الخير والشر أو فاعلية الجمال والقبح من خلال أسلوب التضاد الفكري، فيكثر فيه ما يسميه البلاغيون طباقًا، وذلك كثيرفي الأسلوب التقريري، وفي أسلوب التصوير، فكثيرًا ما تجد وصفًا للرجل الخَيِّر، ثم يتبع بوصفٍ للرجل الشرير السيء، بل يكثر أن يكون الحديث مؤلفًا من مشهدين: الأول: يصور في تشبيه أو استعارة الموقف الخَيِّر، ثم يأتي في الثاني تصوير الموقف القبيح. مثل حديث: **« مَثَلُ الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكِير الحدَّاد لا يعدمك من صاحب المسك إما أن تشتريه أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بيتك أو ثوبك أو تجد منه ريحًا خبيثة »**[1].

فالحديث يتكون من مشهد للجمال ومشهد للقبح، وفي المشهد الأول يتم تصوير معنى الخير مُمَثَّلًا بالجليس الصالح، وتُثار حاسة الشم التي تعمل على القرب والبعد لتوضيح الأثر النفسي لمجالسة الصالحين، وكأن العمل الطيب انقلب مسكًا ينعش الروح، في حين تجد استيحاشًا وذعرًا في القرب من كير الحداد الذي يمثل الجليس الطالح، وهنا تثار الحاسة اللمسية؛ لتلقي حرارة الكير، وهذه الحرارة محيطة بالإنسان؛ لأنها تحرق البيت بل ملاصقة له؛ لأنها تحرق الثياب، وهكذا تصغر الدائرة لبعث الشعور بالذعر فضلًا عن الرائحة التي تصاحب الكير، فالنار صارت رمزًا لعذاب الآخرة عندما يتم التفاعل مع الجليس الطالح، والرائحة المنتنة في سطحية اللقاء معه، إذ لا بد أن يظهر قبحه بعيدًا أو قريبًا.

والتضاد استكمالٌ لجوانب الفكر، وراحةٌ للنفس في الاطمئنان على المصير، فيعرف المرء ثوابه وعقابه.

---

(١) رواه البخاري في البيوع (باب العطاء وبيع المسك)، ومسلم في البر والصلة (باب استحباب مجالسة الصالحين) رقم ٢٦٢٨.

فهو أسلوب منطقي، به يتم تحقيق الإقناع، ويكتسب به المتلقي الاقتناع، وقد ذكر الأقدمون: وبضدِّها تتميز الاشياء.

ولا بأس أن نختم الكلام على التضاد بهذا الحديث: « **السخي قريب من اللَّه، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من اللَّه، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار. ولجاهلٌ سخِيٌّ أحبُّ إلى اللَّه ﷻ مِن عَابِدٍ بخيل** »[1].

وهكذا نرى جزئيات تتعدد في الطرف الأول؛ ليمثل الطرف الثاني نقيضها فثمة بُعد وقرب، سخاء وبخل، جهل وتعبّد، وثمة جنة ونار ونرى أنها تفيد العلم مع التعبد، وتلك غاية سامية في الدين الحنيف.

والحق أن مفهوم المدح والذم ظلَّ مرتبطًا بمفاهيم الدين، فنرى التضاد قائمًا بصرامة بين المَلَك والشيطان، والخير والشر، والطاعة والمعصية، والجنة والنار، وغير هذا مما هو ثابت خاضع للمنطق السوي ومُفسَّر بحياة الإنسان وطبيعته.

٣ ظاهرة الموت:

الموت حقيقة كبرى، ليست تعمى دونها الأبصار، وقد جاء الحديث مرادفًا للقرآن الكريم؛ ليقرر ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧]. وأن الموت مجرد انتقال من عالم الحس إلى عالم الغيب، وبعد الموت هنالك الحساب، فثواب وعقاب، والموت حق على كل فرد كما قررت الآية الكريمة، مهما علا شأن هذا الفرد.

وقد كرَّم الفنُّ النبوي الشهادةَ، وجعل الشهادة إلى جانب مرتبة الأنبياء والصِّدِّيقين، كما في الحديث: « **مَن قاتلَ في سبيل اللَّه فُوَاقَ ناقةٍ وجبتْ له الجنة** » [أخرجه الأربعة]. وفي المسند بلفظ: « **حرم اللَّه وجهه على النار** »[2].

وتغير مفهوم الموت في عقلية المسلم بعد أن كان لأغراض دنيوية، فصار لأغراض سامية، مرتبطًا بوعد اللَّه الحق بالجنة، كما في قوله ﷻ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] فكان المسلمون يُهرَعون

---

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (السخاء): ٤/ ٣٤٢، ٣٤٣. وله طرق يقوي بعضها بعضًا.

(٢) أبو داود، رقم ٢٥٤١. والترمذي وصحَّحه، رقم ١٦٥٧. والنسائي: ٦/ ٢٥، ٢٦. وابن ماجه، رقم ٢٧٩٢. والمسند: ٤/ ٤٤٢، ٥٢٤. ورواه ابن حبان والحاكم. وفواق الناقة: مقدار حلبها من الزمن.

إلى ساحات الوَغى طالبين رضا اللَّه مُتَعطِّشين إلى الشهادة، نابِذِين متاعَ الدنيا، غير آبهين بألم الموت، فَسِيَّان الحياة والموت ما دام المسلم يسلم روحه لخالقها، وينصر الدين.

وقد غفرت ذنوب الشهيد كما في الحديث: « **يُغْفَرُ للشهيد كلُّ ذَنْبٍ إلا الدَّين** »[١].

وجعل الحديث الموت نهاية لاحتمال وقوع الذنوب كما في الحديث: « **الموت كفارة لكل مسلم** »[٢]، فليس في الموت مصيبة تنقلع لها القلوب، وتقف إزاءها مظاهر الكون جامدة حزينة على الفقيد، بل الموت خلاص من دار الامتحان، وفوز للمؤمن، ولذلك أبطل ما كان عليه الجاهليون من المبالغة في المراثي والنعي الواسع، والأعمال غير المتزنة في التصرفات والأقوال، فحرَّم تمزيق الثياب وحلق الرأس والنياحة، وغير ذلك مما كانوا عليه، وأطلق عنان العواطف الإنسانية تُعبِّرُ عن نفسها، فها هي عاطفة الوفاء تثور في هذه النفس الكريمة عندما خشي على صاحبه سعد بن عُبَادة الذي كان له سهم كبير في دخول الأنصار الإسلام،.. فلما دخل عليه، فوجده في غاشية أهله، فقال: « **قد قضى** »؟ قالوا: لا يا رسول اللَّه، فبكى النبي ﷺ، فلما رأى القومُ بكاءَ النبي ﷺ بكوا، فقال: « **ألا تسمعون، إن اللَّه لا يعذب بدمع العين، وبحزن القلب، ولكن يعذب بهذا** – وأشار إلى لسانه – **أو يرحم** »[٣].

فيحسن للمسلم أن يدعو للميت بدلًا من الندب القبيح، خصوصًا ما نجده في مراثي العصور المتأخرة من مبالغات وميوعة مشاعِرَ، مما يُخْجِلُ ويرفضه المنطق ورجاحة العقل والاتزان، فالعذاب كما في الحديث من حصائد اللسان؛ فيعذب اللَّه به إن قال شرًّا، أو يرحم به إن قال خيرًا.

ولم ينتفِ الرثاء في الحديث بشكل كُلِّي ما دام تعبيرًا موزونًا عن العواطف، إذ لا خلاص من المشاعر الإنسانية في فَقْدِ عزيز أو قريب أو عائل، وإنما أبعدت عن ساحة الإسلام سلبيات الرثاء والنوح، وما يكون من تضخيم شأن الميت، وكأن الدنيا تزول بزواله والعياذ باللَّه، ولا شك أن النبي الرؤوف الرحيم ﷺ قد انفطر قلبه لدى فقده ولده

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (باب من قتل في سبيل اللّـه): ٧/ ٣٨.

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء والبيهقي، وصحَّحه ابن العربي وحسَّنه العراقي. فيض القدير: ٦/ ٢٩٧.

(٣) البخاري في الجنائز (البكاء عند المريض)، ومسلم: ٣/ ٤٠. ومعنى غاشية أهله الذين يغشونه أي: يدخلون عليه للخدمة والزيارة. وكان سعد بن عبادة مرض مرضًا شديدًا، لكنه عاش، وتوفي بعد النبي ﷺ.

إبراهيم، والحديث يبين لنا كيف تجلَّت العاطفة من القلب الرحيم لمَّا دخل على ولده آخر أمل من أولاده الذكور الذين ماتوا قبله.

قال أنس ﷺ: « ... ثم دخلنا عليه[1] بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول اللَّه ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول اللَّه؟ فقال: « **يا ابن عوف! إنها رحمة** »، ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: « **إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول: إلَّا ما يُرْضِي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون** »[2].

فلا سيطرة على المشاعر، وإلا لكان في الأمر مغالطة، ولكن الذي تغير مع الإسلام هو مظاهر تبيان الحزن المختلفة عن صنيع الجاهليين، وعما يصنعه بعض الجُهَّال في عصور أخرى.

٤ الفخر:

خرج الفخر في الإسلام من مفهومه القديم إن كان فخرًا ذاتيًّا، أو كان فخرًا قبليًّا؛ وذلك لأن تعاليم الإسلام تُوجب إنكار الذات، وإيثار الغير مع تحقيق موازنة في هذه القضية، ويرسخ الفخر في الإسلام مبدأ الانتماء إلى الدين الحنيف والمساواة في الخضوع إلى خالق واحد، فلا قبيلة ولا ذات.

وبهذا المنهج يبعد الانكماش النفسي والتقوقع والانغلاق على الذات، وعنجهية الاعتزاز بالعرق أو الجنس أو اللغة، قال اللَّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

كذلك حسم القرآن الكريم مسألة الفخر بصراحة، فقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨].

وفي آية أخرى قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

وهذا طبيعي؛ لأن الفخر تعالي المخلوق على الخلق، والتميز المريض عن الغير.

والأحاديث التي تدلُّ على توحيد الناس والمساواة بينهم كثيرة، ومبرزة للمفهوم

---

(١) أي: على أبي سيف الذي كان إبراهيم مسترضعًا عنده.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز: ٢/ ٨٣، ومسلم في الفضائل (رحمته ﷺ الصبيان والعيال..): ٧/ ٧٦.

الجديد لعنصر الأفضلية: إنه التقوى، فقد جاء في الحديث: « **النَّاسُ سَوَاسِيَةٌ كأسنانِ المِشْطِ** »[١] وكذلك قوله ﷺ: « **لَسْتَ بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى** »[٢].

وأعلن البيان النبوي هذا المنحى الفكري في خطاب عام يوم فتح مكة، يرويه عبد اللَّه بن عمر أن رسول اللَّه ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة فقال: « **يا أيها الناس إن اللَّه قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية، وتعاظمها بآبائها، الناس رجلان: بَرٌّ تقي كريم على اللَّه ﷻ، وفاجر شقي هين على اللَّه ﷻ، الناس كلهم بنو آدم، وخلق اللَّه آدمَ من تراب، قال اللَّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾** [الحجرات: ١٣][٣] » والأحاديث في هذا المعنى كثيرة[٤].

التحدُّث بنعمة اللَّه:

ولكن النبي الكريم ﷺ تحدَّث في مقابل ذلك بما أنعم اللَّه عليه وأكرمه من الإكرامات لا افتخارًا، ولا قصدًا للتعظيم والتجبُّر، بل الاعتراف بالنعمة شيء من التواضع الكريم إزاء عظمة الخالق، وبيان لنعمة اللَّه على الإنسان، وذلك امتثال وقيام بقوله ﷻ: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١].

فمن ذلك قوله: « **أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر** »[٥].

فالتحدُّث هنا إنما هو بمواهب اللَّه تعالى وإكراماته، ثم هو لدافع غير ما كان عليه الناس من المباهاة والتعظيم والكبر وغير ذلك؛ لأن الشعور بالذات غير موجود، لكنه التحدُّث بنعمة اللَّه - تعالى -، وإعلام الأمة بالواقع ليعرفوه.

---

(١) أخرجه الديلمي بإسناده عن سهل بن سعد وعن أنس بن مالك، كما في كشف الخفاء: ٢/ ٤٥١.
(٢) أخرجه أحمد في المسند: ٥/ ١٥٨.
(٣) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٤٩، وأبو داود في الأدب (التفاخر في الأحساب): ٤/ ٣٣١.
(٤) انظر تفسير ابن كثير: ٧/ ٣٦٥ - ٣٦٧.
(٥) أحمد والترمذي وابن ماجه، وقد سبق تخريجه أول الباب.

المقاصد الموضوعية

يُقَدِّمُ القسمُ الأكبر من الحديث الشريف علومًا جديدة، ومعرفة جديدة، ونجد ما يجيء فيه من أحكام ومواعظ مرافقًا للإنسان من يقظته إلى نومه، ومن مَوْلِدِه إلى مَمَاتِه؛ لذلك يمتلك الحديث النبوي عنصر المعاصرة والتكيف مع الأزمنة، وما في الحديث جديد على الفكر الإنساني، ومضامينه جديدة على الآداب العربية والأجنبية، وهو يقدم معرفة ثابتة لا تنقضها مكتشفات حديثة، ولا تغيرات تمدنية أو اجتماعية؛ لأنها معرفة تستلهم أصولها من الخالق ﷻ، ونستطيع تقسيم موضوعات الحديث إلى ثمانية أقسام أساسية، تندرج تحتها تفاصيل جزئية لهذه الموضوعات التي شملت كل جوانب الحياة، **وذلك بما يأتي:**

١ العقائد:

وفيها أركان الإيمان وشرح هذه الأركان، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وتفاصيل واسعة حول هذه الأمور، وتدخل فيها الأمور الكونية من خلق السموات والأرض؛ لأن الكون في الحديث كما يقول الرافعي: « آية الحكمة لا آية الفن، ومنظر المستيقن لا منظر المتخيل، ومادة العبودية لله، لا مادة التأليه للإنسان ».

ويتضمن هذا القسم ما جاء حول ظاهرة الوحي، وخلق الإنسان، وخلق العالم، ومنه الإخبار عن تفاصيل القيامة، ونعيم أهل الجنة، وعن مظاهر العذاب في نار جهنم؛ مثل الحديث: « **إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لرجل يوضع في أخمص قدميه جَمْرَتان يَغْلي منهما دماغه** »، « **ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا، وإنه لأهونهم عذابًا** »[١].

٢ الأحكام:

وتشتمل على العبادات الصلاة والصوم والزكاة والحج، وما يتبع هذا من جزئيات حول أمور الطهارة والصلوات الخاصَّة والرُّخَص في العبادة، وفيه أيضًا الأحكام المالية كالمواريث، والبيوع من ذلك حديث: « **من كان شريك في ربعة أو نخل، فليس له أن يبيع حتى يؤذن شريكه، فإن رضي أخذ وإن كره ترك** »[٢]. وكذلك يشتمل على القصاص

(١) البخاري في أواخر الرقاق: ٧/ ١١٥، ومسلم في الإيمان (أهون أهل النار..): ١/ ١٣٥، ١٣٦. والشطر الثاني زيادة من طريق آخر.

(٢) مسلم أواخر البيوع (باب الشفعة): ٥/ ٥٧.

وإقامة الحدود كحد الزنى والسرقة والقتل ودية القتيل، والأمور الأسرية كالخطبة والزواج والنفقة والطلاق ومعاشرة الزوجات، وغير هذا، مثل حديث: « **إذا كان عند الرجل امرأتان، فلم يعدل بينهما، جاء يوم القيامة وشقه ساقط** »[١].

٣ السير:

وفيها أحكام السلم والحرب والعهود، والعلاقات الدولية والمغازي التي كانت في السيرة النبوية، وما وراء ذلك من أحكام، وما فيها من سجل مفاخر يُعْتَزُّ بها بحق، وأحكام الصلح وشروطه.

٤ الآداب:

وفيها الجوانب الخلقية التي تكمل شروط الإسلام، فهي تشتمل على آداب الحياة اليومية من مشي وطعام وشراب وملبس ونوم واستيقاظ، فقد تغلغلت المعرفة العليا في الحديث لتغطي كل تفاصيل الحياة اليومية مثل الحديث: « **إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت** »[٢]، وكذلك حديث « **أي عائشة، إن شر الناس منزلة عند اللَّه من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء فحشه** »[٣]، فالأدب يعني هنا السلوك الشخصي، ويأتي في مرتبة الكماليات بالنسبة إلى ضروريات الإيمان والعبادات، وفي هذا القسم حقوق اجتماعية واجبة وآداب تقوي العلاقات.

٥ التفسير:

إن الرسول الكريم هو المُفَسِّرُ الأول من البشر للقرآن الكريم. ولا يجوز لمفسر أن يتغاضى عما ورد في الحديث الصحيح من تفسير، ولا يقصر في الرجوع إليه، من ذلك مثلًا الحديث: « **المسلم إذا سُئِلَ في القبر: يشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه، فذاك قوله:** ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] »[٤]، وهو باب كبير يتناول أيضًا ما ورد من الأحاديث الشريفة في فضائل

---

(١) أبو داود في النكاح (القسمة بين النساء): ٢/ ٢٤٢. والترمذي، رقم ١١٤١. والنسائي: ٧/ ٦٣.

(٢) البخاري في الأدب (باب إذا لم تستح..): ٨/ ٢٩.

(٣) البخاري في الأدب (ما يجوز من اغتياب أهل الفساد..): ٨/ ١٧، ومسلم في البر والصلة (مداراة من يُتَّقَى فحشه): ٨/ ٢١.

(٤) البخاري في التفسير (يثبت اللَّه..): ٦/ ٨٠.

القرآن عامة مثل: « **القرآن هو النور المبين والذكر الحكيم، والصراط المستقيم** »[١] وكذلك حديث: « **القرآن شافع مشفع، ومَاحِلٌ مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار** »[٢]. أو في بعض السور والآيات مثل: « **لكل شيء قلب، وقلب القرآن يس** »[٣]، وكذلك يتضمن أسباب النزول.

٦ الفتن:

وربما يُعَبَّر عنها بالملاحم، وهو باب كبير، فيه أحاديث كثيرة جدًّا تخبر عما سيقع بين المسلمين من الفتن والانشقاقات، وما سيقع في العالم من حروب وملاحم، وما سوف يطرأ على الناس من انحرافات في الأخلاق والسلوك والأفكار مثل حديث: « **إنكم سترون بعدي أَثرةً، فاصبروا حتى تلقوني** »[٤].

وفي حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: « **يتقارب الزمان، وينقص العلم، ويُلقى الشح، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج** » قالوا: يا رسول اللّه، أيما هو؟ قال: « **القتل القتل** »[٥].

ولهذا جاءت أمثال هذه الأحاديث للتبصير والتحذير من الفتن، ولكن هذا الباب كثر فيه الضعف والوضع والاختلاق، حتى حذَّرَ العلماء من الاغترار بما يروى فيه من غير تثبت وتأكد، لكن فيه جملة صحيحة تحقق وقوع بعضها، والبعض الآخر لم يأتِ حدوثه بعد.

٧ أشراط الساعة:

وفي هذا القسم كلام على ما يطرأ من تغيرات في العالم قبيل القيامة، وما يقع من أحداث فلكية أو أرضية أو جيولوجية كبيرة قبيل القيامة، وتقسم إلى قسمين: أشراط صغرى، وأشراط كبرى، ويقع في أحاديث هذا الباب الضعف والوضع وكثرة الخرافات

---

(١) أخرجه البيهقي كما في الجامع الصغير رامزًا لحسنه. انظر فيض القدير: ٤/ ٥٣٦.

(٢) ابن الضريس في فضائل القرآن من ثلاثة طرق: ص٥٨، ٥٧، ٦٣. وابن حبان: ١/ ٣٣١. والطبراني، رقم ١٠٤٥٠. وانظر مجمع الزوائد: ١/ ١٧١، ٧/ ١٦٤. والترغيب: ٢/ ٣٤٩. وكتابنا علوم القرآن الكريم: ص٢٦٩، ومَاحِلٌ: ساع أو مجادل.

(٣) ورد من طرق عن معقل بن يسار في المسند: ٢/ ٢٦، وأنس في الترمذي، رقم ٣٠٤٨، وأبي هريرة عند البزار، انظر تفسير ابن كثير: ٦/ ٥٤٧، وعلوم القرآن الكريم: ص١٥٦.

(٤) البخاري في الفتن: ٩/ ٤٧، ومسلم في الإمارة: ٦/ ١٩. زاد مسلم: « تلقوني على الحوض ».

(٥) البخاري: ٩/ ٤٨، ومسلم في العلم: ٨/ ١٩، وعنده لفظ: « يقبض العلم ».

مثلما يكون في الفتن، وقد صنفت كتب كثيرة في هذا الفن، ويدخل المصنفون في هذا القسم ما يتعلق بتغير أحوال الناس.

مثل حديث: « **لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد** »[١] إذ الطبيعي أن يعتريهم شعور بالخنوع أمام الله ﷻ خصوصًا في بيت من بيوته، وكذلك الحديث « **لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس** »[٢].

٨ المناقب:

ويقصد بها الفضائل، ويتعلق بها ضدها أي: المثالب، وليس المراد هنا بالفضائل فضائل الأعمال، بل إنهم يوردون أحاديث فضائل الأعمال في الأبواب التي تتبعها تلك الأعمال، ففضائل الصلاة مثلًا في كتاب الصلاة، وفضائل الحج في كتاب الحج. والمراد هنا فضائل الأشخاص كالأنبياء والصالحين والصحابة - رضي الله عنهم -، وكذلك فضائل القبائل والشعوب والأزمنة والأمكنة مثل ما جاء في فضل اليمن وقبيلة قريش، وفضل الشام، وزمان الصحابة - رضي الله عنهم -، وما يتعلق بذلك ويلحقه من موضوعات.

وهكذا نجد أن الحديث النبوي قد صاغ عقلية الإنسان صياغة جديدة، وأعاد بناء العقل والفكر الإنساني، والسلوك الإنساني، والمعتقدات الإنسانية، في كل ما يأتيه الإنسان ويذره، وما يعقله ويعتقده، وما يعلمه وما يدركه؛ مصداقًا لقوله تعالى وجلت حكمته: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

* * *
* *
*

(١) المسند: ٣/ ١٣٤، ١٤٥، وأبو داود (بناء المساجد): ١/ ١٢٢، والنسائي: ٢/ ٣٢، وابن ماجه: ١/ ٢٤٤، وصحّحه ابن خزيمة، رقم ١٣٢٢ أو ١٣٢٣، وابن حبان: ٤/ ٤٩٣. وانظر شرحه في كتابنا إعلام الأنام: ص٤٥٩.
(٢) مسلم أواخر الفتن (قرب الساعة): ٨/ ٢٠٨.

الفَصلُ الخَامِسُ
عوامل مؤثرة
في فن الحديث النبوي

لا ريب أنه كانت عوامل ظاهرة كان لها الأثر الكبير في قوة البيان النبوي، وعلو مستواه، وهي مسألة مقررة في دراسة الأدب وتاريخه، فالبيئة مثلًا عامل قوي، جعلها النقاد أحد العناصر المشكلة للنص الجمالي إلى جانب الجنس أو العرق. لكننا هنا أمام أدب غير آداب البشر؛ لأنه أدب أثر تأثيرًا فريدًا في العالم، وقلب بيئته رأسًا على عقب، مستمدًّا من عالم الغيب، ورعاية السماء، التي أنطقتْ اللسان النبوي الشريف بالدرر والروائع، لذلك نقسم هذه العوامل إلى عوامل عامة وعوامل خاصة.

العوامل العامة

١ كونه عربيًّا خالص النسب العربي ومن ذؤابة قريش:

ومن المعهود أن العرب أمة بيان، وفرسان كلام، بل هي أمة تقاد بِمِقْوَلِهَا أي: لسانها، وكانت الكلمة ذات حضور قوي في يومياتهم، وتعمل في عواطفهم وحالهم ما لا تعمل في غيرهم في الأمم، وكانت الفصاحة شرطًا للشرف، وقد بلغت الأمة العربية أوج نتاجها في عصر النبي ﷺ، فاجتمع لها الشعراء، بل تعددوا حتى في الفخذ البسيط من القبيلة الواحدة، وكانت المعلقات التي كتبت كما يروى بماء الذهب وعُلِّقت على جدران الكعبة خير دليل على تقديسهم للكلمة الجمالية، وكذلك كانت القبيلة ترتفع بقصيدة مديح تقال فيها أو خطبة، وتخمل بقصيدة هجاء تُنْظَمُ في حقها بلسان بليغ.

وقد كانت قريش سادة العرب، وكانت لغتها هي اللغة الأدبية الراقية، التي يسجل بها الشاعر والخطيب إبداعه كأن يقول شاعر حِمْيري أو يَمَني كامرئ القيس بلهجة قريش الأدبية؛ وذلك لأنها منتشرة، وخالية من الشوائب، كما امتازت بسبع خصال - كما ورد في الحديث - فضلت بها، نذكرها فيما يلي من نص الحديث:

« ... فَضَّل اللَّه قريشًا بأني منهم، وأن النبوة فيهم، وأن الحجابة فيهم، وأن السقاية

فيهم، ونصرهم على الفيل، وعبدوا اللّٰه عشر سنين لا يعبده غيرهم، وأنزل فيهم سورة من القرآن لم تنزل في أحد غيرهم »[(١)].

وهي فضائل تظهر شرف قريش وسيادتها في الجاهلية ثم في الإسلام، ومن مظاهر سيادة قريش، بل من لوازم السيادة الضرورية في ذلك المجتمع أنها كانت أفصح قبائل العرب لهجة، وأصفاها بيانًا، وأعذبها منطقًا، وأقواها لسانًا، وقد تهيأ لقريش في لغتها وبيانها قبل الإسلام من عوامل النقاء والصفاء ما لم يتهيأ لغيرها، وحسبك من ذلك أن ينزل القرآن بلسان قريش.

وقد كانت العرب تتوافد إلى مكة للحج، ويقصدون الأسواق القريبة منها، وهي أسواق قائمة للتجارة وللأدب حيث تجتمع القبائل فيها للمفاخرة والمنافرة، وتقال الأشعار والخطب، فيعرض كل أديب ما في جَعْبَتِه، ثم يحكم النقاد في تمييز الغث من السمين.

كذلك كانت قوافل قريش تمر في رحلاتها التجارية بالقبائل، وهي رحلات منظمة، كما سجلها القرآن ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴾ [قريش: ١]، رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، وفي خلال الرحلات تتلاقى جماعات قريش مع القبائل، وتتلاقح العقول والألسنة في مجتمع تحتل فيه البلاغة مكانة الأوج، فيختار القرشيون بذلك أفصح ما لدى القبائل، وأحسن ما عندهم من بيان يدخلونه في لغتهم، وينفون عنها كل ما شانه عيب، أو كَدَّرَ صفوَه مُكدِّر، حتى إذا ما كان عصر البعثة النبوية كانت لغة قريش سيدة لغات العرب بلاغة وفصاحة.

ونشأ النبي الكريم بين هذه القبائل القرشية، وأمضى طفولته بعد فترة الرضاع لدى بنى بني سعد، ثم أمضى شبابه وكهولته في قريش، بل في القمة في الشرف حيث بنو هاشم الذين كانت القبائل الأخرى تسابقهم على الشرف والفضائل والمآثر.

٢ نشأته الأولى في بني سعد:

فقد عهد به جدُّه عبد المطلب إلى حليمة السعدية لترضعه، فسعدت هذه القبيلة بنشأته فيها منذ حداثة عهده ﷺ بالدنيا إلى خمس سنوات من عمره المنيف، ولا يخفى

(١) أخرجه الطبراني، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٤: وفيه من لم أعرفه انتهى. لكن له شاهد بمعناه أورده الهيثمي كذلك فيتقوى به، والأحاديث كثيرة في فضل قريش.

أثر هذه الفترة في حياة الإنسان وتكوينه اللغوي والفني، وهكذا شرب النبي ﷺ في صغره ونشأته الأولى اللغة السليمة النقية، مع لبان رضاعه من مرضعته حليمة السعدية.

وكانت قبيلة بني سعد إحدى القبائل الأفصح، وكانت تسكن وسط الجزيرة العربية، ولهذا فهي بعيدة عن الاختلاط بالأمم الأخرى، فلا تجد في لغتها الرطانة واللحن مما يصيب القبائل المُحَاذِية للروم والفرس، والقبط والأحباش، حتى كانت لغة بني سعد من اللغات السبع الفصيحة.

وتدخل قبيلة بني سعد مع ثلاث قبائل تجاورها تعرف باسم « عليا هوازن » وهي قبائل مشهورة بالفصاحة، يقوم الإمام اللغوي والمقرئ أبو عمرو بن العلاء: « أفصح القبائل عُليا هوازن وسُفلى تميم ».

ونخلص في النتيجة إلى عرض نقتبسه من كلام الرافعي لتعبيره الموجز والبليغ حيث قال: « وكان مولده في بني هاشم، وأخواله من بني زهرة، ورضاعه في سعد بن بكر، ومنشؤه في قريش، ومُتَزَوَّجُهُ في بني أسد، ومهاجرته إلى بني عمرو، وهم الأوس والخزرج من الأنصار، لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة، ولقد كان في قريش وحدهم ما يقوم بالعرب جملة »[1].

٣ نشأته على اليتم ورعيه الغنم:

وكانت تلك تجربة عملية فائقة الفائدة، فهو تحسس بنفسه ما يعانيه أفراد المجتمع البسطاء من آلام ولوعة الفقد، ولم تكن تجربة نظرية بحتة، بل كانت تجربة شخصية، ومن المعهود أن رعي الغنم يورث صاحبه أناةً وحلمًا، خصوصًا إذا تصورنا الرعي في البيداء الواسعة التي تصبغ على المرء هدوءًا وصمتًا عميقًا، ووضوحًا مع استواء الصحراء.

والغنم أضعف البهائم، وأكثرها هدوءًا؛ ولهذا يسكن قلب من يسترعيها سكينةٌ ولطفٌ وتضاعفُ التعطف، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان لما هذب أولًا من الحدة الطبيعية والظلم الغريزي، فيكون في أعدل الأحوال حتى كانت الرعاية صورة مثلى لواجبات الناس تجاه بعضهم ومسؤولياتهم، كما في الصحيحين: « **كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته** » وهو تعبير جامع لضبط الرعية وحمايتها جسمًا وروحًا ونفسًا من باب المسؤولية لا من باب السيادة والتسلط.

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ص٣١٨.

وهكذا نجد الأحاديث في هذا الباب كثيرة جدًّا، مثل: « **اتقوا اللَّه في الضعيفين: المملوك والمرأة** »(١)، ومثل: « **اتقوا اللَّه في النساء فإنهن عَوَانٍ عندكم، أخذتموهن بأمانة اللَّه، واستحللتم فُروجهن بكلمة اللَّه** »(٢) بل نجده يقول: « **مَن لا يَرحم لا يُرحم** »(٣)، حتى كانت حياته الكريمة ووصاياه صمام أمان لأمته فيما حل بها، سواء في الأفراد أو الجماعات من مصائب وعواصف، فلم تعرف اليأس، ولا العقد النفسية، ولا الانحرافات التي تقع لمن ذاق الحرمان أو الشدة في الحياة، بل كانت سيرته أسوة حسنة في الصبر والمصابرة، كما كانت أحاديثه ووصاياه بلسم الشفاء لهذه الأدواء.

العوامل الخاصة

وهي عوامل من العناية الإلهية لم يكتسبها - عليه الصلاة والسلام - بالتجربة التي قد تتسنَّى لكل شخص، وإنما هي منح رباني، كان له الأثر العميق في رفعة بيانه؛ **نذكر منها بإيجاز شديد ما يأتي:**

١ الكمال الأخلاقي:

لا شك في أن الأدب يعكس صورة للأديب، وعلى قدر الإيجابيات الخلقية في الأديب يكون الأثر في المجتمع، ولقد علم الجميع غاية كمال خُلُقِهِ ﷺ، ولذلك تجد في الفن النبوي الوضوح؛ ذلك لأنه يدرك ما يقول، ولا يخرج الكلام عن حالات خاصة لا شعورية أو انفعالات ممزقة، بل تجد الصراحة الخالصة، والعبارة العفوية الخالية من التكلف، والسهولة نابعة من خُلُقِه السَّمح وصِدْقِه البالغ أقصى غاية، فالأديب عندما يكون خَشِنًا يميل إلى التقعر، وإغماض المعاني، واللين نابع من نفس متواضعة رحيمة، وكانت الرحمة وصفه الأغلب، بل هي شعار بعثته للعالم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

هذه قبائل هوازن بعد المعركة الكبرى التي خاضوها ضده، والتي انكشف فيها المسلمون لهول المفاجأة التي أعدها لهم العدو انكشافًا لم يروا مثله، فثبت فيها النبي ﷺ، ونزل عن بغلته إلى الأرض إمعانًا في الثبات، واقتحم الجحافل المهاجمة

(١) أخرجه ابن عساكر كما في فيض القدير.

(٢) مسلم في ضمن خطبة حجة الوداع في كتاب الحج: ٤/ ٤١. قوله: عوان، أي: أسيرات.

(٣) البخاري في الأدب (رحمة الولد وتقبيله): ٨/ ٧. ومسلم في الفضائل: ٧/ ٧٧.

بمفرده مع بضعة عشر نفرًا من أصحابه ثبتوا معه، وهو ينادي بملء صوته في وادي حنين:

أنـــــا الـنـبــــي لا كـــــذب   أنـــــا ابـن عبـد المطلـب

لقد كان للصدق الأثر الأكبر في جمال النص الحديثي؛ لأنه دلَّ في الأسلوب على هدوء، إذ تمتع الرسول الكريم باستقرار نفسي، ولم يغلب النفس على المنطق، ولم يدل على تقلب.

لقد ثبت لهذا النداء المسلمون، وأنزل اللَّه سكينته عليهم، وصارت جنود العدو ونساؤهم وذراريهم وأموالهم وأنعامهم غنيمة للمسلمين، فجاء وفدهم كلهم يكلم النبي يستعطفه ويسترحمه، ورقَّتْ لهم نفس النبي الكريم، فقال لهم: « **أَحَبُّ الحديث إلي أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبي، وإما المال..** »[1]، هكذا الصراحة في الحديث، لا مواربة ولا مداورة، مع الرأفة والرحمة، وليس على ما عليه شأن القادة الغالبين من الانتقام والتشفِّي.

هذه العناصر الخلقية كانت تتجلى في أدبه السامي، وجعلت كلامه يتحدَّى الفناء، ويتجاوز البيئة والعصر، فقد سلك سبيل الخلود وملاءمة الأذواق في كل زمان؛ لأن الإنسان لا يستغني عن مثل هذه الصفات.

٢ طبيعة الدعوة الإسلامية:

إن دعوة الإسلام تمتاز بالبساطة والصراحة، وبالوضوح والبُعد عن التعقيد في نظامها الفكري وعقائدها، التي أساسها التوحيد الخالص من أي شائبة من شوائب الشرك وعبادة غير اللَّه - تعالى -، مما يجعلها قريبة سائغة لفطرة العقول، تميل إليها وتنجذب نحوها، كما أنها في تكاليفها قائمة على اليسر والبعد عن الحرج.

وهكذا نجد النصوص النبوية في أصل الإيمان الذي هو أساس الإسلام واضحة بعيدة عن التكلُّف والتعقيد، في حين نجد المذاهب الأخرى أعقد ما تكون في بيان أصلها النظري الفكري، وأغوص في غياهب الإبهام والغموض، وترى الطبع الذاتي يجعل بعضهم يمعن في الإبهام، ليأتي تلميذه لينقض مذهبه وينسف أُسسه، فقد خالف أرسطو

---

(١) البخاري كتاب المغازي (قول اللّـه - تعالى -: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾): ٥/ ١٥٤.

أستاذَه أفلاطون، وخالف يونك أستاذَه فرويد، ثم إن كثيرًا من أعمال المفكرين تستعصي على الذهن وتذهب هباءً مع الريح بعد أن تنكمش على ذاتها، أو يُظهر بطلانها الزمن.

لننظر هذا النص في الحوار مع عدي بن حاتم كما يُحدِّثنا عدي نفسه، قال: « أتيت رسول اللَّه ﷺ، وهو جالس في المسجد، فقال القوم: هذا عدي بن حاتم، وجئت بغير أمان ولا كتاب، فلما دفعت أخذ بيدي، وقد كان قال قبل ذلك: إني لأرجو أن يجعل اللَّه يده في يدي، قال: فقام فلقيته امرأة وصبي معها، فقالا: إن لنا إليك حاجة، فقام معها حتى قضى حاجتهما، فعرفت أنه ليس ملك كِسْرى ولا قيصر، ثم أخذ بيدي حتى أتى بي داره، فألقت له الوليدة وسادة، فجلس عليها، وجلست بين يديه، فحمد اللَّه، وأثنى عليه، ثم قال: « **ما يُفِرُّكَ**[1] **أن تقول: لا إله إلا اللَّه؟ فهل تعلم من إله سوى اللَّه** »؟ قال: قلت: لا، قال: ثم تكلم ساعة، ثم قال: « **إنما تَفِرُّ أن تقول: اللَّه أكبر، وتعلم أن شيئًا أكبر من اللَّه؟** » قال: قلت: لا، قال: فأسلمتُ، فرأيتُ وجهه استبشر... الحديث[2].

٣ نزول القرآن على قلبه وتعليم اللّه إياه:

وهذا أعظم ما أراده اللَّه له، واصطفاه به، ليسبغ عليه تلك الفصاحة والبلاغة التي كان بها نسيج وحده في الناس، انظر قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤]، حيث جعل القلب موضع تنزل الوحي المعجز للعالمين بفصاحته وبلاغته، وإذا كان القلب مستقر هذا التنزيل كان لا بد أن تشع منه الآثار والأسرار فيفيض بها اللسان، فالقرآن كان له الفضل في زرع الطمأنينة في صدره الشريف، وكان خير منهل يقصده ويتدَّرب عليه في تشكيل الكلام البليغ.

ومما يدل على هذا أمران:

الأول: نص القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣]، فقد امتنَّ اللَّه - تعالى - على نبيه بأنه أنزل عليه الكتاب والحكمة، وقد فسَّرَ الإمام الشافعي الحكمة بأنها السنة النبوية[3]، ولا شك أن هذا يدل على عظمة هذه السنة؛ لأن

---

(١) أي: جعلك تفر.

(٢) الترمذي: ٥/ ٢٠٢، ٢٠٣، والمسند: ٤/ ٣٧٨، والجملة الأخيرة من سياق المسند.

(٣) في كتابه « الرسالة »: ص٧٨.

اللَّه - تعالى - يمتنُّ بجلائل النعم، فكان مما تدل عليه الآية الكريمة أن اللَّه - تعالى - أنطق نبيه بالرائع من البيان، وخصَّه بالمثل الأعلى في فصاحة اللسان.

وأيضًا فإن الآية قالت: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾، وفي هذا تسجيل لتفضُّله - تعالى - على نبيه بأن علَّمه ما لم يكن يعلم، وأن فضله عليه عظيم، وذلك لا بد أن يفيض على نبيه بقدرة فنية لا تكون لغيره، خصوصًا أنه اختير من أمة لا منزلة عندها لِعَيٍّ مهما كان عنده من مال وبنين، فلا يوصف فضله أنه عظيم إلا أن يكون قد شمله في هذا الفضل قدرةُ التعبير ووضعُ الأفكار في موضعها، ومناسبة المقام مما هو من أهم عناصر البلاغة.

الأمر الثاني في الدلالة على ما قلناه، دلالة الواقع الشاهد من حاله: ذلك أن من المعلوم الثابت لدى العلماء أن النبي ﷺ لم يكن قبل النبوة مشهورًا بين قومه بالفصاحة والبلاغة، ولم يكن آخذًا بسلوك طريقة قومه من إنشاء الشعر وإلقاء الخطب ومغالبة البلغاء في الأسواق والمجامع، ولا كان معدودًا قبل النبوة في بلغاء القوم بالشعر والخطابة، وإنما كان مشهورًا بالأمانة والفضيلة والصدق، وكل هذا تمهيد لتصديقه فيما يبلغه عن ربِّه ﷻ.

وهكذا اجتمع له ﷺ عوامل البيئة الأفصح، والمؤثرات الجيدة في تكوين لغته وأسلوبه، وهدوئه وصفائه، متوّجة كلها بالعناية الإلهية، وبالتعليم والتثبيت الإلهي؛ ليفيض بيانه بأعذب فن أدبي بشري، وأعمقه تأثيرًا، وأكثره فصاحة، وليُخَلِّدَ التاريخ أقواله، وتعم الشرق والغرب، بما في أسلوبها من سُمُوٍّ الفصاحة والبلاغة، ولما في معانيها ومدلولاتها من جوامع الكلم وبدائع العلوم والحكم وعظيم الأحكام، وعالي القيم.

* * *
* *
*

الخاتمة

١ - الحديث النبوي ظاهر الاستقلال الفني في مجموعه عن كلام الأدباء والفصحاء، لما يلحظ سامعه أو قارئه من استقلاله عنهم بظواهر تتضح منذ الوهلة الأولى، مثل قصر الأحاديث والنفس الهادئ البادي عليها، مع سهولة الألفاظ وبعدها عن التكلف والتعقيد، مما يسهل بلوغه قلب المتلقي، ومن هنا فإنه يتلاءم مع مستوى المتلقي، ومع صلاحية الكلام وشموله كل إنسان، ويبلغ البيان النبوي غاية الروعة باستعمال ما يسمى عند العصريين بالوسائل الإيمائية وهي حركة بدنية تلائم المعنى المراد. أو ما يسمى وسائل الإيضاح، حتى تصبح لليد قدرة بيانية وفصاحة بإشارتها أو حركتها المناسبة للمعنى، ويأتي البيان النبوي مع هذا بوسائل التشويق، كأسلوب التساؤل والحوار، وربما الإغراب في اللفظ. وبأساليب ما يدخل ضمن الانزياح كما يطلق العصريون. وكل ذلك يوصل مضامين الحديث إلى القلوب داخلة الآذان بغير استئذان.

٢ - يتميز فن الحديث النبوي في بنائه، بترابط جُمَله وتشابك فقراته بفنون كثيرة في غاية القوة والجمال، مثل التوازن أي: التناغم والتوازي وهو متمم للتوازن بتساوي حجم الجمل أو تقاربها. وبوحدة افتتاح المقاطع ثم « التنوع » وبأنواع الترابط التوالدي أو التعارضي أو الدائري المغلق، وغير ذلك من فنون التصعيد والتكثيف المتبوع بالتبسيط أو الإجمال ثم التفصيل، مما يجعل المتلقي مشدودًا إلى الحديث حتى يبلغ غايته.

٣ - للبيان النبوي ميزات أشعت بالتأثير في فنه البياني، أولها سمة الإبلاغ وهداية الخلق إلى الحق. أو ما عبر عنه الحديث بالإبلاغ « ألا هل بلغت »، فهذه الغاية ملازمة له، ولهذا كان طابع الإلقاء للحديث هو العفوية والبداهة، ليس فيه تكلُّف ولا تَعَمُّل، ويزيدك عجبًا أن يخاطب كل قوم بلغتهم، بغاية الموضوعية والتجرد عن الأشخاص، ثم تجده مع هذه العفوية والموضوعية يضع مفردات وتراكيب جديدة في قمة الروعة، وفي ظروف صعبة كقوله في حرب حنين: « **هذا حين حمي الوطيس** ».

وقد تمدح النبي ﷺ أنه أوتي جوامع الكلم، وقد بلغ من جوامعه أن يعبر بالقليل من الكلم عن نصف الإسلام أو ثلثه أو ربعه، مع الوضوح والبعد عن الغموض والإبهام، ثم

تجده ملائمًا ذوق المتلقي في كل عصر وزمان، ولا عجب فهو نبوة لا تنقضي، سواء في ذلك أساليبه أو تناغمه، أو مواد تشبيهاته واستعاراته ومجازاته وبيانه.

٤ - اختصَّ الحديث النبوي بأغراضه الموضوعية، فإنه يتميز عما جاء به الأدباء في عامة الأمم، فالمرأة مثلًا يعرض لها كإنسان أسوة بالرجل، لا يفضل عليها ولا تفضله إلا بالتقوى، ويقرر لها حقوقها وواجباتها التي تجعلها صانعة لمجتمعها، كذلك الشأن في الأغراض الأخرى في الأدب كالمدح والذم والفخر نحا فيها البيان النبوي نحو الدعوة إلى اللَّه، والاحتكام إلى شرع الإسلام.

أما ما سوى ذلك وهو معظم الأغراض في الحديث النبوي فهي جديدة على الأدب العربي بل على آداب الدنيا، وقد صُنِّفَتْ كتب كثيرة في الحديث على الموضوعات، فجاءت عناوينها العامة التي تحمل اسم كتاب تزيد على العشرات، مثل كتاب الإيمان، كتاب العلم، كتاب الطهارة، كتاب البيوع، كتاب الفضائل، وغير ذلك مما يشمل كل جوانب الحياة والفكر.

٥ - وَجَدَّتْ عوامل أثَّرت في قوة البيان النبوي أَجَلُّهَا عوامل العناية الإلهية، كان لها الأثر العميق في رفعة بيانه، منها ما تميز به من الخلق العظيم الذي هو من دلائل نبوته، ومنها طبيعة الإسلام الذي بعث به يدعو الخلق إليه، وأساسه التوحيد الخالص، السالم من أي شائبة من شوائب الشرك، ثم يسر التشريع والأحكام، والبعد عن العسر، ونزول القرآن الكريم على قلبه الشريف وتعليم اللَّه إياه، وقد مَنَّ اللَّه بذلك عليه: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

* * *
* *
*

فهرس أوائل الأحاديث

على ترتيب حروف المعجم

* * *
* *
*

فهرس الموضوعات الرئيسة

* * *
* *
*

فهرس العناوين التفصيلية

* * *
* *
*

فهرس معالم البيان النبوي

العنـوان | الصفحة

* * *
* *
*

السِّيرَةُ الذَّاتِيَّةُ لِلمُؤَلِّف

أ.د. نور الدين بن محمد بن حسن عتر.

- وُلِدَ في حلب عام (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م).

- أكمل دراسته الثانوية الشرعية بالمدرسة الخسروية بحلب وتخرج منها سنة (١٩٥٤م).

- التحق بكلية الشريعة جامعة الأزهر، وتخرج منها سنة (١٩٥٨م).

- أنهى مرحلة الماجستير، وحصل على الدكتوراه من شعبة التفسير والحديث بتقدير ممتاز سنة (١٩٦٤م) عن رسالته الموسومة بـ: (طريقة الترمذي في جامعه والموازنة بينه وبين الصحيحين)، والتي عدل عن عنوانها إلى: « الإمام الترمذي والموازنة بين جامعه والصحيحين ».

- كان أول تدريسه بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة (١٩٦٥م) إلى سنة (١٩٦٧م).

- رجع إلى سورية، ودرَّس بكلية الشريعة في جامعة دمشق في سنة (١٩٦٧م) وإلى الآن، ودرَّس بغيرها من الكليات الشرعية كمعهد الفتح الإسلامي ومجمع الشيخ أحمد كفتارو.

- عمل خبيرًا لتقويم مناهج الدراسات الجامعية الأولى والدراسات العليا في كليات الشريعة لعدد من كلياتها في جامعات الدول العربية في الكويت وجامعة الشارقة وغيرها من الكليات والجامعات.

- كما عمل خبيرًا معتمدًا ومحكِّمًا لتقويم الأبحاث العلمية والمؤلفات الحديثية لدى خمس عشرة جامعة ومؤسسة علمية في عدد من الدول.

- أشرف وناقش عددًا كثيرًا من الرسائل العلمية الماجستير والدكتوراه في عدد من الجامعات، منها: جامعات دمشق، وحلب، والأوزاعي بلبنان، وأم القرى بمكة المكرمة، وكلية الشريعة بجامعة الشارقة وغيرها من الجامعات.

كتب للمؤلف

في التأليف العلمي المتخصص:

١ - الإمام الترمذي والموازنة بين جامعه وبين الصحيحين (الطبعة الرابعة).

٢ – منهج النقد في علوم الحديث (الطبعة الخامسة – منقحة).

٣ – معجم المصطلحات الحديثية.

٤ – تصدير معجم المصنفات في الدراسات الحديثية.

٥ – هَدْي النبي ﷺ في الصلوات الخاصة (طبعة رابعة موسعة جدًّا).

٦ – دراسات تطبيقية في الحديث النبوي (الكتاب الأول)، (العبادات)، (الطبعة السابعة).

٧ – دراسات تطبيقية في الحديث النبوي (الكتاب الثاني)، (المعاملات)، (الطبعة السابعة).

٨ – دراسات منهجية في الحديث النبوي (الأسرة والمجتمع)، (الطبعة الرابعة).

٩ – النكاح في سنن النسائي والأدب في سنن الترمذي (الطبعة الرابعة).

١٠ – الحج والعمرة في الفقه الإسلامي (موضح بالمصورات الجغرافية والمخططات الملونة)، (الطبعة الخامسة).

١١ – في تفسير القرآن الكريم وأسلوبه المعجز علميًّا وبيانيًّا (الطبعة الحادية عشرة)، (الثانية: معدلة وموسعة).

١٢ – علوم القرآن الكريم (الطبعة السابعة – موسعة).

١٣ – الإحرام (بحث خاص لموسوعة الفقه الإسلامي في الكويت).

١٤ – الإحصار (بحث خاص لموسوعة الفقه الإسلامي في الكويت).

١٥ – الحج (بحث خاص للموسوعة الكويتية).

١٦ – خروج النظم المصرفية عن أحكام الشريعة الإسلامية وطرق علاجها (خاص بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية).

١٧ – المسانيد ومكانتها في علم الحديث.

١٨ – أصول الجرح والتعديل وعلم الرجال (الطبعة الثالثة – معدلة ومنقحة ومزيدة زيادات مهمة).

١٩ – خبر الواحد الصحيح وأثره في العقيدة والعمل.

٢٠ - القرآن الكريم والدراسات الأدبية (الطبعة الرابعة).

٢١ - أحكام القرآن في سورة البقرة (الطبعة الرابعة).

٢٢ - أحكام القرآن في سورة النساء (من محاضرات الدراسات العليا في التفسير التحليلي).

٢٣ - آيات الأحكام: تفسير واستنباط (الطبعة الأولى).

٢٤ - إعلام الأنام شرح بلوغ المرام من أحاديث الأحكام للحافظ ابن حجر (الطهارة والصلاة)، (الطبعة الثامنة، الأولى الموسعة).

٢٥ - إعلام الأنام شرح بلوغ المرام من أحاديث الأحكام (تتمة الصلاة - اللباس - الزكاة - الصوم - الحج - البيوع)، (الطبعة السابعة، الأولى الموسعة).

٢٦ - إعلام الأنام شرح بلوغ المرام من أحاديث الأحكام (المعاملات - الأسرة)، (الطبعة السابعة، الأولى الموسعة).

٢٧ - إعلام الأنام شرح بلوغ المرام من أحاديث الأحكام (العقوبات - المجتمع - الجامع)، (الطبعة السابعة، الأولى الموسعة).

٢٨ - مع الروائع والبدائع في البيان النبوي.

٢٩ - مناهج المحدثين العامة (في الرواية والتصنيف).

٣٠ - لمحات موجزة في أصول علم العلل.

في تحقيق المخطوطات:

١ - علوم الحديث للإمام ابن الصلاح الشهرزوري، (طبعة سادسة بتحقيق جديد وتعليقات موسعة).

٢ - المغني في الضعفاء للإمام شمس الدين الذهبي، (طبعة مدققة بتحقيق جديد وتعليقات معدلة وموسعة).

٣ - الرحلة في طلب الحديث، للإمام الحافظ أبي بكر الخطيب، (الطبعة الرابعة)، وهو كتاب فريد يتحدث عن الرحلة في طلب الحديث الواحد.

٤ - شرح علل الترمذي للحافظ ابن رجب الحنبلي، (الطبعة الرابعة)، (والأولى بمقابلة جديدة على الأصل، وتصحيح مهم لأخطاء الطباعة وتعديل جوهري للتعليقات).

٥ - إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق ﷺ للإمام النووي، (الطبعة الرابعة).

٦ - نزهة النظر شرح نخبة الفكر للحافظ ابن حجر (الطبعة الثالثة بمقابلة جديدة، وتعديلات مهمة في التعليق).

٧ - هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك، للإمام المحدث الحافظ المجتهد عز الدين بن جماعة الكناني.

بحوث علمية ودراسات ثقافية:

١ - المعاملات المصرفية والربوية وعلاجها في الإسلام (الطبعة الثامنة).

٢ - أبغض الحلال (الطبعة السادسة).

٣ - أسس الدعوة وأخلاق الدعاة (طبع الآلة الكاتبة).

٤ - تفسير سورة الفاتحة في ضوء السنة النبوية وعلوم البلاغة واللغة العربية.

٥ - جوامع الإسلام في أحاديث سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام.

٦ - ماذا عن المرأة (الطبعة السابعة).

٧ - السنة المطهرة والتحديات (الطبعة الثالثة).

٨ - فِكر المسلم وتحديات الألف الثالثة.

٩ - كيف تتوجه إلى القرآن؟

١٠ - تعلم كيف تحج وتعتمر (الطبعة الرابعة)، فيها تعديل مهم.

١١ - النفحات العطرية من سيرة خير البرية ﷺ.

١٢ - فضل الحديث النبوي الشريف وجهود الأمة في حفظه.

١٣ - الاتجاهات العامة للاجتهاد.

١٤ - ما هو الحج الأكبر.

١٥ - الملامح الفنية في الحديث النبوي.

١٦ - اتباع الرسول ﷺ من الإيمان.

١٧ - علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن وكشف إعجازه.

١٨ - فقه الإمام البخاري في جامعه الصحيح.

١٩ - حب الرسول ﷺ من الإيمان.

٢٠ - جمع القرآن الكريم وتوثيقه في عهد النبي ﷺ.

٢١ - كيف تتوجه إلى العلوم والقرآن الكريم مصدرها.

٢٢ - الدعوة والداعية إلى الإسلام.

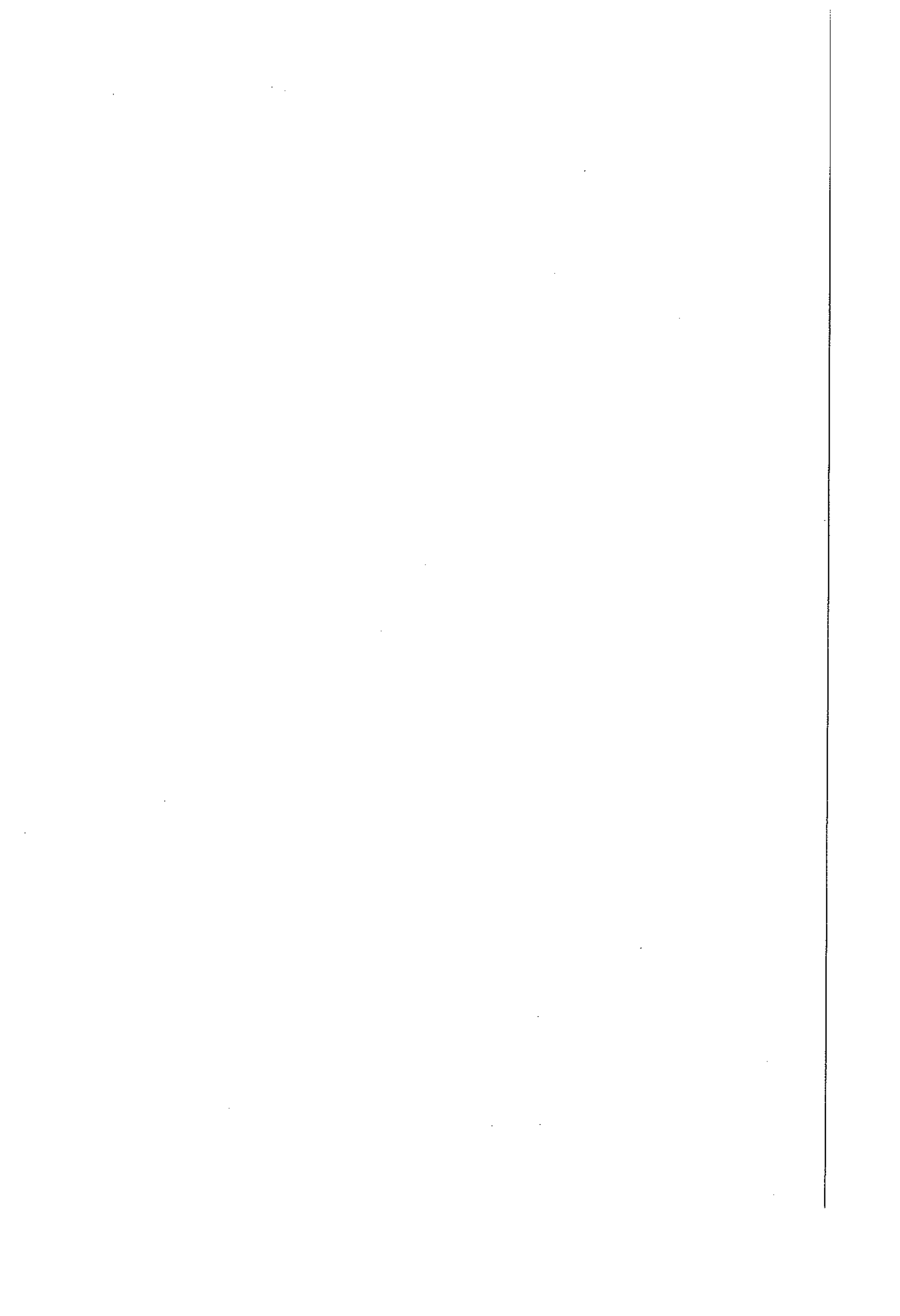
* * *
* *
*

رقم الإيداع

٢٠١٣/٧١٩٧

الترقيم الدولي **I.S.B.N**

978 - 977 - 717 - 072 - 7



(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « في ظلال الحديث النبوي ومعالم البيان النبوي »

ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًا إلى الأمام .

*** فهيًا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملاً : .... **الوظيفة :** ....

المؤهل الدراسي : .... **السن :** .... **الدولة :** ....

المدينة : .... **حي :** .... **شارع :** .... **ص.ب :** ....

هاتف : ☐☐☐☐☐☐☐☐ / ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ : e-mail

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة : .... العنوان : ....

- ما رأيك في الكتاب ؟

☐ ممتاز ☐ جيد ☐ عادي (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟ ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) .... العملة ....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة ... فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

....

....

....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسة منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

(من أجل تواصل بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم :

نشكرك على اقتنائك كتابنا هذا ، الذي بذلنا فيه جهدًا نحسبه ممتازًا ، كي نخرجه على الصورة التي نرضاها لكتبنا ، فدائمًا نحاول جهدنا في إخراج كتبنا بنهج دقيق متقن ، وفي مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة على ثلاث مراجعات قبل دفعه للطباعة ، ويشاء العلي القدير الكامل أن يثبت للإنسان عجزه وضعفه أمام قدرته مهما أوتي الإنسان من العلم والخبرة والدقة تصديقًا لقوله تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٢٨)

فأخي العزيز إن ظهر لك خطأ طباعي أثناء قراءتك للكتاب فلا تتوان في أن تسجله في هذا النموذج وترسله لنا فنتداركه في الطبعات اللاحقة ، وبهذا تكون قد شاركت معنا بجهد مشكور يتضافر مع جهدنا جميعًا في سيرنا نحو الأفضل .

الخطأ	رقم الصفحة	السطر

شاكرين لكم حسن تعاونكم . . ،

(من أجل تواصل بنّاء بين الناشر والقارئ)